



أكتوبر 2016

415

راوي مراكش



رواية

تأليف: جويديب روي - باتاجاريا
ترجمة: علي عبدالأمير صالح
مراجعة: د. أحمد البكري

رَاوِي مَرَّاكِش
رواية

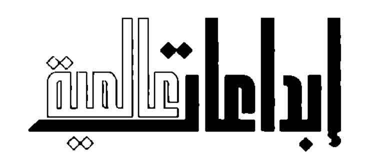


الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م
إبداعات عالمية - العدد 415

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

رَاوِي مَرَّاكِش



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-525-9



رَاوِي مَرَّاكِش

رواية

تــألــيــف: جويديب روي ـ باتاجاريا

تــرجــمــة: علي عبدالأمير صالح

مــراجــعــة: د.أحمد البكري

المقدمة

لهذه الرواية وجوه عدة؛ أولا هي رواية عن راوي يُدعى «حسن» يكسب رزقه من خلال سرد القصص في «ساحة جامع الفناء» ذائعة الصيت، وهو مكان للتبضع وساحة في مراكش لها حياتها الخاصة بها. والد حسن هو أيضا راوي قصص، وقد ورث هذه المهنة من أسرته. حسن له شقيقان، أحمد وهو رجل أعمال؛ ومصطفى الشاب الرومانسي، الحالم، والمشاكس الذي يريك بسلوكه وملاحظاته الأشخاص الأكبر سنا. وخلال صفحات الرواية يسرد لنا حسن قصة أجنبيين (رجل وامرأة) غابا عن الأنظار في ليلة من الليالي. ويثير اختفاؤهما سلسلة من التساؤلات والتكهنات: هل تم خطفهما أم أنهما لاذا بالفرار؟ هل كانا ساذجين متهورين، حينما كانا يتجولان بين مدّخني الحشيشة وقارعي طبول منتصف الليل؟ أم أنهما كانا يبحثان عن نوع ما من الهرب والنسيان الشخصيين؟

كما أنها رواية عن «ساحة جامع الفناء» نفسها. هذا المكان سحري وله حياته الخاصة به، إذ يجتمع فيه بائعو البرتقال الجوالون، ممارسو الألعاب البهلوانية، قارعو الطبول، قارئات الطالع، بناة الأجسام، رجال من قبائل «الطوارق»، التجار البربر، وموسيقيو (الغناوة)، وشرائح أخرى متنوعة من المجتمع المغربي؛ كل واحد من هؤلاء يسرد نسخته من حادثة اختفاء المرأة الأمريكية – الفرنسية، ذات الجمال الباهر، ورفيقها الهندي الملتحي، ذي السلوك الغامض.

تالياً، إنها رواية عن الذاكرة، حيث إن هذا الكتاب مدون بأسلوب ما بعد الحداثة، يستخدم الخصائص الأدبية مثل تعدد

الرواة، تعدد وجهات النظر، وما بعد السرد «الميتافيكشن» (هناك قصص مدفونة في داخل قصص، في الواقع، عنوان الرواية نفسه يكشف ذلك، طالما أن الرواية هي قصة عن راوي قصص، يسرد لنا قصة داخل قصة).

وقد لفت انتباهنا أن الرواة يناقض أحدهم الآخر فيما يروونه عن الأجنبيَّين وما جرى لهما في ليلة اختفائهما. يروي لنا أحدهم ملاحظاته عنهما وكيف تصرّفا خلال حضوره، ويأتي راوٍ آخر فيزعم أن ما سرده الراوي السابق محض تلفيق أو فبركة لا غير.

وهي، أخيرا، رواية عن الحب. نعم، ربما يخفي العنوان هذا الأمر، إنما في نهاية الأمر، إنها قصة عن أقوى تجليات الحب، طالما أنه يتضمن التضحية بالذات.

سنويا، يجمع حسن المستمعين في ساحة مراكش الخرافية لكي يتقاسم معهم ذكرياتهم عن ليلة اختفاء الأجنبيَّين قبل سنوات عدة في محاولة منه لفهم حقيقة ما جرى، ولكي يصفح عن أخيه الأصغر مصطفى، الذي أُودع السجن عن جريمة لم يرتكبها. ولأنه مقتنع ببراءة أخيه على الرغم من عدم رضاه عن طرائق مصطفى الذي عُرف بانغماسه في الملذات، يحاول حسن وبتصميم وعزيمة البحث عن الحقيقة. وبما أن مستمعيه كانوا يقدمون شهادات متناقضة، وتفاصيل تزيح أو تذيب ضباب الذاكرة، يتخذ الأجنبيان مظهرا غامضا كقدرهما، ويدفعاننا إلى أن نتساءل ما إذا أفلح حسن في مسعاه أم أنه هو نفسه، بصورة مزعجة، جزء من القصة البوليسية.

إن القصة التي يرويها حسن، ببساطة، ليستْ وصفا لجريمة. إنه يبغي أن يضايقنا بسلاسل متنوعة من الإشاعات، ويجعل مستمعيه ينتظرونه حتى ساعة متأخرة من الليل. يشير حسن قائلا: «ربما خيط وحيد يفصلنا عن الحقيقة، أو ربما بون شاسع، لكننا سنتيقن من ذلك فقط حينما ننظر إلى النسيج بأكمله». وعندما يتقدّم الليل يتضح أن الحقيقة نفسها أصبحتْ شائكة ومعقدة، وأن خيوطها المجدولة كانت تنحل بشكل متزايد من قبل المستمعين أنفسهم.

تقول خديجة قارئة الطالع وهي تخاطب أحد الرواة - المستمعين قائلة: «إنك تكسب رزقك هنا، إنما من خلال وصفك يتضح أنك لا تعرف أول شيء يتعلق بمكان عملك. الآن أصغِ إلى كلماتي جيدا. ساحة الجامع هي أختنا وأمنا؛ إنها تلبي احتياجاتنا وتتولى العناية بنا؛ إنها مصدر رزقنا وإذا ما وصفناها بشكل آخر فإننا نقلل من شأنها. عليك أن تعتاد على أوجهها الكثيرة. ففي بعض الأحيان تكون شابة، وفي أحيان أخرى مسنة؛ تارة مليئة بالحيوية، وطورا متعبة. وحتى في أسوأ حالاتها لا تكون خطيرة؛ هي ذات نزوات، ونزواتها وتقلباتها تعكس الحالات التي يمر بها مجتمعنا. لكنها في أحسن حالاتها، تكون مليئة بالفرح والسعادة والاحتفال، والناس يتقاطرون عليها لأنهم يسعون إلى مشاطرتها بهجتها. إن جوها المحموم - وهو ناجم عن انصهار عناصر كثيرة - هو خلق لرغباتنا نحن. نحن جميعا لدينا نصيب في تشكيل سحرها، وفي هذا السحر تكمن حياتها. إنه يتشبث بك ولا يدعك وشأنك، وإن حيويته وعواطفه آسرة. كل شيء ينشأ، ينسجم، ويقع في أشكال معينة هنا، ويولد الجمال.

بهذه الطريقة تغيّرك ساحة الجامع، إنها تعيد صياغتك وتهبك صورتها هي. عليك أن تنظر إليها بعينَي طفل، وحينها ستجد نفسك قد تحولت. إنها مسألة روح – هل تفهم؟ - بقدر تعلق الأمر بالحواس. الساحة رمز، نقطة لقاء جميع الأقوام الذين مروا بها ويواصلون المجيء من خلال هذا الجزء من العالم. إنها مغربية، صحراوية، متوسطية، عربية، بربرية. رياحها تشتمل على الرواغ[1]، الخماسين، السموم، اللفيج[2]، الزفير. الموسيقي التي تنتج عن ذلك تحمل في طياتها جميع تلك الألحان. أصغِ إلى تلك الموسيقى: إنها فسيفساء تلك التعشيقات الأفريقية، الشرق أوسطية، اليهودية، الأندلسية، الموضوعات المعاصرة وتلك الخاصة بالعصور الوسطى. إن رقصت على موسيقاها فسوف تتعلّم أشياء كثيرة عن نفسك. حينما تكون هنا، تسبح القرون معا، وتكون أنت ما وراء الزمن. عندما تكون هنا، تعلن الثقافات تشكيلة أنسجتها المتجانسة، وسترتفع أنت بعيدا عن أصولك. ذلك هو سحر ساحة الجامع. إنها الكون المصغر لبلدنا المغرب. لكنها كذلك أكثر من مجرد مكان للقاء، وإذا ما حدث أن صادفتها في ساعات الصباح الباكرة، عندما يحط أول شعاع من أشعة الشمس على جلدها، فستجد أنها قادرة على أن تضفي إحساسا بالهدوء والسكينة من الصعب أن تجده في أي مكان آخر في الكون. السعادة تصطبغ بمسحة من الكآبة، وهذا نوع نادر جدا من السعادة؛ هنا يكمن سر غموضها».

---

(1) الرواغ: الريح باللغة العبرية.

(2) اللفيج: ريح جافة تهب من الصحراء الكبرى وتتجه صوب إسبانيا، تسمى أيضاً (سيروكو) في الاجزاء الأخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط.

ومـن خـلال روايته هـذه، يمكننـا أن نستكشـف أن المؤلف روي - باتاجاريـا يتمتـع بثقافـة موسـوعية، وحـس إنسـاني عميق؛ وأسـلوبه السـردي متين، ولغته سلسـة ورشـيقة، وعمله الروائي هـذا زاخـر بالأوهام والمخـاوف والفن والخيال الخلاق والمشـاعر المختلطة والاسـتعارات والرموز، ويتجسد فيه الترقب والانتظار مما يجعلك تلهث لمعرفة ما سيحصل لاحقا.

اسـتوحى الكاتـب وقائع روايته هـذه من خلال زيـارة قام بها للمغرب، لكنه غاص عميقا في طبيعة القيم والسلوكيات والأفراح وأنـواع الملابس والمأكولات وطرق التحـاور بين الناس. ودعم ذلك كلـه بتأمـلات عميقـة في ماهيـة الحـب، والجمـال، والحقيقة، والحريـة، ومعلومات وافية عن تاريـخ وجغرافيا المغرب، ولهجات أبنائه من عرب وبربر وطوارق، من مسلمين ويهود، ينحدرون من المـدن والريف والجبال والصحـارى والموانئ. كما منحنا الفرصة للاطـلاع علـى نوعية الذائقـة الجمالية واللغوية لهذا الشـعب، وتحسُّسـنا لطبيعة مشـاعره وهواجسـه وأحلامه، وصيغ تعبيره عـن ردود أفعاله وتصويـره رؤيته لذاته ولأرضه وللآخر، وقدَم لنا صورة واسعة عن الأفكار وطبيعة العلاقات الإنسانية، ووصف لنا تفاصيل الهموم اليومية والمناخ العام السائد في مراكش والمغرب عموما.

ونحـن لا نجانـب الواقع إذا ما قلنا إن هذا الأثر الأدبي يعيد إلـى أذهاننا كتـاب «ألف ليلـة وليلة»، حيث كل قصـة تولّد قصة أخـرى في نسـيج روائـي متشـابك وأحـداث متلاحقـة لا يملّها القارئ، لا بل ينتظرها بشوق وشغف؛ هذه القصص يسردها رواة كثيرون من شـرائح اجتماعية وأصول عرقية مختلفة تعيش في

مناطق شتى من المغرب، لكنها تعيش في مراكش طلبا للرزق ولقمة العيش، وهذا الأمر عينُه فعله الكاتب التركي أورهان باموق، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2006، في روايته «اسمي أحمر» من حيث تعدد الرواة واختلاف وجهات النظر.

* * *

ملاحظة: وضع المؤلف في نهاية كتابه ملحقا يوضح فيه معاني بعض الكلمات العربية والمغربية العامية، إضافة إلى بعض المعلومات التاريخية والجغرافية والفنية والموسيقية والمعمارية وما يخص الألبسة والمصنوعات المحلية والأطعمة والآلات الموسيقية وأطوار الغناء والرقص واللهجات المحلية وما إلى ذلك، كانت مفيدة لنا في ترجمة هذا الكتاب، وآثرنا وضعها في الأمكنة التي وردَتْ فيها، وأشرنا إليها بكلمتي: (هامش المؤلف).

المترجم

إهداء المؤلف

إلى نيكول أراغيٍ وألين ساليرنو ماسون
تعبيراً عن الامتنان

مراكش
المكان: «جامع الفناء»
الوقت: مساء

ما يهمُّ في النهاية هو الحقيقة[1].

ومع ذلك، حين أفكّر في الحدث الذي وضع حدا فاصلا لنهاية شبابي، يمكنني أن أصل إلى استنتاج واحد؛ هو أنه ليست هناك حقيقة.

ربما ثمة سبب لأن نصدّق الفيلسوف الذي أدرك، لخيبة أمله، أن الحقيقة هي على وجه الدقة تلك التي تتحوّل في اللحظة التي تظهر فيها، وبذلك تغدو (أي الحقيقة) مجرد رأي واحد من الآراء الكثيرة المحتمَلة، عرضة للنقاش، وللخلاف، وللجدل، وإنما أيضا، وبصورة محتومة، عُرضة للإرباك.

وبتعبير آخر، ليس ثمة حقيقة.

وإذا استخدمنا كلمات أخرى، الحقيقة هي تلك التي تناقض نفسها بصورة لا مناص منها.

---

(1) «مـا يهم هو الحقيقة»: اقتباس من رواية (ليلـة القدر) للطاهر بن جلون، أُجري عليه بعض التعديل في النص الروائي الحالي - المؤلف.

أغلب الظن هذا هو ما تؤيده قصتي في نهاية الأمر، وربما يفسر ذلك لماذا أقدم إليكم، بدلا من الحقيقة، عزاء أكبر؛ أُقدِّم لكم حلما.

مساء الخير، اسمحوا لي أن أقدّم نفسي، اسمي حسن، أنا راوي قصص، ملك مملكة أوسع مما تتصورون، تلك هي مملكة الخيال. ذاكرتي لم تعدْ كما كانت من قبل، إنما إذا استطعنا أن نختار ثمنا ديمقراطيا، فسأروي لكم حكاية أتعهّد بأنكم لم تسمعوا نظيرا لها من قبل. إنها قصة حب، شأنها شأن جميع القصص الممتازة، لكنها أيضا قصة تتسم بالغموض، لأنها تتعلق باختفاء أحد العاشقين أو الآخر أو ربما كليهما أو لا أحدَ منهما. وقعت تلك الحادثة قبل سنتين خلَتَا، أو ربما وقعتْ قبل خمسة أعوام أو خمسة وعشرين عاما. هذه التفاصيل لا أهمية لها. كان الغبار الورديّ معلقا في الهواء ذلك المساء كما هو شأنه في هذه الليلة، كما كان الضوء المنبعث من أكشاك البهارات والفواكه يطرح أطيافا متوهجة كأشباح الصحراء، وكان القرع المتواصل للطبول يعلو وينخفض كالأجساد في الرمال، وفي النهاية، فإن الوقائع التي أحاطتْ بالعاشقين جعلت مدينة أسطورية بكاملها تصل إلى مرحلةٍ وجب فيها أن تتوقف، وحوّلتْ إلى الأبد شخصية ملتقاها الشهير جامع الفناء، ولعل ساحة المدينة هذه هي الساحة الأكثر غموضا في العالمِ، والأكثر اكتنازا بالرسوم التاريخية.

دعوني أُعِد القول: إن حقيقة قصتي هذه لا تهم على الإطلاق، مثلما هي مسألة أن من غاب عن الأنظار هو الرجل أو هي المرأة أو كلاهما، أو لم يغبْ أي منهما. ما يهم في نهاية الأمر

هــو الحيــاة، تنفُس الهــواء، مقاومة الأمواج، حركـة الرمال على الكثبان والأمواج المتكسّـرة على الشاطئ، فكل حبة رمل هي مرآة للأحاسيس المتصارعة.

أي لغة تتحدث بها أيها الغريب؟ الإنكليزية؟ حسـنا، سأبذل قصـارى جهـدي، مع أن لغتي الفرنسـية أفضل، كمـا أن العربية سـتكون هي الأسـهل لي بطبيعة الحال. قلْ لي من أي بلدٍ أنت؟ مـن مكانٍ قصـي؟ فهمتُ، لا بأس، هنا في سـاحة الجامع جميع النـاس غربـاء، لا أعنـي أنني لسـت فضوليا، لكن هـذه مقدّمات أولية، ضرورية لوضع أسس للتفاهم. اجلسْ من فضلك، وانضمْ إلـى حلقتـي مـن المسـتمعين. قـد تبـدو الأرض صلبة فـي بادئ الأمر، لكنني سأنسـج لك سـجادة سـحرية من الكلمات سـرعان ما تأخذك بعيدا عن هذا المكان، اسمح لي أن أصب لك شيئا من شـاي النعناع كي تحتسيه أثناء سردي للقصص، لدينا تقاليدنا العريقة في حسـن الضيافة، هنالك أساليب معينة يلزم اتّباعها عندمـا تريد أن تنجز شـيئا مـا. إن لم أجعلك تشـعر بالارتياح، فكيـف يمكننـي أن أتوقع إصغائك لكلماتـي؟ فالقصة كالرقص، إنهـا تتطلب شـخصين علـى الأقل كـي نجعلها تدور، الشـخص الـذي يروي والشـخص الـذي يصغي. في بعـض الأحيان، تكون الأدوار معكوسـة، ويصبح المرسِـل هو المتلقي. كلانا نقوم بعملية التكلّـم، كلانـا نصغـي، وحتـى الصمت يصبـح مفعمـا بالمعاني، فالنسـيج المـزدان بالصـور والرسـوم يتشـكل من عـددٍ قليل من الكلمـات الاعتياديـة، فيوحـي بحلمٍ مـا، لكنه قريـب بما يكفي مـن الواقـع الذي عادة ما يظـل محيرا. إنه عمـل يتطلب الثقة المشتركة، والخيال المشترك. ما يهم هو ما إذا كنا نقدر أو لا نقدر

علـى أن يصـدق أحدنـا صوت الآخر، وسـيكمن اختبـار ذلك في القصـة التـي نصنعها معا، سـيكمن في تلك الحكايـات العائدة من الماضي والتي تسبح في الحاضر، ولعل ما لا نتذكره هو الذي سيشكل على وجه الدقة جوهر حكايتنا هذه، فيمنحها جوهرها من الحقيقة، ويحوّل الذكريات إلى أساطير.

غير أن هذه هي تأملات ترتحل على شكل دوائر من دون بداية ولا نهايـة، كالدخـان فـي الهواء، إنهـا صالحة لأن يمـر بها المرء بأناة وتمهل، أمسـيات يسـتبطن المرء فيها أفـكاره مع الأصدقاء فـي وادي أوريـكا الأخضـر الـذي يقع في جبـال أطلـس العليا، والـذي أنحـدر أنـا منـه أصلا، مـع أنني ربمـا أنحـدر كذلك من الصويرة ذات الجدران البيضاء الواقعة على السـاحل الأطلسي، أو مـن «الزاكـورة» المصطبغـة بلـون الرمـل، حيـث تتراجـع آخر قواعـد الجبال الصخرية أمام الباب الذهبي للصحراء الكبرى. هـذه أماكـن كلها غاية فـي الجمال، وقد أتيت منهـا بحكم آليات الحكايـة المميـزة التـي أنهمـك الآن في سـردها ووصـف نكهتها وخلفيتهـا.. وبحكـم ظروفهـا. إنهـا الطريقـة التي نضـع فيها علامتنـا المميـزة، كمـا تعلمـون، ونحـن ننظـر بعين إلـى الواقع ونثبّـت عيننا الأخرى علـى الفنتازيا. هذه الطريقة تسـاعد في توسـيع نطاق السـرد، طالما أنني لم أسـافرْ كثيرا، فأنا، بالتأكيد، لستُ على غرار الكثيرين منكم، ولا حتى مثل شقيقي مصطفى. إنما سـبقَ لـي أن حللتُ في الرباط والـدار البيضاء، وأرغب، ذات يـوم، فـي أن أزور أماكن نائية أخرى مثـل مكناس وفاس وطنجة؛ أسـماء أسـطورية، ومدن أسـطورية، لها تواريخ طويلة وشـهيرة، ومواقعها السـاحرة يُشـار إليها بالبنان. أمـا في الوقت الحاضر،

فإنني أقوم بهذه الرحلة إلى مراكش في كل شتاء كي أهرب من البرد القارس للمرتفعات، للصحراء، أو للبحر - بحسب المكان الذي يحتمل أن أكون فيه ذلك العام - ولكن أيضا لأنني مدفوع إلى تفهُّم حقيقة ما جرى في تلك الليلة، هنا في ساحة الجامع، حيث تفوح رائحة شيء مفقود في الهواء، وهذه الحالة كانت سائدة حتى قبل أن يتوارى فيها الغريبان عن الأنظار لأول وهلة، أو لآخر وهلة، كما نبيّن لاحقا.

ذلك أنني أفكر فيهما باستمرار، إنهما يلازمانني بلا انقطاع.

الجامع

حل الغسق مبكرا تلك الليلة، تحجّرَتِ الشّمسُ بالأفق في كتلة حمراء كثيفة، كما زادت السحب الداكنة المنخفضة من كثافة تلك الكتلة، وارتفعتْ عمدان لولبية من دخان الخشب من السقوف العنقودية للأسواق، ورنتْ نداءات المؤذنين في أرجاء الساحة. كانت قد حلت ساعة الصلاة، ساعة الوضوء، حيث يغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم في الأسواق، ويتوجهون إلى مساكنهم. ففي تلك الليلة قبل عامين أو ربما خمسة أو عشرة أعوام خلت، كما هي عليه الحال هذه الليلة. كان قد استقر بي المقام في الجانب الجنوبي الشرقي من الساحة، بالقرب من المكان الذي يفضي فيه شارع «مولاي إسماعيل» إلى ساحة الجامع، إلى ما وراء الدرجات الحجرية الوردية لمكتب البريد، إلى ما وراء المكان الذي يؤدي فيه راقصو «الشيلو» الصبيان عروضهم الجنسية الروتينية، ثم يقدمون أنفسهم للزبائن، فحركاتهم لا تدع مجالا للخيال. إنني أقول هذا ليس بوصفي إنسانا

متمسكا بمبادئ الفضيلة والأخلاق ولا لكوني ميالا للاحتشام المغالى فيه، إذ ليس من السهل أن يصدمني شيء، كما ينبغي لي أن أعترف أنه كان يتعين عليّ غالبا أن أشيح ببصري، حتى حين كنتُ أتحين فرصة الحشود التي تتجمع من حول الصبيان.

منذ وقائع تلك الليلة التي أروم التحدث بشأنها، على أي حال، لم أعدْ أجلس في موقعي القديم، ربما يرجع ذلك لكوني أؤمن بالخرافات، لكن الذكريات التي رافقت المكان أليمة جدا، ففي أيامنا هذه أستلقي على بساطي المنسوج في الناحية الأخرى من الساحة، بجانب أكشاك الحمضيات ذات الأضواء الساطعة القريبة من مركز الشرطة، فهذا الموقع يتيح لي أن أروي قصصي في سكينة وأمان حتى وإن كنت أُلقي نظرات حذرة على ما يجري من حولي من أحداث. في بعض الأوقات فإن رؤية سائحة شابة عادة، حتى مجرد لمحة من كتفها، أو ومضة من عينيها الداكنتين اللتين تعكسان القناديل الكبريتية، كانت كافية لاستعادة ذلك المساء المروّع، ولتشتيت ذهني. عندئذ يلزمني أن أندفع كي أسترجع خيوط حبال قصتي، وأتذكر الشيء الذي كنتُ منهمكا في سرده. بيد أن هذا لا يحدث إلا لماما، فأنا معروف جيدا بين رواة ساحة الجامع لكوني أروي قصصي بسهولة بالغة، كما أشتهر بقوتي الفائقة على السرد، وببراعة خيالي، وبوقفاتي القصيرة فقط حينما تكون هناك استفسارات من جانب الأطفال، أو على الأقل كانت هذه هي الطريقة التي أستخدمها دائما، وذلك قبل أن يتوارى الشخصان التعيسان عن الأنظار تماما، وبذلك بدّلا إلى غير رجعة مسار حياة أناس كثيرين، وليس فقط مسار حياتي أنا، مما أدى إلى العار الذي لحق بشقيقي العنيد مصطفى وإلى

إيداعه السجن. لكنني أسابق الأحداث، وربما كان ينبغي على أن أؤجل الأمر هنيهة بسبب الظهور السعيد لصديقي عزيز، الذي كان أول مَن شاهد الغريبين في تلك الليلة قبل أن يغامرا في دخول الظلام الفوضوي الذي يغمر الساحة.

الرياض

كان عزيز قد أحضر إبريقا من شاي النعناع وبضع كؤوس، وبينما كان يمررها علينا، اندفع سرب من الحمام فوق رؤوسنا صوب الناحية البعيدة من الساحة، حيث بدأت مجموعة من السائحين الذين يرتدون ثيابا زاهية الألوان تخرج من الأسواق. تقدمت الطيور للأمام بحركة سريعة من أجنحتها، ووقف عزيز يراقبها للحظة. بدا هواء الشفق مصطبغا بلون الورود وصافيا، وكان لا يزال بوسعك أن ترى الأشياء من خلال الظلام الذي أخذ يسود المكان. دخلت الحمائم في مدخنة في الجانب الآخر من الساحة وهروَلَتْ وراءها إحدى السائحات ضاحكة، شابة ذات شعر أشقر طويل. تابعها عزيز بعينين باسمتين؛ ومن ثم اتخذ لنفسه مجلسا في وسط حلقتين من المستمعين، وعلى حين غرة لاحظتُ أنه كان يرتدي نفس الجلباب الأخضر الزيتوني الذي كان يرتديه في ليلة الاختفاء. لقد حرّك فيّ ذلك الجلباب إحساسا جسديا غير متوقع كما لو أنني عدتُ إلى زمن مضى. ارتددتُ للوراء قليلا، ولا بد أن عزيزا لاحظ ذلك لأن نظرة قلقة لاحت على وجهه. كان قد لزم الصمت للحظة أطول مما يستوجبه السلوك الحسن، وحين بدأ الكلام، كان كلامه بصوت خفيض ينم عن الحزن والأسى، وحتى الندم.

ثم قال: أشكرك جزيل الشكر على دعوتك لي للتحدث يا حسن. وتوقف هنيهة عن الكلام، وعيناه الداكنتان تلمعان. ماذا تريدني أن أخبر مستمعيك؟ ربما يتعين عليّ أن أبدأ بكلمة عن نفسي؟ حسنا؟ جيد جدا، اسمي عزيز، أتيتُ من قرية صغيرة بالقرب من (العيون)، في غرب الصحراء الكبرى، أنا نادل في مطعم (رياض دار تمتمام)، الواقع في قلب المدينة، وفي الليلة التي كان حسن يتحدث عنها، كنت قد شارفتُ على نهاية يوم عملي.

توقف عن الكلام ثانية، وراح يفتش عن كلماتٍ مناسبة، كانت نظراته بعيدة وهو يبذل مجهودا كي يتذكر. لم أتدخلْ بل تركته يتمهل في كلامه، وأنا أدرك أهمية التدقيق. وبكلمات أرق من سابقاتها، مضى يقول: كان الوقت نحو السابعة مساء. كنتُ أعاني من صداع أصابني بسبب الحلم الغريب الذي رأيته في الليلة الماضية، حلم يتعلق بجدران من الرمل تتقدم نحو ساحة الجامع وتغرق كل شيء يقف في طريقها. كان حلما مروّعا، وأتذكر أنني تقاسمته معك، يا حسن، في محاولة مني لفهم مغزاه.

لم ينظرْ إليّ حينما تكلم، كانت عيناه نصف مغمضتين من أجل التركيز. وواصل حديثه، وهو يرتشف الشاي على مهل: كنتُ لا أزال أفكر في الحلم حينما دخل المطعم الغريبان قادمَين من الشارع، من جهة (سوق زرابيا)، حيث كانت تُقام هناك، في الماضي، مزادات لبيع العبيد قبل أفول الشمس. وحينما ترددا في الدخول وهما في عتبة المطعم، وهما يلقيان بظلهما الطويل خلفهما، تقدَّمْتُ مسرعا للأمام للترحيب بهما. وفي الحال شعرت أن ثمة

شيئا مختلفا قد انتابهما. كانت الفتاة غزالا، رشيقة القوام، صغيرة العظام، ذات عينين واسعتين داكنتين، وأقصر بكثير من رفيقها. كانت هي وحدها التي تكلمت، وصاحبت كلماتها إيماءات جميلة، ويبدو أنها كانت تتوقع تماما رغبات رفيقها. كان الفتى أكثر سمرة منها، وكانت بشرته بلون الظلال التي تترامى على الرمل. وقد ذكّرني هذا الفتى بنبيل عربي، فقد كان طويل القامة، ذا أطراف نحيفة وشعر أسود، وثمة شيء ما في هيئته المنتصبة يوحي بشيء غريب عن عالمنا. لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا فيما ندر، ولكن عندما فعلا ذلك، كانت عينا كل منهما قد تجمَّدَتَا على طلعة الآخر.

أخذ عزيز رشفة أخرى من الشاي بينما كنت ألقي نظرة على جمهورنا الذي أخذ عدده يزداد بسرعة. كانوا يجلسون هادئين ويقظين، وجوههم ساكنة يلوح عليها الاستغراق في التفكير. كان القمر قد بزغ توا، وكان الجو رائقا والضوء ساطعا، ورمى عزيز بطانيته وقوّم ظهره؛ كان من الجلي أن ثقته بنفسه قد ازدادت حينما تذكر التفاصيل الدقيقة.

تابع عزيز حديثه قائلا: طلب الغريبان مكانا هادئا، وبما أن المطعم كان مزدحما في الداخل، أرشدتهما إلى الفناء، حيث كانت هناك بعض الموائد المبعثرة وسط أشجار الحمضيات، وبعض شجيرات مزهرة. وقع اختيارهما على بقعة داكنة بشكل خاص في الزاوية، بدا أنهما كانا منجذبين للظلمة. جلبت لهما الماء، وحين تطلعا إليّ، لمعت عيونهما كالشموع. وقد أربكني ذلك الأمر، وحين طرح عليّ الشاب النحيف سؤالا، لم يكنْ باستطاعتي أن أنظر إليه مباشرة. فقد كانت عينا رفيقته تتسمان بنفس القدر

مـن فقـدان رباطـة الجأش، حيـث بدتـا وكأنهما تسـتقران عليّ وعلى شـيء آخر في الوقت عينـه. كان ذلك حين خطر في بالي، كنـوع من الهاجس الحذر، أن الموت قـد دخل (الرياض) في هيئة الشاب الوسيم والفتاة.

أحسسـتُ بالاضطـراب، ويـررتُ فعلتـي كونـي شـعرتُ بنوبة مفاجئـة مـن الإعياء وطلبـتُ من صديقي عبد الكـريم أن يلبي طلباتهما بدلا مني. وافق الأخير، وبخاصة أنهما يتميزان بشيء استثنائي. أخبرني عبد الكريم لاحقا أنه تذكر أنهما حتى حينما كانـا يتنـاولان الطعـام، بصـورة مفاجئة ومـن دون سـبب، ذبلت الأشـجار المزهـرة التي رحبتْ به قبل سـنوات عديـدة خلت حين قـدم إلـى مراكش أول مرة. كانت وداعـة الغريبين هي التي أثارته أكثـر، علـى خلاف التأثير الذي تركاه فيّ. ووجدتُ رباطة جأشـه مطمئنة، وحين فـرغ الاثنان من تناول الطعام، عدتُ لخدمتهما بنفسـي. طلبا شـاي النعناع الذي احتساه الشاب بظمأ، من دون أن يرفـع نظراتـه عن كأسـه، بينما كانت الفتاة تحـدق فيه برقّة وحنان بحيث جعلت نبضات قلبي تتسـارع. أطلقت ليلة الشـتاء نسـيما معتـدل البرودة. لم يكـنْ هناك زبائن آخـرون. عدتُ إلى مكانـي وتركتهمـا وحدهمـا مـع أفكارهما وسـط سـكون الفناء المضاء بالفوانيس.

تكلّـم عزيز بنبرة رتيبة، هادئة، مكبوتة وجعل الآن ينظر إليّ كمـا لـو كان يبتغي رضائـي عن حديثه كي يسترسـل فيه. أومأتُ برأسي، واستأنف عزيز حديثه، إنما بصوت أعلى ينم عن القلق:

كانت هذه هي الأفكار التي جالت في ذهني حينما شاهدتهما وهمـا يغـادران المطعم تلك الليلة. كانا قـد خرجا بنفس الهدوء

الـذي دخـلا به. كانـت الفتاة تمسـك بيده بينما كان هو يمشـي منتصـب القامـة كالحارس. كانت الشـوارع تتنفس الظلام الذي سرعان ما ابتلعهما. وتذكرت وقتها أنني رفعتُ بصري ناظرا إلى السـماء؛ كانـت الغيوم قد كوّنت حلقـة ثنائية حول القمر، الذي كان مصطبغا بلون أحمر مميز.

حين عدتُ إلى الفناء لأرفع الأطباق والكؤوس عن مائدتهما، وجـدتُ أن كأسـيهما باردتـين كالجليد، وقد تشـكلتْ كتلة مكثفة حـول حافـة كل منهما، مع أنني قدمتُ لهما شـايا يتصاعد منه البخار. جذبت انتباه عبد الكريم إلى هذه الحالة فاتسعت عيناه وهـو غير مصدق. ومن ثم أشـار بإصبعه إلى الثلج الذي يشـكل قشـرة حـول أوراق النعنـاع في قاع إبريق الشـاي، وهو أمر يتعذر تفسيره.

هز عزيز رأسه ببطء، ونظراته مثبتة على الأرض.

خرجـتُ إلى الشـارع كـي أدخن سـيجارة وأدخل الهـدوء إلى نفسـي. كان الليل قد استحال ضبابيا وباردا. وقد أوصدتْ أغلب الحوانيـت فـي الأسـواق أبوابهـا. لا يوجد سـوى عـدد قليل من أشـعة الضوء المنبعثة من الفوانيس، والتي كانت قد تسـللت إلى الظلال. جلسـتُ فـي رواق صغير فـي مدخل أحـد المباني، أرعى سـيجارتي وأحـاول أن أقنـع نفسـي بـأن هناك ببسـاطة أشـياء لا يمكن تفسيرها.

الحقيقة والأسلوب

تنهد عزيز، وتطلع إلى ما يحيط بالساحة كما لو كان يبحث عن مهربٍ من الذكريات. ثم حرك كتفيه بقلق، ناظرا إليّ بإمعان

على أمل أن أقدّم له تفسيرا ما. لكنني لم أنبسْ ببنت شفة. ماذا يمكنني أن أقول؟ كانت تجربته قد جرت بالتسلسل نفسه، مثل كل شيء آخر حدث في ذلك المساء.

تنهد عزيز من جديد. ومن دون أن يسعى إلى نقل تداعي الأفكار الكامنة وراء الكلمات، قال: إنني أعتقد أنه يوجد دوما احتمال بأن نقل الأخبار للآخرين سيساعدهم على الفهم.

سألته، فهم ماذا؟ فتورَّد هو بحمرة الخجل كما لو أنني طرحتُ بالمقابل سؤالا بليدا بشكل خاص. ثم قال: لماذا، ما الذي جرى لهما بالطبع؟

أحسستُ بضرورة طمأنته. لم أدركْ أن ذكرى لقائه بهما كانت مفعمة جدا بالشكوك. نهضتُ على قدميّ، مشيتُ نحوه، وعانقته. وقلت له بنبرة صوت مطمئنة: هذان الشابان التعيسان لم يكونا زائرين من العالم الآخر، يا صديقي عزيز، كانا مخلوقين آدميين بكل معنى الكلمة. وإذا أكدنا شيئا مخالفا لذلك فكأننا نفسح المجال لخرافة بعيدة عن الصحة، وهناك أصلا عدد كاف من تلك الخرافات المتعلقة بوقائع ذلك المساء.

هز عزيز رأسه وقال بحزن وأسى: ما تفشل في رؤيته، وما يحتمل أنني فشلتُ في نقله بصورة كافية، هو تلك الحيرة التي سبّبها لي هذان الغريبان. على العكس منك، لستُ معلّما من معلّمي الحياة؛ أنا رجل متواضع، نادل في مقهى، وإن إخلاصي المعتدل لعملي هو كل ما يمكن أن أقدّمه كي أضيفه إلى خبرتك في رواية القصص. حينما يحدث شيء لا تفسير له، فإن ذلك الشيء يخلعني من جذوري كالمركب الذي يتحرر من مراسيه.

فهمت، قلت له ذلك.

ألقى عليّ نظرة مكتئبة. هل تفهم، حقا؟ ربما تفهم. على أية حال، أنت أستاذ الذاكرة. والأدهى من ذلك، أنك تعرف ما يتصل بهذه الأشياء. ومع هذا، هل يستطيع أيٌّ منا فعلا أن يعرف ماذا يعني أن يكون المرء إنسانا في هذا اليوم وفي هذا العصر؟ هل بالإمكان معرفة ما هو الظلام الذي يسكن في قلب الإنسان؟ إنني أطرح هذه الأسئلة لأنه يبدو لي أن هناك أزمنة لا يكون فيها للحقيقة أي قيمة تُذكر، مع أنه بالطبع يستطيع المرء أن يستغني عنها. إنها هي التي تعني شيئا، هي التي تهم المرء حقا، وهي الشيء الذي أقيم له وزنا.

كنتُ واقفا بجواره؛ وتحركتُ الآن بعيدا عنه، وخاطبتُ حلقتي من المستمعين. لم أوجه كلامي إلى أي شخص بعينه من المجموعة، لكنّ نظراتي وقعتْ على كل واحد منهم بالترتيب بينما كانوا جالسين هناك متلفعين ببطانياتهم وحنابلهم[2]. استغرقتُ تماما في تأمل كل خط من خطوط وجوههم، متحدثا بروِيّة، وبنبرةٍ مطّردة وغير مترددة، قلت:

من المؤكد أنه يمكننا أن نعرف مجموعة العناصر التي يتكون منها الإنسان. خذوني أنا، على سبيل المثال، إنكم تعرفونني بوصفي حسن، راوي القصص، فهذه هي الصفة التي اخترتها لكي أقدّم لكم نفسي، أتيت من المرتفعات، وأنا هنا لكي أسلّيكم وأدخل البهجة على قلوبكم، لأن هذه هي مهنتي، كما أنها كانت مهنة أبي ومهنة أجداده من قبله. ومن حولي تنشر المدينة بضائعها - قصصها وحكاياتها الكثيرة - وأنا ألقي عليها نظرة شاملة كأنني أفعل ذلك من مكان

(2) حنابل: جمع حنبل، وهو بطانية أو بساط يلبسه البربر - هامش المؤلف.

مرتفع، وأقرر أيا من تلك القصص تستحق الرواية، وأيا منها يجب أن تظل في طي الكتمان، مودَعة، ربما لسبب صائب، في ظلام النسيان. لقد تجمعتم من حولي متوقعين أن خيالي لا يزال كما اعتاد أن يكون، بحيث يكون بوسعكم الاعتماد عليه وعلى قدراتي في السرد. الليلة، على أي حال، رتّبتُ الأشياء بشكل مختلف. هذه الليلة أدعوكم كي توحّدوا ذكرياتكم مع ذكرياتي، وتقتفوا أثر حادثة لا تشبه بكل ما في الكلمة من معنى أي حادثة أخرى جرت خلال تجاربنا. ماذا سيترتب على ذلك؟ أكثر من أي شيء، ثقة أحدنا بالآخر، لأن عنصر الثقة هو الذي سيمنح بحثنا هذا حريته وجرأته وتماسكه. لكن مَن الذي سوف يضمن حقيقته؟ ومَن منكم سيتصدى للأمر ويثبت أن هناك فعلا قصة كهذه القصة التي انخرطنا الآن في سردها؟ ذلك أن كل واحد منا يحمل في داخل نفسه غرفة مليئة بالذكريات السرّيّة، وهذه الغرفة مكان لا نجاهر به بل نفضّل أن نبقيه مخفيا.

شجرة الغراب

سكتُّ عن الكلام هنيهة لكي ألتقط أنفاسي، وحينما كنت أفعل ذلك توّج القمر أسوار المدينة، وأنار ضوؤه المنازل المحيطة بالجامع. رافق صعودَهُ بردٌ قارسٌ. لبستُ عباءتي، كما أن بعض مُسْتمعيّ الذين كانوا قد أرخوا بطّانياتهم لفّوها من جديد حول جلّاباتهم، ثم سحبوها فوق رؤوسهم. رفع أحدهم الآن يده، وهو رجل دين ذو لحية كثيفة، وتكلم بسرعة وقوة لافتا الانتباه. كان رجلا داكن البشرة في منتصف العمر. ومع أنه كان يرتدي

ثيابا بسيطة، لكن صوته كان متكلفا بشكل لافت، وأحسستُ أنه يمتلك ذكاء قويا ومميزا.

بطبيعة الحال ما تقوله يبدو معقولا، قال رجل الدين ساخرا، لكن ثمة خطة وراء ذلك، إنها مرسومة على وفق نهاية محددة، وهي أن شقيقك لا يد له في الجريمة التي اعترف تلقائيا باقترافها.

تفرستُ فيه بهدوء.

إذا كانت هناك خطة مرسومة، أجبت، فإن هدفها واحد لا غير: استقصاء الحقيقة؛ الحقيقة البسيطة، الجوهرية، في أعماق التجربة كلها. وفيما يتعلق بشقيقي، لا أخفي أملي بأنه إذا كان كل واحد منا قادرا على أن يكون صادقا مع ذكرياته المتعلقة بذلك المساء، إذا لم ندخر أوجاعنا وروينا كل شيء بشكل تام، فسوف ينتهي بنا المطاف إلى إلقاء الضوء على ما بقي مخفيا حتى الآن. وسوف نقوم بعمل أفضل بكثير إن رجعنا إلى نقطة البداية نفسها، هذا إن تعمقنا في الأمر بصورة أكبر في كل مرة، وذهبنا أبعد قليلا في فهمنا.

أشار محاوري بأدب وتردُّدٍ إلى أنه وجد إيماني بالخيال مؤثرا.

إنه ليس خيالا بقدر ما هو ذكرى، أجبته.

وهي لا شيء سوى خيال، رد الرجل، أليس كذلك؟ خيالنا ينسج الأحلام؛ ذاكرتنا تختفي فيها. الذاكرة تطلق أنهارا من الاشتياق؛ الخيال يروي الأنهار بالمطر، ويغذي أحدهما الآخر.

لم أدعْ هذا الكلام يستفزني.

الحاجة إلى الحقيقة هي التي تدفعني، قلت بثبات، شقيقي في السجن بسبب جريمة لم يرتكبها، أود أن أكتشف ما الذي

جعلـه يسـلّم نفسـه للسـلطات الأمنية لكـي تودعه هنـاك. إني موافق بأنها مهمة شاقة وصعبة، غير أنها ليستْ مستحيلة.

كانت ابتسامته تنم عن الشك والريبة.

ثـم قال: يبدو أنك لا تـدرك أن حقيقتك متناقضة ظاهريا، لأن الذكريـات يُمكـن تخيلهـا، وبما أنك مسـلّح بنوايـاك، فإنك تُظهر رغبتك في كشـف وقائع ذلك المسـاء؛ إنما كقصة متخيّلة، وليـس كحقيقـة تتذكرها. أين الجوهر؟ أيـن نقطة التوجيه في لعبة الأشباح هذه؟

الجوهر موقعه القلب، أجبت بتصميم.

انطوى فمه، ثم جذب بطانيته حول بدنه.

إنك تحيك أسـطورة حول جريمة، وإنني آسـف لكوني شديد الفظاظـة، لكنهـا تبدو لي هكذا، لأنك تواجـه الحقيقة الرهيبة للإثم الذي ارتكبه أخوك، فأنت تسعى لحياكة نسيج بينك وبين الواقع. حينما تكون الذكرى غامضة وغير واضحة يغدو الخيال غيـر محـدود، وعلى الـدوام يكـون الوهم الجميـل مفضلا على الحقيقة، وبخاصة إذا كانت قبيحة.

أنـا لا أحيـك شـيئا، أجبته. إذا كان هذا هو نسـيج العنكبوت فهو ليس من صنعي، إنني أسـعى إلى شـيء مختلف تماما، أريد أن أحل خيوط النسيج.

وللحظـة راح ينظـر إلـيّ بتركيـز مريـك. ربما لـم يكن باقي أعضاء جمهوري موجودين من أجل جمع الإشارات التي أعطاها لهـم معبرا عـن شـكره لحضورهم. وبغتة أحنى جسـده وقوّسـه بثبات ولاحت على شـفتيه بسـمة طفيفة معبرة عن السـخرية، وحين اعتدل في جلسته، لوّح بيده وقال ببرود: إنك تؤمن إيمانا

عميقا باللغة وبقدرتها على التواصل مع الآخرين.

لا بد للمرء أن يؤمن بشيء ما، قلت بهدوء.

لكن ماذا لو أن الراوي كان على خطأ ودوافعه غير موثوق بها؟

تلعثمتُ هنيهة، وأنا أدرك خطر انصراف جمهوري عني حتى قبل أن يبدأ الليل. ولأنني قررت أن أدعِّمَ مركزي، قلت بغرض استمالتهم: إنني آسف، ربما لم أشرح ما عنيته جيدا، من المؤكد أن حكايا الليل سوف تخفف من وساوسكم.

لم يشكرني على الاعتذار، وبدلا من ذلك انبرى قائلا، وهو يحافظ على نبرته الفاترة طوال هذه الآونة: إن شاء الله فسنرى.

بادلته كياسته، ورأسي مرفوع.

بعد توقف قصير، استأنفت حديثي قائلا:

اسمحوا لي أن أعيدكم إلى تلك الليلة. على الرغم من أنه يبدو شيئا مستبعدا لكنه يلزمنا أن نضلّ طريقنا في هذه الرحلة، الجميع أكدوا ذلك، وبسبب طبيعة الحدث، سوف نفعل ذلك. إن ذكرياتنا المتباينة ستمحو جميع المعالم المألوفة: الجوامع، المآذن، الأسواق والقيصريات[3]، كانت الساحة ومتاهة الأزقّة المفضية إليها ملطخة بذراق الحمام تحت أقدامنا، التراب نفسه سوف يتفتت لكي يغدو غبارا، بينما سماء مراكش الحمراء فوق رؤوسنا سوف تطرأ عليها تحولات كثيرة جدا بحيث سنعد أنفسنا محظوظين في النهاية إذا ما بقي لدينا أي إحساس باتجاهات محددة.

غير أن هذا كله سيكون في المستقبل، أما في هذه الآونة، فإن نقطة مغادرتنا هي مسلة (جامع الكتبية) فيما هي تلقي

(3) القيصرية: أروقة مغطاة في الأسواق - هامش المؤلف.

ظلها باتجاه ساحة الجامع. نحن نبدأ بيقظة كما لو كنا في حلم، نتبع المسلة فيما هي تقطع ببطء شارع محمد الخامس المشجّر مرورا بصف العربات ذات الأغطية القابلة للطيّ التي تنتظر الزبائن بصبر خلال حرارة النهار وبرودة المساء المعتدلة. بين العربتين السابعة والثامنة، في العتمة الظليلة لمبنى فندق (بليس فوكولد)، توجد شجرة سرو سامقة تجعل الأشجار المجاورة لها تبدو صغيرة، وهي تعكس، إن صح التعبير، صورة مئذنة الجامع الشاهقة. إنني أسمّي شجرة السرو تلك (شجرة الغراب)، بسبب العدد الهائل من غربان الصحراء التي تبني أعشاشها فوق أغصانها. كانت هذه الأخيرة هي التي غيّرت موقفي حيال الطبيعة غير المعتادة للأحداث التي أعقبت تلك الليلة، فهيجانها هو علامة مؤكدة على وجود ثمة خطأ ما.

وكانت هناك علامات أخرى أيضا، فالمدينة تفوح برائحة الرماد، وكان القمر الذي بلون العقيق الأحمر بدرا، وثمة حلقة من الضوء تحيط به. هبت ريح ندية بشكل غير طبيعي آتية من الجبال، لتجعل الرأس يتشرب البرودة. لاحقا، جَفَّفَتِ الهواءَ شوكةُ حمراءُ من البرق، وانتشر ضوء البرق مغطيا الشوارع.

على الرغم من كل تلك الظواهر المنذرة بالسوء في ليلة اختفاء الغريبين، بقيت جالسا في مكاني المعتاد ببلادة حس لا تزال تدهشني، وتهيأت للبدء في جلستي، جلسة راوي القصص..

البهلوان

مَنْ هو أول من لفت انتباهي إلى شريط البرق الضيق؟ أو إلى قصف الرعد الساخط في الشفق الذي سبق البرق بدلا من

أن يحدث العكس؟ هل هو «طهار»، البهلوان؟ دعوني أفكر: هذه الذاكرة العاجزة ستكون نقطة ضعفي.

إنني أتذكر الآن. لم يكنْ طهار، الذي ظهر في المشهد بعد ذلك بوقت طويل، وهو يرتدي زيا غامضا. كان ذاك هو البهلوان، سعيد، الذي يقيم في الغرفة الصغيرة ذات الباب المصطبغ بزرقة السماء الملاصق لـ «باب الدباغ»، لعلها أقدم البوابات التي تخترق الأسوار المحيطة بالمدينة.

سعيد رجل غير طبيعي من أكثر من زاوية. ثمة إشاعة تقول إن كلبا خطف حبله السري وهرب به قبل أن يتم دفنه، ولعل هذا يفسر تفضيله الإقامة في الهواء عوضا عن الأرض. والأدهى من ذلك هو بهلوان يلبس نظارات. ربما رأيتموه وهو يقوم بألاعيبه حول الساحة، نظاراته مربوطة بصورة غير ثابتة بواسطة سلك حول رأسه. إنه راقص الهواء، إنه فرد حرر نفسه من العوائق اليومية كي يطلق كامل العنان لمخيلته. حينما أراقبه وهو يؤدي تمارينه البهلوانية، أُصَابُ بالذهول دوما للسهولة التي يدور بها حول قصر أحلامه. يقول صديقي «دريس» إن سعيدا، في دقة قفزاته وعلوها، هو أقربنا إلى الله. إنه لا يتردد؛ لا يتلكأ ولا يترنح. إنه إنسان طبيعي، وهبه الباري نعمته. ما من أحد منا، نحن معارفه، سبق له أن شاهده غاضبا أو قانطا. هو واحد من أولئك الأشخاص الذين تتجلى بهجتهم الأولية في العيش من خلال بسمتهم الحاضرة أبدا، وفي مرات كثيرة جدا، تتجلى من خلال الضحك.

لذلك حين أقول لكم إن سعيدا هذا نفسه هو الذي أقبل نحوي وعلى وجهه علامات قلق بالغ، وقد راح يتكلم بحزن وأسى

عن الشوكة غير الاعتيادية للبرق؛ كانت أشبه بأفعى الصحراء، ذات رأس في كلا طرفيها، جذب ذلك انتباهي. قال إنه كان قد طوى منصة البهلوان والحبال والأعمدة الخاصة به، ولأول مرة منذ وصوله إلى ساحة الجامع قبل اثني عشر عاما، قرر أن يتوقف عن القيام بألاعيبه قبل ساعته المألوفة في التاسعة ليلا. وقال لي إن ثمة شيئا ما يتعلق بشوكة النار تلك، كانت تستحق الخوف؛ كانت تدل على الألم والدمار.

انظرْ إلى ذلك القمر البرتقالي بتلك الحلقة التامة من حوله! مضى يقول وهو في حالة ثورة. إنها أشبه بعقاب من كوكب زحل، ذلك الوجود المشؤوم. ربما يمكنك أن تذوق حريقه بلسانك. في ضوئه الأحمر توقفنا عن إلقاء الظلال، أم أنك لم تلاحظ ذلك؟ ثمة شيء خاطئ هنا! هذه دلالات يتعين عدم تجاهلها. ذلك القمر سلب منا آثارنا! جعلنا فارغين.

حاولت أن أطمئنه. حاولت أن أخبره بأن ساحة الجامع شبيهة بحقل من الدخان؛ إنها تنقل كل شيء، حتى القمر. أما ما يتصل بشوكة البرق الحمراء، فهي تدل على النار، وعنصر النار، حتى وهي تدمر وتخرب، فهي تحمل مفتاح التطهير. لذلك يجب عليه أن يتأنى وينصت إلى القصة التي كنت أَهُمُّ بَرْوِيِها، لأنني سأبدد مخاوفه بالتيار البارد لخيالي.

إذا ما توغلت في الخوف، قلت له بنبرة مهدئة، يمكنك أن تقلب الأشياء بحيث يصبح المفترس هو الفريسة، عززْ ثقتك بنفسك، ثقْ بقدرتك على تحويل ما يرعبك إلى شيء آخر.

بيد أن سعيدا لم يكنْ يمتلك شيئا من تلك الثقة. قال إنه، في وسط وثبته، لمح الأرض في الموضع الذي سقط فيه البرق.

وفي الدخان والرماد كان هو قد قرأ إنذارات تشير إلى أننا أمام خطر مميت. قال إنه كان إنذارا لنا يقضي بأن نغادر المكان فورا.

راقبته وهو يمضي، ومن ثم، كالعادة، انتظرت جمهوري لكي يجتمع، غير أن فؤادي كان قلقا.

الحمرا

مراكش، الحمرا، العاصمة الملكية، الواحة ذات الأسوار الحمر الواقعة بين الصحراء والجبال. هنا انعكس الامتداد الأحمر للسماء في واجهات المباني الطينية، وبخاصة في وقت الفجر، حين يغلف السكون كل شيء، لم تعد هناك طريقة مقنعة للترحيب باليوم الجديد أكثر من التنزه مشيا على الأقدام على طول الأسوار ومشاهدة قوافل الإبل تصل من ناحيتي الجنوب والشرق. وفي مكان بعيد تقع الحافات الداكنة للبالمرية[4]، ووراءها، تستقر ألوان عدة: الأحمر الزاهي، لون الصدأ، القرمزي، على القمم المكللة بالثلج لجبال أطلس العليا.

إنه مشهد طبيعي حافل بالاستعارات، حيث الخيال هو القانون، والرواة بوسعهم أن يقضوا أيامهم كلها في إعادة الحياة إلى القصص البوليسية المليئة بالألغاز. نجلس متقاطعي الأرجل على بُسُطِنا المَحِيْكَة محليا، وننشئ عروضنا للأحداث بحسب تسلسلها الزمني، من الهواء، بأصواتنا الجهورية. البساط المحيك هو قصرنا الذي نقضي فيه ليلتنا، إنه قلبنا المستنير، مستودع حكاياتنا المتخيلة، نقضي شتاءنا في ساحة الجامع، وصيفنا في الجبال. أي فصل من الفصول المثمرة

(4) البالمرية: بستان شهير للنخيل في مراكش - هامش المؤلف.

باستمرار هو الذي نحمله معنا إلى جميع الأمكنة التي نرتادها. إنه منزلنا، قصبتنا[5]، مخزننا، مأوانا. الباب مفتوح دوما؛ ونحن ننتظر داخله وكذلك خارجه، نكيف جميع حكاياتنا الممكنة لتغدو أحداثا متسلسلة زمنيا من صنعنا.

الرحلة

في ليلة اختفاء الغريبين كنت قد قررت أن أستخدم اللون الأحمر بوصفه موضوعا لسردي القصصي، لأن الأحمر كان لون القمر المحاط بحلقة، وكأنه مصنوع من النار، وبالطبع أيضا، من الدم ومن القربان. وأنا أدير وجهي صوب جامع الفناء، وهو في لغتنا، له معنيان: «تجمع الأموات» و«مسجد العدم». مددتُ بساطي وتهيأتُ للبدء. كانت تحيط بي أدوات حرفتي المعتادة: الصندوق الجلدي البالي الذي كان يحتوي على رقوقي، والمرآة التي بواسطتها تنعكس وجوه مستمعيّ، قطعة خشب (الثويا)[6] المليئة بالعقد التي أستقي منها الإلهام، رموز الأحلام بهيئة حزم قمح وخشيخشات من الخشب المنحوت ومجموعة من الحصى الأسود الصقيل اتخذت شكل رؤوس الأفاعي وأشواك النيص[7]. كان البساط هدية من أبي، وكان موجودا لدى أسرتنا منذ أجيال، كانت حياكته الحمراء الباهتة مزينة بالنجوم وفي حوافه غيوم سود مرسومة بشكل هندسي دقيق. من عادتي أن أجلس في الوسط وأرتب مجموعتي من العصي التي تتألف

(5) القصبة: طراز من الهندسة المعمارية، يوجد في المغرب. والقصبة هي حصن من اللبن مزين بأشكال بربرية تعلوه شرفة مسننة – هامش المترجم.

(6) الثويا: نوع من الخشب يستخدمه الحرفيون في الصويرة – هامش المؤلف.

(7) النيص: حيوان شائك من القوارض – هامش المترجم.

منهـا القصة، في نصف دائرة قبالتي. كانت كل عصا من العصي منحوتـة من خشـب الأبنوس وتعلوها علامة مـن حلقات العاج. كانـت العصـي تمثل خطوطـا معينة مـن القصة، أمـا الحلقات فكانت ترمز للموضوعات. كنت أنتظر حلول الغسق لأرى أيا من العصـي هي التي يقع عليها أولا نور الشـمس الآفلة، وبناء على ذلك أحدد القصة التي سأرويها.

كانـت سـاحة الجامـع مزدحمـة بشـكل خـاص تلـك الليلـة. وصلـت حافلات مليئـة بالقرويين من الداخل، مـن الجبال وأيضا مـن الصحـراء ومن الجنوب الأقصـى مثل (تان تـان) و(تافروتة). الحجاج مناسبون لمهنتي: إنهم يفضلون سحر الادعاء على واقعهم الكئيـب والموحـش. إنهـم يولعـون بالحكايـات الملحميـة، الزاخرة بالاستطرادات كي يؤجلوا عودتهم إلى الأشياء العادية المبتذلة.

كان مـن دأبـي الانتظار ريثما يتكون لدي ثمانية مسـتمعين علـى الأقـل. وبحكم تجربتـي، كلمـا ازداد عدد الجمهـور ازدادت سـرعة تصديقهـم للحكاية التي أرويها. وبعدهـا أبدأ في التكلم برقة شديدة بحيث تبدو كلماتي وكأنها تذوب في الهواء، تعدهم برحلة مُسـكرة بصورة لا يمكن تخيلها. وكي تسـافر هكذا عليك أن تعيـش حلمـا ما. قصتي تأخذ شـكل الدوامـة، التي من أجل فضـاء تلـك الليلـة، كانت تحـرر القـروي، والمزارع الذي يسـتغل الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول، وسائق الماشية؛ تحررهم من حياتهم المملة، متبلدة الحس، الخالية من البهجة. وشـيئا فشـيئا يرتفع صوتي كي يتعـادل مع الضوضـاء المنبعثة من الجامع. أحدد إيقاعي وأسـتقر على نغمة ثابتة، وحين يحل الليل، يصبح جمهوري مفتونا طوال بقية الرحلة.

في تلك الليلة، إلى يميني أب وأولاده الأربعة، شرعوا ينقرون ألحانا أندلسية ساحرة على آلات العود والكمان الخاصة بهم. وعلى مسافة منهم، كانت قد استقرت مجموعة من موسيقيي (الغناوة) بقيثاراتهم ذات السيقان الطويلة ومطارقهم ذات الرنين الحديدي. كانوا قد اعتادوا أن يعزفوا لساعات طويلة دون انقطاع، كي يُحدثوا في نفوس مستمعيهم حالة شبيهة بالنشوة قريبة من الابتهاج الغامر. هذه الليلة كان برفقتهم ثلاثة شبان يلتهبون حماسا وهم يرقصون بأقدام ذات جوارب بيض، يلفون رؤوسهم طبقا لإيقاعات ثابتة. وبعد فاصل قصير، على أية حال، انتقل موسيقيو (الغناوة) إلى موضع أفضل بالقرب من وسط الساحة، وتركوني بصحبة الألحان الأندلسية التي تناسبني أكثر لكي أبدأ معها حكاياتي ولكي أدعم غموضها. كان عازفو الألحان الأندلسية من الشمال، من مكان قريب ناحية طنجة، وكانوا يعزفون موسيقاهم ببراعة فائقة، ونغماتهم الاستبطانية الحزينة تذوب في الهواء، من دون أن تترك أثرا باستثناء تلميحات الاشتياق الخالية من أي تزويق.

وأنا واحد مُلهَم، استللتُ القطعة المألوفة من العنبر من جلبابي، فملأت الهواء بشذاها. ثم أزحت قلنسوة معطفي، وأملتُ رأسي إلى أحد الجانبين، وبذلت جهدا لكي أسمع الأصوات التي كنت أعرف أنها سرعان ما سوف تتردد من خلالي. وتقوم بتجميع المستمعِين من حولي. وضعت صندوق حاجياتي على الأرض، يد «فاطيما» المرصع غطاؤها بالجواهر وهي تومض ببركاتها. وبينما كنت أتفحص جمهوري، لاحظت وجوههم؛ عيونهم وإيماءاتهم وتعبيرات وجوههم، لكي أحدد درجة الصوت

التي سوف أختارها لسرد قصتي، وبعدها أخذت نفسا عميقا وشرعت في الكلام.

الغريبان

حكايتي، بدَأْتُ حَديثي، واقعيةٌ تماما، كالحياة نفسها، وبناء على ذلك، فهي ملفقة كلّيا. كل شيء فيها متخيَّل؛ لا شيء فيها متخيَّل. وحالها حال جميع القصص الرائعة جدا، فهي ليست قصة عن التقاليد، عن الحبكة، أو عن الأشياء المقبولة ظاهريا، بل عن الخيوط البسيطة التي تربطنا معا ككائنات بشرية..

بتلك المقدمة الموجزة نسبيا والمباشرة، رحت أتحدث عن (الحمرا)، المدينة القرمزية، مستودع الأحلام الكثيرة جدا. كنت قد باشرتُ نشاطي للتو، وصوتي أصبح حادا وإيقاعيا، كصوت أيِّ راو متمرس، حين لاحظتُ بلبلة تدب وسط جمهوري، وكان عدد كبير منهم يمدون أعناقهم لكي يروا ما يجري خلفهم في الطرف الشمالي من الساحة.

لاحقت نظراتهم.

كانت تلك أول مرة شاهدتهما فيها.

كانت تلك أول مرة شاهدتُ فيها الغريبين.

كانا قد ظهرا فجأة من جهة الفضاء المفتوح للجامع من ناحية (شارع درب دباجي)، من داخل الأسواق، وكان دخولهما قد سبب في الحال هدوءا مؤقتا في فوضى الساحة. العيون كلها، بما فيها عيناي، دارت باتجاههما. الأشخاص الأكثر تحفظا من بيننا خفضوا نظراتهم حالا، كما لو أنهم أحسوا بالخجل والارتباك. بينما واصل أشخاص آخرون، أكثر جرأة، النظر

إليهمـا ومتابعتهمـا بعيـون وقحـة جائعـة. إن شـيئا مـا يتعلق بتطفـل اسـتجابتنا الجماعيـة نحوهم جعلني أشـعر بالخجل. بـدا الأمـر وكأننا كنـا قد تورطنا أصـلا في قصتهمـا، كما لو أن قصتهما كانت جزءا من سيرنا الذاتية، وكأن تورطنا في قصتهم كان بالكاد شيئا يستحق المديح.

ربما يرجع ذلك إلى جمال المرأة، وهو أول شيء لاحظه الجميع. كان جمالا اسـتثنائيا، مما جعلنا نشـعر بالحيـرة والارتباك. كما يبـدو أنـه ألقـى وهجا علـى الجميـع بينمـا كان الاثنان يشـقان طريقهما عبر السـاحة، لاذت الحشود بالصمت وتفرقت أمامهما، كما لو كان ذلك تعبيرا عن الإجلال. وكما تذكّر شقيقي مصطفى لاحقـا، كان جمالا يحتفظ بأنقى علاقة مع الحُسـن والتناسـق. أما إحساسي أنا يومئذ فهو أن جمالا كهذا كان يستحق الاحترام، لكن من مسـافة حذرة. يتعين على المرء أن يمتلك الشـجاعة حين يصبح وجها لوجه معه. لكن أيضا يجب أن يتحلى المرء بالأمانة. لـم يوافقنـي مصطفـى، وهذا الاختـلاف في الرأي سـيكون عبئا ثقيلا على عقلي في الحكم على ما سوف يفعله مستقبلا.

مصطفى

لـم يكـن مصطفى مـن سـكان مراكـش. كان يقيم فـي ميناء (الصويـرة) الصغيـر الواقع على السـاحل الأطلسـي، وهو ميناء لصيد السمك. كان يملك حانوتا في المدينة حيث يبيع الفوانيس التـي يصنعهـا بيده، شـهريا في اليـوم الخامس عشـر، وكان يعزز عوائـده الماليـة، شـهريا، فـي اليـوم الخامـس عشـر، بأن يسـتقل الحافلـة المتجهـة إلى مراكش لكـي يبيع بضاعتـه، وحين يحصل

على المال يمتلئ بالحيوية والنشـاط، ويزور بائعات الهوى اللواتي كن ينتظرنه. كان مصطفى شابا ووسيما، وسريع الاهتياج بصورة لا سـبيل إلـى تغييرهـا. لا يعرف اليأس، وغير قـادر على أن يكون متفرجا في لعبة الحياة، ومن دأبه أن يسن قوانين رغباته بأساليب متهورة جدا، ومع ذلك هي أساليب طبيعية تماما. كانت رؤيته في حد ذاتها طاقة ينشرها من حوله، وكان الشعر الذي يكتبه أصيلا، والشعر الحقيقي هو الذي يستهلك طاقتنا استهلاكا تاما.

حينمـا كان فـي مقتبـل العمـر، رأيته مـرة يخـرج عاريا من البحيـرة القريبـة مـن قريتنـا، الماء يسـيل من ظهـره بينما كان يسـير عارضا جسـده أمـام الفتيـات اللواتي احتشـدن ليظهرن إعجابهن به. سـمح لهن أن يلمسنه، واحدة إثر الأخرى. كنت قد لمحته في أطراف القرية ووفرت له مكانا للاختفاء. لا يعزى ذلك إلى كوني متزمتا، لكن غروره هو الذي أذهلني.

لـم أخبـر أبي بشـأن تلـك الحادثـة، كمـا أن أيا منا لم يشـرْ إليهـا ثانيـة، غير أنني في أعماق فـؤادي كنت أعرف أن مصطفى سـيظل يحتفـظ بهـذا الموقف ضدي. كنـت قد جرحـت كبرياءه، وفـي اعتقـادي كان هو يعزو أفعالي إلى الغيـرة. ومنذ ذلك اليوم فصاعـدا صـار هناك جـدار بيننا، جـدار من التحفظ المشـترك، استمر حتى رحيله عن قريتنا وهو في سن الثامنة عشرة، كنت قد قررت المحافظة على سـكينتي والنظر إلى الأمور بشـكل مختلف إذا ما حدث شيء من هذا القبيل، بيد أنه كان شديد الحذر بحيث لا يدعني أقبض عليه ثانية وهو في وضع يعرضه للشبهة.

حـين سـمعنا لأول وهلة أنه هو طفل الجبـال، قد صمم على الاسـتقرار فـي (الصويـرة) المحاذيـة للبحـر، بعيـدا عـن بيئته

التـي ترعرع فيها، أخـذتُ المبادرة لكي أطمئن أبـويّ فيما يتعلق بـه. ليفعـل ما يشـاء، قلـت برباطة جـأش: الهواء المشـبع بالملح سـيهدئه، وفي غضون ذلـك، لديكما ابنان سـيقومان برعايتكما ويلبيان احتياجاتكما حين تصبحان مسنين.

وبعدهـا بسـنة، التقينا أنـا ومصطفى في مراكـش، وأبلغني، بسـيماء التحـدي، أنـه يسـكن مـع امـرأة، لكنـه قـرر ألا يتزوج. لم أكن أعتقد أنه ينبغي لي أن أعلّق على ذلك لكنني اكتفيت بأن تمنيـتُ له السـعادة والهناء. وفـي لقائنا التالي، بعد مرور أشـهر قليلـة، قال والبسـمة تلوح علـى ثغره، وكأنه يقـول لي ذلك على انفراد، إنه تخلى عن رفيقته التي كانت امرأة مزعجة وتسـتهلك وقتـه، وكانت عاطفتهـا قد بدأت تضايقه. وعوضـا عن ذلك، كان يقيم وحده في قلب المدينة، حيث كانت بشـرته البرونزية، وشعره المجعد، وأسـاليبه الهادئة قد جعلت منه شخصا مألوفا للسياح. كان قد تبنى رياضة أسـماها (كسر الرياح)، كانت قد علمته إياها امرأة فرنسية اسمها سوندرين. كانت تسكن على الساحل؛ وكانت مثله شـخصية طليقة، مـن دون روابط. ومن جديد أحجمتُ عن التعليق على ذلك.

لذلـك السـبب، حـين رأيـت مصطفـى ينهـض علـى قدميه مـن حافة حلقتي تلك الليلة في سـاحة الجامـع، لفتت حركته انتباهـي. كان وجهه حوارا مـن دون كلمات، وكان يظهر الخواطر المتحمسـة التـي توقـع الغم فـي النفوس. لمعـت عينـاه وكأنهما تحكيان قصة كان فيها الغريبان أصلا خلاصة للرغبة التي قلما يمكـن أن تسـعها سـريرتهما. يبدو كمـا لو أنه، فـي غضون ثوان لا غير، كانت شهوة أخي قد استحوذت عليه وقهرته.

مصطفى! حذَّرْتُه، لا تتعجل في تصرفك. ديننا دين معتدل ولطيف، إنه لا يسمح بالخطايا والرذيلة، وله أعراف قوية تتعلق بالضيافة، إنه يشدد على الاحتشام.

نظر إليَّ بازدراء: هل تخشى فقدان مهنتك السياحية، يا حسن؟ وحين رفضت احترام اتهامه، انفجر قائلا: ما فائدة حريتي إن ترددتُ في استخدامها؟ ليس ثمة شيء قذر فيما يتصل بعواطفنا وأهوائنا!

عليّ ألا أوافق، قلت بوقار. العاطفة التي لا يكبح زمامها تؤدي إلى الفوضى.

حسنا إذن، قالها بانفعال، يلزمني أن أخبرك بأن وجودك في هذه الساحة الواسعة والمفتوحة يبدو لي أشبه بزنزانة سجن! لكن ضربات قلبي تتسارع، ويلزمني أن أتبع نداءه، إن ما تراه بوصفه استسلاما، أراه أنا انتصارا.

أنت أخي، قلت بهدوء، وإن تهورك هذا سيكون سبب دمارك.

أنت أخي، أجاب، وأجد أن جبنك هذا من صفات النساء. إن أول سمة من سمات الرجل هي الجرأة، وأنا أريد أن أظهر هذه الجرأة.

إنك شخص فاسد! أجبته بعد أن طفح بي الكيل، ليس هناك سعادة أوضح من تلك التي كُبِحَ جماحها، الحيوانات تنزوي، إنني أتوقع منك شيئا أكثر من هذا الاندفاع العقلي الذي يسيطر على أفعالك.

وردا على ذلك ضحك مصطفى وانصرف من دون جواب.

الحب الأول

لـم يكن مصطفى دوما متهورا جدا فيما يتعلق بالنسـاء، أو لعلـه كان كذلك. وبوصفي أخـاه أعتقد أنني قريب جدا منه وإن كان من الصعب عليّ أن أجزم بذلك. أغلب الظن أنه يتعين علي ببساطة أن أروي قصتي عنه، وأتركها لكم كي تصدروا حكمكم.

حـدث ذلـك قبل أعوام كثيـرة مضت. كان مصطفى في سـن الخامسـة يومئذ، وأنا في سن العاشرة، وأخي الأوسط أحمد في الثامنـة من عمره. كان يزور قريتنـا فريق طبي قادم من الرباط كجزء من حملة وطنية لمنع انتشار وباء الأنفلونزا. وصل الفريق إلـى منزلنا صباحا، حتى قبل طلوع الشـمس. في البداية، حين سـمعنا الضوضـاء فـي الباحة، حسـبنا أنـه سـاعي البريد وقد أحضر رسالة من خالي الأكبر سنا من أمي، الخال مؤنس، الذي كان يعمل في مصنع في (سـالي)، وكان يبعث لنا الرسائل بشكل منتظـم. لكننـا بعدها سـمعنا صوتا لامـرأة، يبدو بوضـوح أنها متعلمة، تسـأل ما إذا كان ثمة أحد في المنزل، وتدافعنا خارجين مـن أسـرّتنا، وكنا جميعا متلهفين وفضوليـين لمعرفة ما يجري. كنت أول من خرج إلى الباحة، وكان هذا شيئا طبيعيا، طالما أنني الابن الأكبر في الأسرة؛ ومن ثم خرج مصطفى؛ ومن بعده خرج أحمـد الحـذر الذي جاء فـي المؤخرة. ونحن نمسـح النعاس عن عيوننـا، طلعنـا إلى ضـوء الفجر لكـي نرى طبيبة شـابة تلبس وشـاح رأس حريريـا وردي اللـون، ومعطفـا طبّيـا أبيـض أنيقا. كانت امرأة جميلة، هيفاء، بشفتين مكتنزتين، ووجنتين بارزتين، وكانت بشـرتها الشـقراء مختلفة بشـكل لافت عن بشرة النساء السـمراوات اللائـي لوّحهـن الطقس ممن اعتدنا علـى رؤيتهن.

ولأننـا واجهنا هذا الظهور غير المتوقع لتلك الشـابة الحسـناء، وقفنا بلا حراك نشـك في ما نراه، وفغرنا أفواهنا ونحن نتطلع إليهـا. والآن حـين أعود إلى تلـك الحادثة، أدرك أننـا ربما بَدَوْنا كثلاثة من الريفيين الأجلاف بشـعرنا الأشـعث من تأثير النوم، ووجوهنا الملوثة بالسخام والمصطبغة بدخان الخشب.

حـين ظهر أبونـا في أعقابنا، طويلا ومتجهمـا، بـ «غندورته» التـي كانت قد علقـت بركبتيه، اعتذرت الطبيبـة لأنها اقتحمت منزلنـا في هذه السـاعة المبكـرة، قبل أن تمضي لتشـرح أن ذلك يرجـع إلى كـون منزلنا أبعد المنازل عن مركـز القرية، وكنا نحن أول الناس في جولتها التي كانت تستدعي فيها كل أبناء القرية. وبأسـلوب لطيف لكن سـريع ومن دون هراء، شرعت تقدم نفسها ومرافقيهـا. كان الرجـل الـذي علـى يمينها ذا وجه صـارم وذقن غير حليقة، لكنه كان يلبس معطفا طبيا أيضا؛ كان هذا الرجل هـو مسـاعدها، بينما كان الجندي الذي يرتـدي البزة النظامية بالرأس العاري الحليق هو سـائق شاحنتهم الطبية المغلقة التي توقفت أمام البوابة الخشـبية المتداعيـة التي تفضي إلى مدخل باحة منزلنا.

لـم يتفوه أبونـا بكلمة في بادئ الأمر، إنمـا يمكنني أن أجزم بأنه كان غير مرتاح لمشهد التعامل مع امرأة في موقع السلطة.

لا بد أن الطبيبة لمسـت عدم ارتياحه، لأنها راحت على الفور تشـرح سـبب وجودهم هناك، بسـبب وبـاء الأنفلونـزا الذي كان يجتـاح المنطقـة، ولماذا كان من الضروري أن يتـم تلقيحنا ضده. أرتنا طريقة إعطاء اللقاح على ذراعها، وقالت إن تلقيحنا جميعا لن يستغرق سوى دقائق قليلة.

وبينما كانت تتحدث إلينا، أحضر معاونها كرسيا مطويا ومنضدة معدنية من الشاحنة الصغيرة، وراح يرتب الآن على المنضدة حقيبة المستلزمات الطبية، علبة أدوات، صندوق سيفون، وعاء معدني، صينية معدنية مزودة بقطن طبي وماسحات لتنظيف الجروح، ويضع قناني.

وحين لمح أحمد صف الإبر اللامعة في علبها البلاستيكية المختومة شرع يتقدم شيئا فشيئا نحو المنزل، لكن مصطفى لحق به وظهر من جديد بعد لحظات ومعه وسادة طرحها بقوة على كرسي الطبيبة.

هذه (الجليسة) لك لكي تجلسي عليها، أخبرها.

شكرا لك، إنها صغيرة، قالت له، وقد أخذَتْها المفاجأة، وإن كان سلوكها المهني لطيفا بشكل ملحوظ.

هذا من دواعي سروري، شرع في الكلام، ومد ذراعه. هل يمكنني أن أكون أول الملقّحين؟

بالطبع!

ولأنني الابن الأكبر، كان يلزمني أن أتدخل في تلك اللحظة وأطلب أن أكون الأول، لكن، هذه المرة فقط، كنتُ مغتبطا لأن أتراجع.

حين مسحت هي ذراع مصطفى بالكحول، تنحنح أبي. وبنبرة تنم عن الاستقامة والإحترام، سألها إذا ما كان من الممكن أن تعطي اللقاحات بنفسها.

لكنها بالطبع قالت بواقعية: أنا الطبيبة هنا.

نعم، لكن مع ذلك... بدأ أبي الكلام، قبل أن تقاطعه. لا تقلق، لقد قمت بذلك مرات كثيرة جدا بحيث لا يمكنني أن أتذكر عددها.

بشـيء من التـردد والحيـرة، لاذ أبي بالصمـت، إنما يمكنني القـول إن الموقـف قد أربكه. كمـا أنني لاحظـت أن أخي الصغير دائـم الثرثـرة كان صامتـا على غيـر عادته، عينـاه مثبتتان على الطبيبـة بينمـا هو يتعلق بكل كلمة مـن كلماتها. وعندما أمرته بـأن يضـم يده ويجعلها بهيئة قبضة ودسَّـت الإبرة في ذراعه، لم يعبـسْ تألما على الإطلاق. سـحبتْ الإبـرة وألصقـتْ على ذراعه ضمادة لزجة وشـيئا من القطن الطبي، ثم أفسح هو المجال لي، طالما أن أحمد وأبي كليهما ظهرا غير راغبين بالتقدم إلى الأمام. ولأن حمـى الشـك قد تملكتني، وقفت أمـام الطبيبة ومددت لها ذراعـي مقلدا مصطفى. شـعرت بأن الماسـحة المشـبعة بالكحول أشـبه بالثلـج الموضوع علـى الجلد، وخزتنـي الإبـرة، لكن الأمر انتهى أسرع مما توقعت، كما قالت هي.

وبذلـك بقـي أبي وأحمـد. تقدم أبي أولا، علـى مضض، لكن مصطفـى قاطعـه متقدمـا عليـه. هل يمكننـي أن آخـذ اللقاح مجددا؟ سأل الطبيبة.

ابتسـمتْ وجعـدتْ وجهها إزاء كبريائـه المصطنعة: أنت غلام صغير شجاع، لكن، للأسف، لديك فرصة واحدة فقط.

وقفـتُ بجانـب المصطبـة الخشـبية التـي كانـت تحمـل كتل النعنـاع الخاصة بأمـي والمحفوظة في أوعية معدنية تم طلاؤها باللـون الأبيض، ورحـت أراقب أبي وهو يأخذ جرعة اللقاح. ومن ثـم أحمد الذي حـاول بطريقة غير ناجحة أن يخبئ نفسـه في الظـلال حيـث كانت أغصـان أشـجار الدفلى بزهورهـا الحمراء والبيضـاء تتدلـى فـوق الفنـاء. كان قد تم إقناعه بـأن يأتي إلى الأمـام، نـدَّت عنه صرخة مروّعة عندما دُسَّـتِ الإبـرة في ذراعه.

وحينمـا رجـع، وهـو يعض علـى شـفتيه ويحمل ذراعـه، انطلق مصطفى إلى الأمام ثانية كلعبة معبأة من لعب الأطفال.

أنـا معجـب بـك، قال مصطفـى معبرا عـن هيامـه، كان من الجلي أنه غير قادر على البقاء بعيدا عن الطبيبة: أنا أحبك.

لهثـت الطبيبـة، واتسـعت عيناهـا وهـي تتطلـع إلى شـعره البنـي الجميـل، وعينيه اللتين كانتا أشـبه بلوزتـين، وإلى خديه اللحيمين. اسـمح لي، قالت، أنا متأسـفة، يـا صغيري، لكن ماذا قلت؟

كرر مصطفى كلامه، بصوت أعلى هذه المرة، ويده قابضة على فؤاده.

أوه، أيهـا الطفـل العزيز! هتفـت الطبيبة ببهجـة، أنا أحبك أيضا، حبيبي.

وبينما هي تنظر إلى أبي، قالت: لديك ابن صغير ساحر.

لم يردّ عليها أبي.

ابتسمتْ بدفء في وجوهنا نحن البقية. هل يوجد أشخاص آخرون في الأسرة؟ سألت.

أسـرع مصطفـى إلـى الأمام مـع «شـكيب» قطتنـا الصغيرة برتقالية اللون، وهي تتلوى بين ذراعيه. قهقه الجندي. ابتسمت الطبيبة وقالت: حسنا، يا عزيزي، يمكنك أن تدعها وشأنها، إنها لا تحتاج إلى هذا اللقاح.

وفي الحال أنزل مصطفى «شكيب» على الأرض، وأسرع عائدا إلـى داخل المنـزل ورجع مع طائر الكناري في قفصه المصنوع من الأغصـان المجدولـة. هـزت الطبيبـة رأسـها: كلا، حتـى الطائـر لا يحتاج إلى اللقاح.

التفتَتْ إلى والدي: هل هناك شخص آخر؟

بدا والدي شاحبا في النور الرمادي. ومضت عيناه الصغيرتان، الغائرتان، وهو يحدق إلينا، محذرا إيانا بأن علينا أن نمسك ألسنتنا. ليس هناك شخص آخر، قالها والدي ببلادة حس.

- ألا توجد نساء في الأسرة؟

- لا وجود لأي امرأة.

أنا وأحمد لزمنا الصمت إزاء هذه الكذبة شديدة الوضوح، لكن مصطفى لم يستطع السيطرة على نفسه. وفجأة اندفع إلى الأمام وأمسك بيد الطبيبة، وقال بصوت واضح ومرتفع: هذا غير صحيح! هناك شخص آخر، أمي في الداخل، وهي تصنع المربّى، وهذه هي الحقيقة.

وفي السكون الذي حل بعدها، هبت عاصفة ريح منعشة واكتسحت الفناء، وحركت ركام القش المبعثر فوق الأرض الترابية، وهزّت حمارتنا ذيلها.

أرجوك اذهب إلى الداخل وأحضر زوجتك، قالت الطبيبة. الجميع يجب أن يأخذوا اللقاح المضاد للأنفلونزا.

رفض أبي أن يتزحزح من مكانه.

هذا الأمر يتنافى مع تقاليدنا، قال بثبات وإصرار. النساء يجب استثناؤهن من قواعدك.

أنا متأسفة، لا أحد يمكن استثناؤه في هذه الحالة، أجابت الطبيبة. أنا هنا بأوامر صدرت من الوزارة في الرباط.

لا يهم، قال أبي. في الجبال، نحن البربر نتبع قواعدنا الخاصة بنا.

وفي هذه اللحظة خاطب الجندي أبي، بفظاظة تامة، على ما أعتقد.

ما اسمك؟ قال الجندي فجأة وبقوة.

فكرت في نفسي أن الجندي سوف يقوم بالمواجهة، وتوقعت أن ينفجر أبي المعروف بسرعة انفعاله. وعوضا عن ذلك، ويا لدهشتي، جرجر أبي قدميه وقال: «حمو».

حسنا إذن، «حمو»، ألم تسمع الطبيبة؟ باسم جلالة الملك، اذهب وائتِ بزوجتك.

توقف أبي هنيهة وهو مرتاب وتبادلنا أنا وأحمد نظرات مندهشة. وسأله أبي:

- باسم جلالته؟

- نعم. حقا..

وما أثار استغرابي، أن أبي نكس رأسه من دون أن ينبس بكلمة، ومضى إلى داخل المنزل.

ظهر بعد لحظات قلائل. هي لن تأتي، قال، وعيناه مصوبتان نحو الأرض.

إن لم تأتِ من تلقاء نفسها، قال الجندي، عندئذ يلزمنا أن ندخل ونأتي بها.

جفل أبي. تغير صوته، وهبط إلى طبقة لم أسمعه يتكلم بها من قبل. لا حاجة إلى ذلك، قال، وهو يبدو مقهورا كليا، بينما كان أحمد يدير عينيه، وهو يشعر بالحرج مثلي لأنه يرى أبانا المرعب وقد أحس بضآلة حجمه وظهر ضعيفا. بدا أبي أشبه برجل عجوز بلحيته الرمادية ووجهه الملوّح بأشعة الشمس. مضى أبي إلى داخل المنزل ثانية وسمعنا صوته يرتفع غاضبا فيما هو يتخلص

من خيبته ويصبها على أمي. حينذاك فقط أدركت أن امتلاك السلطة، في موقف معين، هو الخطوة الأولى نحو النضج.

بعدها بوقت قصير، ظهرت أمي وراء أبي بأفضل جلابة لها، بنية وذات أشرطة بيض وحمر، وفي رسغيها أساور فضية غليظة، يستر الجزء السفلي من وجهها وشاح أسود كانت تمسك به بزاوية فمها. كانت عيناها مرعوبتين، وحينما سارعتُ لطمأنتها، قبضت على يدي بقوة.

أجلتُ بصري بحثا عن والدي، لكنه كان قد تراجع إلى الوراء، شاعرا بالخزي وملتزما الصمت.

مبروك، قال معاون الطبيبة له بسخرية ثقيلة الوطأة. تهانينا لقدرتك على تفهم القواعد بسرعة.

تولت الطبيبة رعاية أمي.

سيستغرق الأمر لحظة واحدة، قالت الطبيبة بلطف ورقة.

هذا صحيح، مامي، قلت، لن تشعري بوخز الإبرة إطلاقا، وسوف ينتهي الأمر قبل أن تعرفي.. إنها مجرد لسعة بعوضة.

إنها لا تشبه لسعة بعوضة، قال أحمد بصرامة. إنها مؤلمة كالجحيم، وأنت تعرف ذلك.

إنها غير مؤذية، تدخّل مصطفى. أنت ضعيف، يا أحمد!

لست ضعيفا، صن لسانك، أيها القزم.

ولأن الأم كانت ذاهلة من جراء ما يفعله أبناؤها، كادت توشك أن تلومنا حينما أخبرتها الطبيبة أنها قد انتهت من إعطائها اللقاح في ذراعها ويمكنها الانصراف.

مندهشة، وقفت أمنا هناك غير مصدقة قبل أن تنفجر في ضحكة أشبه بضحكة فتاة تعبيرا عن ارتياحها.

أرأيتِ، لقد قلت لك ذلك، قلت لها.

وكذلك أنا، قاطعني مصطفى. لا تنسني!

عسى الله أن يهبك نعمته، قالت أمي للطبيبة، قبل أن تضيف بحياء: أعددت كعكات محلاة مقلية بالدهن، هل تأخذين بعضا منها، مدام؟

أجل، ستأخذ، قال مصطفى، وهو يجيب نيابة عن الطبيبة. مدام، كعكاتها المحلاة المقلية بالدهن هي الأفضل في الوادي. عليك أن تجربي تناولها.

ضحكت الطبيبة. لديك أبناء وسيمون، قالت لأمي.

لا، أنت هي الحلوة، قاطعهما مصطفى.

صه، مصطفى، قالت أمي، وهي تشعر بالخزي من كلمات ابنها. ماذا دهاك؟ من فضلك اصفحي عنه، قالت للطبيبة. إنه صبي مزعج جدا؛ إنه يورطنا باستمرار في مشكلة ما. إنه لا يفقه ما يقول.

لكنها الحقيقة، أليس كذلك؟ أكد مصطفى. إنكِ طلبتِ مني دوما أن أقول الحقيقة.

هذا يكفي، مصطفى، وبخته أمي. إنك تتكلم كثيرا جدا.

خاطبتني قائلة: حسن، أحضر لضيوفنا بعض الماء لكي يشربوه.

رجعت بالماء الذي كان باردا حيث كان محفوظا في أكياس من جلد الماعز.

شكرا، قالت الطبيبة.

جلبت أمي الكعك المحلى والمقلي بالدهن في أفضل طبق فخار بحوزتنا.

تطلعت بخجل إلى أبي. هل لك أن تتذوق واحدة وتخبرني ما إذا كانت جيدة الطعم؟

وعوضا عن الإجابة، دار أبي بغتة على عقبيه وغاب في داخل المنزل. وكي توفر على أمي المزيد من الحرج، تذوقت الطبيبة إحدى الكعكات وأجابت بحركة من رأسها.

مذهلة! صرحت قائلة. ما مصدر طعمها اللذيذ؟

لقد أضفت إليها نكهة عسل «اليوكالبتوس» من القنيطرة.

كان ابنك الصغير على حق، إنها أفضل ما تذوقته في حياتي كلها.

حين احمر وجه أمي احمرارا شديدا، سألت الطبيبة مصطفى ما إذا يرغب بمرافقتهم في جولاتهم طوال ما تبقى من ساعات الصباح. وبعد أن صدمه هذا السؤال وأخرسه وأدخل السرور إلى فؤاده، لم يكنْ بوسعه سوى الالتفات إلى أمي لكي يطلب منها الإذن. وعندما أومأت برأسها تعبيرا عن محبتها له، إن طبيعتها الطيبة المجبولة عليها تفوقت على انزعاجها منه، ندت عنه شهقة ورقص رقصة مسعورة طربا، رقصة سريعة ومفعمة بالحيوية، حول محيط الفناء، بينما حاولنا أنا وأحمد أن نخفي غيرتنا بلامبالاة تنم عن الازدراء.

وبابتسامة، أعطته الطبيبة علبة المستلزمات الطبية لكي يحملها. فغر مصطفى فمه برهبة بسبب نيله هذا الامتياز: هذه.. هذه لي لكي أحملها؟

وبصعوبة كان مصطفى قادرا على تطويق العلبة بذراعيه.

سأعيده إليكم وقت الظهيرة، طمأنت الطبيبة أمي.

راقبناهم وهم يغادرون في شاحنتهم الطبية الصغيرة المغلقة، ومعهم مصطفى جالسا في المقعد الأمامي بين الجندي ومعاون الطبيبة.

كنا أنا وأحمد نلعب الشطرنج في الفناء الظليل. كان الهواء حارا وثقيلا؛ وحزم من أشعة الشمس اخترقت شرائح السقف الخشبية للباحة. حاولنا أن نتجاهل مصطفى حين دخل عبر البوابة.

انظرا! هتف. حصلت على ميداليتين!

أشار بإصبعه إلى الشارتين المعلقتين على صدره، إحداهما ذات صليب أحمر على خلفية بيضاء، والأخرى ذات نجمة في داخل هلال.

أومأتُ برأسي من دون اهتمام، بينما تثاءب أحمد.

اقترب مصطفى منا: أنتما غيوران، وبخنا بطريقة ساخرة.

خائن! رد أحمد باستهزاء. لقد جعلت أبانا يفقد ماء وجهه ولن يتكلم معنا بعد الآن.

ومن دون أن يشعر بالانزعاج، راح مصطفى يخبرنا عن نهاره، وألفينا أنفسنا ننصت إليه مكرهين. قال إنه حتى الفقيه في مدرسة القرآن الكريم، الذي استشهد بأحاديث نبوية كي يتجنب أخذ اللقاح، أخرجه الجندي عنوة من مسجد القرية، وعانى من المعاملة المهينة المتعلقة بغرز الإبرة في ذراعه.

تلوّى وأطلق صرخة طويلة حادة كالبنت! قال مصطفى بمرح، وتقاسمنا أنا وأحمد مرحه، يستحق الفقيه ما حدث له لأنه كان مستبدا، وكان يستأسد علينا بصورة لا ترحم.

في تلك الآونة، خرج أبي من المنزل، وكتمنا ضحكاتنا. ولأنه لم يقدر أن يهضم فقدانه لسلطته، كان قد أمضى ساعات

الصباح كلها مستلقيا في سريره ووجهه مصوب نحو الحائط. شرع الآن يحملق مغضبا نحو مصطفى، عضلات وجهه مشدودة ومتقلصة. لا يمكن أن يخطئ المرء نواياه حينما تتوجه بصورة متعمدة نحو ابنه الأصغر.

ثبت مصطفى في مكانه ولم يهربْ. ربت على الشارتين اللتين على صدره.

منحتني السيدة هاتين الميداليتين كمكافأة على كوني صبيا صالحا. أعلن بفخر وكبرياء.

وحين استمر أبي في التحديق إليه عن كثب، تلعثم مصطفى وأخذ يتراجع إلى الوراء. ربت على الشارتين من جديد، هذه المرة بشيء من الرعب، لكي يلفت انتباه أبينا في حالة عدم ملاحظته لهما في المرة الأولى.

إنني الآن في خدمة جلالة الملك، قال مصطفى، بصوت ساخط وحاد. الجندي «شواش» قال لي ذلك. لا يمكنك أن تضربني، بابا!

تردد أبي لأدنى جزء من الثانية قبل أن يواصل تقدمه. سنرى ما سيحدث فيما يتعلق بهذا الأمر، قال بتجهم.

كان أحمد قد أسر لأمي بالأمر آنذاك، وهرعت الأخيرة بعجلة شديدة إلى الباحة وتوسلت إلى أبي ألا يعاقبه.

اهدئي، يا «مبروكة»! هذا الصبي جعل مني أضحوكة أمام الغرباء.

وفي هذه الأثناء أسند مصطفى ظهره على الحائط، وحين وقع في الفخ، انحنى بتذلل حين علا أبي فوقه. لا فائدة من ذلك. بضربة مشوشة تردد صداها في الهواء، جعله أبي يندفع بسرعة على طول الباحة.

مشـيت إلـى الأمـام بصـورة غير مقصـودة لكن أبـي أوقفني بنظرة غاضبة من عينيه.

ترنح مصطفى على قدميه، كانت طبعة كف أبي أشـبه بوسم على وجهه. سعل مرة أو مرتين وهز رأسه بفعل الدوار. سال الدم من فمه. أطلقت أمي عويلا، غير أن أبي فرّق بينهما. وبينما كان أخـي الصغيـر يرتعش بصورة لا يسـتطيع السـيطرة عليها هرع إلى البوابة الخشـبية وهرب خارجا مـن الباحة. وعندما حاولت أمي أن تتبعه، أوقفها أبي آمرا إياها بطريقة جافة.

دعيه يذهب، قال أبي. سيكون هذا درسا مفيدا له.

وبلا حول ولا قوة راقبنا مصطفى وهو يختفي وراء صف من الجلاميـد الواقعة على حافة أقرب التلال. انهارت أمي وشـرعت تنوح: طفلي! آه، طفلي الصغير المسكين!

بينما كان والدي يدخل المنزل من جديد، قوّس أحمد جذعه وأخذ يتقيأ.

أمسـكتُ بأمـي مـن كتفَيهـا، ولاقيت أنـا نفسـي صعوبة في التنفس.

لم يرجعْ مصطفى إلى المنزل حتى ساعة متأخرة من الليل، وحتـى وقتهـا، رفـض التحـدث إلينـا طـوال أيـام عـدة. الكدمة الحمراء على وجهه اسودَّت وغدت أرجوانية، ومن ثم تحولت إلى بقعة سوداء مرقشة.

الحقد

تلك الليلة في الجامع، بينما كنت أشاهد مصطفى وهو يغيب عن الأنظار ثانية، تذكَّرتُ تلك الواقعة التي جرت منذ أمد بعيد.

تواري مصطفى في الظلال قبل أن يكون باستطاعتي أن أوقفه، وكانت طريقة مغادرته ثقيلة الوطأة عليّ وقتئذ حالها حال تلك الواقعة المختلفة جدا حينما كان لا يزال صبيا صغيرا. كنت أخاف عليه، ولم أكن أشعر أنني قادر على تولي مهمة مواصلة سرد قصصي، المهمة التي تستحق أن أقوم بها كل ليلة.

ألقيت نظرة شاملة على الجامع وتذكرت تحذير البهلوان سعيد. ولأني ظللت بمفردي، كان بوسعي بالأحرى أن أتذرع بحجة اعتلال صحتي، وأطلب الصفح من حلقة مستمعيّ، وأغادر الساحة. وربما حتى كان بمستطاعي أن أمضي باحثا عن شقيقي الضال، حيث عقدت العزم على إعادة قواه العقلية إليه.

بيد أنني لم أفعلْ شيئا من هذا. ولأني مهتم بالتزامي إزاء مستمعيّ، صممت على العودة بدلا من ذلك إلى مهمتي المتعلقة بروي القصص. تجاهلت ضميري، الذي أشار عليّ بالاهتمام بشقيقي، وأصبحت أسير واجباتي.

وهكذا ألفيت نفسي أتكلَم عن الجامع بمصطلحات كئيبة بشكل غير معتاد، واصفا إياها وكأنها امرأة ذات جمال ساحر، أكبر سنا بكثير مما قد يتصوره المرء، لكنها ذات صوت ووجه لفتاة صغيرة، كائن متقلّب، تارة تحرص على رعاية أولادها؛ السكان والجوالين الذين يترددون على فضاءاتها المفتوحة، وطورا تحرص على أن تتسبب لهم بأذى شديد وحزن عميق.

إنها امرأة خطيرة، قلت، غير أن بعض النسوة هن بهذه الصورة: أساطيرهن الكئيبة تقهرهن وتسحقهن، وتهزم جمالهن. عاملهن بحذر، لأنهن لسن من النوع الذي يمكن ممازحتهن والعبث معهن.

سـألنـي أحد مسـتمعيّ، بشــيء من السـخط، أي أساطير هذه التي يمكنني أن أشـير إليها. قال: لقد أقبلت إلى سـاحة الجامـع مــن قريتي مرات كثيرة، وفي كل مرة أحسسـت بأنني مفتـون، وذو شـأن. ثمـة شـيء مـا في الجـو هنا أشـبه بالمادة المقويـة. شـيء يطوقنـي ويجعلني أطالـب بالمزيـد. إذن ماذا يكمن وراء هذه الصورة الخبيثة التي اخترت أن ترسمها لهذه المرأة؟

ذكّرتـه بـأن السـاحة كانت حتى وقـت قريب مسـرحا للكثير مـن الإعدامـات وحالات الشـنق العلنية. كان الأبريـاء والآثمون على السـواء يلتقون هنا وهناك، بعضهـم يهلكون وهم يطلقون صرخـات اليأس، وبعضهم الآخـر يموتون وهم يطلقون صرخات التحـدي الناجمة عن اليـأس إن أصغيت من مكان قريب بصورة كافيـة، قلـت، يمكنـك مع هـذا أن تسـمع صرخاتهم تلـك تتردد أصداؤها عبر الأرصفة.

حدث هذا منذ أمد بعيد، قال، رافضا ما ذهبتُ إليه. إنك تتكلم كموظفي الحكومة الذين يرومون تشـييد مواقف للسيارات هنا، ولفترة طويلة يوقفون جميع الاجتماعات والاحتفالات. عدْ إلى قريتك إذا لم يرق لك المكان هنا. لكنك إذا كنت ستجمع نقودك مـن سـاحة الجامع، على الأقـل فلتكن لديك اللياقـة والأصالة لكي تمتدحها.

أثنيت على ملاحظته تلك وشكرته عليها.

إننـي أحب الجامـع مثل أي فرد آخر، قلـت بهدوء. وبوصفي راوي قصـص، فأنـا أكثر الناس وعيا بجماله. كل مسـاء في وقت الغـروب ألاحظـه وهو يدير وجهه الفتي، وجـه فتاة طرية العود،

صوب الشمس الآفلة لكي يستحم في بهائها. لكنني أيضا أعي جانبه المظلم، الكئيب، إخفاقاته.

في تلك اللحظة، سمعت ضحكة خافتة من حلقة المشاهدين وشاهدت صديقي البدين محمد، الذي يملك مخزنا للأقمشة في (سوق سمارين).

عجبا، حسن! هتف محمد. ماذا دهاك هذا المساء؟ إنك كئيب إلى حد غير سوي. وهذه الليلة بالأخص، يمكنني أن أقول لك إن مزاجك غير مناسب. ذلك أنني شهدت شيئا استثنائيا بحق وحقيقة.

ماذا رأيت؟ سألته عندما لم يقدّم مزيدا من الشرح.

لقد شاهدت الغريبين اللذين باتا مدار حديث الأسواق، أجاب. رأيتهما بأم عينيّ، وكانا أشبه بملاكين، وديعين وخادعين. شبعنا من هذا الحديث الكئيب. آن الأوان لكي نمتدح حُسْن حَظِّنا هذه الليلة.

وحين قال ذلك خطا إلى خارج الحشد، وبإيماءة من رأسه لجمهوري من المستمعين، سألني ما إذا كان بوسعه أن يروي ما رآه.

الملاك

تحدث محمد ببساطة، بخليط من العفوية، والصراحة، والسذاجة البريئة، بحيث أجبرنا على الاستماع إليه.

ما يتعين عليّ أن أرويه لك، بدأ حديثه، حدث في وقت أسبق من هذه الليلة. جرى ذلك خلال الساعة الهادئة، حينما أغلقت المحال التجارية في الأسواق أكشاكها ولم تكنْ حشود الليل

قد تجمعت بعد في الساحة. كان السكون يخيم على الأرجاء كلها. وكان لغبار النهار الوقت الكافي لكي يستقر في موضعه. والجمرات الأخيرة للشمس مشتعلة بهدوء.

أغلقت كشكي وكنت أهمّ بالتوجه إلى (جامع الكسابين). كانت المخازن المجاورة قد أغلقت أبوابها إيذانا بانتهاء اليوم. وكان الزقاق مهجورا. وضعت مفاتيحي في جيب جلّابتي واستدرت على عقبيّ استعدادا للمغادرة.

وما كدت أمشي خطوة واحدة حتى تجمدت في مكاني. هناك، ومثل شرارة متوهجة، في بقعة من الضياء ألقتها فتحة في سقف البهو المعمد المصنوع من حصير القصب، وقفت امرأة مذهلة جدا لم أر مثيلا لها من قبل. كانت أشبه بالحورية التي يرد ذكرها في الأسطورة، أشبه بالخيال.. بمخلوق خرافي. ثملت في عينيها الساطعتين، في شعرها الأسود، في أطرافها اللدنة المتهدلة، في بسمتها المرنة كموجة صغيرة من الريح. داخ رأسي كما لو أن ذلك حدث تحت تأثير مادة مسكرة. ووجدتُ صعوبة في التنفس وأنا مذهول بجمالها الأخاذ، رجعت إلى الظلال وبقيت بلا حراك.

ليست لديّ أدنى فكرة كم طالت هذه اللحظة. كانت تلك المرأة الجميلة قد لبثت في شعاع الشمس وكأنها فراشة، ومن مكان ما في أعماقي شرع صوت ما يغني. لم أناد عليها. لم أسعَ إلى إشراكها في حوار معي، لم أفعلْ شيئا قط.

لا أعرف متى تقدم ببطء ذلك الحمار العجوز البائس ودخل الزقاق. كان الحمار قد تلقى ضربات وحشية؛ ثمة جروح تنز دما على امتداد خاصرتيه، وكانت المنطقتان المحيطتان بهما

متورمتـين. وحتـى أنـا، الـذي ليـس مـن المعتـاد أن أصبـر على آلام هـذه الحيوانـات الغبية، تأثرت وشـعرت بالأسـف عليه. كان الحمار المسكين يهز رأسه من جانب إلى آخر، البصاق يسيل على شـفتيه، وقبل أن يصدر مني أي رد فعل، ترنح بغتة نحو المخلوق الأسطوري.

بصمـت لعنـتُ تطفل ذلك الحيوان، وكنـت أهمّ بالخروج من مـكان اختبائي لكي ألاحقـه عندما، مرة أخرى، منعتني مفاجأة مـا من ذلك. هذه الطفلـة، الأجمل من طير الجنة، ذات العينين الواسـعتين، الداكنتـين، وأرق الابتسـامات، تقدمـت إلـى الأمـام واصطدمـتْ بالحمـار، وتحديـدا بجروحـه النازفـة، وعوضا عن الارتداد إلى الوراء، أدارت رأسها وشرعت تمسه بيدها.

ظللـت أراقـب المشـهد، مسـتغرقا فـي التأمـل. كانت لمسـتها شـديدة الرقـة والرهافـة، خفيفة كالمـاء. عنايتهـا المفرطة التي لا حـد لهـا حرّكـت مشـاعري. أدركت لحظتهـا أنني شـهدت توا فعـلا من أفعـال الحنان والشـفقة، فعلا غير متعمَّـد وصريحا. كان تعبيـرا عن الحب، ولم أر دليلا على أي شـيء ما خلا الدافع للشـفاء. من المؤكد ليس هناك شيء مبهم في هذا السلوك. كان يسـتحق المحاكاة. لم يكنْ هناك شـيء يعزز الإحساس بالخرافة أو الغموض.

والآن، تحرك الحيوان وهو مرتاح باهتمامات الفتاة ولمساتها المرهفـة، وواصـل مسـيره. راقبتـه الفتـاة وهـو يغـادر، عيناهـا مخضلتـان بالدمـع، ومن ثم التفتت إلـى رفيقها الذي لاحظتُه أنـا لأول وهلـة. كانت قـوي البنيـة، ذراعـاه قويتـان وعضليتان، وجهـه لطيف، ينم عن الاسـتغراق في التفكيـر. ثم تناول يدها.

شاطرتهما أنا صمتهما الذي كان أشبه بابتسامة سريعة الزوال. ولأنهما لم ينتبها لوجودي، وقفا هناك برهة طويلة قبل أن يشرعا في المشي. ألقيت عليهما تحية وداع من دون كلام. عبرت الطريق قطة دون أن تصدر صوتا أمام مجال رؤيتي. وخرجت أنا من ذلك اللقاء غير المتوقع كما لو أنني خرجت من حلم.

توقف محمد عن الكلام هنيهة، كان صوته لا يزال مشبعا بحلاوة تجربته. نظر إلينا واحدا واحدا وقال بهدوء، وشفتاه قلما تتحركان: لقد حملت سحرهما معي إلى هنا. يا حسن. حينما سمعتك تتحدث، أحسست بالحزن، لذلك طلبت منك الإذن لكي أروي قصتي.

شعت بالضوء عيناه الرماديتان، ومضى يقول بصوت أعلى:

آه، أنت هو الصامت الآن! ذانك الغريبان لم يكونا من طرازنا، يا أصدقائي. إنهما كائنان أكثر سطوعا. إنهما يمتازان ببراءة نادرة، بنوع من النقاء الذي قلما يصادفه المرء. من خلال هذه اللقاءات التي تحصل بمحض المصادفة ترتوي الروح. كل واحد منا يحمل كونا في داخله، إنما يتعين علينا أن ننظر إلى الخارج لكي نفهم العالم وموضعنا فيه.

رفع محمد كتفيه، ونظر مرورا بنا إلى الساحة. وبعد لحظة تفكير، قال: هذا هو كل ما لديّ لأقوله هذه الليلة.

أبو منجل[8] القرمزي

أتذكّر كيف كنا جميعا صامتين في تلك الليلة المنذرة بالسوء بعد أن قدم محمد التماسه المشبوب بالعاطفة.

(8) أبو منجل: طائر مائي طويل القائمتين والمنقار - هامش المترجم.

هـذه الذكـرى تضـيء الليلـة، اعترفت بذلـك. إنهـا أبعد من الفضول أو الرغبة. نحن نفهم أن الغريب يكون فردا مختلفا عنا، وهذه المرأة مختلفة تمام الاختلاف؛ هذا الأمر واضح جدا للعيان.

الآن توقفـت هنيهة عن الكلام والتفت إلى محمد، الذي كان هو كذلك حاضرا بين جمهوري في هذه المناسـبة، يرهف السـمع بانتباه لكلامي المتعلق بدوره الذي كان قد رواه منذ أمد طويل.

هل وصفت مداخلتك تلك الليلة كما حصلت؟ سألته.

ابتسـم وأحنى رأسـه موافقا. حقيقة لقـد وصفتها كما هي، حسن، قال. ما كان بمستطاعي أنا نفسي أن أرويها بشكل أفضل. كانـت براءتهما قـد أثّرت فيّ، وجعلتنـي أشـعر بطمأنينة وتفاؤل عميقين.

حسـنا جـدا إذن، قلـت، وكنـت على وشـك مواصلـة حديثي حينمـا قاطعنـي صوت آخر أكثر كآبة: يبدو لي أنك تنسـج قصة تتألف من غرائز متناقضة.

حولـت نظـري صـوب المتحـدث. كان رجـلا مـن «الطـوارق»، واحـدا مـن «الرجال الزرق» المنحدرين من الجنـوب، يداه ووجهه مصطبغان بسـبب ارتداء ثياب نسـيجية نيليـة اللون على مدى أعوام طويلة. متحفظ وهادئ، كان سلوكه يظهر ذلك الانضباط الحياتـي الـذي تتطلبه الصحـراء الكبرى من جميع السـاكنين فيها.

بأناقة طبيعية، رفع لثامه، الشريط الأسود الذي كان يحجب وجهه بالطريقة التي يفعلها أبناء قومه.

نشـر يديه، وخاطـب محمد، بصوت تردد صـداه مع جهورية الفضاءات الصحراوية الشاسعة:

إنني متأسف على قولي هذا، يا أخي، لكن العشاق يمارسون دوما سحرا غريبا، وإن وصفك لذينك الغريبين أخفى أشياء بقدر ما كشف عنها.

انتفض محمد: ماذا تعني؟

بدا الرجل وكأنه أوقع نفسه في ورطة.

ببساطة هكذا هو الحال، أجاب. غالبا تكون إدراكاتنا الحسية مشوهة بفعل لقاءات غير متوقعة بعيدة عن نطاق فهمنا. من خلال الإصغاء إليك، يجب عليّ أن أستنتج أنك، لأنك تأثرت كثيرا بكونهما غريبين، فشلت في فهم المعنى الكامن وراء وجودهما هنا. أنا أيضا صادفت الغريبين اللذين تحدثت عنهما ببلاغة شديدة. أنا متأسف، فالمرأة تركت انطباعا ضعيفا فيّ، لكن الشاب الوسيم الذي يرافقها كان له وجه يحمل تقاسيم مأساوية. وكلاهما، ذكّرني بالهاوية التي هي الوجود، وأن الطريقة الوحيدة التي أستطيع بواسطتها أن أفسر ما أعنيه هي من خلال إيجاد نظير مستقى من تجربتي الخاصة.

سأستخدم كنقطة انطلاقي مقارنتك للمرأة بطائر من طيور الفردوس. ولكي أوضح فكرتي، سأتكلّم عن طائر مختلف، مع أنه طائر متألق بالقدر نفسه، على ما أعتقد.

لا ريب أنكم تعرفون (أبو منجل) الأصلع؟ إنه طائر كبير الحجم، أسود اللون، بساقين قصيرتين نوعا ما، وجناحين هائلين ومنقار أحمر براق مقوس إلى الأسفل. إنه غير بارع في الطيران، وهو تقريبا أخرق، وعلى الأرض فقط يتخذ ريشه الأسود لمعانا معدنيا أرجوانيا ويهبه نوعا غريبا من الجمال. وربما لهذا السبب يعده ولينا المسلم طائرا مقدسا، وقد اعتدنا على وجود

هـذه الطيـور التـي تتردد باسـتمرار علـى أرضنا القاحلـة، ومع أنها تتضاءل بشـكل متزايد، لكنه من اليسـير أن تحدد مواقعها علـى حافات المنحدرات الصخريـة التي تبطن الوديان والجداول الصغيرة.

في الصيف المنصرم، بنت مستعمرة من هذه الطيور أعشاشها، كالمعتاد، في الصخور شديدة الانحدار. كان هذا خلال زمن انعقاد الحفـل السـنوي للرماية بالسـهام الـذي كانت قريتنا مشـهورة بـه. إنه موسـم مكرس لذكـرى رجل مقدس زايـل عالمنا منذ أمد بعيـد وكان يُزعـم بأنه كان يملك موهبة معالجة الصرع. وبما أن الجداول الصغيرة تؤوي طيور (أبو منجل) خلال سـاعات النهار، كانت مسـابقات الرماية بالسـهام تقام بعد حلول الظلام فقط، حين تؤوب الطيور إلى أراضي أعشاشـها في الصخور الكائنة في الأعالـي. كانـت توضـع أهداف من الخشـب الـذي يتصاعد منه الدخان في مسـافات فاصلة علـى طول ضفاف الجدول الصغير الرئيـس. وعند إشـارة معينـة، يجرب رماة السـهام من كل أنحاء الساحل مهارتهم مستخدمين سهاما مشتعلة، وهو ابتكار اشتهر به موسمنا.

ويقـدر مـا أعـي، ما مـن حادثة سـجلت لطائر (أبـو منجل) وقد أخطأه سـهم ضال. لكن في الصيف الماضي، حدثت الأشياء بشـكل مختلف. رماة سـهام من كل الأرجاء؛ من أقصى الشمال، مـن تطـوان وجفجـوان و(الريـف)، وكذلـك مـن الجنـوب، مـن تمبوكتو وأولاتا وأغادير.. كانوا قد تجمعوا من أجل المشـاركة في المسـابقة حينما تم تسـجيل وجـود طائرين مختلفـين اختلافا جذريا من مسـتعمرة طيور (أبو منجل). كان هذان الطائران من

نـوع أبو منجل أيضا؛ كان التشـابه العائلي جليا، غير أنهما كانا أكثر رشـاقة من الطيور التي كانت مقيمة في منطقتنا، بعنقين وأجنحة أطول. وبصورة استثنائية، كانا قرمزيين ساطعي الضوء مـن المنقـار حتـى الذيل، أمـا أطـراف أجنحتهما فكانت سـوداء لامعـة. تـرك هـذان الطائـران انطباعـا لا يُمحـى، وحتـى أكثر الشكاكين صرامة؛ الجنود المحنكون ممن خبروا الحروب ومَن هم علـى شـاكلتهم، تأثروا برؤيتهـم لدرجة أنهم سـلّموا بأن حياتنا المتواضعة قد أُنعشتْ بفعل جمالهما الأخاذ.

فـي البداية، ما كان أحد يعرف من أين أقبل هذان الطائران، غير أن واحدا منا، وهو أكثر معرفة من البقية، تحرى عن أصلهما وأعلـن أنهـا كانا طائـري (أبو منجل) قرمزيين، مـن بلاد بعيدة، وراء المحيط. وفي الحال شـعرنا أنهما شكّلا إغراء خطيرا لرماة السـهام الذين كانوا في زيارة لقريتنا. ولكي نتفادى وقوع حادث مؤسـف، شـكلنا سـرية من صفوف شـبابنا لكي يقوموا بحراسة السفوح الصخرية، وأن يراقبوا الطائرين القرمزيين الآتيين من وراء البحار.

مـرّت الأيـام الثلاثـة الأولى مـن المهرجان الذي يسـتمر لمدة أسبوع من دون أي حادثة تذكر. الجميع راقبوا الطائرين عن كثب. وحتى الأطفال الذين يمشون خطوات قصيرة قلقة كانوا يهرعون إلى آبائهم ليزودوهم كل سـاعة بتقارير عنهما. وفي اليوم الرابع مـن المهرجـان، على أي حال، وقعت الكارثة، ويا لها من كارثة. لم يكنْ بالمسـتطاع رؤية سـوى طائر واحد من الطائرين الأحمرين. أصابنـا الفزع، وقـد ضاعفنا ونحن مرعوبون عـدد أعضاء فريق الحراس بعد سـاعات من التشـاور وتبادل الآراء، وأمرنا بتفتيش

خيام المتنافسين. ولأنهم غضبوا مما رأوه بوصفه خرقا فاضحا للضيافة التقليدية، الفريق الآتي من (كرمة - رهاروس) بكامل أعضائه جمعوا حاجياتهم وحقائبهم وغادروا المكان. لم نكترث بذلك. كنا قد صممنا على الحفاظ على طائر (أبو منجل) القرمزي المتبقي. اكتشفت سريتنا المؤلفة من الحراس الشبان وسائل جديدة كي يبقوه تحت المراقبة ليلا ونهارا. كانوا يقومون بدوريات على جانبي الوادي، وكان هناك جدول كبير في ذلك الوقت من السنة، وحتى إن بعضهم أقام نقطة حراسة طوال الليل على الكثبان الرملية التي كانت تستند على السفوح الصخرية التي كانت تمزج بين اللونين الأصفر والرمادي.

في اليوم قبل الأخير من أسبوع المهرجان، بدأنا نخفف من وتيرة عمل حراسنا، لأن الطير ظل حيا، مع أن جو مهرجان الرماية بالسهام كان معرضا للشبهة. كان رماة السهام الزائرون غليظين ومشاكسين؛ وكانوا ممتعضين على نحو جلي من المراقبة التي وضعناهم تحتها.

ولكن كل ذلك لم يجدِ نفعا. على الرغم من إجراءاتنا الاحتياطية، وربما بحتمية كئيبة، برهن اليوم الأخير من المهرجان على كونه فاجعا. كان اليوم الأخير قد بدأ بعاصفة رملية لم نر مثيلا لها من قبل إلا فيما ندر. استمرت العاصفة الهوجاء طوال النهار، وأجبرت الجميع، بمن فيهم الحراس على البقاء في داخل البيوت والخيام. حاول واحد أو اثنان من الشبان الجسورين التجرؤ على الخروج، لكن الرمال المؤذية أحبطت يقظتهم وإجراءاتهم الاحترازية. وفيما نحن مستسلمون، لكن أيضا مشبعون بالريبة والشك، أدركنا أنه

ليس أمامنا من خيار سوى انتظار رحيل العاصفة عسى أن يحصل تغير مناسب.

ويا للأسف، حين خفت العاصفة مساء ليبزغ بعدها قمر فضي أصفر، كان الطائر النفيس قد توارى عن الأنظار. طفنا السفوح الصخرية وضفاف الجداول الصغيرة بحثا عن الطير، لكننا لم نرَ له أثرا. لم تبق ريشة واحدة منه لكي تعطينا مفتاحا لمعرفة مصيره. كان الطير قد اختفى بصورة تفوق الوصف، كما لو أنه لم يوجدْ من قبل.

لم يعد لدينا أية رغبة في حضور التنافس في الليلة الأخيرة تلك، وفي صباح اليوم التالي ترك الرماة الزائرون قريتنا وبتعهدات ولعنات عالية الصوت أقسموا أنهم لن يرجعوا ثانية. ورحنا نراقبهم بكسل وهم يبارحون المكان. ما من أحد منا حضهم على العودة السنة المقبلة. مهرجاننا الموغل في القِدم لن يستعيد روحه من جديد.

المدينة

الآن وجّه الرجل القادم من «طوارق» حديثه إليّ مباشرة. قال:

سبع بوابات من القرون الوسطى تخترق الأسوار التي تطوق هذه المدينة، وهناك شيء ما يتعلق بمنطقة الشوارع الضيقة، والتي تؤدي إلى روي القصص. إنني أفكر في هذا الأمر كلما تركت خيالي يحلق كالطير، لكي أتأمل الاتساع المبهم للمنازل والشوارع التي تنفتح نحو الجبال. عند قدميّ، ومن جميع جوانب بساطي المَحِيك المنقول جوا، تقع السقوف

المنخفضة والحدائق المعطرة للمدينة. وعلى مسافة بعيدة، هناك القمم المكسوة بالثلج التي قلما يمكن رؤيتها. تبزغ الشمس من ناحية الشرق من وراء تلك القمم. وتغرب من جهة الغرب وسط الأمواج التي يعلوها الزبد. بين الاثنين، موسيقى مراكش، بغداد الغرب. مدينة لا يمكن تصورها من دون ساحتها، ساحة الجامع، لكونها متممة للمدينة مثلما يتوج الثلج القمة الجبلية.

توقف عن الكلام هنيهة، وألقى عليّ نظرة ذات مغزى. كان وجهه يقظا وغارقا في التفكير.

خلال مناجاته لنفسه، كنت مقتنعا بأن ألتزم الصمت، لكنه حين توقف عن الكلام بادرت قائلا:

- أنت نفسك، وهذا شيء غاية في الوضوح، حائك قصص.

- أجل، إني حائك قصص، قال، وابتسم.

- ما اسمك، أيها الرجل الأزرق؟

- أُدعى جواد.

شكرته على إسهامه، بينما ابتسم هو من جديد.

هب الغبار من السهول، قال جواد: حرارة النهار تبددت، وكلانا كان واقفا في ظل (شجرة الغراب) نترنح.

في حلقتنا التي يتبدل عليها المشاهدون كان هناك الأشخاص الذين نفد صبرهم، المتلهفون لسماع بقية القصة، وأحد هؤلاء هتف الآن قائلا: ولكن ماذا بشأن الغريبين؟ ماذا جرى لهما؟

وردًا على هذا السؤال، كان جواد هو الذي التفت إلى إحدى زوايا الساحة، بالقرب من الأكشاك المزودة بأكوام عالية من البرتقال، وأومأ برأسه.

هما ما يزالان هناك حاليا، لا يزالان يترددان على الساحة كالأشباح، قال، مع أننا لم نكنْ نرى شيئا.

رفع كتفيه بلا مبالاة، ولاح في عينيه الأذى.

إنهما مراوغان كالسمكة تحت سطح الماء، أضاف. تارة تراهما وطورا لا.

كانت هناك ضحكات قلقة من النواحي كلها، بيد أن صديقي محمد، الذي كان يجلس في سكينة لائذا بالصمت، رفض المشاركة في المرح. وعوضا عن ذلك، مشى نحو رجل «الطوارق». طاويا ذراعيه، ثم خاطبه محمد ببرود: استخدمت كلمتي «هاوية الوجود»، إن لم تخنني الذاكرة. أرجوك اشرح لي معنى هاتين الكلمتين.

الهاوية

حل هدوء مؤقت عقب سؤال محمد. زم رجل الطوارق شفتيه. تلاشى الضحك من عينيه. وعوضا عن ذلك، كانت نظرته تشي بوقار كئيب.

بعد صمت متوقع، قال: إنه شيء يتعلق بالاحتمالات. الأشياء تتغير بصورة كافية عندما تهب كل شيء لما تحب. وبعدها تدلف أنت إلى الهاوية؛ وهي أشبه بالحلم، بالتأكيد، لكنها أيضا حقيقية بحيث تكون موجعة في العادة.

سكت عن الكلام ولف عباءته النيلية حول بدنه. كانت نظراته ثقيلة الوطأة علينا. اتخذ هيئة كئيبة في ذلك الوضع المرح.

بنظرة جانبية ألقاها على محمد، تابع حديثه الذي كان دقيقا وحافلا بالصور:

طالما أنه إحدى الصفات البشرية، أي، إن توخينا الدقة، صفة ذاتية خالصة، الجمال ينتصر دوما على الحكمة والعقلانية. الرائي، الشاهد الحائز على الامتيازات، يعيش الحلم الجميل. إنه يفلت من الواقع من خلال التماثل العاطفي مع هذا الحلم. إنه زواج مبهم، اتحاد يضم السعادة والضوء بقدر ما يضم اليأس والكآبة. إن الفرد الذي صادف جمالا كهذا يكون قد تحول تحولا نهائيا لا رجعة فيه. إن تجربته فيما يتصل بالعالم لن تكون هي ذاتها مرة ثانية. ستكون، بالأحرى تجربة مختزلة بصورة باعثة على الحزن. هكذا تكون الهاوية، حالة وجودية من دون قناعة ولا سعادة.

توقف عن الحديث مجددا كي يصوغ أفكاره. في مكان ما زعقت عجلات عربة ما في العتمة. توقعت منه الآن أن يتحدث أكثر عن الأجنبية الحسناء التي كانت قد أسرت مصطفى، عوضا عن ذلك، قدّم مثالا مختلفا.

تأملوا، قال، التوهج الرقيق لأسوار مراكش، الملاذ المغري لظلها خلال حرارة النهار، غواية الراحة في الظلال التي تجعل المرء، بمرور الوقت، يتشرب بردها المعتدل، ويصبح هو نفسه عديم الشكل، ومن دون مادة. تلك هي الهاوية.

متحاشيا عينَي محمد، التفت إليّ وقال:

وهكذا فإن طبيعتنا تتغلب علينا. تأتي رمالها منسكبة عبر أبوابنا. ومن أعماقنا، تنبثق الرغبة كالعاصفة. كل ما عدا ذلك: المنطق، الفضيلة، الحذر يواجه قوة الرغبة.. لكن هذه المواجهة بلا طائل.

لـم ينبسْ أحد بكلمة حينمـا انتهى من كلامه. وحين تأملنا كلامه، انجرفت خيوط طويلة من لعاب الشمس[9] عبر الساحة. تسـاءلت من أين أتت تلك الخيوط. شـخص ما من بين الحشد، فلّاح حتما، قال: سيكون حصادا جميلا.

ربمـا باغتتـه السـخرية غير المقصـودة لملاحظـة الفلاح، ابتسـم رجل الطـوارق. وانضم إليّ وأنا أتطلّـع إلى العمودين الأسـودين لـ (شـجرة الغـراب) ومئذنة جامـع (الكتبية). بزغ البدر عاليا في السـماء. عارضا إصبعه الوسـطى بحيث كوَّنَ خطـا مسـتقيما مـع المئذنة والشـجرة، قال بهـدوء: أنا وأنت نمتلك موهبة قاسية.

كنـت أعـرف مـا يعنيـه. نحـن رواة القصـص نعـد الإصبـع الوسطى كمؤشر للموت.

أتمنـى أن يكـون الأمر مختلفا، أضاف قائلا. إنه عبء ثقيل. إنه يجعلنا أقل إنسانية.

والتفت الآن إلى محمد.

وداعا، قالها، رافعا يده إلى قلبه.

لم يشكره محمد على إيماءته.

بنظـرة سـريعة إلـى مـا حولـه، غـادر رجـل الطـوارق حلقة المشاهدين، وقد راقبته وهو يمضي نادما.

الكسر

لكن شيئا ما يتعلق بخطابه عن الجمال ظل عالقا في ذهني، وأعاد إليّ ذكريات من حوار جرى ذات مرة مع شقيقيَّ حينما كنا

(9) لعاب الشمس: غشاء كنسيج العنكبوت يطفو في الهواء حين يصفو الجو - هامش المترجم.

في عنفوان شبابنا، وكان كل واحد منا، بأساليبنا المختلفة جدا، مثاليا بصورة لا سبيل إلى تغييرها.

كنا نجثم على قمة تل يطل على وادينا، حيث كانت قريتنا تقع في أسفل القاع، ومنزلنا في مرتفع فوقه. كانت هناك سحب محملة بالمطر تتكتل في مكان بعيد، وخلال برهة طويلة من الزمن، كنا نراقبها وهي تمر فوق قمم (الأطلس الأعلى). باتت السماء سوداء، ومن ثم انقلبت لتصطبغ بلون أرجواني غريب، إزاءها برزت الجبال البيضاء كالثلج كشريط ناتئ من البرق.

ذلك مشهد جميل! هتفت، وأطلقت صفيرا منخفضا تعبيرا عن إعجابي بالمنظر.

لا أعرف لماذا استخدمت تلك الكلمة بحد ذاتها، قال مصطفى محذرا. من عادتي أن أتحفظ على مصطلح «جميل» حين استخدمه لصاحبات الجنس الناعم.

لقد استخدمته، قال أحمد ساخرا. إنك مهووس بالفتيات.

وما الضير من ذلك؟ لدي فضول صحي. وعلى أي حال، لست فرخ دجاج صغيرا، لقد بلغت الرابعة عشرة.

لا أزال أصر على قولي إن العاصفة جميلة، قلت بوقار. أشعلت سيجارة وقدمت أخرى إلى أحمد وليس إلى مصطفى، الذي اعترض قائلا: هيه؟ وماذا عني؟

عليك أن تنال حقك في التدخين، قال أحمد. إنه ليس امتيازا آليا تناله حين تصبح بالغا.

رائع، قال مصطفى. كيف ينال المرء حقه في التدخين؟

ضحك أحمد. عندما تفقد عذريتك.

أها، رد مصطفى، بحسب هذا المعيار ينبغي أن أكون الشخص الوحيد هنا الذي يدخن سيجارة.

تطلعنا إليه. وبعدها سأله أحمد ما إذا كان يمزح.

- لماذا لا تصدقني؟

من دون رد مقنع، لم يكن بمقدور أحمد أن يفعل شيئا أفضل من البقاء صامتا.

أحسست بالحاجة لأن أهب إلى نجدته، تنحنحت وتهيأت للكلام.

- مصطفى، ما هذا الذي تتكلم عنه؟ سألته.

- ماذا تعتقد؟

- نحن لا نصدقك، قال أحمد. ومن ثم أضاف: مع مَن فقدت عذريتك؟

- جميعهن، قال مصطفى وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

- ماذا؟ في القرية؟

- وهل هناك مكان آخر؟

- أحمد! مصطفى! ويختهما. تحليا بالأخلاق الحميدة.

أصر أحمد على الرغم من ذلك. اذكر لي أسماءهن، أرجوك.

أخذ مصطفى يعدّ على أصابعه. لنرَ، هناك: سليمة، زبيدة، دجى، هدى...

قاطعته. يا لها من شحنة هراء!

إذن هذا ما كان يفعله حينما يغطس كطائر هنا وهناك في مسبح القرية، قال أحمد بازدراء.

انتصب مصطفى في جلسته وقد لاحت عليه سيماء مَن جُرحت كرامته.

علـى العكس من ذلك، لم أكن أغطس كطائر في المسـبح. أود أن أعلمك: إنني حصرا أفضّل حرارة الماء هناك مقارنة بينبوعنا البارد.

كانت مياه المسـبح دافئة، لا ريـب، غير أن أفئدة المعجبات بك، وما أكثرهن، كانت تخفق بعنف، قلت ساخرا.

ربما، قال مصطفى، وهو يخفض عينيه باحتشام.

أنت لا تستحيي، قال أحمد، ويبصق على الأرض. ظننتك نمت كذلـك مع حياة، شـمعة، وزينة، أضاف بطيش وتهـور، وهو يذكر أسماء بعض الفتيات اللواتي في سنه.

أرجـوك! قـال مصطفى. احتفظ برصيد مـن الذوق. «حياة» فتـاة بدينـة. «شـمعة» تعاني من حوَل فـي عينيهـا، وزينة لديها لحية في حنكها.

أنـت غلام أحمق، قال أحمد، اذكـر فتياتك المفضلات جهارا. والد حياة يملك مالا، والد شمعة هو الرجل الذي يقرض النقود في القرية، بينما والد زينة فبحوزته شـركة لسـيارات الأجرة في (تافيلالت). وهذا هو الشيء المهم في خاتمة المطاف: النقود.

لا يمكنك أن تنام مع النقود، قال مصطفى بفظاظة.

لكنـك تسـتطيع أن تسـتلقي عليهـا، أجـاب أحمـد، من دون أن يتـردد عـن قول ذلـك. توقف عن الكلام لحظة، ومن ثم سـأل بثقة أقل، ذاكرا اسم فتاة كنا نعرف أنه منجذب إليها: ماذا بشأن مليكة؟

لا تقلق، قال مصطفى. إنها ملك لكما متى شئتما.

علـى أي حـال، قـال أحمد، وهو يعـاود هجومـه، لا أبالي بذوقـك فـي النسـاء، بصراحة تامـة. جميع الفتيـات اللائي

ذكرت أسماءهن، وبخاصة سليمة وزبيدة، يضعن أحمر الشفاه وهذا يجعلهن باديات كالعاهرات؛ وإنني لا أملك سوى أن أحتقر الفتيات اللائي يسعين إلى زيادة إغراءهن الجنسي من خلال استعمال هذه الزينة الرخيصة المبهرجة. لكن الخلاصة، أعتقد أن هذه الأشياء هي التي تجذبك إليهن في المقام الأول.

في حقيقة الأمر، لا، عزيزي أحمد، كان جمالهن هو الذي يجذبني، لكن ما الذي تعرفه عن هذا؟ إنك لم تر ما رأيته أنا.

اخرسْ. إنك مجرد غلام متبجح.

وقد صدر هذا عن الغلام الذي اعترف أنه نام من دون سروال في اليوم الذي رأى فيه لأول مرة مليكته الغالية لكي يكون بمستطاعه أن يرى أحلاما أفضل؟

على الأقل أنا لم ألبس السروال، سروال الحريم الداخلي، كما فعلت أنت ذات مرة!

حسن، أنتما الاثنان، قلت بحدة، كفا عن هذا الكلام.

استمرا في حديثهما كما لو أنهما لم يسمعاني.

ما الخطأ في عدم ارتداء سروال في سريرك بين الحين والآخر؟ قال مصطفى، قبل أن يضيف باستفزاز: إنه يضيف شيئا ما لأحلامك، وأنت تعرف كم أنا مغرم بأحلام اليقظة، باستحضار لحظات الجلد العاري والحرير. وما هو أحسن من ذلك كله، في مقدور المرء أن يضيف عنصر الإثارة الجنسية في اليوم التالي من خلال إضرام النار في السروال ويشاهده وهو يتحول إلى دخان قبل أن يبدأ كل شيء من جديد.

خير لك أن تخطط لفتح مخزن لبيع السراويل، قال أحمد.

لقد لاحظت أنني أرتاب في الأوهام عندما يتعلق الأمر بالحب، وأنا أقوم بأول إسهام حقيقي لي في النقاش الدائر حاليا.

هذا لأنك شخص مضجر وميئوس منه، قال مصطفى. في سن الرابعة عشرة إنك لا تفكر في الواقع، إنك تعيش في الأحلام.

إنني في سن الثامنة عشرة، إن سمحت لي أن أذكّرك، قلت بغطرسة. لديّ قضايا عظيمة الأهمية يتعين عليّ التفكير فيها وهي أهم من الأوهام الصبيانية للشباب.

نعم؟ نعم؟ قال أحمد، وهو يقفز. بوسعك أن تخبرنا بذلك حين تتزوج وتبدأ بالحصول على المال الحقيقي، مثلما أقوم أنا بذلك حينما أقامر في القرية. إنني على العكس منكما، ليس لديّ أدنى رغبة لكي أكون مسنا وفقيرا في شيخوختي، على غرار المرأة (لالا نظام) في القرية.

قد تكون (لالا نظام) فقيرة، قلت، لكنها تتحلى بالكرامة ورهافة الحس. فقط أولئك الذين يمتازون بأفضل أنواع الضمير يملكون ما هو أكثر أهمية. رهافة الحس، والموهبة الأخرى التي لا تقدر بثمن التي منحنا إياها الباري: العقل.

أنا لست مستعدا بعد لذلك النوع من العقلانية الضيقة، قال مصطفى. أود أن أخوض غمار الحياة وأنجح في تجاربي. الحياة تنحصر بحدود الاختبارات وهي لا تأبه بالكدمات والرضوض بعد كل عثرة يصادفها المرء في مسيرته. لست بحاجة إلى عقلك، يا حسن، ولست بحاجة إلى نقود أحمد. بالنسبة لي، أحتاج إلى السعي وراء الجمال والحرية التي ترافقه.

وحدث أنني فكرت بأن الجمال والثروة كليهما شيئان أثيران، قلت بهدوء. الحب يجب أن يستند على الأشياء التي تدوم أكثر. يجب أن يفضي الحب إلى الزواج، أولا، والحياة الزوجية يجب أن تكون كالجزيرة التي يعود إليها المرء من بحر لا يمكن التنبؤ بمقدراته على الدوام.

يجب، يجب، يجب... قال مصطفى بصوت منهك.

أجل، قلت، غاضبا، لأن أجمل الأشياء هو الشيء الحقيقي، حتى إذا لم يتوافق مع المعيار المجرد الذي وضعته أخيلتك الجامحة.

كلا! قال مصطفى معترضا. ما نفع الجمال إن لم يكنْ بمقدورك أن تحلم به؟

إنني لا أتفق معك على الإطلاق.

ولأنه ساخط بدوره، التقط مصطفى آلة العود التي كان قد أحضرها معه وبدأ يداعب أوتارها.

يا إلهي، احتج أحمد من دون جدوى، أينبغي لنا الآن أن نخضع لنحيب عودك؟

إنك لا تملك أذنا موسيقية يا أحمد، قال مصطفى. يمكنك أن تغادر المكان إن لم تعجبك الموسيقى.

عائدا إلى خيط أسبق، قلت: بحسب ما قاله العم مهند المقيم في مراكش، إن الشيء الأكثر صعوبة ليس أن تجعل شخصا ما يقع في حبك بل أن تحافظ على ذلك الحب على مر الزمان.

ماذا يعرف العم مهند عن الحب؟ قال مصطفى ساخرا. مع تلك العجوز المحبة للخصام التي اتخذها زوجة له، يعيش عمي مهند في تعاسة مستديمة.

وهل أنت تعرف أحسن منه؟ قلت له متحديا إياه. إنك تتكلم كما لو أنك تملك نوعا من السحر على النساء.

بثقته بنفسه التي تنم عن غطرسة نموذجية، قال مصطفى: أوه، إنني فعلا أملك سحرا. ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: إنني أعرف كيف أفتنهن.

إنك سكران بشهوتك، قلت له. وذلك شيء مثير للاشمئزاز.

الشهوة مثيرة للاشمئزاز؟

شهوة الهرب مثيرة للاشمئزاز، وخطيرة.

وما الشيء الخاطئ في الخطر؟

إنك لن تعرف هذا، يا مصطفى. أنت لا تزال صبيا.

لكنني لست عفيفا، قال بقوة. ولست على غرارك، حين أقع في الحب أخيرا، ستكون حبيبتي امرأة جميلة لن تجر من حولها موقدها وفحمها النباتي أينما ذهبت، ولن تميل إلى الواقع العملي، كما يحتمل أن تفعل حبيبتك.

إذن كل هؤلاء الفتيات اللواتي تتباهى بهن ماذا يعنين بالنسبة إليك؟ إن لم تكنْ مغرما بأي واحدة منهن، فماذا تفعل؟

حسن، إنني ألعب هنا وهناك، أليس هذا واضحا؟ إنني أكتسب الخبرة.

إذن ما الحب بالضبط بحسب رأيك؟

الحب الحقيقي؟

نعم.

توقف مصطفى هنيهة عن الكلام، وهذه أول مرة يطيل التفكير فيها. ولدهشتنا، أخرج علبة سجائره الخاصة المخبأة، وأشعل سيجارة باستغراق في التفكير.

وفي الختام، أردف قائلا: أتعرف كيف سُميّ البدر قمرا، هذه الكلمة التي تعني أيضا المرأة الجميلة بصورة استثنائية، لأن القمر حينذاك يكون في ذروته؟ وحين ترنو ببصرك، يبدو كما لو أن عينيك تتسلقان سلما من الظلال إلى الضوء؟ حسن، سأعرف ما هو الحب حين أجد قمري الكامل.

كيف ستعرفه؟ سأله أحمد بتحد.

سوف يعميني ضياؤها. نظراتها المشتعلة ستطوقني. سيكون لقاؤنا غير متوقع، كما الحلم، وسأشاهد قدري منعكسا في مقلتيها.

أوه، هيا! قال أحمد.

لا، إنني أتكلم بجِدّ مطلق، قال مصطفى، ثمة شيء ما في نبرة صوته جعلنا نصغي إليه. إنها مسألة حدس، على ما أظن. الحدس، التمييز، والتأكد. وحين يحصل ذلك... قال، وتوقف عن الكلام بسبب انقطاع في صوته... عندما أحس أن قلبي يصعد إلى حنجرتي، سوف أتوسل إلى تلك الهبة الإلهية، الجمال، لكي يحررني.

هذه كلمات جميلة حقا، قال أحمد، من دون أن تصدر منه أي حركة.

وعلى أي حال، أضفت قائلا، إن ما وصفته ليس حبا، إنه افتتان.

أنزل مصطفى عوده ببطء، ونهض على قدميه.

إذن كل ما أستطيع أن أخبرك به هو أنني أحسب أن لحظة الوقوع بالحب مماثلة لتلك التي يضربك فيها شعاع البرق الذي شق توا تلك القمة البعيدة. أو يشبه الوقوع من مرتفع وأنا أشعر

بنفسي أصطدم بعنف بالصخور وأعرف أن الحياة لن تكون هي نفسها مستقبلا.

واضح أنك عبقري، قال أحمد، ستكون في عداد الأموات.

تجاهل مصطفى كلامه. وقال وعلى وجهه وقار شديد: في لعبة الحب إنك تلعب من أجل رهان عالي القيمة جدا ويلزمك أن تكون راغبا بأن تُعرّض كل شيء للخطر. كل شيء.

ومرة أخرى، سخر أحمد منه قائلا: مجرد كلمات.

نظر مصطفى إليه وعلى ثغره ابتسامة، وبسط كلتا ذراعيه كالطائرة. نزل إلى الأسفل، وشرع يركض بامتداد خط التلال، وسرعان ما تضاعفت سرعته.

خفض من سرعتك، أيها الشاب الأحمق! صاح أحمد محذرا.

ركض مصطفى بتهور، وتوجه مباشرة إلى حافة التل حيث تنتهي بشكل مفاجئ.

وقفنا أنا وأحمد مذعورين.

ما هذا الذي تفعله؟ دمدم أحمد.

لم تكدْ الكلمات تغادر شفتيه حتى اندفع مصطفى بسرعة فوق التل وغاب عن الأنظار. كنا بالكاد قادرين على التنفس، ركضنا باندفاع واضطراب ورحنا نمعن النظر إلى أسفل الجرف شديد الانحدار.

كان مصطفى يرقد ممددا على شكل نسر على الحافة الصخرية، على بعد عدة أقدام أسفلنا. ابتسم بسمة طفيفة حين نزلنا إليه.

أعتقد أنني كسرت رجلي، قال. إنها تؤذيني بشدة، لكن ما كان ينبغي لي أن أفوّت تلك اللحظة التي أقذف فيها نفسي في

الهواء من أجل أي شيء في العالم. أعتقد أن الحب سيكون هكذا بالنسبة لي. هل تصدقني الآن؟

أنا وأحمد نظر كل منا في وجه الآخر غير مصدقين، قبل أن نتكلم معا بصوت واحد: إنك مجنون!

زهرة

استغرقنا ساعتين في حمل مصطفى إلى أعلى الجرف الصخري. أدركتنا العاصفة بينما كنا ننقله إلى المنزل. تبللنا حتى الجلد بماء المطر، كذبنا في البيت بالطبع فيما يتصل بما حدث لنا.

بعد مرور يومين، في صباح يوم صحو ومشمس، كنت بصحبة مصطفى بينما كان يجلس مكتئبا في الباحة بساقه المكسوة بالجبس مرفوعة إلى الأعلى، حين اندفع أحمد مسرعا عبر بوابة الفناء وهو يمتطي دراجته الهوائية وتدحرج حتى وصل إلينا.

حسن، قال، هيا قمْ! الفتاة التي رتّب أبي إليك الأمور لكي تتزوجها تقطع الطريق الشمالي الذي يؤدي إلى خارج القرية، وإذا ما أسرعت بما يكفي، يمكنك أن تلحق بها وتلقي عليها نظرة جيدة. هيا.. خذْ دراجتي الهوائية.

أأنت متأكد من ذلك؟

نعم، نعم، إنها زهرة، والله العظيم. إنني متيقن من ذلك مئة بالمئة.

لكنها ليست من هذه المنطقة. ما الذي تفعله هنا في وادينا؟

وما أدراني؟ لعلها كانت في زيارة لشخص ما في قريتنا.

صديقي «دهيلي» هو الذي زودني بهذه المعلومة السرية. إنه يعرف أشقاءها وتعرّف عليها عندما كانت تغادر القرية. تحرك بسرعة، ألا تريد الزواج منها؟

تحركت بقلق. أحمد، بدأت كلامي، لا أعرف ما إذا كنت أريد الزواج منها. على أي حال، إنني أثق بقرار أبي الجيد، وهناك تسلسل معين تمضي فيه هذه الأمور...

أعطاني مصطفى دفعة عنيفة. حسن، لا تكنْ شخصا رجعيا! قال بسخط. أحمد على حق. هيا أسرع واذهب لرؤيتها، وبعدها عدْ إلينا وأخبرني كيف هو شكلها.

تطلعت إليهما معا، وعلى حين غرة، ولدهشتي الشديدة، قفزت بخفة ونشاط على دراجة أحمد الهوائية، وانطلقت مسرعا، ورحت أضغط على دواسة الدراجة وأنا أقطع الدرب غير السويّ المفضي إلى القرية.

إنها ترتدي (دراعة)[10] خضراء قانية، صاح أحمد ورائي. لا يمكنك أن تخطئها.

كان محقا: لم أخطئ في التعرف عليها، وبخاصة أنها كانت الشخص الوحيد في الطريق المتجه ناحية الشمال. شعرت أن فمي أصبح جافا وشرع قلبي يخفق بعنف.

خفضت سرعتي قبل الوصول إليها بعشرين مترا، مررت بها مسرعا قبل أن أدير رأسي برشاقة كي أنظر إليها عن كثب. والله، كانت امرأة جميلة، شبيهة بشهرزاد، ذات وجه مثلث، وعينين بنيتين واسعتين، ووشم أخضر رائع على حنكها. ابتسمت حينما

(10) الدراعة: رداء خارجي فضفاض ومتهدل ومطرز يلبسه الرجال والنساء في أفريقيا - هامش المؤلف.

شاهدتني أدير رأسي وأحدّق إليها، وفي تلك اللحظة تحديدا، فقدتُ السيطرة على الدراجة الهوائية، التي انحرفتْ عن جادة الطريق، وانتهى بي الأمر بأن وقعت على قفاي بسقطة مدوية.

بعد أربعة شهور تزوجنا. كانت زهرة قد بلغت توا السادسة عشرة من عمرها. كانت في سن أحمد، تصغرني بعامين.

حديقة الشفاء

إذن هكذا كان الحال فيما يتعلق بشقيقيّ، قلت ذلك وأنا أقطع سردي لكي أنظر إلى جمهوري. أحمد لا يزال كما كان عليه؛ لم يتغيّر قيد أنملة. هو لا يزال متمسكا بالأشياء المحسوسة في الحياة، إيمانه يكمن في قدرة العالم على إشباع حاجاته. فيما يتعلق بمصطفى وإيمانه المطلق بالجمال، حسنا، علينا أن ننتظر ونرى إلى أين ستقودنا قصتنا، أليس كذلك؟

وأنا أتطلع إلى مستمعيّ ثانية، أضفت بعد فترة توقف طويلة:

لكن هذا الشيء العظيم مؤكد. إذا تسنى للمرء أن يتأمل مصير مصطفى بعد لقائه بالغريبين في الساحة، عندئذ فإن رجل الطوارق كان متفهما بصورة ممتازة فيما يتعلق بإدراكه للخطر الذي يطرحه الجمال أمام أولئك الذين يصادفونه؛ نظرا لأن حياة أخي كانت في حقيقة الأمر قد تحوّلت للأبد إلى حالة من الوجود تخلو من القناعة والسعادة على السواء.

تكلّم الآن صوت جديد، ساخر نوعا ما ومضحك:

أوه، أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدث، يا حسن. أنا لا أتفق مع ما قاله ذلك الرجل المقيم في الصحراء، ولا أقدر أن أقول

إنني أتفق معك الآن. كل هذا يدهشني بوصفه تشاؤما مطلقا.

وأنا ألتفت لكي أحدد موضع الصوت، تعرّفت على هيئة يوسف النحيلة، الابن الأوسط لأحد تجار البرتقال في ساحة الجامع. كان ضئيل البدن وشاحبا وكان يُشاع عنه بأنه من الذين يطاردون النساء. مرر على الجميع سلة مليئة بالبرتقال الحلو والمر.

إنني أحتفل بولادة ابني الثالث، أعلن يوسف بافتخار.

أومأ بشيء من الازدراء في الاتجاه الذي اختفى فيه رجل الطوارق عن الأنظار.

كفيلسوف، قال، ذلك الرجل ربما لديه الكثير كي يتحدث عنه، غير أن هذا ليس كافيا بالنسبة لي. تقريبا لم يقلْ لي شيئا عن الحياة لم يسبق لي أن عرفته. أجل، الأشياء من الجائز أن تكون كئيبة أحيانا، ولكن أين العجب في ذلك؟ الحياة الواقعية، من ناحية أخرى، تكافئني باستمرار. إنها تُظهر دوما شيئا فريدا، شيئا لم يسبقْ لي أن رأيته من قبل. لهذا السبب وهبنا الله ملكة العيون ومَلَكتي الإحساس والعقل، لكي نستخدمهما في التعلّم من تجاربنا، مهما كانت هذه التجارب سلبية. وماذا بشأن الحب؟ إنه أفضل جزاء نحصل عليه، أكثر من الأشياء كلها. هنا، أصدقائي، بيت القصيد. قولوا «لا» للتشاؤم! إذا كانت هناك تنبؤات، يجب احترامها، لكن لماذا تفسدون السعادة بعتمة الظلال والعواصف؟ عوضا عن ذلك، قولوا لأنفسكم: إنني خشبة المسرح الذي ألعب عليها حياتي!

وهو يلتفت إلى محمد، صاحب المخزن، قال بعينين يتطاير منهما الشرر: باسم ابني حديث الولادة، إنني أحيي حُسْنَ حظك

في أن تشهد شفقة السيدة الغريبة على ذلك الحيوان المسكين، الحمار. كان فعلها ينم عن الحنان والرأفة الأصيلين. كما أنني أحسد عينيك، لأنني أنا أيضا شاهدتها، ربما بعد لقائك بها بوقت قصير، ومع أنها بالأحرى تركت فيّ انطباعا أضعف، فإن وصفك لها رفع من شأن تجربتي.

لقد شاهدت الغريبين أنت أيضا؟ سأل أحدهم، فضحك يوسف وقال: نعم، نعم، شاهدت هذين الشخصين اللذين ينسج حسن حولهما حكاية هو وحده قادر على سردها.

توقف هنيهة عن الكلام، كراوي قصص متمرس، كي يرى مدى تأثير كلماته، اختار برتقالة لذيذة بشكل خاص وراح يقشرها بسهولة. بصق البذور و هو يلوكها بحيث تبعثرت حالا من حوله.

كان لقائي بهما قد جرى في وقت الأصيل، قال، وإنني أفتقر إلى براعة حَسَن في تعامله مع الكلمات، كل ما بوسعي قوله هو أنهما بالنسبة لي لاحا بوصفهما أجنبيين شابين، ساذجين، ومتعبين جدا، لعلهما كانا مرهقين بسبب تسكعهما بلا هدى حول المدينة. كانا قد تاها في باحة منزل بالقرب من (جامع الكسابين). كان المنزل يعود لأحد أصدقائي الذي كان في زيارة لأهل زوجته في مكناس، وكان من عادته كلما ذهب بعيدا أن يترك المفاتيح بحوزتي لكي يكون باستطاعتي مراقبة المنزل.

وهكذا كنت أنام القيلولة في فناء المنزل حينما تناهى إلى سمعي مصادفة مجموعة من الأصوات، وعندما فتحت عينيّ اكتشفت شابا وشابة شبه مختبئين في زاوية الحديقة وسط الأشجار والشجيرات المزهرة. أما لباسهما، فمع أنه كان محتشما،

كشفهما بوصفهما أجنبيين. كانت الشابة ترتدي بنطلون (جينز) حائل اللون، وزوجا من الصنادل، وقميصا قطنيا كُتب عليه: «إنني أحب نيويورك»، هذه الكلمات مطبوعة في جهة الصدر. كان الشاب يحمل قنينة ماء تتدلى حول خصره وخارطة مجعدة للمدينة يشير إليها بصورة متكررة. كان كلاهما قذرا وملوثا بالعرق، كما هو الحال دوما مع هؤلاء النصرانيين حينما كانوا يمشون هنا وهناك في الشمس لفترة طويلة من الزمن. وفيما يتعلق بمظهرهما، الأمر الذي غدا موضوع نقاش مهمّا هنا، يمكنني القول إن الشاب كان هزيلا جدا، (جلد على عظم) وبدا أنه يعاني من مرض (الإمساك)، لكي أكون صريحا تماما، بينما كانت الشابة جميلة بطريقة رخيصة، خادعة، حيث كانت تضع مساحيق التجميل من النوع الذي يجعل حتى النساء غير الجذابات مخلوقات غامضات ومرغوبات. أي، بكلمات أخرى، لم يكنْ هناك شيء غير اعتيادي في ما يتعلق بأي واحد منهما، وكانت أول غريزة استحوذت عليّ هي إبعادهما عن المكان، لكن شيئا ما يتصل بعجزهما كبح رغبتي تلك. لاحظت أنها كانت تبكي بلا صوت، وكان الشاب يحاول، بطريقة تكاد تكون عقيمة، وإنما برِقّة واضحة، أن يوقف دموعها بكفيه. ظهرا كأنهما غافلان عن حقيقة أنهما قد انتهكا حرمة المكان. وفي حقيقة الأمر، بدا كما لو أن الشجيرات التي كانا قد اتخذا منها مخبأ زُرعتْ هناك لمجرد أن توفر ملاذا لهما.

وبينما كان يلوك برتقالة، وعصيرها يقطر على ذقنه، تابع سيره. وفي نهاية المطاف توقفت عبرات المرأة، أما رفيقها، وقد لاح عليه ارتياح جلي، فقد صرف انتباهه إلى محفظة جلدية

باليـة كان قد استلها مـن جيبه وراح يفـرغ محتوياتهـا، وكانت غالبيتهـا قطعـا نقدية وعددا قليلا من قوائم الحسـاب. أحصى النقود قبل أن يلتفت إليها ويقول لها شيئا ما مما قلل من تدفق دموعها مجددا.

كنـت أهـمّ بتقـديم مسـاعدتي حينمـا تذكـرت مسـؤوليتي كمشـرف على المنـزل وأدركت أنه يتعين علـيّ أن أخبرهما بأنهما عوضـا عن ذلك يجـب عليهما أن ينصرفـا. صدقوني حين أقول إليكم إنني لم أكنْ أتطلّع إلى أن أوجه إليهما أمرا بمغادرة المكان. إنني أتحاشـى المواجهات المباشـرة، وهو عيب كان والدي يوبخني عليـه عـادة. غيـر أن الحظ كان فـي صالحي لأنه، حتـى قبل أن أستطيع التقدم من الفناء، كانا قد نهضا بملء إرادتهما وخرجا متسللين إلى الشارع.

وهـو يضحـك ضحكـة لطيفـة، مضى يوسـف يقـول صارفا النظر عن الموضوع:

هـذا هو الذي حـدث، يا أصدقائي. إنه لقـاء اعتيادي تماما، على الرغم من كونه زاخرا بالاحتمالات. كانا سـائحين، عاديين، وبسـيطين، ومـن الجلـي أنهما مُنيا بسـوء الحظ، لكـن نياتهما كانـت بريئة وهما خارج بلادهما، وهذا قلما يبرر الموقف الرهيب لصديقنا من الطوارق.

تم رفع الثقل

بـدا أن وصف يوسـف لم يرضَ عنه محمـد، صاحب المخزن، وحتـى إنه أغضـب رجل الطوارق راوي القصص، فقد نهض على قدميـه وغـادر الحلقة متجهـم الوجه مـن دون أن ينبس بكلمة.

وفـي أثناء ذلك، بدا كأن يوسـف كان مزروعا هناك، يلوك بهدوء حصتـه التي لا تنضب من البرتقال، وهو يرسـل نظرات سـريعة هنا وهناك كي يرى مدى تأثير مشاركته على الجمهور.

جمعـت قدراتـي كلها. وبينما كنت أسـتعد لإعادة قصتي إلى مسـارها المطلوب، وجـدت أحدهـم يقاطعني مرة أخـرى حينما وجه سؤالا موجزا إلى يوسف.

ما شكلهما؟

أعتقـد أننـي وصفتهما، قالها يوسـف، بشـيء مـن الانزعاج وشيء من الدهشة.

أعطنـا التفاصيـل، لون الشـعر، العيون، طـول القامة، وهلم جرا.

كانت المقاطعات قد أتتْ من شـاب قصير، داكن البشـرة، قوي البنية، يداه معطلتان ومدفوعتان بقوة في جيبيه. كان له مظهر رجـل يحتـرف رياضـة بناء الأجسـام، وعلـى وجهه تلمـع حبات العرق كما لو أنه قد انخرط في مجهود عنيف.

زرع نفسه أمام يوسف الذي كان قد انسحب قليلا إلى الوراء.

لماذا تريد أن تعرف أوصافهما؟ استفهم يوسف بصوت ضعيف كصوت المزمار.

لأنك قدمت لنا فقط أوصافا عامة، أجاب الرجل.

كانـت المـرأة هيفاء وبدينة نوعا ما، قال يوسـف، وكأنه يدافع عن نفسـه. مرر لسانه على شـفتيه قبل أن يستطرد قائلا: كانت أطول من الرجل. كان شـعرها بنيا خشـنا، وقدماها متسـختين. أمـا هـو فـكان يلبـس سـترة بنيـة باليـة. كان يضـع نظـارات بلا إطارات. أشقر وحليق الذقن.

ابتسم الشخص الذي يحترف رياضة بناء الأجسام بسمة عريضة ودفع حنكه إلى الأمام.

حسنا، في اعتقادي أن هذه الأوصاف مجرد هراء، عبّر عما جال بذهنه من دون تردد إضافي.

ماذا تقصد؟ قال نجل تاجر البرتقال لاهثا.

وصفك يتناقض مع أوصاف جميع الأشخاص الذين استمعنا إليهم حتى الآن. أعتقد أنك اختلقت الأشياء اختلاقا. إنك كذاب.

نطق كلمة (كذاب)، وهو يمطها في فمه كي يهبها توكيدا إضافيا.

انتفض يوسف وقام على قدميه. وبجانب الشاب الضخم بدا يوسف شبيها بغصن صغير من القش. وجهه خال من الدم، شفتاه شاحبتان، بدا مفزوعا.

لديك الجرأة لكي تشك في مصداقيتي! هتف يوسف. نظر إليّ لكي يتلقى دعما مني، بيد أنني كنت أستمتع بالعرض كثيرا.

وأنا أقول لك إنك مجرد نفاية من النفايات.

حسنا إذن، والآخرون هنا كذلك! لا أحد يتذكرهما بشكل واضح. وصفي جيد بقدر ما كان عليه وصف أي واحد من الآخرين!

إنني أتحدث عنك أنت بالذات، وليس عن أي شخص آخر.

رمق كل منهما الآخر بنظرة فاحصة، بدا يوسف وكأنه فى موقع حصين على الرغم من كل المعارضات. ومن ثم مال رياضي بناء الأجسام إلى الأمام. زرع قبضة قوية على صدر بائع البرتقال الجوال، وصاح قائلا: من ذا الذي يريد أن يسمع عن فيلولاتك

وعن أقارب زوجة صديقك الأثرياء؟ نحن لم نأتِ إلى هنا لكي نستمع إلى ثرثرتك، أنت النكرة الواثق من نفسه!

وقال وهو يميل ذقنه في اتجاهي متحاملا عليّ:

دعْ ذلك الرجل يروِ قصته، هل تسمح له؟ إنني أحبذ الاستماع إلى نسخته.

تراجع يوسف خطوة إلى الوراء، كان وجهه الشاحب يظهر من الخوف بقدر ما يظهر من السخط.

لست ذاهبا إلى أي مكان، قال بعناد. لن ألطخ سمعتي.

وعندئذ، فقد رياضي بناء الأجسام صبره.

أوه حقا؟ صاح. انصرفْ الآن، وإلا سوف...

التهديد المخفي كان له تأثيره المرغوب به، لأن يوسف تراجع بسرعة مبتعدا عن حلقة المستمعين، وانكمشت هيئته المنسحبة لتغدو نقطة سوداء في الجانب الآخر من الرقعة الشاسعة للساحة.

حسنا إذن، هي ذي حقيقة الأمر، أعلن رياضي بناء الأجسام ببلاغة مميزة. التفت إلي مبتسما ابتسامة عريضة. لا أحبذ أن يدمر أحد قصصي. يمكنك الاعتماد عليّ في المرة القادمة حينما يكون لديك أشخاص يفسدون على القوم متعتهم. أنا حسين، من (زكورة)، الواقعة في أقصى الجنوب. إنني حديث العهد هنا. أنا رافع أثقال. يمكنني أن أعصر مئة مصطبة بيد واحدة. أنشأتُ كشكي في الحافة الغربية من الساحة، أمام (كافيه دي فرانس).

ابتسمت، مُقِرًا بالجميل لمداخلته السريعة والمؤثرة. بينما شعر هو بالخطر الذي.لوح به يوسف وأعاد إلى قصتي غموضها الضروري.

وعلى حين غرة أقبل صبي صغير السن بسمق[11] رثٍّ راكضا إلى حسين، وهمس شيئا ما في أذنه. وكان رد فعل الأخير وكأنه ضُرب بالسوط.

شخص ما سرق قضبان رفع الأثقال الخاصة بي وفرّ هاربا! صاح حسين، دار حول نفسه لكي يلقي نظرة عامة على الجهات الأربع للساحة. أنا سأنصرف!

دار وسار في أعقاب الغلام الصغير وهو يحمل تصميما أشبه بتصميم الكلب الذي يطارد الأرانب الوحشية. راقبناه وهو يغادر وأنا متأكد أنني لم أكنْ الشخص الوحيد في حلقتنا الذي تساءل ما إذا كان المتهم هو يوسف الذي غادر منذ وقت قصير.

البرابرة المغربيون يغزون إسبانيا

كان لتطفل حسين الخشن والجاهز مفعوله المقوي لروحي. كان قد تكلم باستثارة، وببساطة، ولكن مباشرة من القلب، وكانت ثقته بي قد منحتني الأمل الضروري في تلك الأمسية. تهيأت لكي أستأنف حديثي، وأنا آخذ خيط السرد من الموضع الذي تركه فيه يوسف، إنما بجهد مختلف جدا. مسَّدْتُ لحيتي وألقيت نظرة عامة على جمهوري، تمهلت نظراتي على وجوههم التي غدتْ تارة يقظة، مصممة، وتارة ساكنة، متكتمة، وبدا كما لو أنني غير قادر على أن أمتع عينيّ بما فيه الكفاية وأنا أنظر إلى ملامحهم.

ملأت أفكارُهم وخواطرُهم الهواء. كان بمقدوري أن أسمعهم، وأغمضت عينيّ لكي أصغي حتى أكون قادرا على كشف معاني

(11) السمق: ثوب خارجي فضفاض يُرتدى لوقاية الملابس من الاتساخ - هامش المترجم.

أفكارهـم الغامضـة. هذه هـي طريقة راوي القصـص، وكانت قد أخـذت منـي وقتا طويـلا لكـي أدرّب نفسـي عليهـا. كان الوضع أفضـل فـي القريـة، حيـث كان الهـواء السـاكن يجعـل الإصغاء أسـهل. كل مـا عليـك أن تفعله هو تمييز الكلمـات عن الأصوات المحيطـة بهـا؛ طنين الحشـرات، خريـر الجداول، همـس الرياح، والبقيـة تأتي بشـكل طبيعي. القصص تصنع نفسـها من أحلام اليقظة البطيئة، الساكنة والكسولة.

كان الوضـع مختلفا في المدينـة. كانت الأصوات أعلى، وأكثر حـدة، وكان المجهود الذي أبذله لكـي أميز الكلمات من الأصوات المتنافرة المحيطة بها يجعل رأسي يدور.

كانـت زيارتـي الأولـى إلـى مراكـش برفقـة أبـي وأنا في سـن السادسـة، وكان أبي قد قرر أنه يتعين عليّ أن أصاحبه من قريتنا لكي أتعرف لأول مرة على مهنتنا من خلال مشـاهدته وهو يروي القصص. كنا قد وصلنا إلى سـاحة الجامع وقت الأصيل وبقينا هناك إلى ما بعد منتصف الليل، حيث كنا سـنغادر وننام في كوخ عمـي مهنـد في حي (بريمة)، الذي يقع خارج أسـوار المدينة. كان مسـموحا لـي أن أنام في صباح معظم الأيـام بينما كان هو يغادر متجهـا إلى الأسـواق. وفي أيـام أخرى كنا نتخلص من الشـمس الملتهبة من خلال زيارة القصور الباردة، وارفة الظلال، في المدينة. كان يبدو أنه يعرف جميع الحاضرين الذين كانوا يحترمونه كونه رجـلا متعلمـا، وفي أغلب الأحيان وليس دائما كان مسـموحا لنا بالدخول من دون أن يتعين علينا دفع الأجور المعهودة.

كانـت القصـور تحتوي علـى الكثير مـن الرسـوم التاريخية، وكان أبي يشرحها لي بصبره المألوف. كانت الرسوم المفضلة لديّ

هي مَشاهد المعارك، وبالأخص الرسم المذهل في (قصر باهية) الذي حمل عنوان (البرابرة المغربيون يغزون إسبانيا). كان الرسم يصف (معركة باجادوز)[12] التي هزم فيها ملكُنا، ملكُ المرابطين، يوسفُ بن تاشفين مؤسسُ مراكش، القواتِ النصرانيةَ هزيمة منكرة. كان الرسم الذي أُنجز على وفق الأسلوب الأوروبي يصف المعركة من وجهة النظر الإسبانية. كانت ثمة لوحة من النحاس الأصفر في أسفل الإطار، مترجمة إلى العربية، تشرح قائلة إن الرسام كان متأثرا بشخص ما يُدعى (إيل غريكو).

كنت مفتونا بالرسم لأن الإسبانيين، الذين احتلوا مقدمة اللوحة، كانوا ذوي أجساد ورؤوس طويلة بشكل لافت. كانوا يشبهون الأشخاص الضعفاء، ولم يدهشني أنهم لم يكونوا قادرين على التصدي لقواتنا المغربية ومواجهتها، الذين كانوا يشكلون وبصورة مخيبة للآمال كتلة سوداء لا شكل لها في الأفق.

بعد مرور سنوات قليلة على ذلك، حينما كنت في التاسعة، عثرت بالمصادفة على نسخة متهرئة من رواية إسبانية، كانت مطروحة على الرصيف في الجامع، وكانت صورة الغلاف مرة أخرى تصف فارسا إسبانيا هزيلا على نحو فاضح وهو يهاجم بعض طواحين الهواء. منذ تلك اللحظة فصاعدا، وطوال بقية سنوات صباي، كان يتملكني ازدراء صحي تجاه الإسبانيين.

كان أبي راويا تقليديا، ضليعا في التراث الشعبي، بيد أنه كان كذلك واسع المعرفة على نحو غير اعتيادي بالنسبة لشخص

(12) معركة باجادوز (1086م): هي المعركة التي عبر فيها المرابطون، وهم رجال قبائل من جبال أطلس الأعلى نحو إسبانيا وهزموا الجيش النصراني بقيادة ألفونسو السادس، ملك كاستيلي وليون - هامش المؤلف.

نشأ وترعرع في قرية جبلية من دون أن يتلقى تعليما رسميا. كان يعـرف لهجات بربرية عـدة، وكان يتحدث بالعربية الكلاسـيكية بطلاقـة، وحتـى إنـه كان يسـتخدم كلمـات قليلة من الفرنسـية واللغـات الأجنبية الأخرى في قصصه عندما كانت تلبي غرضه. كانـت له عين قوية فيمـا يتعلق بالتفاصيل المادية، بحيث يجعل قصصه مأهولة بالشخصيات التي لا تُنسى. كانت أفضل قصصه تتكّون من سلسلة من الوقائع حيث كانت خاتمتها الموعودة تمتد على مدى أسابيع قبل أن تحل النهاية المدهشة أو المرعبة.

كان رجـلا طويـل القامة، ذا شـعر قصير، لطيفـا ومتحفظا، غيـر أنـه كان يمتاز بطبيعة كئيبة. في كل ربيع، مع ذوبان الثلوج، كان يستسلم لنوبات كآبة تستمر أياما معدودات نحرص خلالها علـى البقاء بعيـدا عنه. كان يُذاع بأنه في عهـد صباه قتل امرأة لم تكنْ وفية وأن روحها كانت تعود عاما بعد آخر لتسـكنه. يجب على المرء أن يكون قريبا منه لكي يتحسـس تلك الصفة المتوترة القابعـة تحت تكتمه، تلك المـرارة الحادة تنبثق من تلك الخيانة القديمـة. وإذا مـا نظـرت الآن مجـددا إلى ما جرى فـي الماضي، أدركـت أنـه ليس مـن العجب والدهشـة أن موضوعـه الأثير كان «الحنين إلى الماضي».

خارج جلسات سرد القصص، المهنة التي كان يزاولها، لم يكنْ يتكلّم كثيرا. كانت تقلبات الحياة قد نقشـت سلسـلة من التلال الدائمـة بين عينيه بحيث كان يبدو علـى الدوام قلقا ومهموما. وغالبا كنت أتسـاءل ما إذا كانت المرارة المضخمة التي يشـعر بها هـي متنفـس لداء آخر، مجهول، لكنني لـم أكن أعتبر هذا الأمر شـيئا يضيـره. كانت هذه المسـألة قد منحته صفـة مميزة، وكنت

أضمر له الإجلال والاحترام بسببها. كان يعطف عليّ، ويتحلى بصبر عظيم حينما نهبط معا إلى مراكش قادمين من الجبال.

باجادوز

عمي مهند الذي قدّم لنا المأكل والمبيت في مراكش كان عاملا يوميا، وهو الخروف الأسود في الأسرة، لكنه كان يحب أبي إلى درجة كبيرة، وفي نظره لم يكن أبي بوسعه ارتكاب أي خطء. ومع أن منزله المتداعي يتألف من غرفتين فقط، لكنه كان يصر على النوم خارجه ومنح إحدى الغرفتين لشقيقه الأكبر وابن شقيقه، وهي مسألة كانت موضع خلاف شديد مع زوجته العجوز التي كانت دوما محبة للخصام. كانت تمتعض من حقيقة أن زوجها رفض أخذ النقود من شقيقه خلال مدة بقائنا، وكانت توبخه بقسوة ومرارة حينما لا يكون أبي في البيت. لكن عمي لم يحرك ساكنا، ولم يكن يسمح بأي تغيير في الترتيبات.

خلال أول سنتين، كان أبي يبقيني إلى جانبه بينما كان يروي قصصه، ويدربني على الإصغاء إليه وإبقاء عينيّ وأذنيّ مفتوحين. كان يعرف أن ساحة الجامع كانت حجرا لشحذ الخيال، وكانت الهيئات المتبدلة لشخصياته مكتبة حقيقية لأي متدرب لكي يقلّب صفحاتها، فيما هو يطوّر أدواته الحاذقة الخاصة بالصنعة. غير أنني كنت صبيا قلقا، وكان ذهني يظل دوما بعيدا عن قصص أبي المعقدة. مع أنني كنت أجدني عادة أجفل متلبسا بالشعور بالذنب، وذات مرة ضيّعت الخيط الذي يربط الحكايات وكان ذلك بالنسبة لي آخر شيء في ذلك اليوم. كان أبي يضبطني وأنا منغمس في أحلام اليقظة، غير أنه لم

يعاقبني أبدا. بالأحرى، كان يشجعني على البقاء منهمكا مع قصصي الشخصية.

وهكذا بعد مشاهدتي الأولى للوحة المعنونة (البرابرة المغربيون يغزون إسبانيا)، أمضيت عدة ساعات إلى جانبه وأنا أتمثل المعركة مجددا، متصورا لقاءات رهيبة متخيَّلة انتصر فيها الجيش المسلم بصورة محتومة. كنت أجلس وراءه، آخذ ركنا من بساطه المنسوج، وأستخدم أنماطه الهندسية لكي أحدد مواقع الجيشين. متخيلا الخطوط المحيطية للبساط على أنها وديان وتلال، قضيت ساعات طويلة وأنا أنحت بجهد ومثابرة مئات الجنود من شظايا الخشب وأرتبها بهيئة أفواج عسكرية. سمّيت سرايا المسلمين الشجعان بأسماء العناصر: الدخان، النار، الماء، التراب، الهواء. أما الجنود الأسبان الهزيلون فكانوا منحوتين بصورة غير متقنة، ولم يكونوا يشكلون سوى كتلة سوداء وهي تلوذ بالفرار في كل مرة أطلق فيها العنان للقوة التي لا تُقهر الخاصة بالعناصر الخمسة. كانت تلك هي الطريقة التي ثأرتُ بها من رسام اللوحة، ونلت رضا وقناعة هائلين حين أعدتُ الأمانة للحقائق بهذه الكيفية.

ظللت مشغولا طوال موسمين بتمثيلي معركة باجادوز، ومن ثم، في أحد الأيام، أعطاني سائح ألماني، مهيب وطيب القلب، ما بدا مبلغا سخيا من المال لقاء بيعي المرابطين الذين نحتُّهم ببراعة متقنة. رفضت بصراحة تلقي المبلغ منه، لكنه حين رجع في اليوم التالي، قبلت مبلغ النقود غير المحسوب في لحظة حماقة، وكشفت عن واجبي باعتباري حارسا للتاريخ.

اعتلَّت صحتي في تلك الليلة وبقيت مكتئبا وجزعا على مدى بضعة أيام. شجعني عمي على إعادة خلق جيوشي، لكن المزاج المعتدل كان قد غادرني إلى غير رجعة. ونظرا لأن الطمع كان قد روّعني، لم يعد في مقدوري الوثوق بنفسي لكي أصون وأحمي قضية المسلمين.

ضحك أبي على خيبة أملي وأنا أستعيد أحداث الماضي الموغل في القِدم.

جعّد شعري حينما استلقينا لكي ننام في إحدى الليالي.

لا تبعْ أحلامك، قال لي.

العين المفصولة عن الجسد

خلال موسمي الثالث في ساحة الجامع، عملت في أحد أكشاك الأطعمة الكثيرة فيها لكي أعزز عائدنا المالي. كان صاحب الكشك هو عبد السلام، أحد مواطني مراكش. كان رجلا قصير القامة، نحيل العود، شاحب الوجه، وكان ينحدر من أسرة فقيرة، ويعمل بأقصى جهد لكي يوفر المال حتى يستطيع شراء رخصة الكشك الخاص به. كان يكرس كل قدراته للكشك؛ يعمل من الفجر حتى الغروب، ويتوقع من معاونيه أن يحذوا حذوه. وفي بعض الأحيان، كان يتعقبهم حاملا عصا حينما يشعر أنهم لا يقومون بنصيبهم من العمل، غير أنه كان يتركني بمفردي لأنه كان يخشى أبي ويهابه. أعتقد أنه كان يؤمن أن أبي يملك سلطات سحرية.

كان عبد السلام يحب تلاوة آيات من القرآن، التي كان يتبادلها مع أغاني الراي من الجزائر و(الريف). كان لديه زبائن نشيطون

ويكسبون أموالا جيدة، غير أن عملي كان مملا ومضجرا. كنت صبيا في مهنة غير نظامية، أقدم المساعدة في خليط من المهمات كانت تتراوح بين تقطيع الخضار إلى شرائح إلى غسل الموائد والمصاطب الخشبية الموضوعة أمام الكشك بخرطوم الماء. كنا نبيع الأسياخ، وسلطات الزيتون، وشطائر السمك، و(الكفتة)[13]، وشرائح لحم البقر، والحمل المشوي، و(البستلة)[14]، والبسكويت الحلو باليانسون، والبطيخ الأحمر، وحليب اللوز، ومشروب عشبة (الجنسة) اللاذع الذي يُدعى (خيندنجال) الذي اشتهر بكونه مثيرا للشهوة الجنسية. كان العنصر الذي اشتهرنا به كثيرا جدا هو نقانق الحمل الحمراء كالدم، التي كان يتبلها صاحب المحل بصلصة الفلفل الأحمر الحار الحادة التي كان يصنعها بنفسه. وكانت مقولته الأثيرة: علامة الرجل الحقيقي هي قدرته على مس صلصتي الحادة!

كنت أعمل هناك من التاسعة صباحا حتى الرابعة عصرا قبل انضمامي إلى أبي في الطرف الآخر من الساحة. كانت الساعات الممتدة بين وجبات الطعام مضجرة جدا، وبخاصة في وقت الأصيل، وكنت أزجي الوقت بأن أتصور نفسي عينا متحررة من الجسد طافت الساحة. كانت تلك حيلة علّمني إياها أبي لكي يقوّي من خيالي وذاكرتي. فأنا أرسل عيني المتجولة بعيدا، وأعد بيانا مفصلا عن خصائص الأشياء التي شاهدتها بحيث يكون باستطاعتي أن أستنسخها له في قوائم أطول من القوائم السابقة. كان يضع أمامي هدفا مؤلفا من مئة شيء مختلف

(13) الكفتة: كرات من اللحم المتبل - هامش المؤلف.

(14) البستلة: فطيرة الحمام، وأصلها من مدينة فاس - هامش المؤلف.

واليوم الذي أكون فيه قادرا على تعدادها هي لحظتي الأكثر افتخارا.

كانت تلك القوائم بالنسبة لي كذيول الدخان التي يمكنني أن أستحضرها من الهواء الضعيف. وكانت تزودني وأنا واقع في شَرك دائرتي الخاصة بالمهمات الوضيعة، بمهرب ضروري كما تمنحني إحساسا متناميا بالثقة. في البداية، كانت القوائم عشوائية: عندليب محبوس في قفص، سلال محيكة باليد، مخزن مجوهرات بربرية، (رحاليا) فاقعة الألوان، صحون كبيرة للزينية من فاس، بألوان تتألف من الأزرق والأخضر والأصفر اللامع، مصابيح زيتية فخارية مزخرفة بدقة، أباريق ماء نحاسية وغلايات شاي فضية، يد (فاطمة) مصنوعة من النحاس الأصفر لكي تبعد العين الشريرة، كراسي من الحديد المطاوع، إوزّات ودجاجات منزعجة، (شرّابات) حرير، خفاف جلد، جلابات وبرانس، أكداس من أوراق النعناع المتيبسة، جرار بهارات بلاستيك مملوءة بـ (الجوجوبة)، والـ(كابا كابا)،و(النيلة)،و(بلورات جصية تكونت في الصحراء)، و (الحلبة)، و (العنبر). ولاحقا، هيأت ذاكرتي للقيام بمهمات أكثر تحديا، واقتصرت على قوائم أشياء محددة، مثل الحلوى، أو العلب المطلية باليد، أو سروج البعير. وذات يوم، وجدتني متخما بالقوائم وأعددت عيني المتجولة للقيام بمهمات أكثر تحديا. كنت أفتش عن وسيلة للنظر عبر الأبواب والجدران، أو كنت أقشر أرصفة ساحة الجامع لكي أُظهر عشرات الأعداد من الرؤوس المخللة للمجرمين المتهورين من القرون الماضية، طلعاتهم ضعيفة البصر مخوزقة على المسامير الكبيرة. وفي

موضع آخر تحت الرصيف عرّيت مساحات واسعة من الأرض الزاخرة بزهور الياسمين المقطوفة.

بدأت أسميَ نفسي (أستاذ العين المفصولة عن الجسد). لا أحد، ولا شيء، كان بمأمن من نظراتي الباحثة بدقة. وضعت خشية الله في أكثر قلوب المجرمين تحجرا. وحين أخبرت أبي، حذرني من الغطرسة.

الزواك(15)

في أعماق المدينة، في الطابق الثاني من قصر (دار سي سعيد)، كانت هناك غرفة نوم مخصصة للأعراس مكسوة من الأرض حتى السقف بـ (الزواك)، موتيفات زهرية وهندسية مرسومة على خشب أشجار أرز الأطلس. في زاوية من غرفة النوم تلك، على سطح صغير من الجدار مختلف عن السطوح المحيطة به، هناك نقش بأسلوب معين يصوّر راوي قصص في ساحة الجامع، مع ابنه الصغير يجلس إلى جانبه. مع أن النقش، الفريد في كونه رمزيا، كان يعود إلى أكثر من مئة عام، أحب أن أعتقد أنه يصوّرنا؛ أنا وأبي. إنه يدفعني إلى الابتسام: هذا التخليد في الخشب المرسوم الذي أفلت إلى حد ما من الحظر الإسلامي فيما يتصل بالصور.

في الماضي، حينما كنت أجلس في ظل أبي على سجادته المنسوجة، كنت أفكر في ذلك النقش وأحاول أن أحتفظ بسكوني التام، متظاهرا بالثبات. متأثرا بقابليتي على البقاء بلا حراك،

(15) الزواك: رسم على الخشب – هامش المؤلف.

أعطتني امرأة تلبس خمارا خمسة دراهم وقطعة حلوى لزجة. قطب أبي حاجبيه وهو يرى قطعة النقد المعدنية، من الجلي أنه انزعج من مصدرها غير القويم.

قال أبي: إنني أؤمن بخلود فن النقش على الخشب. لكنني لا أؤمن بالذريعة. يجب ألا نخلط بين الواقع وصفاء الخيال.

ربما إذا أبعدنا النظر، في نفس حجرة النوم تلك في قصر (دار سي سعيد)، كان هناك شمعدان مصنوع من الخرز أثار مخيلتي أيضا. كان قد صُنع باليد من شبكة أسلاك رفيعة جدا، مُرر الخرز من خلالها ورُبط بها، كما لو أنها قد وقعت في شرك الكهرمان. وقعت أنا في حب ذلك الشمعدان منذ الوهلة الأولى التي شاهدته فيها. كان الوقت ليلا، كانت الشمس الآفلة تلقي ضوءا قرمزيا خفيفا على قمم الجبال البعيدة، وعبر نافذة ذات زجاج مطلي كان الضوء الخافت يدخل الغرفة ويشعل الشمعة. ومنذ ذلك الحين، في كل ليلة، كنت أمضي إلى فراشي وأنا أحلم به. كان ذلك تقمصا عاطفيا يبعث الهدوء والسكينة في نفسي، كنت أحس بذبذبة تربطني بالشمعدان مما كان يجعلني أرتجف في كل مرة أتخيله فيها. كنت أرقد في سريري وعلى ثغري ترتسم بسمة سعادة سرية.

وفي إحدى الليالي سألني عمي مهند ما الذي كنت أحلم به؟ وحين أخبرته انفجر ضاحكا.

حسنا، على الأقل إنه هوس عديم الضرر، قال عمي، على خلاف أنواع أخرى كثيرة. زفر نَفَسه من فمه. الأشياء التي لا حياة فيها لا توجع وجعا شديدا، قال، إنها لا تضايقك بصفة مستمرة. ثم نظر بإعياء من فوق كتفيه في اتجاه زوجته التي كانت وقتها في المطبخ.

أعطني حلم يقظتك، قال لي. يمكنني أن أستخدمه.

وبعدها قال: احترس من النساء. إنهن خطيرات.

فندق علي

غير أن هذه المرأة كانت جميلة، قال عبد الله ببسمة حزينة، وصدّقته. نظر إليّ ولمحت وميض العجب والدهشة في عينيه.

كان عبد الله يواظب دوما على الانضمام إلى حلقتي من المستمعين. كان بربريا من (وادي داديس) الواقع في السفح الشرقي من جبال أطلس. يُذاع عنه أنه ابن قائد، رئيس قبيلة، كان قد عانى ظروفا صعبة. وعندما عرفته، كان يعمل نادلا في (فندق علي) الشعبي في (شارع مولاي إسماعيل)، المحاذي لساحة جامع الفناء. وكان يبدو أن حلقتي من المستمعين لا تكتمل ما لم يلتحق عبد الله بها، كان هذا الرجل طويل القامة، محدودب الظهر، يضفي لمساته على أحداث الروايات.

مَنْ هذه التي تتحدث عنها؟ سأل أحد الأصوات بفظاظة.

أغمض عبد الله اللطيف عينيه وكأنه يتذكر شيئا ما.

الغريبان في الساحة، قال بصوت ناعم. الغريبان. كانت المرأة ذات العينين الزرقاوين، والشعر الذهبي. لا أزال أحلم بها.

قاطعه الصوت نفسه بغضب سريع جدا:

كنت أظنها ذات عينين داكنتين، وشعر داكن.

أنت مخطئ، أجاب عبد الله، بصراحة جعلت دقة ملاحظته محلا للثقة. صورتها انطبعت في خيالي. كانت عصية على النسيان بصورة مطلقة وتامة.

تــردد لحظة، انقلبت أذناه حمراويــن قانيتين، وبعدها مضى يقــول: ليــس ثمة ســبب يدفعني للكــذب. لقد شــخص الأطباء إصابتي بأنها مرض الســرطان. لم يتبق لي وقت طويل أعيشــه. لكنني سأحمل ذكراها معي إلى قبري.

لا ضرورة لأن تغدو مؤمنا جدا بالقضاء والقدر، قلت بلطف.

ابتســم عبــد الله. فــي الحقيقــة، رد عليّ قائــلا، إنني واقعي تماما.

ســعل سعالا خفيفا، وبذلك الصوت المكتوم، كان بمقدورنا أن نتلمس المرض الذي يفعل فعله المسموم في أنحاء بدنه. وكما لو أنه شعر بنظراتنا الفاحصة المسلطة عليه، فطأطأ رأسه.

لســت موضــوع الحوار هنا، قالها بصــوت مرتبك. أصغوا إلى قصتي. إنها لا تخلو من الأشياء العجيبة.

وبإيمــاءة ســريعة أزاح إلــى الــوراء خصلــة شــعر تدلــت على جبينه. نظر من خلالنا إلى الســاحة، واتســعت عيناه كما لو أنه كان ينغمــس فــي دوامة مظلمة مــن ذاكرته. وبينمــا كانت عيناه لا تــزالان مثبتتــين علــى الســاحة، وصــف لنــا ليلته في ســاحة الجامــع، وراح يضيف حدثا إلى حدث مــع الاهتمام بالتفاصيل التي كانت ميزة من ميزاته.

كنت أعمل في نوبتي الليلية. كان الوقت التاســعة تماما لأن الســاعة الجدارية العتيقة في المطعم دقت معلنة عدد الساعات، فحسبت عددها كعادتي. وعلى غرار الساعة الجدارية، كانت جميع الأشياء في المطعم تنتمي إلى عصر آخر. الدواوين والكنبات من زمن الســلطان مولاي عبد العزيز، مرشــات الملح يُقال إنها تعود إلى باشا الغلاوي، الأرضيات القرميدية والجدران يعود تاريخها

إلى بداية القرن، بينما كانت الآنية الخزفية (الطاجين) وغلايات الشاي من نزل القرون الوسطى في (مالي).

كان الجو دافئا في الداخل. وكنت قد علّقت سترتي على رف الثياب في الممر، وأنا أقوم بعملي كنادل بقميصي ذي الكمين. وفي مأواه الزجاجي، كان صديقي المحاسب إدريس يسجل العوائد المالية لذلك اليوم. كان الطهاة يلعبون الورق في المطبخ بينما كانوا يعتنون بالآنية الخزفية. وفي لحظة ما أثناء الليل، مال أحد الكراسي وسقط، وأصدر صوتا أشبه بصوت طائر يتشاجر. وفوق كل شيء ارتفعت الأصوات المألوفة لمطعم مزدحم: قرقعة الأواني الفخارية، والسكاكين، والمناقشات منخفضة الصوت بلغات كثيرة، والنظرات الجانبية. كانت الوجبة الخاصة بتلك الليلة هي حساء التين. وكنت أنا أغرف جوهره الدافئ، الشفاف، وأسكبه في الطاسات المرة تلو المرة من أجل السائحين.

تجسد الغريبان وكأنهما أقبلا من الهواء الخفيف. أشحت بنظراتي بعيدا عن الموائد لحظة، وفي اللحظة التالية كانا قد ظهرا فجأة. خفتت أصوات المطعم في الحال. لفت الاثنان الأنظار على نحو آسر. الظلال ملأت الغرفة. ومن ثم تقدمَتِ الشابة نحوي بحركة سلسة.

نحن مرهقان، تمتمت الشابة. هل يمكننا الحصول على مائدة هادئة؟

من الكلمات الأولى تلك، عرفت أنهما أجنبيان. كان صوتها ذا لكنة غريبة، بينما كانت ملابس الرجل وسلوكه تُشير إلى خلفية عالمية غير خلفيتنا نحن.

أرشدتهما إلى الغرفة الخلفية، خففت من الإنارة، وحرّكت الكراسي من دون لمس الأرض. جلس الرجل على الكنبة وأغمض عينيه. كانت ملامحه دقيقة، ومتعبة بعض الشيء، وكانت لحيته مشذبة تشذيبا جيدا. جلبت لهما الماء المعطر بأزهار البرتقال. أذابت الشابة كبسولة بيضاء في كأسه وجعلته يشربها. راقبتهما بانتباه. بدا كما لو أننا نحن الثلاثة مشتركون في حركات كل واحد منا.

ولأني جسور بصورة غير مميزة، سألتهما إلى أي بلد ينتميان.

من بلد قصي، قال الرجل الأجنبي من دون اهتمام.

إنه من الهند، قالت المرأة. إنني نصف فرنسية، ونصف أمريكية. هذه هي أول مرة نأتي فيها إلى ساحة الجامع.

ماذا عن مراكش؟

إنها المرة الأولى أيضا التي نزور فيها مراكش.

وماذا بشأن المغرب؟

إنها زيارتنا الأولى للمغرب، قالت الشابة وابتسمت. كنا نتجول في أرجاء المدينة طوال اليوم. إنها مكان جيد لكي تضل طريقك فيه.

أشرت إلى لحيته وسألته ما إذا كان مسلما.

رفع إحدى يديه إلى قلبه، لكنه لم يقلْ أي شيء.

إنني معجب بالأفلام الهندية، تطوعت للقول، وبخاصة أفلام عقدي الخمسينيات والستينيات. إنني أحب الممثلين والمغنين. غريتا دوت، كيشور كومار، لاتا مانجيشكار، ومحمد رافي. إنهم يتحلون بدماثة وبراءة نادرتين.

أومأ برأسه بصورة ملتبسة لكنه ظل صامتا.

أتمنى أن يعجبكم هذا المكان، قلت بنغمة يشوبها الإحساس.

وأنا أشق طريقي عائدا إلى الغرفة الرئيسة، بحثت بين أشرطة التسجيل إلى أن عثرت على مجموعة قديمة من الأغاني من غناء محمد رافي. وعلى الفور ملأت الجو كلمات أغنية حب، لحن حزين مشبع بالشوق والأمل.

حين رجعت لخدمتهما، كانا لا يزالان جالسين كما تركتهما، غارقين في الصمت. لم يكنْ يبدو على الرجل الاهتمام بأي شيء. وعلى حين غرة، أخذ يئن وشرع يدلك جبينه. تقدمت المرأة نحوه بقلق وأمسكت رأسه بين يديها. قبضت يده اليمنى على رسغها. وبينما هي تتطلع إليه بحرص، همست بكلمات محببة وداعبت خديه. كانت تلك لحظة شخصية، لذلك تركتهما.

وعندما عدت ومعي قائمة حسابهما، سألتني الشابة متى تبدأ حلقات الطبول العزف في الساحة. حذرتها من الذهاب إلى هناك في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

لكننا يجب أن نسمع قرع الطبول، ردَّتْ عليّ. كانت عيناها الزرقاوان البراقتان متلهفتين لرؤية مشهد الطبول. كنا سمعنا كل ما يتعلق بالطبالين الذين يأتون إلى هنا من أمكنة بعيدة.

أوه نعم، إنهم يقبلون من جميع الأنحاء، من النيجر، من مالي، من (الريف) والأطلس، والصحراء الكبرى والساحل. إنهم يعزفون على آلات (الجمبري)[16]، والمزامير، وآلات العود. طبولهم ترن خلال ساعات الليل بقرع بدائي. لكن الوضع ليس آمنا بالنسبة لكما. ثمة نشالون هناك ولصوص وجميع أنواع

(16) الجمبري: عود فولكلوري طويل العنق - هامش المؤلف.

المجرمـين. الرجال يدخنـون (الكيف)[17] وهم سـكارى في أغلب الأحيان، على الرغم من كونهم مسلمين. إنهم يفقدون السيطرة على أنفسـهم. تحدث أشـياء كثيرة هنا ليسـتْ بالحسـبان. لقد سمعت قصصا كثيرة غاية في الغرابة.

التفتُّ إليه: لا تذهبْ إلى هناك.

لا تأخذها إلى هناك، كررت قائلا.

لا يمكنني أن أجزم أنه سمعني. كان يبدو ساهما جدا. نهض مـن المائـدة بينما اسـتدارت هي ونظـرت إليه زمنـا طويلا وبقوة عجيبة. سنكون حذرين، قال الرجل بصوت ضعيف، وفي النهاية شكرني على نصيحتي مع هزة من كتفيه.

شـكرتني المرأة. أحببت الطعام هنا، قالت، وبالأخص حسـاء التين.

عودا في النهار كي تتناولا أكلتنا المعروفة باسم (طنجية)[18]، حثثتهمـا. جميع الناس في مراكش يعرفون أكلة (طنجية) التي نقدمها للزبائن. إنها أكلة مشهورة عالميا.

أدارت الشابة وجهها نحو الساحة.

إننـي أتطلـع إلى سـماع الدفوف، قالت. سـيكون ذلك خطوة إلى الوراء في مسار الزمن. انتظرت زمنا طويلا من أجل ذلك.

قلـت لهمـا ما يكفي. وأومأت مستسـلما تعبيرا عن قبولي لما يريدان. ترك لي الرجل هبة من عشرة دراهم.

ابتسمت الشابة وودعتني بالعربية.

بالسلامة، قالت، وهي تتحول بابتسامتها إلى لغة أخرى.

---

(17) الكيف: الماريجوانا - هامش المؤلف.

(18) الطنجية: لحم مطبوخ ببطء شديد في قدر فخاري - هامش المؤلف.

راقبتهما بخوف وهما يغادران.

طريق السلامة، فكرت في نفسي.

كان المصباح الزيتي الموضوع على منضدتهما قد انطفأ. وكانت هناك كمية قليلة من الرواسب في القاع. ثم وثبت إحدى قطط المنازل على سطح المنضدة وشرعت تلاحق فراشة، أبعدتها عن المكان، لكنها أصدرت مواء خفيضا واحتكت بي. ولسبب ما، ذكّرني ذلك بمنزلي: بابه الخشبي الصلد، والأمان الذي ينبعث من جدرانه. في كنف منزل كهذا، يعيش المرء خارج الزمن. ومن ثم فكرت في ساحة الجامع ومسالكه المفتوحة على وسعها، في أي لحظة، من الممكن أن يحدث أي شيء.

في تلك الليلة حلمت بأن الساحة كانت مغطاة بالثلج. وكانت هناك طبقة من الثلج الباهر تغطي السطوح المحيطة بها، كما أن المشهد برمته كان بلوريا. وكانت الرواسب العليا تتدلى من سقوف القيصريات المصنوعة من حصران البردي؛ كما كانت الرواسب السفلى تصعد من أرضيات القصور المرصوفة بآجرات الموزاييك الهندسية المرتبة بشكل نموذجي على وفق أنماط ملونة (الزليج). وكانت هناك طبقة براقة من الجليد على امتداد الطريق الذي اعتاد بستان (البالمرية) أن يكوِّنها على سفوح جبال الأطلس.

في حلم مختلف، اكتسح جدار من الماء ساحة الجامع وأغرقها.

جامور

كانا متزوجين، انبرى صوت ما قائلا بنفوذ يبعث على الاحترام والثقة. يمكنني أن أشهد على ذلك. كانت تلبس خاتم

زواج، على الرغم من أنها تفتقد إلى الثقة بالنفس التي تمتاز بها معظم النساء المتزوجات. إن السلوك الواثق بنحو غريب الذي كانت تتبع به كل كلمة من كلمات زوجها لم يكنْ علامة من علامات امرأة مجرية. كانت خجولة، خجولة كالنار في حفرة داخل الرمل. وفيما يتعلق بمظهرها، عليّ أن أخالف عبد الله الرأي، مع أنني عدا ذلك أحترم أمانته: كانت رشيقة وذات قامة متوسطة الطول، كان لديها شعر داكن وعينان داكنتان، مع أنه حين وقع الضوء على مقلتيها بدتا بلون أخضر مشرق.

كان المتحدث هو سمير، تاجر بربري كان إلى حد ما أحد المشاهير في الساحة لأن اسمه، أو بالأحرى، اسم قريته، القريبة من (تنزولين)، مذكور في (كتاب غينيس للأرقام القياسية العالمية). القصة هي قصة أعجوبة، وقصة عزم. حدثت بهذه الطريقة. قبل بضع سنوات خلت، في محاولة لجذب الانتباه لمأزق أشجار (القصبة) التي يبلغ عمرها قرونا عدة، والتي خضعت للتآكل القاسي بفعل الريح والرمل، اجتمع القرويون معا ونحتوا رقما قياسيا من ملائكة الرمل عليها. اشترك كل فرد من أفراد المجتمع، بدءا من الأطفال الصغار الذين كانوا بالكاد يقدرون على المشي وانتهاء بالأمهات اللواتي يحكمن أسرهن ممن تبلغ أعمارهن تسعين عاما. كانت المكافأة هي ذكر تلك المبادرة في الكتاب الذي يحظى بشهرة عالمية، وعمل فيلم وثائقي تلفزيوني، وتبرعات من الأمم المتحدة لغرض ترميم (القصبات) واعتبار القرية موقعا من مواقع التراث العالمي.

كان سمير يدّعي أن له الفضل في القضية برمّتها. لم يكنْ فقط يفتخر بها، بل ببساطة كان يذكرها بوصفها حقيقة

مؤكدة. لم يكنْ هناك أي فرد آخر من أفراد قريته يجرؤ على مناقشة مزاعمه، كان شخصا يحظى باحترام وإجلال واسعين في الجامع. ومنذ ذلك الحين لم يكن قد أنجز سوى القليل غير أنه مع ذلك أصبح مثالا للاحترام، وعمله منقوش في السجل الرئيس لمنجزات الشعب.

إزاء كلمة رجل مبجل كهذا، حتى عبد الله، ابن رئيس القبيلة، لاذ بالصمت. لعلك على حق، تمتم بعينين مخفضتين إلى الأسفل. ربما كانت ذات شعر داكن وعينين داكنتين.

قد تكون الذاكرة خادعة، يا صديقي، قال سمير انطلاقا من حبه للخير. كان صوته جهوريا ومهذبا، وفيه شيء من الرقة واللطف.

من المؤكد أن الذاكرة عشيقة متقلبة، شددت على القول. إن معظم الرجال المحترمين قد استسلموا للإغواء في بعض الأحيان. إنما ارو لنا قصتك، يا سمير. أين صادفتهما؟

وهل ثمة مكان آخر غير مخزن المجوهرات في الجهة البعيدة من (السوق الكبير).

توقف عن الكلام هنيهة لكي يرى مدى تأثير كلماته، وألقى علينا نظرة عامة. كانت تلوح على محياه نظرة قوية كتلك التي تظهر حينما يحاول المرء أن يتذكر حادثة حدثتْ منذ أمد بعيد جدا.

حدث ذلك في منتصف ما بعد الظهر، قال، في نحو الساعة الثالثة، في يوم كان يمر فيه الوقت بطيئا. لم أكنْ قد بعت شيئا، واستسلمت للقدر، وبدأت أحس بالنعاس.

كان ذلك إذن قبل ظهورهما في (فندق علي) بزمن كاف؟ قاطعته قائلا.

باعد هو بين أصابع يده اليمنى لكي يشير إلى أشعة الشمس.

آه نعم، حصل ذلك في وضح النهار. لذلك السبب أنا أتذكرها بوضوح. كانت تتمتع بمظهر راق وقد لوّحها ضوء الشمس.

التفت إليّ عبد الله ببسمة نمّت عن رحابة صدره.

لعل ذلك هو الذي خدعك وجعلك تعتقد أنها ذات شعر ذهبي.

لكنني شاهدتها في الظلام، وليس في وضح النهار، قال عبد الله معترضا.

إنه مجرد شيء بسيط، سي عبدالله، قال سمير ضاحكا.

دخلت إلى مخزني أولا، مضى يقول، وكان وجهها يشع بالحيوية، وكما لو أن عينيّ لم تصدقا ما شاهدتاه. ادخلا، ادخلا، استطعت أن أقول لهما. طابت أوقاتكما، الأحوال مُرضية. لا حاجة لأن تبتاعا أي شيء. بوسعكما أن تلقيا النظر فقط. يا له من حظ سعيد أن تشرّف فتاة جميلة مدخل متجري المتواضع. كم تقبل ثمنا لهذه الفتاة؟ مزحت معه. إن لدي قصبة في (القلعة ماغونة)، في الجهة الشرقية من الجبال، ذات حجرات رائعة، واصطبل، وحمامات. وإذا لم يكنْ ذلك جيدا بما يكفي، يمكنني أن آخذكما إلى (إيميليتشل)، في جبال أطلس الوسطى، إلى معرض الزواج الخرافي، حيث يمكنها أن تعود عليك بثمن لا يقل عن خمسين بعيرا. يمكننا أن نمكث في خيمتنا بالوادي الكبير بين البحيرتين الزمرديتين (إيسلي) «الخطيب»، و(تيسلي) «الخطيبة»، وتحتفل بخطبتها إلى رئيس قبيلة من قبائل البربر، رئيس قبيلة غني، وسيكون احتفالا فخما يتخلله الرقص ومآدب الطعام من النوع الذي لم يسبق لك أن شهدت له نظيرا من قبل.

ابتسم الشاب بطريقة جافة لا غير، ورفع يد رفيقته اليسرى بحيث يكون بمستطاعي رؤية خاتم الزواج الخاص بها، والذي كان خاتما عاديا نوعا ما في رأيي، ولا يضاهي جمالها الباهر، لكنني احتفظت بأفكاري وخواطري لنفسي لأنني لمست شيئا من الموقف الدفاعي من جانبه.

حسنا إذن، قلت، بطريقة مهنية مناسبة، ما الأشياء التي تهتمون بها، يا صديقيَّ؟ كل شيء هنا معروض للبيع. لديّ تعاويذ من مصر، مجوهرات ذهبية من تمبوكتو، أساور فضية من (نوبية)، وحتى هذه القلادة المذهلة والقديمة جدا من السودان. أو لعلكما تفكران في هذه الأقراط الرقيقة التي صنعها حرفيونا في الحي اليهودي القديم، أو في هذه (الخلاخيل) البربرية ذات الأجراس والإيقاعات، وهي تصلح للبس في المنزل وخارجه، في الأوقات كلها.

كانت الشابة أقل تحفظا منه. ابتسمت لي وتمشت ببطء في أنحاء المخزن، وراحت تتفحص كل شيء بنظرات حادة. كانت منتصبة القامة. لم يتبادل الاثنان النظرات. أشعلت هي سيجارة، وسمحت أنا لهما بأن يستمتعا بالوقت.

حين تكلمت الشابة أخيرا، كان صوتها شبيها بضحكة رقيقة.

كم ثمن هذه؟ سألتني.

تابعت إيماءتها. كانت تشير إلى تعويذة كهرمان مدفون بداخلها خنفسة سوداء ذهبية هشة.

لديك ذوق رفيع، يا سيدتي، أجبت. هذه التعويذة من الصحراء الكبرى، وهي ليست غالية جدا. في الواقع، سأعطيها إليك بأقل من كلفتها لأنك سحرت عينيّ. إليك، وإليك فقط، سأبيعها لك بسبعمئة درهم لا غير.

التفتت الشابة إليه. ابتسم هو بسمة طفيفة وقال: سبعون درهما.

أطرقت برأسي وعرفت أن اللعبة بدأت. كنا نمضي إلى الأمام وإلى الخلف بالطريقة المقبولة. وأعدت على مسامعهم شهرتي كواحد من البربر الذين ينتسبون إلى قبيلة (أيت مورغد)، التي كانت نزاهتها أسطورة؛ تظاهر هو بأنه مولع بـ (جبانة) فضية، وهي وعاء قهوة طويل العنق، وراح يتفحص سلة مليئة بالحلي الصغيرة.

ستدفعني إلى الإفلاس، يا سيد، قلت بكبرياء، وأعطيته ثمنا أخيرا، فراح يفكر فيه، على ما يبدو.

لماذا تقضي وقتا طويلا جدا في التفكير؟ سألته بإلحاح. إنه مجرد شيء تافه لعروسك الجميلة. حتى بسمتها تستأهل أكثر من ذلك بكثير.

لكنه كان قد شرع يحدق في شيء آخر، وبانتباه شديد. وبعد برهة، التفت إليها بحركة مباغتة وتحدث بصوت خفيض. رفعت الشابة حاجبيها، أومأت برأسها، وتطلعت إليّ.

ما ذلك الشيء؟ سألت الشابة بالفرنسية.

إنه (جمور)، سيدتي، من قصبة ما في قصر ما، وهي قرية محصنة، في (وادي دراع) القريب من (تنزولين)، التي أنحدر منها. إنها قطعة قديمة ونفيسة جدا. الجمورات هي عناقيد زهرية طويلة في السقف، تُصنع عادة من النحاس الأصفر المصقول، على غرار هذه القطعة، وتتألف من خمس كرات بأحجام متزايدة. في بعض الأحيان تكون متوّجة، على عكس هذا النموذج، بشعارنا الوطني، النجم في داخل الهلال. أشهر

أنواع (الجمورات) في مراكش هي تلك الموجودة في أعلى مئذنة (الكتبية).

نظرا إلى الحلية وقتا طويلا، ومن ثم قال الرجل:

بوسعك أن تقتل رجلا بها.

لم أستطعْ الرد عليه لأول وهلة.

وما أثار دهشتي أنه استل محفظته الجلدية اليدوية، أحصى عددا من الأوراق المالية، وأعطاني الثمن الأخير الذي طلبته لقاء تعويذة الكهرمان.

وماذا بشأن (الجمور)؟ سألته، لكنه أشاح بسؤالي جانبا. وأجاب، إنها تلائم فردا لديه منزل، أجاب، وليس جوالا لا جذور له.

قلت: في المغرب، نحن نؤمن بأن أول شيء يجب أن يمتلكه المرء هو المنزل، وهو آخر شيء يتعين عليه أن يبيعه، لأنه ضريحنا في هذا الجانب من الجنة.

وكيف حال منزلك؟ سألني، وهو يقلد التحية المغربية التقليدية.

ابتسمت شاكرا إياه على لطفه وكياسته.

إنه منزل جيد، أجبته. إنه قريب من هنا، يقع خلف (جامع مواسين).

قاطعتنا الشابة، وبدأت تشكره على التميمة، لكنه أخذها جانبا وقال لها شيئا ما بصوت خافت، لم أستطعْ سماعه.

لقد أرهقت نفسك كثيرا جدا اليوم، قالت له بقلق.

خاطبني مباشرة: هل يمكنك أن تقترح مكانا جيدا لكي نرى منه سماء الليل؟

أي سطح من أسطح المدينة يمكن أن يفي بهذا الغرض، أجبت، وقد فوجئت بسؤاله.

نكس رأسه بكآبة، وكأنما قد أفصحت له عن معلومة ضرورية.

إن أردت رؤية النجوم، تطوعت قائلا، فإنني أفضل عتبات إحدى الرياض خارج المدينة، ففي هذا المكان يكون الضوء المنبعث من الأسواق والشوارع قليلا، وفي مقدورك أن تلاحظ تقدم القمر عبر سعفات النخيل.

أنت شاعر، قال الرجل، وابتسم.

ولأنني لاقيت منه التشجيع مضيت قائلا: لي صديق يملك رياضا كهذه، (فيللا كويتا)، بالقرب من (البالمرية). إنه مضيّف جيد وسيكون من دواعي سروره أن يؤويكما هناك ليلا.

لكن ماذا عن ساحة جامع الفناء؟ قال بإصرار.

قهقهتُ. يمكنك بالتأكيد أن ترى السماء من الساحة، إنما ستكون هناك أشياء كثيرة تشتت انتباهك ليلا.

إذن سنذهب إلى ساحة الجامع، أشار الرجل.

تطلعت إليه بحيرة وارتباك. وبعدها رفعت كتفيّ بلا مبالاة وقلت: سأفكر بك حينما أشاهد القمر هذه الليلة.

جثا على ركبتيه لكي يتفحص الجمور لآخر مرة ومن ثم انتصب واقفا وصافحني.

هل تعتقد أنني ربما أحتاج إلى هذه التميمة في الساحة هذه الليلة؟ سألني.

إذا هوجمت فقط، أجبته، واحتمالات حدوث الهجوم ضعيفة جدا. هناك مركز للشرطة متاخم للساحة. إنهم يراقبون الأمور عن كثب.

غادر الاثنان بعد هذا الحوار المبهم، ووجدتني أفكر في منزلي، على غرار عبد الله بالضبط، وشعرت بالسعادة لأنني سأعود إلى هناك تلك الليلة. فكرت في قمر الشتاء وهو يتلألأ عبر السقف الأسبستوسي، زواله الأبيض الذي يتحول إلى الأزرق وهو يدخل الغرف واحدة إثر الأخرى، وأحسست بأنني سأرى الليل بطريقة جديدة نتيجة لهذا اللقاء.

سكت سمير عن الكلام هنيهة وسحب ذيل جلابته بتأمل بواسطة أصابعه القصيرة والبدينة.

بالطبع، قال، لم يكنْ القمر أبيض مزرقّا تلك الليلة. لم يكنْ يمتاز بأي صفة تبعث على الهدوء. كان القمر قرمزيا، محتقنا بالدم كالعين، وقد ملأني بالقلق.

الحقيقة الملكية

تنهد ونظر إلى السماء، حيث تدلى القمر وهبط فوق خط الأفق، منعزلا ومهيبا. كان وجهه كئيبا ومكدرا بالندم في الوقت نفسه؛ كان يبدو أن التذكر قد ألقى حجابا قاتما كثيفا على ملامحه.

التفت وتطلع إليّ بارتياب للحظات معدودة.

قوّمت جذعي. من المؤكد، داخل المنزل يكون الوضع آمنا، وافقته الرأي، لكن ما هو أكثر أمانا في داخل قصة ما حيث تترابط الأشياء كلها، وهو أكثر ما يمكن قوله عن قصتنا هذه، حيث لا نستطيع حتى أن نبدو مؤيدين للعناصر الأساسية، مثل كيف كان شكل الشخصين المتجولين. ربما يعود السبب في ذلك إلى إعادة سرد لقاءاتنا المتباينة بهم، فكل واحد منا

مصمم على الصدق والأمانة، فضلا عن الاستسلام المطلق لما اختزنته الذاكرة التي تلهمنا نحن رواة القصص والحكايات بميلنا الفطري النهم إلى التفاصيل المادية، ما نسميه: الخيال. وهكذا يتبين أننا حتى حين نحرر أنفسنا من عبودية الزمن، نسلّم أنفسنا لأنواع من العبودية أكثر رقة من صنع أيدينا نحن. إنما وقتئذ ومجددا، لكي أعبّر عن سؤال ما بالكلمات سألت نفسي في وقت سابق: ما الحقيقة؟ هل نحن نقول الحقيقة، أم أن النسخ المتباينة المتضاربة عادة من الحقيقة هي التي تقولنا؟ بالأخص هنا، في ساحة الجامع، حيث ما يهم في أيّ لحظة هو فقط الشيء الأكثر أهمية. ذلك الشيء الذي يسترعي الانتباه. ذلك الشيء الذي يقنع الآخرين. الآن، وعلى مدى الساعات أو السنوات العديدة المقبلة. ذلك الشيء الجميل، في المقام الأول، هو المصنوع من الحب، لأن الحقيقة هي أخت الجمال. ومثل الشابة النورانية ورفيقها داكن البشرة قليل الكلام، الحقيقة والجمال يفتدي كل واحد منهما الآخر.

الداتورة(19)

الآن سمعنا صوتا جديدا. كنت أتساءل دوما كيف سيكون شكل (الموت) إذا ما قُيّض أن يُظهر نفسه، إذا ما تسنى له أن يظهر بهيئة أرضية. هل سيكون هو، على سبيل المثال، شبيها بذلك الرجل الهندي، بصورته الباردة، القاسية، ببشرته القمحية، وأنفه المستقيم، وبعينيه المخفيتين؟ هل سيكشف نفسه، بنزوة

(19) الداتورة: نبات ذو خصائص تخديرية - هامش المترجم.

شخصية، في يوم ما في قلب مدينة إسلامية قديمة، وهو يصطحب شابة حكم بالقضاء عليها؟ كم واحد منا يستطيع أن يثبت أنه موجود فعلا، وأنها لم تكنْ بمفردها، وأن الشخص الذي رأيناه بجانبها لم يكنْ سوى خوفنا من الموت حينما يواجه جمالا من النوع الذي لم نشاهد له نظيرا من قبل؟ في الواقع، كم واحدا منا يملك الجرأة لكي يعترف أننا، بفعل ضيق الأفق والجشع اللذين جُبل عليهما الإنسان، نرغب بامتلاكها، ولأننا نعرف أننا غير قادرين على ذلك، استحضرنا رفيقا داكن البشرة كان قليل الكلام بصورة بغيضة، كالجدران الخرساء التي تحيط بمنازلنا وتجعل منها مجرد قبور أكثر من كونها ملاجئ للبشر؟

هذه هي أسئلتي التي أطرحها عليك، لأنني أنا أيضا كنت سيئ الحظ بما يكفي لكي أشهد جمالها، على الرغم من أنني شهدته بلمحة خاطفة، وعجبت من أحاسيس اجتاحتني لم أكنْ أعرف أنها تسكنني، أحاسيس تحوّلتْ إلى حزن ما حين انتهت تلك اللحظة، وهي شديدة الشبه بتلك التي وصفها شاب الطوارق في الحكاية المتعلقة بطائر أبو منجل قرمزي اللون، عرفت أن عصر براءتي كان قد انقضى.

ابن شقيقي وحيد الساق «إبراهيم»، الذي تحدث بهذه الكلمات الرزينة والكئيبة، كان حارسا في مدرسة علي بن يوسف، القريبة من الأسواق. كان إبراهيم أشبه بالقزم. كان معروفا من قبل أسرتنا بحسن خطه، الفن الذي كان يكرّس له ساعات كثيرة يوميا، وهو عمل فذ جعل منه إبراهيم رائعا واستثنائيا بفعل الحقيقة القائلة إنه كان مصابا بمرض جعل يديه ترتعشان من دون

انقطـاع. كان شـخصية مألوفـة فـي حلقتي التـي تنعقد في مـا بعـد الظهر. وكانت مسـاهماته المتهدجـة، المولعة بالكتب والمطالعـة تضفـي مصداقيـة على قصصـي. في نبـرة صوته سـمعت الموسـيقى متعـددة الأصـوات التـي كانت تصـدر عن المدرسـة، بأنغامها الكثيرة. وقـد أدخلت الطمأنينة إلى قلبي، إذ بدا كأن مهنتي المتواضعة تتحلى بنعم إلهية.

كان أثمـن ممتلكات إبراهيم دفتر يوميات من جلد البعير سـجل فيه، بخط يد متناهي الصغر، الكمال التدريجي لفن الخط الذي يزاوله. في إحدى المرات سألته ماذا سيفعل حين يصـل إلـى نهاية يومياته. أجاب قائـلا إنه كان يصمم على أن تتزامن تلك اللحظة مع بلوغه ذروة فنه.

وماذا بعد؟ قلت بإلحاح. ما الذي يعقب تلك الذروة؟

اتخذت عيناه مظهرا حالما.

أود أن أبدأ بتشييد منزلي، أجاب. سأغطي جدرانه بالكتابات. سـيكون منـزلا من الشعر، بأصغر الكتابات على أعلى المستويات، بحيث إن العين بحكم الحاجة سـتضطر لأن ترفع نفسها وكأنها تتأمل السماء.

ومتى يكتمل تشـييد هـذا البيت وحيطانه المغطـاة بالكامل بالكتابات؟

نظرت إليّ عيناه الضاحكتان بتسامح.

يـا سـلام، عمّـاه، في حينهـا تكون حياتـي قد بلغـت نهايتها الطبيعية. سـأكون قد لقيتُ مصيري، وبسـرور وغبطة سـأرحب بنهاية هذه الجلبة الميتة.

ولذلك سألت إبراهيم الآن:

أخبرنا عن لقائك بالأجنبيين. أخبرنا كيف حدثت مسألة فقدانك براءتك.

لم يستغرقْ إبراهيم وقتا طويلا لكي يرد على سؤالي. لكنه لم يجب عنه إجابة مباشرة، وهو شيء معاكس لسلوكه المعتاد. عوضا عن ذلك، أرسل زفرة، هز كتفيه كما لو أنه يتخلص من عبء أثقل كاهليه، وانبرى قائلا:

يؤكد البعض أن الجمال يحتوي على بذور سم، وهي تلوث كل شيء يمكن أن تمسه. لا أصدق بصحة هذا الافتراض لأن الجمال، كما أشرتَ، يا حسن، شديد الشبه بالحقيقة، والحقيقة هي طاقة، والطاقة في حركة دائمة. وهكذا حتى حين أندم على اليوم الذي لمحته فيها، أشعر بأن الجمال ليس صالحا ولا شريرا؛ بالأحرى، نحن، كمشاهدين، نستجيب له بأساليب مختلفة لأن كل واحد منا يعيش مرحلة حياتية مختلفة.

توقف قليلا عن الكلام، ولاح على وجهه حزن يتعذر تحديده.

كما يحتمل أن يعرف بعضكم، بغض النظر عن دراساتي الدينية وولعي بفن الخط، إنني أميل إلى الشريط الضيق من الحديقة الكائن بين جامعنا والمدرسة. ثمة شيء مشترك بين الزهور وفن الخط: إنهما يتكلمان اللغة ذاتها. ولكي أبحث عن الإلهام، فإنني أدرس شجيرات الورد والياسمين، وأشجار البرتقال، والخيزران، والتين. لكن النبات الأثير لدي هو (الداتورة). إن نورانية هذه النباتات المخدرة تذهلني دوما. إنها تبدو شفافة، كما لو أنها تشكلتْ من ضوء القمر. كل لحظة قضيتها معها هي لحظة أمضيتها في تأمل فني، وأود أن أفكر في تلك الحديقة لكونها تذكّر بجمال الفردوس

الأبدي الموصوف في القرآن. هناك فقط وجدت الطمأنينة وراحة البال.

أعقب ذلك فاصل من الصمت. وبينما كانت يداه مستقرتين في حضنه، ووجهه منّحى عنا، نظر إبراهيم إلى الساحة باستغراق وتأمل. ومن ثم، قال بنبرة مطردة، رابطة الجأش: وهكذا في صباح ذلك اليوم الذي نتحدث عنه، كنت أميل على شجيرة (داتورة) حينما رفعت بصري ووجدتني أحدّق في شابة رشيقة القوام تشرب من النافورة الواقعة في طرف الحديقة. كانت ترتدي لباسا تقليديا: وشاح رأس أسود اللون، وجلابة صفراء، وسروالا بنّيا. ولولا رفيقها ذو اللحية الحمراء ما كنت لأعرف أنهما أجنبيان.

هل كانت له لحية حمراء؟ قاطعته، لأن هذا جزء ضروري.

تطلع إبراهيم إلي أخيرا. كانت عيناه مستغرقتين في التفكير.

توجد بعض الأشياء، بفعل نبرتها ومسحتها، تترك انطباعا مستديما، قال. كان الرجل ذا بشرة قمحية، أو، ربما يستطيع المرء أن يقول، كانت بشرته بلون الرمل، لكن لحيته كانت بلون الزعفران.

لون الزعفران، قلت ببسمة. هذا الوصف سهل بما يكفي لكي يتذكره المرء.

بإيماءة مألوفة، مرر إبراهيم يده على رأسه. انتظرته كي يواصل حديثه. وبينما كان ينظر إلى الأمام مباشرة، قال: حسن، حدث ذلك قبل سنوات كثيرة خلت. التفاصيل ليستْ مهمة طالما أنني أتذكر الجوهر.

بطبيعة الحال، سارعت لتأييده، نظرا لأنني كنت أود سماع كل شيء كان يجب أن يقوله. حثثته قائلا: أرجوك واصلْ كلامك.

بلل شفتيه. وراح ينظر إلى الفضاء ويتكلم برقّة، تجعد جبينه الذي كان حتى الآن صافيا على نحو غريب، استرجع اللحظة من أجلنا.

في البداية، لم يكنْ بوسعي رؤية سوى صورتها الجانبية، قال، طالما أنها كانت تحني جذعها لكي تشرب من النافورة. وهي توجه أنظارها إلى الأسفل، كانت صورتها تمتاز بالصفاء المناسب لأن يتأمله المرء. نظرتُ إليها كما كنت سأفعل حين أتطلع إلى شلال مقلوب. استمتعت بأشذاء الحديقة المحيطة بي، وأحسست بالسعادة وهي تغمرني. كانت حالة من الشلل الباعث على الغبطة، كأغنية السيرانة[20]، التي يبدو أن الأزهار نفسها كانت تستجيب لها وهي تنبثق من التربة الداكنة برؤوس مشرقة من الضوء. لا أعرف كم طال أمد تلك اللحظة، لكنني تنعمت ببهائها.

هز رأسه وسعل، وحين عاود الكلام، كانت نبرة صوته قد تغيرت على نحو محسوس. صار صوته أجشّ أكثر ومفعما بالغموض.

في بعض الأحيان يتحوّل العالم كله في لحظة واحدة، قال.

استمعوا إلى هذا، قال. نحن لا نزال عند النافورة. المرأة تشرب كما يشرب الغزال، شفتاها مبللتان بالماء، طيات وشاح رأسها مبقعة بحبات الرذاذ.

وقف على قدميه وانحنى لكي يرينا ما كان يعنيه. كنا نراقبه، مركزين أنظارنا. وعلى حين غرة دار حول نفسه. ثم قال وهو

(20) السيرانة: واحدة من مجموعة كائنات أسطورية (عند الإغريق) لها رؤوس نسوة وأجساد طيور، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك - هامش المترجم.

يكبت تنهيدة: حين شربت ما يكفيها، قوّمت جذعها والتفتت ناحيتي، وكنت مصعوقا مما رأيت. وعلى مدى لحظة، تلاشت جميع العالم والأصوات. شعرت بأنني أغطس في هاوية عميقة، وحين خرجت من حالة الدوار التي تملكتنى، كنت مرعوبا، لأنني عرفت أن جمالها كان، ببساطة تامة، قد قلب عالمي رأسا على عقب. كان جمالها قد فاق كل شيء رأيته أو قمت به، حتى جوهر روحي، ومنبع كينونتي، وحبي للفن الذي استمر مدى الحياة، تلك الساعات اللا محدودة التي أمضيتها وأنا أتأمل الكمال المجرد لفن الخط، ستكون إلى الأبد معتمة بجانب هذا التواصل مع العالم. أحسست أنني محطم.

وأنا منجذب إليها كما لو كان ذلك بفعل قوة خارجية، غادرت الحديقة. كانت ساقي الخشبية تقرع حصى الشارع، لكن كتفيّ كان قد نبت لهما جناحان. تسارعت ضربات قلبي، وازدادت سرعة أنفاسي. طرت نحوها. لكنني بينما كنت أفعل ذلك، شاهدتها وهي تميل نحو رفيقها الملتحي وسمعته يقول لها: أنا أحبك. وبعدها ابتسم ومشى مبتعدا، تاركا إياها وحيدة في حضوري.

ولأن الرقة واليأس استحوذا عليّ صحت: يا عزيزتي! أي جن هذا الذي أتى بكِ إلى هنا؟ لقد حطمتني إلى الأبد!

جفلت الشابة، دوّرت عنقها، بالضبط مثلما يفعل الغزال، ونظرت ناحيتي. كان منديل رأسها قد انزلق قليلا إلى الأعلى، وومض شعرها البني بالذهب. وأنا أرتعد بصورة مفرطة، رفعت يديّ. كنت أريد أن أداعب وجهها. ما الذي فعلتِه؟ هتفت بها. ذلك الرجل لا يستحقك. كل شخص يضع ضمير «أنا» قبل ضمير «أنت» في الكلام عن الحب هو جدير بالازدراء ويلغي

معنى كلماته. آه، أنتِ هي المسحورة! الذات لا تستطيع أن تتقدم على هدف عواطفها! ذلك ليس حبا، إنه حب الذات. هل تفهمين؟ سأقول إليك بدلا من ذلك: أنتِ التي أحبك! أنتِ التي أحبك! أنتِ التي أحبك! ولكن ليس «أنا أحبك»، ليس «أنا أحبك» يا ملاكي!

ولأنها أخطأت في فهم قصدي، صدّت مبتعدة عني وعلى محياها نظرة رعب. اتسعت عيناها، وشحب خداها. وبصرخة مروِّعة، جعلت تهرول. حاولت اللحاق بها، لكنها، بالطبع، كانت أسرع مني، وأنا بساقي الوحيدة، وحتى حين وصلت إلى النافورة، كانت قد دارت حول الزاوية وغابت عن أنظاري. اندفعت مسرعا إلى ما وراء النافورة وتفحصت الامتداد الواسع للجامع، لكنها لم تكنْ هناك لكي يراها المرء. لابد أنها هرولت إلى داخل أحد الأزقة الضيقة التي كانت تجعل من المدينة لغزا.

كنت مكتئبا. أحسست أن الحظّ تخلى عني. شمس حارقة شرعت تجري عبر أوردتي، وشعرت بالظمأ، شربت من النافورة عينها التي كانت قد روت غليلها منها قبل لحظات قلائل. غير أن الماء لم يفعلْ شيئا لكي يطفئ الحريق المستعر في داخلي. كان قد خفف عطشي فقط، ولم يفعلْ شيئا غير ذلك. ولأن خيبة الأمل انتصرت عليّ، خارت قواي وهويتُ فجأة بجانب النافورة.

حين رفعت بصري مجددا، كان الرجل ذو اللحية الحمراء واقفا هناك. كان عظيما في إظهار لا مبالاته؛ عنيدا، وباردا. خفض بصره ناظرا إليّ، لكنني لم أقرأ في فمه المغلق التعاطف ولا الشفقة. تبادلنا أنا وهو النظرات، عيناه ذات الأجفان الثقيلة نعستان نوعا ما، إلى أن خوّفني ثباته فخفضت نظراتي.

أحسست به وهو يقوم بحركة ما فرفعت يديّ لكي أحمي وجهي. وقعت قطعة نقد معدنية بالقرب مني. شاهدتها وهي تتدحرج نحو بالوعة النافورة. تراجعت خطواته.

هكذا هي القوة الساحقة للحب بحيث إنني، على الرغم من الذل الذي شعرت به إذ حسبني الرجل شحاذا، لكنني قررت أن أتبعه، يحدوني الأمل في أن يرشدني إليها.

اجتاز واجهة مخزن ذات مرآة مستندة إلى كرسي. نظرت إلى المرآة حين مرّ بها. لم تنعكسْ صورته فيها. كانت مرآة كبيرة؛ وكان لديّ متسع من الوقت لكي أتفحصها.

وأنا أشعر بالدهشة، نظرت إليه من جديد، غير أنه كان قد تلاشى عن الأنظار. في لحظة ما كان هناك، وفي اللحظة التالية كان هناك فقط شيء أشبه بالظل، ومن ثم حتى ذلك الظل غاب عن الأنظار. أحسست كما لو أنه ليس لديّ شيء أمسك به، كما لو أن الواقع كان يعني لا شيء.

ابتسم إبراهيم ابتسامة حزينة وأعرض بوجهه عنا.

في بعض الأحيان حينما أجلس في غرفتي الضيقة وأستعيد وقائع اليوم، يغلبني الخوف. فأحاول أن أطفئه بأفكار جيدة. أقوم بأشياء بلا هدف. أتحاشى الحديقة. ألتمس النسيان. إنني أسمّي ذلك مقاومة الموت.

أما ذلك الخوف فإنه أحمر، كالنار. إنه يحرق كالقار.

لا يمكنني أن أطفئه.

قال ذلك بصوت مرتفع جدا. دق الأرض بساقه الشبيهة بالوتد. كان خوفه حقيقيا. أشحنا بأنظارنا جانبا.

ابتسم من جديد، ويأسه محسوس.

هـذا كلـه موجود في دفتر يومياتي، قـال، وهو يخاطبني. كم هـو شـيء غير عادل أن مـا يتطلب أياما عدة لكتابته نسـرده في غضـون ثوان قليلـة؟ وحتى حينئذ، يبدو غير كامل بالمرة، شـيئا قريبا من الشيء الحقيقي.

قبل أن أتمكن من الرد عليه، أضاف قائلا:

إنما حينئذ ومجددا، ألا ينطبق ذلك على الحياة نفسها؟

أليس كذلك؟ كرر سـؤاله، وراح يحدق بتوسـل ناحيتي وكأنه يفتـش عما يطمئنه. ومن ثم، بغتة، انقلبت نظرته إلى الداخل. انخفـض صوتـه إلى الحـد الذي لم يكنْ بمسـتطاعنا سـماعه. وعلـى مدى برهـة من الزمن لم يكنْ هناك سـوى همس متكتم. مـرة أو مرتـين بدا وكأنه يهـمّ بالكلام، إنما لم يصدر عنه شـيء. وفـي الختـام، حينما كنـت أهمّ بالتدخـل، فتح فمه باتسـاع كما لـو أنـه يريد أن يمتـص الهواء. نظرنـا إلى ذلك الفـم المتثائب، مفتونـين. بـدا كمـا لو أن السـاحة بأسـرها كانت قـد ضُمَّتْ في فجوة ذلك الفم.

بلل شفتيه بقفا يده.

بابتسامة جريئة نوعا ما، قال:

في تلك الليلة، حين سـمعت عن اختفائها، كنت سـعيدا. بدا كمـا لو أنه تمـت إعادة التوازن إلى حياتـي. فتحت نوافذ غرفتي علـى وسـعها وجعلت الهـواء النقي يدخل. سـمعت صوت طبول كثيرة. سـمعت ضوضاء سيارات الشرطة آتية من الساحة. قررت النزول إلى ملاذي: الحديقة. شاهدت قطيعا من الكلاب الضالة وهي تتقاتل على قطعة عظم ملقاة بالقرب من النافورة. شعرت بالنعـاس تحـت شـجيرة (داتـورة). ماذا هنـاك أيضـا جدير بأن

يُروى؟ يمكنني العودة إلى فني وأنا أشعر بالراحة مجددا.

ذلك هو اعترافي.

خديجة

لا بد أن الطفلة أقبلتْ عليّ بعد لقائك بها بمدة قصيرة. كانت شاحبة وترتعش كورقة الشجر، تلك الطفلة المسكينة. لا بد أنك أدخلت الرعب في قلبها باهتماماتك. كيف يمكنك أن تعرف ماذا يعني أن تكون امرأة وأن عليها أن تتعامل مع أشخاص على شاكلتك؟ عليك أن تخجل من نفسك!

لأول مرة خلال تلك الليلة، سمعنا صوت أنثى، وكان صوتا جهيرا. كان صوت خديجة المرعبة، وهي واحدة من أقدم قارئات الطالع وأفضلهن في ساحة الجامع وأكثرهن غموضا. تكلمت بصورة لاذعة، وكان جليا أنها نظرت إلى «الاعتراف» شبه الاستفزازي لابن أخي باستهجان مميت. ومن أجل سُمْعته، لم يردْ عليها إبراهيم، لكنه، وهو يخضع لنظرتها المحدقة المدمرة، ضعف وذوى.

كانت خديجة بربرية «سنهاجية» من (الصحراء الكبرى الغربية)، من منطقة تُدعى (ساقية الحمرا)، سُميتْ بهذا الاسم بسبب المجرى المائي الذي يجتازها، على الرغم من أنها منطقة جافة في معظم أيام السنة. كانتْ تُدعى أيضا (أرض القديسين)، وهو موقع بدوي للحج اشتهر منذ أمد طويل بالورع والتعليم. كانت خديجة نفسها تزعم أنها تنحدر مباشرة من نساك المرابطين المحاربين من (أوداغوست)، وهي الآن موضع منعزل أصابه الخراب في (تشنغويتي) الواقعة خلف الساحل، غير أنها

كانـت في زمن ما مدينة محصنة كانوا قـد تدفقوا منها ودحروا العالـم المعـروف وأسسـوا مراكش. كانت خديجة امـرأة محترمة على نطاق واسع، وحتى الناس كانوا يهابونها، وقد انتشرت شائعة مفادها أن بإمكانها تغيير مستقبل الفرد بواسطة تنبؤاتها.

مـا مـن أحد يعـرف كيف يمكـن أن تكون دائمـة الحضور في الساحة. ويقـدر مـا يمكننا أن نجـزم، كانـت هناك دومـا. ادّعى بعضهـم أنها سـرمدية، أنها كانت حاضرة في زمن باشـا مراكش الـذي اشـتهر بالانحطـاط الخلقـي «تهامـي الغلـوي»، أو لعلها عاشـت فـي زمن أسـبق منه قبـل أكثر من مئـة عـام، عندما كان السـلطانان الخليعان مولاي حسن ومولاي عبد العزيز يترأسان الإمبراطوريـة المتدهـورة. إن الأمر الذي لا جـدال فيه هو أنه ما مـن أحد يشـك في عمرها الكبيـر. ويحس المـرء أن تحت طيات عباءتها مرونة جذع شجرة موغل في القِدم.

في وقت النهار، يُمكننا أن نعثر عليها في السـاحة الضيقة لـ (رحبـة قديمة)، الواقعة في ظل أكشـاك الصيدليات، حيث كانت تقـوم بمهنتها النشـيطة وهـي تبيع جرعـات عشـبية وحيوانية مـن أجل الشـعوذة، وتقـرأ الأكف الغليظة لتجـار الصوف وتجار الخراف الجوالين.

أمـا ليـلا، فكانـت ترتحـل إلى (جامـع الفناء)، وعـرف عنها أنها تخرج عينها الزجاجية قبل أن تباشر أي جلسة من جلسات قـراءة الطالع. قـال بعضهم إن العين اليمنى هـي المصنوعة من الزجـاج؛ أصـر آخـرون أنها العين اليسـرى وسـعوا إلـى البرهنة علـى ملاحظتهم تلـك من خلال إلقـاء محاضرة حـول بريقها الفـولاذي وكأنه هو السـمة المميـزة لأروع أنواع زجـاج الصواني.

ربما كانت كلتا العينين من الزجاج، وربما لا اليمنى ولا اليسرى. وفي كلتا الحالتين، كانت تلك المسألة قد أضفتْ عليها إغراء كان جزءا من أساطير ساحة الجامع. وحالي حال أي شخص آخر، كنت أشعر بالخشية من قدراتها التنبؤية، وأعتقد أنها كانت تنظر إلى جهودي المتعلقة بسرد القصص بتسامح، لأنها كانت تعرف أبي وجدي كليهما حينما كانا في عز شبابهما.

الآن، لكونها تغلبت على إبراهيم المسكين بسرعة، وألقت نظرة عامة باشمئزاز على جمهوري الذي كان أغلبه من الذكور، نحينا أبصارنا جانبا، وتوردت وجوهنا خجلا، وشعرنا بأسف شديد جدا بكل إخلاص.

كانت الطفلة المسكينة مرعوبة، كررت خديجة بتوكيد. كانت ترتعد كورقة شجرة، فجعلتها تجلس. سحبتها إلى ظل خيمتي، أعطتها الماء المسكوب في جوهر الورد، وتحدثت إليها بنبرات مهدئة. وحينما أحست بأنها باتت تشعر بأنها أكثر هدوءا، عرضت عليها أن تقرأ كفها، كنوع من اللهو أكثر من أي شيء آخر. وافقت على ذلك، وسألتني عن المنطقة التي أتيت منها.

أنا من الصحراء، أجبتها. من المنطقة التي تُعرف بـ (ساقية الحمرا)، حيث الكثبان الرملية لا يُسبر غورها، كأعماق المحيط. الرمال هناك تغمر القوافل كما يغمر الماء طوف الخشب.

وأنتِ؟ من أي بلد أتيت؟ سألتها.

أنا طفلة السهول، أجابت بتواضع وخجل. لم يقرأ أحد كفي من قبل. هذه زيارتي الأولى لمراكش.

إذن أهلا وسهلا بك في مراكش. الجميع يرحب بهم هنا. يقبل الناس من كل أرجاء العالم إلى مراكش، إنهم يشعرون

بالراحة والسعادة، ولا يريدون مغادرتها. وكثيرون يشترون منازل في المدينة. أو أنهم يتيهون في الصحراء ويختفون. على بركة الله، أنا نفسي قرأت أكف مواطنين ينتمون إلى مئة وستة وخمسين بلدا. حينما أصل إلى الرقم السحري سوف أحيل نفسي على التقاعد.

وما الرقم السحري؟

قهقهت. إنه العدد الكلي لبلدان الأمم المتحدة. البلدان الديمقراطية والاستبدادية معا. الكفار والمؤمنون معا. عندما أصل إلى ذلك الرقم السحري، وهو مئة واثنان وتسعون، سأطوي خيمتي وأعود إلى مسكني في الصحراء. إنما حتى حلول ذلك الوقت، لا تزال هناك أكف كثيرة تنتظر دورها في القراءة، وهناك أقدار كثيرة يمكن صنعها أو الحيلولة دون صنعها. وكثير من السعادة والشقاء يمكن فك رموزها، وربما، حلها.

بدت قلقة مضطربة. لكن هناك مئة وأربعة وتسعون بلدا في العالم، قالت الطفلة. لماذا تتجاهلين البلدين اللذين ليسا عضوين في الأمم المتحدة؟

كنت مشدوهة. أأنتِ متأكدة، يا طفلتي؟ سألتها.

نعم، إنني متأكدة تماما. إذ ظللتِ مصرة على رقمك السحري، فهذا يعني أنكِ حذفتِ تايوان والفاتيكان كليهما.

بسم الله الرحمن الرحيم! صحتُ. لقد أضفتِ إليّ عبئا جديدا، يا طفلتي. أمتان أخريان! إن شاء الله، سيكون الأمر كذلك.

إنني متأسفة، قالت، لكنني لا أريد أن يكون الحذف عبئا على ضميرك.

أثّر فيّ اهتمامها. تقدّمت للأمام وربّتُ على كفها. قلت لها: لا ضرورة للأسف. من فضلك اعذري جهل امرأة مسنة صحراوية. إنني أضبط أيامي على علامة كاذبة في الصخر. الآن، شكرا لك، بالي مرتاح. المعرفة الحقيقية تضيف إليّ اليقين، واليقين يجلب السلم وراحة البال. أنتِ رسول من النور، ولذلك لن أقبل المال منك لكي أقرأ طالعك.

توردت الطفلة قليلا، ومدت كفها باحتشام ورزانة.

انتزعت عيني الزجاجية. جعلت كفها مسطحة. وكما جرت العادة، ذلك السهل المتموج ظهر في بادئ الأمر فسيحا بصورة لا تطاق. ضربت بأطراف أصابعي على رسغها. بدأ نبضها يتسارع. خمدت ضوضاء العالم.

بين خط حياتها وخط قلبها، لاحظتُ شجرة تين، وحجر مغناطيس، وسفينة حربية ضخمة ذات أشرعة كثيرة. كما كان هناك ظل مجنح يحلق فوق صحراء مليئة بثمار كمثرى شائكة.

كانت تلك علامات مختلفة، لذلك قررت أن أضع كفها جانبا وأفسر دائرة بروجها أولا. سألتها عن التفاصيل المتعارف عليها: تاريخ ولادتها، مسقط رأسها، ساعة ولادتها. كانت من مواليد برج السرطان. لاحظت بقية ردودها. ومن ثم وضعت ميزاتها في قائمة، ميزة بعد ميزة.

طالعك في كوكبة القوس والرامي، بدأت كلامي. هذا يعني أنك ودية، غير متحفظة، جريئة، محبة للسفر، ولديك استعداد لنظم الأشعار.

كوكب المشتري الخاص بك في المنزل الخامس. هذا يعني أنك، على غرار سحلية الصحراء التي تعيش تحت الرمال،

مولعة بالأطفال، ذات توجه أُسري، ومخلصة لقبيلتك.

كوكب المشتري الخاص بك في طوروس. هذا يعني أنه يماثل أنقى فرس عربي أصيل، النعمة الإلهية ظاهرة في حياتك، إنك تجذبين الثروة، وإنكِ معتادة على الراحة، وأنتِ تنعمين بالصحبة المزدهرة.

شمسك، وكوكبا عطارد والزهرة العائدان لك في المنزل السابع، جميعها تشير إلى أن الحياة، مثل الطيور السماوية المقيمة في الجنة، لا تكتمل بالنسبة لك من دون شريك.

شمسك وكوكب الزهرة الخاص بك تقيمان في برج السرطان، الأمر الذي يشير إلى أن الحياة العائلية، مثل اللقلق الذي يبني عشه في أعلى المئذنة، هي مفتاح سعادتك، وأنك بحاجة إلى رفاهيتها وأمانها.

كوكب عطارد الخاص بك في برج الجوزاء، الأمر الذي يعني أنك، مثل قوس اللقاح الذي يقطع مسافات شاسعة، وأنك ذكية، محبة للاستطلاع، وتتواصلين مع الآخرين بسهولة أخف من الهواء.

قمرك في المنزل الثامن وفي برج الأسد، وهي علامة تدل على أنك، كالنار التي تصطخب وتملأ الموقد، كائن ذو عواطف وأحاسيس عميقة. كما أنك كائن متهور، معتد بنفسه، ومثير، وتحبين أن تكوني محط إعجاب الآخرين وتضعين نفسك في مواقع معينة تكونين فيها مركز الاهتمام.

واختتمت كلامي بأن قلت لها إنها نابضة بالحيوية، وتمتلك قوة إرادة وإبداعا هائلين، وإنها واثقة من نفسها وعاشقة متقدة من السهل عليها أن تستولي على أفئدة

الرجال. وفي الوقت نفسه، كانت بالغة الحساسية فيما يتعلق بالكيفية التي كانت تظهر فيها للآخرين. كانت صريحة، تكره التظاهر والنفاق، وتفضل أن تكون شفافة في سلوكها، لكنها كانت تميل دوما للتقليل من أهمية البيئة ويمرون بها مر الكرام لأنها حمقاء وطائشة. كانت عنيدة، متصلبة، ومستقلة، وكانت تولي قيمة كبيرة لأن تعيش حياتها ببساطة وبأسلوب صريح، وكانت تطالب بالحرية لكي تفعل ما يحلو لها، وكانت تعتبر التفاصيل الاجتماعية معيقات تحول دون التواصل مع الآخرين.

بذلك، وضعت مذكراتي جانبا، موضحة أنني انتهيت. غير أنها ابتسمتْ بحياء ومدت يدها نحوي، راحتها متجهة نحو الأعلى، لكي تذكرني أنني تحاشيت إخبارها بطالعها.

كنت أتحاشى القيام بذلك، ولكن الوعد الذي نقطعه هو الوعد الذي يجب المحافظة عليه. نشرتُ راحتها مجددا، متجاهلة العلامات الأخرى، قررت أن أفرز الظل المجنح لأن هذا، أكثر من أي شيء آخر، هو الذي كان يقلقني ويزعجني.

هذه هي علامة زحل، قلت، عليك أن تحذري منها. الظلام هبط عليك. خلال الأيام القليلة المقبلة، تجنبي الليل. حاولي ألا تمشي على التربة السوداء أو الرمل الداكن. ابقي بعيدة عن الأسطح التي تعكس ضوء القمر. تجنبي المرايا التي صبغتها الشمس. لا تثقي بأي شخص، وفضّلي الطرق الآمنة، وأبقي عينيك يقظتين على الأشياء المحيطة بك.

بتلك الرسالة الموجزة بصورة لا يمكن إنكارها، أطلقت سراح يدها.

شحبت الطفلة، وأمست عيناها واسعتين من جراء الأسى. سعيتُ إلى طمأنتها، من دون أن أهمل تحذيراتي.

لقد صادفت توا لقاء مخيفا، قلت بوقار، غير أنك كنت قادرة على الإفلات منه. لا أعرف لماذا، بيد أنكِ اخترت السير عبر النار؛ العلامات هنا، وهنا، إذا زلّتْ قدمك ثانية، ثمة خطر يتهددك بأن تفقدي حياتك.

بذلك الإعلان الكئيب، رسمتْ خديجة علامة في الهواء للدلالة على أنها أتمتْ حديثها. استذكرنا تكهناتها بدهشة وفكرنا طويلا في معنى التكهنات التي ظلتْ من دون تفسير: شجرة التين، حجر المغناطيس، السفينة الحربية الضخمة ذات الأشرعة. بيد أننا كنا نعرف أنه من الأفضل ألا نسأل.

عزيزة

حينئذ اقتربت دراجة نارية سوداء من حافة حلقتنا. كان يقودها رجل طويل القامة مجلل تماما بالسواد، سترته الجلدية مشدودة الجانبين بواسطة خصلات منسوجة من وبر البعير. تلوح على الرجل صفة النفوذ والسلطة، كما يظهر عليه كذلك شيء واضح من التهديد. أوقف ماكينته وبدا راضيا بما يتطلع إليه في صمت.

في غضون ذلك، خرجت الآن امرأة متسولة من الحلقة وقد نالت التشجيع بواسطة تشفعها الجريء لخديجة. كانت ترتدي خمارا بحيث لم تكنْ تظهر سوى عينيها. دفعتْ طفلتها الصغيرة أمامها. أشفقوا على طفلتي، قالت متوسلة. إنها مصابة بالجذام. أبوها رمانا في الشوارع، والآن ليس لنا من عون

سوى الثقة بإحسانكم. أشفقوا علينا، أرجوكم، إخوتي وأخواتي. أنا امرأة محترمة أُجبرت على مغادرة منزلي ليلا.

وقفت على قدميّ، ومشيت حتى وصلت إليها.

لا تقلقي. قلت بهدوء. احتياجاتك سوف تُلبى هنا.

خاطبت مستمعيّ: أعطوها النقود بدلا من أن تعطوني إياها. هذه الليلة القوانين مختلفة، هذه الليلة لن آخذ أي مبلغ من المال عن سرد هذه القصة.

ابتسم الرجل الذي يعتلي الدراجة النارية ابتسامة عريضة وأدار محركها فجأة وبسرعة.

رجل عاطفي، قال.

أنتَ غير مرحب بك هنا، أجبته.

ابتسم من دون رضا، لكنه لم يغادر.

مرّرتُ صحن جمع الصدقات على الجميع. وعندما رجع إليّ الصحن، سلّمتُ العائدات باليد إلى المرأة المتسولة من دون أن أنبس بكلمة.

أخذت تشكرني بكلمات متلعثمة حينما قاطعتها خديجة.

أخبريهم ما يتعلق بحلمك، خاطبتها بلهجة آمرة.

جفلت المرأة المتسولة ونظرت إلى خديجة بخوف.

كيف عرفتِ ما يتصل بحلمي؟ سألتها بصوت ضعيف.

لأنني أنا خديجة، وأنا أعرف كل شيء، أجابت قارئة الطالع المهيبة.

لكنني لا أعتقد أنه وثيق الصلة بالموضوع! وحتى إنني لا أتذكره بوضوح.

لا يهم ما تظنين. لم يكنْ ذلك الحلم موجها إليك. لستِ في موضع يؤهلك للحكم على مدى صلته بالموضوع.

التفتتْ إليّ المرأة المتسولة بحثا عن العون.

مع أن هذه الليلة التي تطوقنا هي نفس السماء التي تعلو حلمي، قالت، ليس لحلمي مكان هنا. لا علاقة لحلمي باختفاء الأجنبيين وهو الموضوع الرئيس لقصتك. وحتى إنه خال من المعنى.

وردا عليها، سألتها عن اسمها.

أنا عزيزة، وابنتي تُدعى عائشة. وأبي، أبو العزيز بلقاسم، وهو خزاف محترم في (صافي).

ابتسمت لها لأدخل الطمأنينة إلى قلبها.

إذن يمكنك أن تتكلمي، عزيزة، وأخبرينا عن حلمك. ربما سيدخل إلى متن قصتي. وربما تستمر قصتي من دونه. لا يهم. نحن لن ننظر إلى حلمك من أجل الاستنارة. ولن نجلو غموضه بحثا عن المعنى.

تكلمي الآن، قالت خديجة.

عشرة آلاف فارس

مالتْ عزيزة على كتف ابنتها مستندة عليه. أغمضت عينيها وهدأتْ من روعها. وخلال سردها، كانت تحرص على إبقاء عينيها مغمضتين، كما لو أن ذلك يساعدها على تذكّر حلمها.

كان الوقت ليلا عندما كان القمر شديد السطوع، بدأت كلامها بعصبية. ليال كهذه من السهل أن يتذكرها المرء. إنها تمنع الظلام من التقدم. كنا قد توغلنا عميقا إلى قلب الأسواق، تحت ظل واجهة أحد المتاجر. سرعان ما غرقت عائشة في النوم بجانبي. ألقى القمر أشعته عبر عرائش السطوح المضلعة.

انعكس مرور السحب على بطانياتنا. تألقت الظُلة مثل حجر أبيض. كان السكون يعم الأروقة.

توقفت عزيزة هنيهة عن الكلام لكي تلتقط أنفاسها، وحين تحدثتْ من جديد، كان صوتها قد اكتسب قوة.

في ذلك اليوم كانت عائشة قد اختارت جروا. في بادئ الأمر حاولت منعها من الاحتفاظ به. ومن ثم عرفت كم كان يعني بالنسبة لها. كان الجرو عمره أسابيع قليلة لا غير. كان واهن القوى، مجرد كائن هزيل وضعيف. وعائشة تنام وهي تضمه إلى صدرها.

أومأت عزيزة بيديها لكي ترينا كيف كانت تنام ابنتها. كان تهمّ بمواصلة الحديث عندما تمت مقاطعتها. يكفي هذا الهراء عن الجراء! صاح أحد الرجال بفظاظة. ماذا بشأن حلمك؟

جفلت عزيزة، وتزعزعت ثقتها الهشة بنفسها.

كان حلمي بسيطا، يا سيدي، قالت بتملق. وفيما هي تعض على شفتيها، التفتت إليّ. هل تريدني أن أستمر؟

لا تبالي بالأشخاص الذين يضايقوننا بكثرة الأسئلة، قلت لها، تابعي حديثك.

إلام وصلت؟ إني متأسفة، لكنني نسيت..

كنتِ في السوق مع عائشة، قلت لها مشجعا.

ربما يتعيّن عليّ أن أمضي مباشرة إلى حلمي؟ غامرت بالقول، وتوقفت برهة عن الكلام، منتظرة موافقتي. وبعدها أردفت قائلة: ما الذي يلزمني قوله، سادتي؟ بدا وكأنني استيقظت توا من النوم. لم أعدْ في السوق، بل في وسط ساحة الجامع. كنت بمفردي؛ عائشة لم تعدْ معي. رأيت الساحة بوصفها حقلا

مضاء بنور القمر. سكون هائل يغلّف كل شيء. لم يسبقْ أن بدت المدينة خالية جدا كما كانت عليه في حينها. بدا وكأن الحياة بأسرها انسحبتْ منها.

ولأنني شعرت بالقلق وعدم الارتياح، شرعت أجتاز الساحة ببطء. كنت أفتش عن الملجأ المألوف في الأسواق، لكنني ما إن مشيت أقل من مئة خطوة، حتى شرع يخطو بخطوات واسعة رتل من حفاري القبور، شرعوا يمشون في الفضاء المفتوح. كتل من الأوساخ سقطت من مجرفاتهم. واحد أو اثنان منهم ركلوا تلك الكتل وبصقوا عليها، إنما لم يخرج أي صوت من بين شفاههم ولم يشعر أحد منهم بوجودي. وأنا مرعوبة، كنت أراقبهم بينما كانوا يسيرون واحدا إثر الآخر متجهين صوب قبور الملوك (السعديين)، وكان خوفي يجعلني غير قادرة على الحركة.

بعد زمن بدا أشبه بالأبدية، دخل عشرة آلاف فارس إلى ساحة الجامع. أقبلوا من ناحية قصر (أحمد المنتصر). كان هؤلاء الفرسان مخيفين ومهيبين، كانت أعلامهم مليئة بالظلال، دروعهم تتلألأ كحراشف السمك. بدأت أراقبهم بينما كانوا يدورون حول الساحة، في البداية كانت الأحصنة تدق الأرض بتأن شديد، ومن ثم جعلوا يضربونها بالسياط لكي تخطو خطوات شديدة الاهتياج، لكن كل ما أمكن رؤيته هو جدار متحرك وامض من السواد والفولاذ.

واحدا إثر الآخر، شرعوا يطلقون السهام في الهواء. اشتعلت السهام، تقوست خلال الليل كالمشاعل، واخترق أحدها صدري. غشي بصري ويدت ساحة الجامع وكأنها تنحني وتِلتف من تحتي بهيئة امرأة. كانت امرأة جميلة ومهيبة، ذات عينين سوداوين

واسعتين مبطنتين بالكحل، وتاج من رياح الصحراء. ارتفعت المرأة في الهواء ومضت بعيدا، وحين ناديتها طلبا للنجدة، التفتتْ ووضعت أصابعها في عينيّ وأعمتني. آنئذ عرفت أنها كانت جنية، روحا شريرة. أفقت من حلمي وخوفي يخنقني كالأحبولة.

أخذتْ عزيزة نفسا عميقا وعدّلتْ طيات برنسها بيد مرتجفة. راحت تحدق بالساحة جيئة وذهابا قبل أن تعاود كلامها مجددا، صوتها تقريبا غير مسموع بسبب عبء ذكرياتها الثقيل.

أوه، سادتي، بعد يومين من ذلك فقط، حلمت بأولئك الفرسان ثانية! حلمت أنني عدت إلى الساحة لأرى أولئك الجنود المرعبين يرتفعون في الهواء، ويا له من مشهد غريب! من ظلام الساحة لاحقتهم عيناي بينما كانوا يركبون خيولهم عبر السماء، راياتهم تتموج وراءهم. انتشروا في الأفق كالجبال. جاريتهم إلى أن أتوا إلى جسر بين ضفتين من الغيوم، وكان ذلك حين عرفت أن عليّ أن أخفض عينيّ وأتركهم يعبرون. كنت مغتبطة من أجلهم، مَن منا لا يرغب أن يكون في مكانهم، على عتبة الفردوس؟

سكتت عزيزة عن الكلام ثانية، ولا يمكنني أن أجزم ما إذا كانت أنهت حديثها أم هناك المزيد مما تريد قوله. وبينما كانت عيناها مغمضتين ورأسها مرفوعا نسبيا، وقفت بمفردها في وسط الحلقة وكان لدينا انطباع مفاده أنها توحدت مع حلمها.

في خاتمة المطاف، فتحت عينيها.

ذلك كل ما يتعين عليّ قوله، قالت، صوتها يرتعش بالعاطفة. أتمنى ألا أكون خيبت أملكم، سيداتي سادتي.

كانت خديجة هي التي كسرت الصمت.

على العكس، طفلتي، قالت بصوتها العميق والجهوري، كنتِ قادرة على نقل شكل حلمك، بنيته، مشاهده، وفروعه المتنوعة على نحو كامل تماما.

نكستْ عزيزة رأسها وأحسست ببسمتها الحزينة تحت خمارها. تطلعت إلى هيئتها المحتشمة، وهي مغطاة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، وتحركت لكي أقف على قدميّ وأرحب بها كندٍّ لي.

لقد رويت حلمك بصورة جميلة، قلت. لقد قدتنا عبر تلك الليلة العصيبة جدا، ذلك الحلم العسير جدا، بكياسة وجلال. أحسنتِ صنيعا.

عليها أن تحل محلك، يا حسن، علّق أحدهم ساخرا.

فعلا، يجب عليها أن تحل محلي، أجبتُ مبتسما.

رفعت عزيزة يدها إلى رأسها في إيماءة ندم.

غير أنني لم أكنْ هناك ليلة اختفاء الأجنبيين، قالت.

لم أكن هناك تلك الليلة، كررت كلامها. كنت لا أزال أملك حياة، منزلا، زوجا، حديقة صغيرة. لم أكنْ مرغمة على البحث عن مأوى ألجأ إليه ليلا. تلك الليلة لم أكنْ في الساحة.

لكنني كنت هناك، كان ذلك هو صوت أحد الرجال.

هيندريكس

كنتُ هناك تلك الليلة. كنتُ في الساحة.

التفتنا إلى المتحدث. كان موسيقي (غناوة)، بدت ملابسه ناصعة البياض شديدة الوضوح إزاء الليل، طبلته تتدلى من

كتفه وتستقر على خصره. وهو جالس بلا حراك، كان قد خلق لنفسه صورة مزخرفة بإسراف وهو في ذلك الوضع، متباهيا بكل وضع من أوضاع جلسته تلك. كان طبلته تبدو أشبه بجزء داخلي منه، يداعب رأس الطبلة وكأنه يجمع منها المعاني السرية التي كان بمستطاعه هو وحده أن يفهمها.

رفع ملامحه الداكنة للأعلى حتى تجانست مع الليل.

اسمي بلال، قال الموسيقي. كنت واحدا من أولئك الذين يقرعون الطبول تلك الليلة، لكنني لم أر الفتاة، كما أنني لم أر الرجل، ومع هذا حلمت بها بعد أيام قليلة من اختفائها. لا أعرف لماذا كان يزورني ذلك الحلم. لقد تركني مع جميع أنواع الأسئلة.

ضحك فظهرت أسنانه ناصعة البياض.

أنا إنسان بسيط، قال. إنني أحب الأشياء البسيطة في الحياة. أنا لست على غرارك. أنا لا أحب الأشياء المعقدة، العويصة. إنني أعزف الموسيقى لكي أكسب رزقي لأن ذلك يجعلني أعيش سعيدا. أحب أن أكون سعيدا، لذلك الموسيقى تعزفني. مجموعتي من الموسيقيين يقبلون إلى هنا سنويا قادمين من (أميزميز). نحن نتمرن هناك على مدار السنة في بستان واسع ملاصق لأحد المستودعات. إنه الفضاء الأخضر الوحيد في منطقتنا القاحلة. نحن نعزف ونعزف، نحن نعزف حتى يهدنا التعب والإعياء، نعزف من دون انقطاع إلى أن يسيل العرق من أجسامنا، ونحن سعداء. نحن نعتقد أن لا معنى للحياة من دون تلك السعادة. إنها تطرد الحرارة، وتجعل الساعات ترتجف، وتجعل أقدام الجميع ترقص.

رفع يديه الغليظتين.

في يوم من الأيام أود أن أعزف مع ذلك الرجل المدعو هندريكس، الذي كان هنا قبل سنوات كثيرة، وما زلت أسمع أنه يزور هذا المكان بين الفينة والفينة. أود أن أرحب به كأخ، وأصاحب غيتاره بدُفّي. سنقضي وقتا طيبا. لن تكون ثمة أسرار بيننا. سينصرف وهو ممتلئ بالغبطة. إنني مقتنع بهذا الأمر.

قهقه من جديد وراح ينظر إليّ بحزن.

بيد أن هذه مسألة مختلفة بكل معنى الكلمة عن حلمي. وهو حلم أشبه بطائر يسكن في رأسي. لا يمكنني أن أخرجه من رأسي، وأنا أرغب بالفعل بإخراجه. في الحقيقة، إنني أود من كل قلبي أن أفعل ذلك لأنه، إلى أن أفعل ذلك، سيمنعني الطائر من عزف موسيقاي.

دق قرعا إيقاعيا سريعا على دفه.

لكن ما الذي تبغيه مني؟ قلتُ.

أراح طبلته على ركبتيه وشرع يفكر لحظة. كان رأسه مطأطأ، وعيناه تنظران إلى الأرض، وفجأة، بابتسامة لطيفة، صبيانية، نشر يديه على وسعهما. هذا فقط، قال، هو جواب على سؤال. كيف يمكنني أن أشعر بالحنين إلى امرأة لم أقابلها؟

تطلعت إليه بذهول وارتباك. كان ثمة شيء من المناشدة في السذاجة التي طرح بها سؤاله.

ما نفكر فيه في حياتنا يتردد صداه في أحلامنا، قلت.

لكنني حتى لم أعرفها!

لقد عرفتها. تحدّث عنها الرجال، وباستمرار. المدينة بأسرها كانت تضج بأنباء اختفائها. كانت الأسطورة كافية لأن تجعل

عقلك يدور. لذلك في إحدى الليالي حلمتَ بها. هكذا حدث الأمر بكل بساطة.

ألهذا السبب تكون الأحلام هي آخر الأشياء التي تموت في جسم الإنسان؟

إنها مجموعة طرق فقط، أجبت. معالم طرق من المفروض أن تُفك أسرارها.

وبعدئذ إلى أين أخذني حلمي؟ إلى أين أفضى ذلك الطريق؟ قل لي، لأنني لا أفهم شيئا.

لا يمكنني أن أخبرك ما لم أعرفْ ماذا عنيت.

لم يردْ على سؤالي. وعوضا عن ذلك، التفت إلى اثنين من زملائه الموسيقيين اللذين كانا قد انضما إلى حلقتنا وقال: إخوتي، علينا أن نشعل النيران لأن الليل بدأ يصبح باردا.

كانوا قد أحضروا الخشب معهم. أشعلنا النار.

نشر بلال كتفيه لكي يتلقى دفْأَها.

إلى ما وراءه، في جميع أنحاء الساحة، كانت نيران رفاقه تتصاعد عاليا. وكان نورها الوامض يعكس صور النجوم. الحجاب الخفيف جدا من دخان الخشب هو وحده الذي كان يفصل ساحة الجامع عن السماء.

بتنهيدة دالة على التعب والإرهاق، أسند بلال رأسه بيديه وتطلع إلى النار. إن روح الصحراء تسود في المكان الذي نشأت فيه، قال. إنها أبونا وأمنا. إنها تتخلل كل شيء. إنها ترتطم بأقدامنا كالمحيط. غبارها يلوّن أنفاسنا.

خلع صندليه ووضعهما فوق النار. لقد شوهتهما شمس الصحراء، وجعدتهما رمالها.

في حلمي كنت مسافرا من تطوان إلى سوق الإبل في (غوليمين)، قال لا أعرف لماذا أنا متجه إلى (غوليمين)؛ ليس لدي شغف بالإبل. كما لم يسبقْ لي أن كنت في تطوان. إنما هكذا هو منطق الأحلام. كنت جزءا من قافلة عبيد. كنا نجتاز كثبانا رملية لا حد لها، نتبع دروبا أنهكها الزمن، مرتحلين من واحة إلى واحة. لم تكنْ في حيازتي آلة موسيقية؛ كانت ثمة سلسلة تكبلني من عنقي إلى رفاقي. وإذا كنت أشعر بضربات السياط المتكررة على ظهري، فلم يكنْ أمامي سوى أن ألوذ بالصمت. الجوع والعطش اللذان ملأا كياني جعلا الأحاسيس الأخرى زائدة عن الحاجة. عدا كيس الأيام المغلق، كانت أمنية الموت السريع هي وحدها التي أبقتني في ذلك الجحيم.

ذات ليلة توقفت قافلتنا بجانب وادٍ أحمر؛ كانت الأحصنة والجمال ترعى في أعماقه الظليلة. هبت الريح على الرمال وكنت أعرف، من رائحتها الندية، أننا لسنا بعيدين جدا عن المحيط. حين قرعت أولى قطرات المطر ظهري، لم أكنْ أعرف ماذا كان يجري. لم يسبقْ لي أن عرفت المطر. تقوقعت حول نفسي مثل حيوان خائف. كنت أظن أن قطرات المطر هي ضربات سياط. لكن شعري وثيابي بدأت تغدو مبللة، شعرت بسعادة غريبة ومتأججة. انفجرت ضاحكا. بدا وكأنني توفيت وصعدت إلى السماء.

بعد مضي لحظات؛ كم عدد تلك اللحظات؟، شعرت بأن يديها تطبلان على ظهري. توترت أعصابي وحاولت النهوض، لكن ثقلها كان قد استقر على فخذي وجعل حركتي شيئا مستحيلا. واحد، اثنان، ثلاثة.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. بدأتُ

أستنشق الهواء مع إيقاعاتها. كانت حسنة، يداها تقفزان من كتف إلى كتف بينما كانت تعزف بسهولة متمرسة، مستخدمة عقبَي يديها وأطراف أصابعها. وخلال كل تلك المدة، كانت تزرع الأشكال على ظهري؛ باقات كبيرة، ندية، من أزهار الجيرانيوم، ووابل من الزنابق، وبراعم اللوز الرطبة كتلك التي تزين الحدائق الغنّاء. في أعماق تلك الصحراء الشتوية، جاء مطر الربيع!

وفي الحال شرعت أهرول وذلك المطر على ظهري. حثتني على المضي قُدُما بصيحات صغيرة، حادة. يا لسعادتي، أعيريني أجنحة. اجتزت مساحات شاسعة خلفي، توقف الزمن أمامي، لمحتُ محيط الأبدية. انطلقت الصحراء مسرعة في سحب من الغبار، ومن ثم خمدتْ. هتفت بانتصار. يداها المطبلتان حررتاني من عبوديتي.

أخفض عينيه الداكنتين. انتظرنا في ترقب.

وبعدها أفقت من نومي، قال.

ندت تنهيدة مسموعة تعبّر عن خيبة الأمل من حلقتنا.

هز كتفيه بلا اكتراث، وقد أريكه رد فعلنا.

ماذا يتعين عليّ أن أقول؟ شعرت كما شعرتم. أحسست بأن قلبي أخف من رأسي. كان ظهري لا يزال يرتعش. قفزت من سريري. كان هناك بوم ينعب خارج نافذتي. رسم البوم دوائر مسعورة في الهواء. راقبته برهة، وبعدها أشحت ببصري. كانت النهاية المفاجئة لحلمي موجعة. كنت أتمنى لو أنني قلت على الأقل: مع السلامة.

من حافة الحلقة، تحدث ابن شقيقي إبراهيم، وفي صوته شيء من الغيرة.

ألم تقلْ لك شيئا؟ سأل.

هذا فقط. في النهاية تحديدا. قالت لي: بصورة لطيفة، هذا هو الطريق.

سألته، بلطف وكياسة: كيف عرفت هويتها؟

أوه، كنت أعرف مَن تكون، قال. هكذا هي الأحلام.

إذن لا بد أنني خيبت أملك، قلت. لا أعرف إلى ماذا يشير حلمك. على المستوى الجوهري جدا، يمكنني أن أخبرك بأن النساء يمثلن قوى الحياة. إنما بغض النظر عن ذلك، حلمك يتجاوز قدرتي على التفسير.

نزع قبعته وروَّحَ بها عن نفسه. نظر إلينا واحدا واحدا وزمَّ شفتيه عندما لم يتقدّم أحد للمساعدة.

أهكذا هي الحال؟ سأل، وكانت نبرته مثقلة بالهم.

هكذا هي الحال، قلت.

لماذا، إذن، حلمت بها؟ سأل بإصرار. لماذا زارتني مع أنني لست واحدا من الذين قابلوها؟ كنت هناك تلك الليلة، كرر قائلا، أعزف في الساحة، إنني أتذكر القمر القرمزي، سيارة (الليموزين) الطويلة السوداء، سديم الليل. وقد خرج رجال الشرطة بقوة منظمة. كانت هناك إشاعات تفيد بأن شيخا عربيا يقوم بزيارة الساحة. لكنني لا أعرف مَن كانت الفتاة. كما أنني لم أشاهدها في الساحة.

لكنني شاهدتها، قاطعه صوت رجل.

كنت هناك تلك الليلة، وقد قابلتها هناك.

كازابلانكا

كان المتحدث شابا نحيلا يرتدي بزّة رثّة. كان يضع وردة حمراء في عروة سترته ويلبس وشاحا صوفيا رخيصا حول رقبته. كانت نبرة صوته هادئة وشديدة الحساسية.

شاهدتهما كليهما، قال. في حقيقة الأمر، أمضيتُ بعض الوقت معهما.

ألقى علينا نظرة عامة بملامح المنتصر، وتوقف هنيهة عن الكلام لكي يجعلنا نستوعب كلماته. لم نكنْ نعرف كيف نردُّ عليه، لذلك حافظنا على صمت هادئ. تساءلت في سرٍّي من أين أتى هذا الرجل. لا أستطيع أن أتذكر أنني حدث أن رأيته من قبل في الساحة.

هل شاهدتم الفيلم السينمائي (كازابلانكا)؟ سأل. كانا كنجمَي ذلك الفيلم، همفري بوغارت وإنغريد بيرغمان، إنما فقط أصغر منهما سنّا. كان أنيق الملبس، ببزة بنية وقبعة (فيدورا)؛ وكانت هي ترتدي سترة خفيفة مربعة النقوش على فستان أحمر يصل حتى ركبتيها. أنا لا أسمّيها جميلة، بيد أنها كانت بالتأكيد جذابة. كانت ملامحها رقيقة إنما قوية. لديها ذراعان وساقان طويلتان. كانت تدعه يتولى أمر الكلام كله. وتبدو منطوية على نفسها، إنما راضية.

كيف تسنى لك أن تعرف عنهما أشياء كثيرة جدا؟ سأل أحدهم.

إنه شيء غاية في البساطة، في الواقع. كان من دواعي سروري أن أرسم صورتها. ساومني هو على الثمن. ودفع لي المبلغ الذي طلبتُه. كان ذلك امتيازا.

تفرست في وجهه.

من أين تنحدر؟ سألته. وما اسمك؟

لاذ بالصمت هنيهة؛ بحركة خاطفة نقر بإصبعه ذُبابة حطّتْ على جبينه، وبعدها أجاب قائلا: اسمي توفيق. أنا طالب فن من طنجة. آتي إلى هنا بين الفينة والفينة لأن البقاء هنا في الساحة يسلّيني ويمتعني. إنني أرسم الصور الشخصية فقط.

تمتم شخص ما ورائي بسخرية بلهجة (التاشيلهايت)، لغتنا البربرية المحلية: ابن زنا مغرور. (كازابلانكا) حتى لم يجرِ تصويره في المغرب بل في استوديوهات هوليوود.

أثار كلامه هذا ضحكة، غير أنني كنت فضوليا وأحب الاستماع إلى قصة طالب الفن، لذلك أومأت له لكي يتابع حديثه.

أشعل سيجارة، عدّل وشاحه، تفحص أظفار يديه. وببسمة سريعة، مفعمة بالازدراء نوعا ما، ألقى نظرة خاطفة على حلقتنا. أوه، لا أعرف ما إذا كان يتعيّن عليّ أن أهتم بهذا النوع من الأشخاص، قال. ربما يجب عليّ مغادرة المكان.

بارك الله فيك، همس الصوت نفسه ورائي بالتاشيلهيت. شكرا جزيلا لك، وخلاصا حسنا.

كبحتُ ابتسامة. وعوضا عن ذلك، بنبرة معلم مدرسة، قلت: إما أن تحكي لنا ما يجول في خاطرك، وإما أن تغادر. الخيار متروك لك. إنما لا تقضي الليل كله مفكرا في الأمر.

هكذا تحصل الأمور، قال. عليّ أن أعرف بنحو أفضل قبل أن أفتح فمي. قواعدك مثيرة للضحك. لن أبقى هنا وأكون عرضة للإهانات.

حقا؟ قلت. حسنا جدا إذن. افهمها كما تشاء.

استل منديلا كبيرا ونفخ أنفه. ويا لعجبي، رأيت عينيه تطفحان بالدموع. اهتم بسيجارته أكثر مما ينبغي، لكنه لم يقم بأي حركة لكي يغادر، مثلما توقعت بالضبط.

نشرت يديّ بإيماءة استمالة.

ليست لديّ رغبة في إذلالك، قلت. هذه ليست الطريقة التي نتبعها هنا. إن كان لديك شيء تخبرنا به، فإني أرجوك أن تتابع حديثك.

وبعد أن تنحنح، أشار بجفاف: حسن، سأخبركم، لمجرد أن أشرّف ذكراهما، علما بأن كل شيء سمعته هنا لم يكنْ أكثر من فانتازيا مجردة وتحقيق رغبة. إنكم تبغون الحقيقة، أليس كذلك؟ سأعطيها لكم، على الرغم من الواقع الذي يقول بصراحة تامة، إنكم لا تستحقونها.

سكت عن الكلام لكي يسحب نفسا عميقا من سيجارته. وبينما كان ينفث حلقة من الدخان في الهواء، تطلع في أرجاء الساحة وكأنه يشاهدها لأول مرة.

من الغريب أن نعتقد أنها اختفت في هذا المكان، قال. تماما في وسط ساحة مزدحمة. وربما كنت أحد آخر من رأوها.

إنك تريد إذن أن تصدق الأمر، قال أحدهم من الخلف، بصوت عال وبصورة ساخرة.

بعد أن منحته وقتا لكي يستعيد رباطة جأشه، قاطعته قائلا: لا تغضب من أساليبنا الفظة. أنت فنان، ونحن لا نقصد الإساءة إلى حساسياتك، وهي من النوع الذي لا نصادفه عادة في هذه الساحة. ما يجذبنا إلى هنا الليلة هو مجهود مشترك، تقاسم تجربة فريدة. في أن نتذكر سويا ذلك اللقاء الاستثنائي،

بـكل ما تضمنه مـن دراما وإرباكات، كل واحد منا يكشـف كم هو نادر أن يظهر السـمو في هذه الحياة. ذلك أن الجمال، كالإيمان، هـو غـذاء الـروح. إنـه يشـرِّفنا، ونريد نحـن أن نتشـبث به لأنه يوقفنـا فيمـا نحـن نشـق طريقنـا المليء بالنهب عبـر الحياة. الجمال يحوّل رغبتنا؛ إنه لا يلغي الرغبة بل يسمو بها، يرفع من شأنها، يمجّدها. ومع هذا، إن لم يكنْ باستطاعتنا تصوّر أنفسنا بوصفنـا مختلفـين عما نحن عليـه، فأين يكمن وعـد الوجود؟ الجمـال يهبنا القدرة على أن نتخيل حياتنا من جديد، وحينما نفعل ذلك، فإننا نبجل أنفسنا.

البـروفيسور

مـا كـدت أنهي كلامـي حتى رفـع رجل ذو مظهـر لطيف يده كما لو أنه في قاعة دراسية. كان يلبس نظارات وأصلع الرأس، له وجه مسـتدير وبطن بارزة. اغفر لـي، قال باعتذار، ربما ليس لي شـأن فيما يتعلق بالحديث الدائر هنا، لكن اسـمي هو لاربي وأنا محاضر في البلاغة في جامعة القرويين. إنني أدرّس الأسـاليب التقليديـة في سـرد القصـص، وخطابك القصير فـي ما يتعلق بالجمـال ذكّرنـي بحادثة حصلـت قبل بضع سـنوات تورط فيها بروفيسور مشهور في جامعتنا. هذا الأستاذ الجامعي، بينما كان يخاطـب جمهورا حاشـدا في ما يتصل بموضـوع الجمال، طلب أن تُمـرر قطعة مـن العنبر من يد إلى يد إلـى أن تتفتت وتصبح لا شـيء، وحينـذاك كانـت قد وصلـتْ إلى الشـخص الأخير في مؤخـرة القاعـة الواسـعة. غيـر أن القاعـة كلهـا عبقـت برائحة العنبر، وكل فرد هناك كان قد تأثر بعطره. أنهى الأستاذ الجامعي

محاضرته في هذه اللحظة، وأفاد قائلا إنه ليس لديه المزيد لكي يقوله عن طبيعة الجمال.

وذلك، قال مدرس البلاغة الخجول، وهو ينضح عرقا غزيرا، هو كل ما في جعبتي. أتمنى أن تعذروني على مقاطعتي.

شكرته على إسهامه بجلال يليق بذلك الشخص اللامع، من أقدم جامعة في العالم بلا ريب، وعبّرت عن شكري له على القصة التي رواها على مسامعنا.

رسام البورتريهات

طالب الفن، الذي كان يصغي في صمت، خفض رأسه الآن. وحين رفع بصره مجددا، كان يخاطبنا جميعا بلا استثناء. بصوت وقور، قال:

اصفحوا عني، إخوتي، إذا ما بدوتُ لكم عنيدا، متشبثا برأيي. إنني أفتقر إلى الرقّة. في الواقع، أنا رجل خجول تماما، وأحاول أن أعوّض عن ذلك بأن ألعب دور المتعجرف. أود أن أطلب منكم أن تسمحوا لي أن أقدّم نفسي ثانية. اسمي توفيق بوعبد، وأنا أنحدر من طنجة. أنا فنان أصيل، وأنا متخصص في رسم البورتريهات المصغرة على وفق الطراز الفارسي، والتي عليها طلب قليل جدا في يومنا هذا. زملائي الرسامون يكسبون المال بأن يقدموا ضروب التسلية للغربيين الأثرياء الذين يميلون إلى لوحات الرسم الكبيرة بأساليب وثنية زائفة؛ أتيت إلى مراكش لأنني شعرت بأنه من المخجل أن أقدّم ضروب التسلية مستجديا المال في شوارع طنجة بعد أربعة أعوام من التدريب. آتي إلى هنا مرة واحدة شهريا؛ أمكث مدة أسبوعين وأعمل يوميا، مع أنني

لا أعمل دوما في ساحة الجامع. غالبا ما أمكث أمام أضرحة (السعديين)، أو لعلكم تجدونني في الزقاق الضيق المؤدي إلى (حديقة ماجوريل)[21]، أو في مكان قريب جدا من (دارسي سعيد) أو (القصر الملكي). وفي الليل، أمكث مع صديق لي، وهو دليل تابع لـ (فندق لا مأمونية). إنه ينبهني إلى المواقع التي يتركز فيها السائحون في أي يوم من الأيام، وكنت أنطلق إلى هناك مع حامل اللوحات الخاص بي. نعم، أنا متذلل للسائحين، أفترض أن بإمكانكم أن تطلقوا عليّ هذا الاسم، غير أن السائحين هم الأشخاص الوحيدون الذين يمكنهم أن يدفعوا المال لقاء رسوماتي، يا للأسف، وذلك شيء في الحياة لا أستطيع أن أتنازل عنه. إنني بالأحرى عانيت من الجوع، خلال السنتين الماضيتين كنت أعيش عادة بتناول وجبة طعام واحدة في اليوم، لأنه حتى الرسام الذليل له قواعده، وفنّي هو خلاصي.

هل أنت رسام جيد؟ صاح أحدهم.

تلعثم رسام البورتريهات. مسح حلقة المشاهدين بنظرة شاملة لكي يرى مَن الذي تكلم؛ بعدها مع طيف ابتسامة، قال: أنا أفضل الرسامين.

أثار ذلك ضحكة بين الجمهور، وقال الشخص الذي طرح السؤال: إذن عليك أن ترسم «بورتريه» لكبرى بناتي، وهي مخطوبة الآن وستتزوج في غضون ثلاثة أشهر. وإذا كنت رساما جيدا فعلا مثلما تقول، فسأنشر الكلمة بين أصدقائي، وسأضمن لك الزبائن في مراكش.

(21) حديقة ماجوريل: حديقة نباتية ومنظر طبيعي صممها الفنان الفرنسي جاك ماجوريل في عقدي العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، خلال الحقبة الكولونيالية، عندما كانت مراكش محمية فرنسية - هامش المترجم.

رفع طالب الفن يده إلى قلبه.

سأحاول الا أخيّب ظنك، قال.

كم ستتقاضى من أجور مقابل الخدمات التي تقدّمها إليّ؟

منك، لا شيء. الشرف وحده سيكون كافيا.

ربما يمكنك أن تقدّم له يد ابنتك الوسطى مقابل ذلك. اقترح فؤاد، وهو أحد الموجودين، على الرجل الذي قدّم العرض، لكي يجدد موجة الضحك.

كم سيكون حجم الرسم؟ قال فؤاد المسن بارتياب، مكر المراكشي الفطري تغلّب بعض الشيء على سخائه.

بوصتان في بوصتين، وهو الحجم القياسي، رد طالب الفن، قبل أن يضيف قائلا إن الأجر سيتضمن كذلك إطارا من خشب الأرز، سيكون عرضه ثلاث بوصات من جميع الجهات، حيث سيكون بوسعه أن يرسم تصميم (التوريق) التقليدي الذي يتألف من الأشكال المتشابكة: أشكال الأزهار والسعف والأوراق النباتية.

عرضك سخي، يا توفيق، قلت باسما. إنني متأكد أن فؤاد سيكون أكثر اقتناعا. الآن كافئْنا على حسنِ ضيافتنا بإخبارنا ماذا جرى تلك الليلة في الساحة.

احمرَّ وجه طالب الفن احمرارا شديدا، وقد شعر بالارتباك، هكذا بدا لي، بسبب فضولي وصراحتي معا. ومع ذلك، كما لو أنه في تعبيره عن التزاماته، اندفع فجأة وبجرأة في وصفه بإعلان سريع وغير مناسب أن هذه هي أول مرة يتحدث فيها عن ذلك اللقاء. كان يجلس باستقامة شديدة حينما كان يأخذنا عبر الأحداث التي جرت خلال تلك الليلة، وراح يتكلم ببطء وتخلل حديثه العديد من التوقفات القصيرة، كان حذرا بصورة كثيرة

الوسـاوس من كل كلمة كانت تمر من بين شـفتيه. من الجلي أن الإخلاص للماضي كان شـيئا مهما وجوهريا بالنسبة إليه؛ وفي مـرات كثيرة جـدا كان يحدق فـي الرقعة المنبسـطة أمامه وكأنه يلتقـط منهـا تفاصيـل لا يتذكـر إلا نصفها، وحينمـا أفلح في مسعاه، اتسعت عيناه الداكنتان في دهشة.

النسخة المصغرة

كانت ليلة شـتوية، بدأ حديثه، شـديدة الشـبه بهـذه الليلة. ومن مسـافة معينة، بدا كل شـيء ضبابيا. كان ضباب كثيف من دخان الخشـب قد تجمع في أعلى السـاحة. من أكشـاك الطعام أقبلت رائحة رقائق مشـتعلة. ومن الشـبابيك المفتوحة لـ (كافيه دي فرانـس) طفـت فوقنا سـحب الدخان الخضـراء المنبعثة من سـجائر كثيرة. كانت الوجوه في داخل المقهى تتطلع إلى الخارج صوب العتمة الفسـيحة للسـاحة وكأنهم ينظرون إلى غابة، من مسافة آمنة، كانت ثمة إثارة واضحة في الجو، إحساس بالخطر، إحساس بما هو مفاجئ وغير متوقع. كان الوقت ليلا في (ساحة جامـع الفنـاء)، حيـث كل شـيء يمكـن أن يحـدث. مـن حلقات الطبول العديدة التي تتخلل الفضاء، انبثق رعد خفيض مقلق، كهديـر مدو ومسـتمر. كانت تلك علامة تـدل على أن (مجموعة الأمـوات) قـد وثبـت نحـو الحيـاة، مفترسـوها يجيسـون المكان بحثا عن فريسـة. وكنت جالسـا هناك وسطها مع فراشي الرسم والألوان الخاصة بي، بعد السـاعة التي اعتدت التردد فيها على المـكان بزمـن طويل. لا أعرف لماذا توانيـت تلك الليلة. في بعض الأحيان تحدث أشياء لأسباب نجهلها.

ليستْ لديّ أدنى فكرة عن الجهة التي أقبل منها الغريبان. رأيته هو أولا: كان يقف على مبعدة عشر خطوات عني. كان أنيق الملبس بصورة لا تطاق، وبدا لعينيّ أنه لا ينتمي لهذا المكان بكل معنى الكلمة. ذكّرني بالممثل (كاري غرانت)، الأصغر منه سنا، والأكثر سمرة منه، الذي كان يجب أن يكون نجم (كازابلانكا) قبالة إنغريد برغمان، في رأيي، بدلا من بوغارت. وحتى إنه كان يلبس رباط رقبة عريض الطرفين، وكأنه في صالون (فندق لا مأمونية) المترف، بدلا من أن يكون في أخطر الأمكنة بعد حلول الظلام في مراكش. حين لاحظني وأنا أتطلع إليه، اتجه نحوي وعلى ثغره ابتسامة.

بيد أنه أذهلني حين خاطب شخصا ما غيري كان يبدو واقفا خلفي. أدرت رأسي، وعندئذ شاهدتها. كانت تنظر من فوق كتفي على نماذج رسومي المرتبة على حامل اللوحات الخاص بي. كانت امرأة رشيقة ولدنة، ذات شعر طويل بني اللون وكان خصرها نحيلا جدا بحيث يمكنني تقريبا أن أقيسه بكفيّ. وبما أنها بدت مولعة بالرسوم، غامرت في شرح فني لها. أخبرتها بأنني أرسم رسوما مصغرة بالأسلوب الفارسي. أريتها أمثلة من مدارس فنية مختلفة، مثل مدرسة شيراز، ومدرسة تبريز، ومدرسة هيرات، وأشرت إلى أن أغلب رسوماتي المصغرة كانت بأسلوب (الصفافيد)، سُميتْ بهذا الاسم تيمنا بالرسامين المشهورين في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر من مثل كمال الدين بهزاد هيراوي ورضا عباسي وميراك نقاش وشاه مظفر. استمعت هي إليّ بعناية واهتمام بينما كنت أتحدث ولاحظتُ أن أحد بورتريهاتي، بنحو خاص، لفت انتباهها،

كما بدا لي. كان ذلك البورتريه نسخة من صورة أميرة شابة تبدي إعجابها بوردة، أنجزه ميرزا علي في تبريز في نحو عام 1540. كان مرسوما بألوان برتقالية وزرقاء وسوداء، مع إطار أزرق باهت نُقشتْ عليه أبيات من الشعر.

التقطت البورتريه وتفحصته طويلا قبل أن تلتفت إلى رفيقها وتتبادل معه بضع كلمات لم أتمكنْ من فهمها. وبعدها التفت إليّ وسألني، بعجالة، بالإنكليزية، ما إذا كنت قادرا على رسمها على وفق طريقة رسم الأميرة الفارسية. وبما أنني لا أعرف اللغة الإنكليزية، لم يكنْ بمقدوري فهم ما يقصده ووجب عليّ أن أطلب مساعدتها في الترجمة. بطبيعة الحال، حين فسرت طلبه لي، وافقت على الفور. تفاوضنا حول السعر؛ برهن الاثنان على كونهما طيعين، سهلي الانقياد، ووضعتْ نفسها تحت تصرفي.

دعوتها للجلوس على كرسي قابل للطي، ورتبت أوضاع يديها وقدميها. طلبت منها أن تثبت نظراتها عليّ، وحين فعلت ذلك، جفلت وكدت أدير وجهي لأن نظراتها كانت ثاقبة جدا. شعرت بأنني خائف نوعا ما، وبات قلبي يخفق أسرع من المعتاد. في الوقت عينه، وأنا أتذكر واجبي في الاستحواذ على مظهرها الخارجي، أرغمت نفسي على تفحصها ودراستها بشكل موضوعي. وبينما كنت أتحاشى نظراتها الثاقبة، استوعبت جبينها العريض، أنفها الطويل نسبيا، حنكها المرسوم بدقة، شفتيها المكتنزتين. كانت لديها ندبة صغيرة فوق عينها اليمنى، وشامة على خدها الأيمن. ومع ذلك، على الرغم من ذلك كله، ظلت غامضة. وفي النهاية، وبينما كانت عيناي نصف مغمضتين، تخيلتها بوصفها الأميرة

الفارسية. وأنا أنظر إليها عن كثب، رسمت تخطيطا تجريبيا على قطعة من الورق، لوح الرسم الخاص بي يستقر على ركبتيّ. تمهلت في الرسم، اقترحت إجراء تغييرات في وضعها بينما كنت منهمكا في عملي. وعندما أنهيت الرسم، طلبت مني أن أريها التخطيط وبدتْ مسرورة به.

ضلت فراشة طريقها ووقعت في إحدى جرار أصباغي. أمضينا بعض الوقت ونحن نحاول تحريرها، الأمر الذي رسخ صلة تواصل بيننا نحن الاثنان. ناولتها شيئا من شاي النعناع. كان لإبريق الشاي الخاص بي سدادة عربية أثارت إعجابها، وأخبرتها أين يمكنها أن تعثر على واحدة مثلها. وبعدها اخترت قطعة خشب مناسبة لكي أرسم عليها، التقطت حامل اللوحات الخاص بي، وطلبت منها أن تبقى على وضع معين طالما أنها تشعر بالارتياح.

رسمت بخفة، وتنقلت عيناي بين موضوعي وقماش اللوحة (الكنفاة). وبينما كنت أعمل، تردد صدى صوت رنان لراوي قصص؛ لعله كان صوتك، تردد بصورة عجيبة في الهواء. طلبت مني الشابة أن أشرح لها بينما كنت أرسمها، وبذلت أقصى ما استطعت. كان الراوي يحكي قصة (ليلى والمجنون)، قصة العاشقين العربيين سيِّئَي الطالع، وحتى خلال وصفي شديد الفظاظة، كانت القصة قد استقطرت الدموع من عينيها.

لا تتحركي، قلت لها. ابقي بلا حراك قدر ما تستطيعين.

كانت تجلس مرتخية الساقين على الكرسي ووجهها إليّ، كانت عيناها نوعا ما غير مركزتين بينما كانت تخفض بصرها ناظرة إلى كأس شاي النعناع شبه الفارغ الذي كان بديلا عن الوردة في

الرسم الأصلي. كانت موضوعا رائعا، ورسمتها بضربات الفرشاة السريعة، وأضفت إلى الرسم بعض التفاصيل الضرورية لكي أركز على وجه التشابه بينها وبين الأميرة الفارسية.

في غضون ذلك، سار رفيقها ووقف بجانبي وسألني ما إذا كنت أعمل دوما بسرعة. دوما، أجبته، مع أنني كلما أتقدم في السن أجد نفسي أبطأ لأنني أعتقد أنني أكتسب المزيد من الفهم.

وذلك يؤثر على تقنيتك في الرسم؟

إنه يجعلني أعتني أكثر بقضايا التعبير والشخصية. وذلك يتطلب وقتا.

بدا مقتنعا بجوابي ولم يوجه إليّ أي أسئلة أخرى، وكان هذا مبعث ارتياح بالنسبة لي، لأنني دوما أجده شيئا صعبا أن أتحدث خلال انهماكي في الرسم.

في النهاية، وبعد لمسات نهائية قليلة، وضعتُ جانبا فرشاة الرسم وحامل اللوحات الخاصين بي. شكرتني هي ومطت ذراعيها وظهرها. الجلسة كلها استغرقتْ أكثر من أربعين دقيقة بقليل. أثنيتُ عليها وأخبرتها أنها موديل ممتاز. ابتسمتْ حين رأت الرسم.

هل أنا فعلا بهذا الجمال؟ سألَتني.

بل أنتِ أجمل، اقترح رفيقها متوددا.

سأترك اللوحة تجف خلال الليل، قلت له محذرا.

سنأخذها معنا إلى غرفتنا في الفندق حالا، قال لي مؤكدا.

سنرسل إليك صورة بعد أن نعلقها، قالت لي.

ابتسمت ولم أحر جوابا. على مدار الأعوام، الكثيرون من

الأشخاص الذين رسمتهم قدموا لي تأكيدات مشابهة، لكنني حتى الآن لم أتلق صورة فوتوغرافية واحدة. هذه هي طبيعة الأمور على ما أظن، وإنني لا أحسدهما على اللوحة: الإيماءة تنم عن حسن نية.

ربما سنرجع غدا لكي ترسم صورة شخصية لزوجي، قالت بنبرة صوت مازحة.

إنني في خدمتك، يا سيدتي، قلت ببطء ووقار.

ألا تريد صورة شخصية لك؟ سألته.

أما هو فاكتفى بأن مسد لحيته وامتنع عن الإجابة.

كنا نتعامل مع قضايا عملية؛ وبعدها صافحاني وغادرا المكان. أحسست بالحزن بينما كنت أراقبهما يمضيان، لكنني مجددا، كان من العادة أن تتغلب عليّ الكآبة حين يتعيّن عليّ أن أفارق الرسم الذي أنجزته. هذه هي طبيعة الأمور. تابعتهما بنظراتي بينما كانا يسيران متجهين صوب (شارع محمد الخامس) المشجر، وحتى إنني مشيت خطوتين في ذلك الاتجاه. لكنني عدت إلى وعيي في الحال ورجعت إلى موضع عملي. وبينما كنت أضع حامل اللوحات وعلب الأصباغ الخاصة بي في مكانها المألوف، تأملت التخطيط الفظ الذي أنجزته وشعرت بالغبطة والفرح.

إنني أحكي لكم هذا كله من دون خجل، قال رسام البورتريهات، ولا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تكون الأمور خلاف ذلك. لقد أحببتهما حبا جما وتلقيت أنباء اختفائهما وأنا غير مصدق في صباح اليوم التالي. ما زال التفكير فيهما يلازمني ويمنعني من مزاولة عملي. كان رأسي يضج بوجهيهما؛ إنهما يقفان حائلا بين عملي وعينيّ. وفي بعض الأحيان تجتاحني رغبة مجنونة

في التخلي عن كل شيء والفرار، لكنني أعود لأذكّر نفسي بضرورة بقائي هنا. لا يمكنني أن أدع أيا من الأشياء الملهية تقف عائقا في طريقي. لذلك بقيت؛ واظبت على الرسم.

حين قال ذلك خفض عينيه وركن إلى الصمت.

أومأت إليّ خديجة وجذبتني إليها. خفضت صوتها الذي تخلله الدخان ليغدو خافتا، وقالت: ثمة شخص هنا سيئ الطوية.

أجلت نظرة سريعة في ما حولي.

أعرف، أجبتها.

التفتت فجأة وخاطبت رسام البورتريهات.

قل لي شيئا، أيها الشاب، سألته. هل يوجد أي شخص هنا تعرفت إليه منذ تلك الليلة؟

أجال رسام البورتريهات البصر في ما حوله، تلعثم، وأشار إلى الرجل الجالس على الدراجة النارية. لقد شاهدته في الساحة تلك الليلة، قال بصوت ثابت العزم.

أفصح الرجل الجالس على الدراجة النارية عن مشاعره:

كلماتك مزيفة على غرار قصتك الحمقاء.

بدأ رسام البورتريهات يتحرك صوبه حين رفعت خديجة يدها. دعه وشأنه، قالت، إن كنت تدرك صالحك.

مَنْ هو؟ سأل رسام البورتريهات، وهو يتباطأ.

إنه شرطي سري، جاء الرد. ساحة الجامع هي المنطقة التي يتردد عليها باستمرار.

ابتسم الرجل الجالس على الدراجة النارية بهزل. وخاطب الفنان قائلا: غدا ستأتي إلى مخفر الشرطة القريب في تمام

الساعة التاسعة. سنتحدث عن القضية الثانوية المتعلقة بإجازتك في الرسم، أيها الفنان من طنجة.

تدّخلت خديجة في الحال.

لا حاجة لأن تكون قاسيا جدا، يا عريف «مختاري»، قالت. لقد أجاب الفتى عن سؤال طرحته عليه. ربما يمكنه التوصل إلى نوع معين من اتفاق؟

ومن جديد ابتسم رجل البوليس بصورة كريهة.

لا أريد رسومه اللعينة، قال. والتفت ليخاطبني قائلا: سوف أغادر الآن. انتهوا من هذه الجلسة عند منتصف الليل. هل هذا واضح؟

أدار محرك دراجته النارية. راقبناه وهو يمضي بصمت. وحينما ابتعد عن أنظارنا مسافة آمنة، تنفس رسام البورتريهات الصعداء وقال بصوت مكتئب: هو ذا، لقد انتهيت.

كلا، إنك لن تنتهي، كان ذاك رد خديجة المدهش. كانت تنظر إلى الجهة التي خرج منها رجل البوليس من الساحة.

يا للرجل المسكين، قالت.

تطلعنا إليها، لكنها لم تسترسل في حديثها. بدأت أسألها مباشرة لكنها تجاهلت استفساراتي، وعوضا عن الإجابة، التفتت إلى عزيزة، المرأة المتسولة.

ما اسم كلبتك؟ قالت، بصورة قاطعة نسبيا.

جفلت عزيزة، وأصابها القلق لأنها ستكون مركز اهتمام الجمهور مجددا. لوسيا، أجابت بتلعثم. لوسيا، هذا الاسم يعني (ضوء).

مَنْ الذي أطلق عليها هذا الاسم؟ سألتْ خديجة بإصرار.

سبقت عائشة ابنة عزيزة أمها في الرد. اقترح هذا الاسم رجل أجنبي، أجابت بذكاء، كان في مقتبل العمر. داكن البشرة. وسيما.

هل هو ملتحٍ؟

كانت له لحية مجعدة، سوداء ضاربة للاحمرار، أجابت الطفلة. كانت لحيته تطوق وجهه كعرف أسد.

هل كان بمفرده أم مع شخص ما؟

كانت بصحبة امرأة غاية في الجمال. كان صوتها دافئا ولطيفا. لم يكنْ الشاب يتكلّم لغتنا، لذلك كانت هي التي تترجم له. لقد أنصت الاثنان إلى قصتنا بتعاطف وشغف.

التفتتْ خديجة إليّ، وقالت: أرأيت؟

اعترض رجل بدين يجلس بالقرب مني:

لكن كيف يمكنك أن تعرفي أن الطفلة تتكلم عن نفس الشخصين اللذين نحن بصددهما؟ لا بد أن هناك عشرات من الأجانب الملتحين يرافقون نسوة جذابات يمرون عبر الساحة وبشكل يومي. كيف تعرفين أنهما ليسا شخصين آخرين بكل معنى الكلمة؟

إنني (أعرف)، قالت خديجة، وهي تتحدث بقناعة.

وجهتْ إليّ كلامها مجددا. كان صوتها يشي بالانتصار الهادئ.

ما اسم الفتاة التي غابت عن الأنظار؟

ابتسمتُ وقلت: لوسيا.

وكيف تعرف ذلك؟ هتف أحد الحاضرين.

كان ردي بسيطا.

لأنني سألتها عن اسمها، أجبت.

المغرب الأقصى

قالت خديجة: هناك أساليب كثيرة جدا لسرد القصص، وقلة قليلة هم الذين يحسنون ذلك. ليس ثمة حاجة لأن تكون عزيزة هنا. ما من حاجة إلى حلمها أو ابنتها. وماذا بشأن الكلبة؟ الكلبة هي مسألة أخرى بكل ما تعنيه هذه الكلمة. اسمها يزودنا برابط بقصتنا. وهذا هو الشيء الجوهري.

لكن ما الذي سيحدث لي الآن؟ سأل طالب الفن بحزن. إنني أواجه خطر فقدان مصدر رزقي، وهذا كله لأنني حاولت الإجابة عن سؤالك.

وعوضا عن الرد على سؤاله بشكل مباشر، أخرجت خديجة حفنة من التراب من كيس جلدي مهترئ ونثرته على الأرض قبالتها. وبينما كانت تدرس الأشكال، غمغم بلال، عازف موسيقى (الغناوة) لنفسه كمن يؤمن بالخرافات. أما نحن البقية الذين كنا نعي أنها كانت تمارس التكهن وكشف الغيب من خلال مقادير ضئيلة من التراب مرمية بشكل عشوائي، فكنا نراقبها صامتين.

وفي النهاية، وبعد أن بذلت مجهودها رفعتْ بصرها وراحت تتأمل رسام البورتريهات. مرت برهة طويلة من الوقت قبل أن تتحدث، لكنها حين فعلتْ ذلك، كانت تقصد أن تطمئنه بأن لا شيءَ سيقع له.

اذهب إلى منزلك وانعم بالراحة، قالت له. يمكنك أن تريح بالك.

لكنني لا أعرف كيف يمكنكِ أن تقولي ذلك، قال بإلحاح وحيرة.

صدّق ما تقوله خديجة، أشرت، ولا تشغل بالك أكثر بهذه المسألة. فسوف تتولى هي العناية بالأمر كله.

في غضون ذلك، قالت خديجة وهي توجه كلامها إلى الفنان: أنا وأنت لدينا مصلحة مشتركة، وهذا هو لب القضية. لا أبالي بالطريقة التي وصفت فيها ساحتنا.

أوه يا إلهي! صاح الفنان باهتياج. الآن ماذا قلت؟

ابتسمت خديجة لكي تُظهر أن ليس لديه شيء كي يخاف عليه منها.

إنك تكسب رزقك هنا، إنما من خلال وصفك يتضح أنك لا تعرف أول شيء يتعلق بمكان عملك. الآن أصغِ إلى كلماتي جيدا. ساحة الجامع هي أختنا وأمنا؛ إنها تلبي احتياجاتنا وتتولى العناية بنا؛ إنها مصدر رزقنا وإذا ما وصفناها بشكل آخر فإننا نقلل من شأنها. عليك أن تعتاد على أوجهها الكثيرة. ففي بعض الأحيان تكون شابة، وفي أحيان أخرى مسنة؛ تارة مليئة بالحيوية، وطورا متعبة. وحتى في أسوأ حالاتها لا تكون خطيرة؛ هي ذات نزوات، ونزواتها وتقلباتها تعكس الحالات التي يمر بها مجتمعنا. لكنها في أحسن حالاتها، تكون مليئة بالفرح والسعادة والاحتفال، والناس يتقاطرون عليها لأنهم يسعون إلى مشاطرتها بهجتها. إن جوها المحموم؛ وهو ناجم عن انصهار عناصر كثيرة، هو خلق لرغباتنا نحن. نحن جميعا لدينا نصيب في تشكيل سحرها، وفي هذا السحر تكمن حياتها. إنه يتشبث بك ولا يدعك وشأنك، وحيويته وعواطفه آسرة.

كل شيء ينشأ، ينسجم، ويقع في أشكال معينة هنا، ويولد الجمال. بهذه الطريقة تغيّرك ساحة الجامع، إنها تعيد صياغتك وتهبك صورتها هي. عليك أن تنظر إليها بعينَي طفل، وحينها ستجد نفسك قد تبدلت. إنها مسألة روح، هل تفهم؟، بقدر تعلق الأمر بالحواس. الساحة رمز، نقطة لقاء جميع الأقوام الذين مروا بها ويواصلون المجيء خلال هذا الجزء من العالم. إنها مغربية، صحراوية، متوسطية، عربية، بربرية. رياحها تشتمل على الرواغ[22]، الخماسين، السموم، اللفيج[23]، الزفير. والموسيقى التي تنتج عن ذلك تحمل في طياتها جميع هذه الألحان. أصغ إلى تلك الموسيقى: إنها فسيفساء تلك التعشيقات الأفريقية، الشرق أوسطية، اليهودية، الأندلسية، الموضوعات المعاصرة وتلك الخاصة بالعصور الوسطى. إن رقصت على موسيقاها فسوف تتعلّم أشياء كثيرة عن نفسك. حينما تكون هنا، تسبح القرون معا، وتكون أنت ما وراء الزمن. عندما تكون هنا، تعلن الثقافات عن تشكيلة أنسجتها المتجانسة، وسترتفع أنت بعيدا عن أصولك.

هذا هو سحر ساحة الجامع، قالت خديجة. إنها الكون المصغر لبلدنا المغرب. لكنها كذلك أكثر من مجرد مكان للقاء، وإذا ما حدث أن صادفتها في ساعات الصباح الباكرة، عندما يحط أول شعاع من أشعة الشمس على جلدها، فستجد أنها قادرة على أن تضفي إحساسا بالهدوء والسكينة من الصعب أن تجده في أي

(22) الرواغ: الريح باللغة العبرية - هامش المؤلف.

(23) اللفيج: ريح جافة تهب من الصحراء الكبرى وتتجه صوب إسبانيا؛ تُسمى أيضا (سيروكو) في الأجزاء الأخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط - هامش المؤلف.

مكان آخر في الكون. السعادة تصطبغ بمسحة من الكآبة، وهذا نوع نادر جدا من السعادة: هنا يكمن سر غموضها.

أنتِ إذن ترين الساحة باعتبارها امرأة؟ هتف أحدهم.

إنني أراها باعتبارها امرأة غاية في الجمال، قالت خديجة مؤيدة.

ولعلها بنفس جمال المرأة التي اختفت، أضفتُ قائلا، بنحو استفزازي نوعا ما.

لماذا إذن لا تخبرنا فيما يتعلق بلقائكَ بها؟ سأل الصوت نفسه.

ضحكتُ، وأنا أجد حماسة محاوِري مسلية. حسنا جدا، أجبتُ، سأفعل. مع أنك نافد الصبر، سأدللك، لأن هذا هو دوري هنا.

المرآة

كنت أهمُّ بمواصلة كلامي حينما وجدت أحدهم يقاطعني.

لدي شيء أود أن أقوله، قال صوت أنثوي من دون تفكير. هل من المسموح لي أن أتحدث؟ قد يكون حديثي مهمًا.

الفلاحة العجوز التي نطقت بهذه الكلمات احمر وجهها احمرارا شديدا من الخجل حين شاهدت وجوهنا تلتفت إليها. كانت ترتدي (فوطا) فضفاضا حائل اللون نسبيا، وهو اللباس القرمزي الأبيض المخطط، التقليدي، الذي ترتديه نساء جبال (الريف). بدت تلك السيدة العجوز في غير مكانها المناسب في ساحة الجامع، وسألت نفسي ما الذي يمكن أن تفعله هنا، وبخاصة في هذه الساعة المتأخرة من الليل!

أختي العزيزة، قلت، لا بد أنكِ بعيدة جدا عن مسقط رأسك. ما الذي أتى بك إلى الجنوب؟

دمـوع الطفـل الحارة، قالـت، ابنــي وزوجة ابنــي يقيمان في مراكش وكلاهما يعمل خلال ساعات النهار. لذلك أنا هنا لغرض العناية بابنهما البكر، حفيدي. غير أن هذا ليس هو السبب الذي دفعني للكلام. لديّ شيء أود أن أتقاسمه معك فيما يتصل بتلك الليلة المنحوسة في الجامع.

هل كنتِ هناك وقتها؟ سألتها وقد شعرت بالصدمة.

نعـم، نعـم، أكـدت كلامها، حدث ذلـك في الوقـت الذي كنت أعمـل فيـه خادمـة فـي الفندق الـذي يقيمـان فيه، فـي الجهة المقابلة لـ (جامع الكتبية).

تكلمـتْ بلهجـة (تاريفيـت)، لغـة منطقة (الريف)، بسـرعة، بلكنـة ريفية غير واضحـة وبأصوات حادة متقطعة، وكأن كلامها لا يسـتطيع أن يجـاري ذاكرتهـا وهـي متلهفـة لنقـل جميـع التفاصيل قبل أن تنساها.

كنـت خادمـة الفندق الليلية، قالت. كانـا يقيمان في الغرفة رقـم 14، الواقعـة فـي الطابق الأرضي، الذي يطـل على الجادة. لم يكن الصنبور في حجرة نومهما يعمل، وكان مدير الفندق قد بعثني ومعي دلو مملوء بالماء. قرعت الباب وطلبا مني الدخول. كانت السيدة الشابة مستلقية على السرير ووجهها إلى الأسفل. كانت تبدو متوعكة. أعتقد أنها ربما كانت تبكي. حاولت أن أكون غير فضولية قدر المسـتطاع، وانسـللت إلى الحمام ومعي الدلو. هـذا هو الحال في ما يتعلق بعمـل الفندق: تحاول أن تكون غير مرئي للنزلاء بحيث لا ينزعجون من وجودك. لكن مع أن الاثنين

كانا يتحدثان بأصوات منخفضة، التقطت جوهر حوارهما. كان هناك خلاف بينهما واستنتجت أن المسألة تتعلق برغبتها في الرجوع إلى الساحة تلك الليلة وكان هو ضد رغبتها تلك. كان كلاهما متشبثا برأيه، وما من أحد منهما يرغب بالتنازل.

وحين دخلت غرفتهما ثانية، وأنا مستعدة للمغادرة، كانت الشابة تقف أمام المرآة وتمسح مسحوق طلاء الرموش الذي كان سال من عينيها ولوّث وجهها. بدت تعيسة ولكن مصممة، وكان لدي الإحساس بأنها لم تتعوّد الاعتراض على أمنياتها ورغباتها.

حسنا، أنت تعرف، كانت تقول له، ما الفائدة من الخوف؟ ألا يمكنك سماع الطبول؟ إنها تدعونا، وإن لم تستجبْ لنداءاتها، فستكون مثل القبلة التي لا تُقابل بالمثل. وبناء على ذلك أنا ذاهبة، والأمر متروك لك إذا ما وددت المجيء معي. وإذا رفضت المجيء، فأنت لست (جنتلمان).

يلزمني القول إنه كان (جنتلمان) حقيقيا. أعطاني عشرة دراهم على سبيل الهبة لقاء جهودي، وهو مبلغ أكبر بكثير مما توقعت، وأبقيت الباب مفتوحا عندما خرجت من الغرفة متجهة صوب الممر.

حين سرت مبتعدة عن حجرتهما، تذكرت كم هو غريب أن أقابلهما بتلك الصورة: شابان يفيضان حيوية عثرت عليهما وهما بين الحب واليأس. وذلك ما أخبرت به رجال البوليس حين أقبلوا إلى الفندق للبحث عن مفاتيح لحل اللغز في صباح اليوم التالي. فتشوا الغرفة لكنهم، كما اعترف أحدهم لي، هم أنفسهم لم يعرفوا ما الذي كان يجب عليهم أن يفتشوا عنه. في حينها

كانت الحجرة رقم 14 خالية على مدى ساعات كثيرة، كالغبار الذي يبقى عالقا في أفق الصحراء بعد اختفاء قافلة الجمال أو العربات بوقت طويل.

استنتجت من كلامها أنها انتهتْ، شكرتها على كونها أخذت زمام المبادرة وسألتها ما إذا شاهدتْ، بمحض المصادفة، بورتريه المرآة الذي رسمه صديقنا توفيق في الغرفة.

أومأتْ برأسها بقوة.

كنت على وشك أن أخبرك بشأنه. لقد لاحظته مستندا إلى المرآة بينما كنت أغادر الغرفة. لهذا السبب اعتقدت أن من المهم أن أتحدث بوضوح وأثبت التسلسل الزمني المضبوط للأحداث.

التسلسل الزمني المضبوط للأحداث؟ كررت ما قالته، وأنا مشدوه. ذلك التعبير يبدو فنيا تماما. هل تكلم رجال الشرطة عن ذلك حينما زاروا الفندق؟

أوه كلا، لا شأن لهم بذلك، قالت العجوز، وهي تضحك. لكنني مشاهدة نهمة لبرامج الجريمة في التلفزيون، وبخاصة البرنامج المصري الذي يصوّر لنا جاسوسة في منتصف العمر. وفي كل مرة يبدو البرنامج أشبه بنافذة على الشرور التي يقترفها البشر.

تأملت وجهها البربري البسيط، وهو يشع حماسة، وعليّ أن أعترف لنفسي بأنني شعرت، ولأول مرة، أنني لا أعرف ما الذي يجب عليّ قوله.

اندلعت فوضى في الزاوية البعيدة من الساحة وهي التي أنقذتني من الحاجة إلى الرد. جاءت الفوضى من جهة الجادة، ما وراء (بليس فوكالد)، حيث يتقاطع (شارع مولاي إسماعيل)

مع (شارع المحايدين) المشجر. وبينما كنا نحاول اكتشاف ماذا كان يجري هناك، اقترب شخص ما بعجالة من تلك الناحية. أوقفناه وسألناه ماذا جرى.

حصلت حادثة، شرح لنا، اصطدمت حافلة سياحية بدراجة نارية. سائق الدراجة النارية، وهو رجل شرطة، مات على الفور.

هل عرفت اسمه؟ سألته.

مختاري، أجاب الرجل. كان عريفا يتردد باستمرار على ساحة الجامع. نذل حقيقي، إن غفرتم لي تشويهي لسمعة الميت، لكنني تاجر في السوق وبسبب مضايقاته المستمرة جعل حياتنا تعيسة.

أشعل اكتشافه هذا ثقبا في عمق الليل. التفتنا كلنا مرة واحدة إلى جهة خديجة، إنما حصل ما كنا قد توقعناه. كانت قد غادرت قبل لحظات قليلة، وكان مكانها خاليا.

سؤال عائشة

في هذه المرحلة الحاسمة كسرت عائشة الصغيرة، ابنة عزيزة، الصمت المضطرب بأن سألت خادمة الفندق السابقة ما إذا كانت تعرف ماذا جرى للوحة التي رسمها توفيق.

أجابت العجوز عن السؤال بحماستها العجولة المألوفة:

أوه، أخذها رجال الشرطة معهم، يا طفلتي. غلفوها وعلى وجوههم ملامح الانتصار وكأنهم عثروا على المرأة التي اختفت وليس فقط صورتها هي. وبعد انصرافهم فتحت النوافذ على وسعها وجعلت الضوء يدخل إلى الغرفة. وفي الشارع، خارجا، كانت الحياة تتواصل كعهدها. إنني أتذكر كل شيء كما لو كان

قـد حـدث أمس. كانـت شـاحنة مليئة بأرغفـة الخبـز الطازجة قـد توقفتْ أمام المخبـز المجاور. وكان هناك رجـل يـركض تقريبا قاطعـا الشـارع. وبعدها بوقت قصير بدأ مـؤذن (جامع الكتبية) ينادي المؤمنين لأداء الصلاة.

كفت عن الكلام هنيهة وحدقتْ نحو عائشة بدعابة.

هل أجبتُ عن سؤالك؟ سألتها.

أومأت عائشـة برأسها بقوة، مع ابتسامة منفعلة، كاشفة عن أسـنانها، أما أنا فقد سـرتُ إلى الأمام، وقلبت يدي في شـعرها، وخاطبت جمهوري.

الزليج

أخي الأوسـط أحمد، قلت، معلم، حِرَفي ضليع في (الزليج)، ذلك النوع الفريد من الموزاييك المصنوع من آجرات المينا اليدوية. ثمـة قاعـدة فـي مهنتـه مماثلـة، بطرق شـتى، لسـرد القصص والحكايات. ربما لهذا السـبب أتذكره دوما حينما أروي قصصي. وبينمـا أراقبـه وهو يعمل، كنـت أتعجب دوما مـن الحقيقة التي مفادها أن جميع تصميماته كانت تسـتند إلى الأشـكال الثلاثة نفسـها: الهندسـية، الأبيغرافيـة[24]، والزهريـة، مـع الاختـلاف الوحيد الذي يحصل في مواضع الآجرات. المسـتطيلات ملائمة لأن تكـوِّن رقعـة الشـطرنج؛ الدوائـر وأنصـاف الدوائر تتشـابك فـي ورديـات وزخرفات الأرابيسـك. إنهـا حرفة مكرّسـة للتنـاظر والتكـرار، هدفهـا هو المحافظـة على الكمـال الرياضيّ (الخاص بعلـم الرياضيـات) للموضـوع. يشـبِّهُها أحمـد بتناغـم الـروح

(24) الأبيغراف: الكتابة المنقوشة - هامش المترجم.

والجسد الذي يُنجز عبر أشكال معينة من التأمل الصوفي. وبعد أن يستقر رأيه على أشكال عميقة، إيقاعية، حية، يقطع الآجرات بمطرقة من الفولاذ، وعادة ما يكون القطع بضربة حادة واحدة بدقة ممتازة.

أحمد هو الفرد العملي في أسرتنا، حذر لكنه قوي العزيمة. في وقت مبكر من حياته، كان أحمد قد قرر أن يحذو حذو أبي. في أول مرة أخبرني فيها بذلك، رفضت تصديقه. كنت آنئذ في الرابعة عشرة، وكان هو في الثانية عشرة. كان يوما صحوا ومشمسا، مليئا بزقزقات الطيور وخرير الجداول الجبلية السريعة. كانت ثلوج الربيع تذوب. وكنا قد انطلقنا لزيارة صديقنا جلال، الذي كان يرعى الأغنام في الأقسام العليا من الوادي. وحين وصلنا إلى المكان، كان كلانا قد تعرّض للرياح. توقفنا قليلا لكي نبدي إعجابنا ببستان غار مليء بالبراعم الوردية. جرفت الحماسة أحمد فاضطجع على الأرض الرطبة، ووجهه نحو السماء. وبينما كان يحدّق إلى السماء بعينين ضيقتين، أخبرني بأنه لا يريد أن يصبح راوي قصص، كان يريد شيئا آخر مختلفا بكل معنى الكلمة.

ماذا يجول في خاطرك؟ سألته.

أوه، لا أدري! قال بنفاد صبر. إنني فقط لا أريد أن أحكي القصص. أنت تعرف إلى أي مدى أنا أكره التكلّم. سأكون تعيسا في مهنة كهذه.

إنك صغير جدا في السن بحيث لا يمكنك أن تفكر مسبقا في هذا الأمر، قلت رافضا رأيه. ربما يتعيّن علينا أن نناقش هذه المسألة في الأعوام المقبلة، وليس الآن حصرا.

التفت إلى ناحيته وتطلع إلى رقعة الشطرنج الوردية والخضراء من حوله.

إنها جميلة، صحيح؟ إنها منتظمة جدا، مريحة جدا للعين. ألا تذكرك بآجرات الزليج؟

إنها جميلة جدا، أجبته مؤيدا.

هل تعتقد أن حرفة الزليج تدر مالا؟

هل تعني أنك تريد العمل كحرفي في صناعة الموزاييك؟

أجل.

أوه، إنني متأكد أنها تدر مالا. إنها حرفة محترمة.

بدا أنه نسي وجودي بجانبه للحظة، وبعدها جلس باستثارة. هي ذي إذن! هتف أحمد. إنني أعرف ماذا أريد أن أفعل بحياتي. سأعلّم نفسي كيف أصنع آجرات الموزاييك.

إن ذلك يتطلب سنوات من التدريب، أوضحت له.

تفحص يديه بعينين نصف مغمضتين.

حسن، هل تظن أن بمقدوري أن أحقق النجاح في هذه المهنة؟ هل تعتقد أن بإمكاني أن أصبح ضليعا في هذه الحرفة؟ في مراكش، سمعت المعلمين يتحدثون عنها. لديهم أسماؤهم الخاصة للأشكال التي يصنعونها: دموع مقلوبة، أقدام الدجاجة، عيون البقرة الصغيرة. إنها أشبه بالشعر، أليس كذلك؟ إنها فقط أفضل.

وبينما هو ينظر إلى الموزاييك متعدد الألوان، قال، بشيء من الحزن: بصرف النظر عن كل شيء، أريد أن أشتغل بيديّ.

تطلعت إليه، متأثرا بحماسته لكنني لم أعرف بماذا أرد عليه.

كنا قد تبادلنا الرأي بعد ذلك بستة أعوام عندما وجدنا، ونحن نواجه تصميمه العنيد، أنا وأبي، وجدنا أنفسنا مكرهين على تذكيره بأننا رجال قبيلة بربر من (جبال أطلس)، وفي المكان الذي نسكن فيه لا يوجد تقليد محلي فيما يتعلق بصناعة آجرات الزليج. إنها حرفة أرستقراطية، ميزة من ميزات القصور الشمالية الكبيرة. وأنا شخصيا، لم أكنْ أهتم بها: وجدتها حرفة معقدة جدا، منمقة جدا. وكما حاولت أن أؤكد، لم تكنْ هذه الحرفة جزءا من ثقافتنا. وحتى في مدينتنا الأكبر، مراكش، كان التوكيد ينصب بشكل أكبر بكثير على الأسطح الإسبارطية ذات القواعد الكلسية، سواء تلك الأسطح الأكثر خشونة، من النوع المسحوق، أو «الديس»[25]، أو النوع الأنعم منه، أو «تيدلكات»[26]، التي تُستخدم في المساكن الأكثر ثراء. بمعنى أنه إذا كان هو جادا فيما يخص طموحه، يتوجب عليه أن يغادرنا ويمضي شمالا إلى فاس، مركز حرفة الزليج.

أصغى إليّ بينما كانت قدماه الحافيتان تبرزان من أسفل سرواله. تحيطه من جميع الأرجاء حرارة الشمس المنعكسة من الأرضيات والجدران المكسوة بالكلس. أثنيت على فضائل هذا النوع من البساطة لكنه اكتفى فقط بالإنصات إليّ بعدم اكتراث.

أعتقد أنني سأذهب إلى فاس، قال، وذهب بالفعل.

كاد أبي يصاب بالسكتة القلبية. إنك تريد أن تذهب وتعيش وسط أولئك العرب الأرستقراطيين! إنهم لا يسعون إلا وراء المال؛ ليس لديهم ثقافة!

(25) الديس: أرضية تُصنع من الكلس المسحوق المخلوط مع الصلصال - هامش المؤلف.

(26) التيدلكات: سطح جص مصقول يُصنع من حجر الكلس المسحوق ولا ينفذ منه الماء - هامش المؤلف.

قهقه أحمد. أبي، إنهم يملكون ثقافة أكثر مما يمكنك أن تحلم به، وأنت تعرف ذلك.

رجع إلى غرفته، لفّ حاجياته في حزمة، ثم ودعنا، وخرج من البيت ماشيا تغمره أشعة الشمس. ووراءه بخطوات قليلة تبعته كلبته الهزيلة، داكنة اللون.

نشجتْ أمي بمرارة تلك الليلة، إذ شعرت بالحرمان بسبب فقدانها ابنها الثاني. وأصبح وجه أبي خاليا من التعبير أياما عدة. وفي الليل كان يرفع صوت المذياع ذي اللوح الخشبي الذي كان لا يصدر عنه سوى التشويش بين فترات التقارير المتعلقة بتمارين الجيش. وضعتُ جرة من أزهار الربيع الجبلية في حجرة أحمد، لكن سرعان ما ماتت الأزهار بسبب عدم كفاية الضوء.

حين زارنا أحمد بعد مضي بضعة شهور، سألته عن كلبته. كنتُ مولعا بتلك المخلوقة الصغيرة، وحزنت على ذهابها.

الكلبة؟ قال بكآبة. هربتْ إلى مكان ما في طريقي إلى فاس. لكنني سأحصل على كلبة جديدة في وقت قريب جدا، كلبة أصيلة النسب هذه المرة.

وبعد انقضاء سنوات عدة، حين كنا أكبر سنا وكان كلانا قد استقر به الحال، كنا نخوض مجددا النقاش المتعلق بالمهن المحترمة. في حينها، لم يكنْ أحمد قد اجتاز المراحل المختلفة للتدرب على المهن المختلفة، بل كان قد صنع لنفسه اسما كحرفي ضليع ذائع الصيت، بحيث وصل الأمر إلى درجة نيل جائزة عن خبرته في رصف الآجر للنافورات في المسجد الضخم في كازابلانكا المسمى باسم جلالة الملك. كنا جميعا نفتخر

بـه، لكنني لـم أكنْ أفهم لماذا كان يحتاج إلـى امتداح مهنته على حساب مهنتي.

في إحدى رسائله، كتب لي:

إن سـرد القصص مهنة فظة، مسكونة بالأشباح والأرواح. أود أن امتهن شيئا آخر في حياتي، شيئا ما أكثر واقعية وذا معنى أكبر.

أجبته على رسالته قائلا:

إنني أرفض انتقادك لمهنة سرد الحكايات لأن الحب وحده هو الذي يسـتطيع أن يفهم أيّ شـكل من أشـكال الفن ويحكم عليه حكما منصفا. ليس بوسعك أن تكون عادلا في تقديراتك إلا إذا تعهدت بأن تفهم من دون إصدار الأحكام.

رد عليّ في الحال، في برقية مطوّلة:

إنني أرغب على الأقل أن أترك بصمة تبقى سرمدية. الجماهير يـزورون الأمكنـة التـي رصفتُ فيها آجـرات الموزاييـك ويُظهرون انبهارهـم بعملي اليـدوي. إنني أعلم علم اليقـين أن عملي هذا سيهب السعادة والغبطة على مدى العصور القادمة. لا أستطيع أن أروي الحكايـات يومـا بعد يوم وأراقب كلماتـي وهي تتبدد في الهواء. أين القناعة في عمل كهذا؟ أين الرائحة الضرورية للنار والأتـون والصلصـال؟ أين المجـد الناجم عن الكفـاح والانتصار علـى المادة؟ إن الهواء الخالي ليس بديلا كافيا. وحتى الأصداء، ليسـتْ بدائـل كافية. إنه الاختلاف بين الواقـع والبراعة. عملك محض سـراب. هذه هي الحقيقة المستحيلة. حينما يقضي المرء حياته بأسـرها وهو يروي القصص، يختفي الواقع ويظهر شيء ما عوضا عنه: مجموعة اعتباطية من التفاصيل اشتغلتْ عليها المخيلة مجددا.

قاومتُ إغراء الرد على برقيته. لم يكنْ باستطاعتي تحمل فكرة الرد أصلا. لكنني في الرسالة التي بعثتها له، كتبت قائلا: حتى عملك نفسه هو محض خيال، يا أخي العزيز، إذا كنت تملك التواضع لكي تعترف بذلك.

أما جوابه فكان على النحو الآتي:

أين الخيال في عملي؟

فأجبته:

إيمانك بخلوده. في المرة المقبلة حين تأتي إلى مراكش، قمْ بزيارة كسارة الحجر الخاصة بـ (قصر البادي) الذي كان يُعد لا نظير له في زمنه، وتذكّر الملاحظة التي أدلى بها مهرج البلاط لإمبراطوره بأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى دمار كبير.

انتظرتْ جوابه لكن شهورا عدة مضت قبل أن يسترد أحمد خيط مراسلاتنا. خلال هذه المدة الفاصلة كان قد انتقل من فاس إلى مكناس ووطد عمله الخاص هناك. أصبح أحمد أول فرد من أفراد أسرتنا يقيم في بيت من الآجر. زاره أبواي، وعندما رجع أبي من زيارته قال بنوع من السخرية: الرخاء تغلّب على ابني.

في رسالته التالية، التي أرفق معها صورة فوتوغرافية لمنزله، كتب لي أحمد قائلا:

أتذكر ما قلته عن الزليج قبل زمن طويل؟ لقد قارنت بينه وبين الشعر، إنما شاءت الله أن يكون حتى أفضل من الشعر. طيب، حسن، لا يزال هذا التقدير قائما حتى الآن.

وكان ردي كما يلي:

يا أخي، لماذا تجري هذه المقارنة؟ الشعر هو كل شيء تجده ساميا. السمو هو الذي يهبك السعادة. أما البقية فلا شيء سوى

العواطف الهارية. عشْ سعيدا مع فنك، مثلما أنا سعيد مع فني، ودعنا نتقاسم سعادة أحدنا الآخر.

إننـي موافق من صميم قلبي، كتب لي في رسـالته الجوابية، لكنه حينها شعر أنه يحتاج إلى أن يضيف قائلا: لقد أضفت توا طابقا ثالثا إلى منزلي. بالطبع، الأرضيات والجدران مغلفة كلها بالزليج بارتفاع الكتف. يتعيّن عليّ ألا أكتب ذلك، لكنه واحد من أفضل أعمالي. في بعض الأمكنة تُسبب هندسة الأسطح خدعا بصرية غريبـة. أحد أصدقائي وهـو يدّرس الرياضيـات يقارنها بأشـكال جزئية، مع أن لا فكرة لـديّ عما تعنيه هاتان الكلمتان. أما أمينة، زوجتي، فتقول إن هذه الأشكال تورثها الصداع، لكنها، على الرغم من ذلك، تُريها لصديقاتها. حسـن، يبدو كأننا نقيم في قصر. عليك أن تزورنا ذات يوم.

وفي ذيل الرسالة، أضاف قائلا: أرجوك، بلّغ تحياتي إلى أخي مصطفى. أتعرف ماذا يخطط ليصبح في المستقبل؟ كتب لي أبي شـاكيا أنه لا يعرف ماذا سـيمتهن في المستقبل. قلْ لمصطفى إن هناك دوما مكانا شـاغرا له في مهنتي إذا كان مهتما بالانضمام إليّ هنا.

أسد الأطلس

ورد في الكتب أن القبائل العظيمة لأسود الأطلس قد انقرضتْ في أزمنة الرومان، وتقلصت إلى كائنات حبيسـة شـبه جائعة في عدد من السيركات التي تُقام لإمتاع الجمهور. أخبرني أحمد ذات مرة، بأن ثمة شائعة تفيد بأن الآثار الرومانية في (فوليوبليس)، بالقـرب من مكنـاس، لا تزال تـردد ليلا أصداء زئيـر الحيوانات

الأسـيرة حينما كانت تسقط ضحية لغريزة التعطش للدم لدى قنصل روماني مجنون بالسـلطة. قال أحمد إن السكان المحليين يتحاشـون المكان مثلما يتحاشـون الطاعـون بعد حلول الظلام. وتسـجل كتـب أخـرى حادثة نفوق آخر أسـد من أسـود الأطلس عـام 1922، وهـو حيـوان ضخم ذو عرف أسـود مائـل للاحمرار يحيـط بوجهه كاللحية. ومع ذلك يؤكد عبد الخالق وفتح الله، وهمـا راعيـان في قريتنا، أنهما سـمعا زئير الأسـود وهي تجوس خلسـة فى سـفوح الجبال العليا ليلا. إنهما رجلان موثوق بهما، لذلك ليس ثمة سـبب يدعونا للارتياب في كلامهما. وهما ليسا الشـخصين الوحيدين. ففي القرى المجـاورة، وكذلك في مراعي منطقة (جبل صحرحو)، سـمعنا عن مواشٍ حملتها بعيدا أسود غازية أثناء الليل.

حرّضت هذه الشائعات فريقا من علماء الحيوانِ من الرباط فأمضـوا بضعـة شـهور فـي وادينا، وأجـروا حـوارات مـع الرعاة واقتفوا آثار أشـياء غريبـة مزعومة. دعمـت الحكومة جهودهم، وقدّمـتْ لهم مكافأة ثمينة. ما كانـوا يريدونه هو برهان: أعضاء من الجسم، جماجم، عظام، قوالب ترابية من آثار القوائم، صور فوتوغرافيـة. أحـدث ذلـك كله هياجـا كبيرا في القـرى. أحضر النـاس أشـياء عديـدة بوصفهـا أدلـة. وعـرض تاجر فـي (وادي داديس) جلد أسد محفوظا بشكل جيد، إنما تبين لاحقا أنه كان قد سرقه من رئيس قبيلة كان اشتراه في نزل بموريتانيا. وعرض شـخص آخـر في (وادي تـودرا) مجموعة من الأنيـاب، إنما وُجد أن عمرهـا يزيد على مئة عام. وأنهى علماء الحيوان من الرباط بحثهـم أخيـرا مـن دون التوصل إلى اسـتنتاجات محـددة، غير

أن عرض الحكومة بتقديم مكافأة ما لقاء العثور على برهان لا يزال قائما.

سمع شقيقي مصطفى البالغ من العمر أحد عشر عاما عن المكافأة حين مرت مجموعة من موظفي الحكومة في قريتنا. تحدث أحدهم إلى أبي بشأن المسألة. كان مبلغ المكافأة كبيرا، وفي الحال سلب هذا المبلغ لب مصطفى.

ما أسد الأطلس؟

ضحك أبي. إنه الحيوان المفترس الضخم الوحيد الباقي في جبالنا، أجاب. أما البقية فقد تم اصطيادها جميعا.

لكن ماذا عن دب الأطلس ونمر الأطلس؟ سألتُ.

لقد قُتلتْ منذ أمد بعيد، حتى قبل قتل الأسد بمدة طويلة جدا، رد أبي.

كيف يستطيع المرء أن يميز أسد الأطلس هذا؟ سأل مصطفى.

أرانا أبي الصورة الموجودة في الكتيب الذي تركه الموظفون الحكوميون.

انظرْ إلى العرف الكثيف، أرشدنا. إنه ذو لون بني داكن، أسود تقريبا، حاشية شقراء حول الوجه تزحف أسفل البطن نحو القائمتين الخلفيتين. إنه أكبر أسود أفريقيا، أضاف قائلا بتفاخر. أقرب الكائنات الحية إليها هي أسود الهند، لكن أسودنا أضخم من جهة الكتف. وذات جماجم أكبر وأعرافها نامية أكثر. إنها حقيقة حيوانات هائلة، استثنائية. لقد أسر الرومان المئات منها. واستخدموها لقتل سكان الناصرة بفلسطين.

لاذ مصطفى بالصمت، وغرق في التفكير. تحادثنا أنا وأبي من دون كلفة مدة أطول عن الأسود، وبعدها حوّلنا اهتمامنا إلى القضية الملحّة المتعلقة بإقامتنا المؤقتة المرتقبة في مراكش. لكن مصطفى لم ينضمّ إلينا في حوارنا. غمز لي أبي بعينه ومسد شاربه الأبيض. تركنا مصطفى هناك، يسند حنكه بيده، في البداية أخذ يحدق في صورة أسد الأطلس وبعدها صار يحدق إلى الجهة البعيدة حيث كانت الجبال تجعد خط الأفق.

في تلك الليلة اعترف لي مصطفى بأن الأسود كانت تعتصر روحه. أنا ثمل يا حسن، قال لي هامسا لكي لا يوقظ والديّ. رأيت رؤية بعد ظهر هذا اليوم بينما كنت أنت تتحاور مع أبي. رأيت أسدا ذا عرف من ألسنة اللهب بدلا من الفراء، وبينما كنت أتطلع إليه تحول ذلك الأسد إلى إنسان.

هل ميّزته؟ سألته بشغف.

كلا، لكنني مقتنع بأن الأسود موجودة فعلا. عليّ أن أجدها، أو على الأقل أجد آثارها.

إنها كائنات تسكن الغابات، قلت له محذرا. إنها تبقى قابعة في الظلال ولا تظهر نفسها إلا بعد حلول الظلام. ألا تظن أن كثيرا من الناس حاولوا العثور عليها لكنهم أخفقوا؟ ليس من السهل تعقب آثارها.

سأعثر عليها، أعلن مصطفى. وحين أتمكن من ذلك، سأقتل أكبر ذكر وأطالب بالمكافأة. أعطني يدك، حسن، وتمنى لي النجاح في مسعاي. إن لدى إجازة غدا، سأبدأ رحلة البحث على أسد الأطلس.

طيب، أجبته والنعاس يداهمني، وأنا لا أصدّقه للحظة واحدة. الآن، اذهبْ إلى فراشك.

في صبيحة اليوم التالي، فجرا، قبل أن يستيقظ أحد من أفراد أسرتنا، انطلق في رحلته. كانت أمي أول من انتبه لغيابه عن المنزل، وقد احتجتُ كل رباطة جأشي لكي أخبر والديّ إلى أين ذهب مصطفى بحسب اعتقادي.

القرية بأكملها انطلقت للبحث عنه. حصل ذلك في الأسبوع الذي أعقب حصاد الربيع، وأظن أن الجميع كانوا يحتاجون إلى عذر لتحرير طاقاتهم المكبوتة. كانتِ تلك أشبه بنزهة في الحقيقة، ولم يأبه أحد بأن نستغرق يومين لكي نلحق بأخي الضال. وحتى حين تحقق لنا ذلك، في الجبال العالية القريبة من الممر الجبلي المؤدي إلى وادينا، كان من الصعب استهجان سلوكه الذي كان مخزيا جدا. عوضا عن ذلك، ابتسمنا لدى رؤيتنا المجموعة المتنافرة من الأشياء التي كان قد جمعها أثناء سعيه لصيد الأسد: صندوق نحاس منبعج لحفظ أدوات المائدة يستعمله الجند والنازلون في المخيمات؛ راية حمراء مطوية صبغتها أشعة الشمس؛ آكل الحشرات المجفف، ذلك الكائن الخاص الشبيه بالفأر ذو الأنف الذي يمتد ليصبح خرطوما أطول من المعتاد؛ غصن شجرة سنديان نحتته الريح ليصبح شبيها بالرمح؛ فتيل ديناميت؛ حجر كبير، مسطح مزود بندوب بيضاء مفعمة بالحيوية بحيث أصر مصطفى أنها نجمتْ عن أسد شحذ بها براثنه.

تمسكت بقوة بهذا الشيء الأخير باعتباره برهانا محتملا على وجود الأسود في وادينا لكي أنقذ كبرياء أخي، لكنه لم يكنْ برهانا كافيا. في طريق أوبتنا إلى القرية، أحد أشخاص

الهزليين لقب مصطفى بـ «أسـد الأطلس»، وجميعنا، ومن بيننا أبي، انفجرنا ضاحكين.

فيمـا بعـد، يحكي لنا مصطفى عن الطائر الرمادي الصغير الذي أسـقطه صريعا من السـماء ومات بالقرب من قدميه حين انطلق في رحلته الطويلة الشاقة.

كان ذلك فألا سيئا، قال مكفهر الوجه. كان عليّ أن أعرف أن سعيي لن يُكتب له النجاح، ولن أحقق شيئا قط.

وفـي محاولـة لتهدئتـه، قـال أبـي: المهـم هو الحلـم، وليس الغنيمة.

بيد أن مصطفى ظل بلا عزاء.

كان أبـي مقتنعـا بأن ذلـك يرجع إلى أن الخـزي اللافت هو الـذي يكمن وراء عـزم أخي المتكرر على مغادرة الوادي وتصميمه علـى عـدم الرجـوع. لكننـي أعـرف أكثـر، لأن مصطفـى نفسـه أخبرني بالسـبب الحقيقـي. كان ذلك يرجع إلى شـيء مختلف تمـام الاختلاف، شـيء حدث بعد مضي سـنوات قلائـل وقد غيّر بصورة مطلقة مسار حياتنا كلنا، فأصبح أسوأ بكثير. كنت أعرف أن رحيـل أخي له صلة بإحساسـه بالوهن حين واجه حادثة وفاة زوجتي الشابة الجميلة التي كان يحبها إلى درجة كبيرة، مثل أي فرد آخر في أسرتنا، خلال الولادة.

النسيب

زهرة سُـميّتْ على اسـم نجمة الصباح (الزهرة). كانت تضوع دومـا بعبـق الخزامـى. كانت لها ضحكـة مُعدية جـدا. هي المرأة التي اخترتها دوما، فؤاد أفئدتي، حب حياتي..

كانت هذه هي الخواطر والأفكار المبعثرة التي جالت في ذهني حينما دفناها مع طفلي الميت في سفح التل الواقع وراء منزلنا. ذكرى تلك الليلة لن تفارقني أبدا: ذكرى الغبار المتصاعد من القبرين المزدوجين؛ ذكرى خيبة الأمل البادية على وجوه كل مَن كانوا هناك؛ ذكرى إحساسي الخانق بالأسى والوحدة؛ ذكرى الليلة التي تتلألأ بالنجوم من دون أن تأبه بنا، وتلك النجمة الساطعة التي انطفأتْ فجأة كما لو أن يدا خفية أطفأتها.

كان النوم صعب المنال تلك الليلة. كان خُفَّا زهرة موضوعين بالقرب من السرير كشأنهما دوما. رتبتُ الغطاء كما كنتُ أفعل دوما في الماضي. استنشقت رائحتها، رائحة الخزامى، العالقة بالوسائد. وواصلت ترديد اسمها مرارا وتكرارا في بالي كما لو أن ذلك سيعيدها إلى الحياة مجددا.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي أخبرت أبي بأنني ذاهب في مسيرة راجلة.

غادرت المنزل، أدرتُ ظهري للوادي، ويممت وجهي شطر الجبال. هناك في القاع البعيد توجد البيوت الصغيرة بحجم الكراسي، البيوت الخاصة بقريتنا.

انصرم النهار. أقبل الليل، ومن ثم انقضى. وبعدها أقبل النهار ثانية؛ الليل مرة أخرى. ضيّعت مسار الزمن. نهارات لا معنى لها؛ ليال مؤرقة. لمَعت النجوم، بعضها أبيض، وبعضها الآخر أزرق. انتشرت الغيوم في غير اتساق كالدخان على امتداد الأرض كلها. اخترقت أصابع الشمس السفوح المشجرة. راقبت نسرا يحلق في الفضاء ويتخذ له مسارات حلزونية. وكانت الريح الشرقية، مبعوثة الحب تلك، تحرّك أوراق الشجر المتساقطة وتثير الغبار.

ثمة فتاة صغيرة ترعى قطيعا من الخراف، الحياة تواصل مسيرها كالمعتاد.

في القرية الواقعة في الوادي المتاخم كانوا يحتفلون بالزواج الثاني للبقال. ارتفعتْ زغاريد النساء في أغنية فرحة. واهتزت المنازل ذات السقوف الإردوازية مع قرع الطبول. ما وراء القرية، لمع الدرب المفروش بالحجر وبدا أبيضَ تحت الشمس. كانت الأرض كلها مغطاة بالمراعي، مراع كثيفة وبلا حدود، لكنها انحسرتْ فجأة عند القمم العالية جدا في المنحدرات الصخرية. تخللتْ المراعي أشجار متشابكة. هب نسيم بارد في عصفات سريعة. يسود المكان جو الخريف. كما أن نصف المروج كانت قد أصبحتْ ذهبية.

ارتقيتُ سفحا شديد الانحدار. كانت المروج العشبية قد أفسحتْ المجال لمشهد متكسر، نصف أشجار، نصف شجيرات. وانتصبتْ صفوف من أشجار صنوبر توقفتْ عن النمو في الممرات. خرجت من بين ضفة من أشجار الأرز نحو إفريز ضيق يتدلى فوق واد ضيق شديد الانحدار. لا يوجد من حولي سوى منحدرات صخرية جرداء تومض بألوان شفافة وصارخة. ثمة جدول يبدو واضحا في الأسفل، وفي مكان بعيد، هناك التاج الثلجي لـ (جبل توبكال)، يبدو نائيا وأبيض اللون.

كانت الشمس في مواجهتي حين جلستُ. أسندتُ ظهري إلى صخرة هائلة، واسترحت في ظلها. بقيت بلا حراك وبدأتْ جمرات حياتي تدنو مني. عندئذ فقط وعيتُ بالسكون المتعلق بما بات مفقودا الآن ألا وهو أن زهرة رحلتْ عن عالمنا.

حين حل الليل، زحف الضباب على حافة الجبال. وغطتْ طبقة من الرطوبة مكان جلوسي على الصخرة. متصلبا وشاعرا بالبرد، راقبتُ شحوبا كشحوب الخزامى يغمر السماء ويغسل الأسوار الداكنة للجبال. وفي خلال لحظة، اخترقها مباشرة ولوّن العالم بأسره. وبعد مرور لحظات، باندفاع مفاجئ من الظلال، هبط الليل.

أضاءَتِ الكواكب السماء؛ ارتفع هلال فوق الأرض. ومن وراء سلسلة جبلية عالية، طفتْ هناك غيمة رمادية كثيفة وتقدمتْ لتغلّف الإفريز الذي كنت جالسا عليه، وحجبتْ عني المناطق التي تحيط بي كليا. غدَتِ الكواكب معتمة، والسماء صارتْ سوداء. وهكذا بقيتُ في الليل، وحيدا بكل معنى الكلمة.

أخرجتُ خُفَّي زهرة من جيبي ورميتهما من فوق الحافة. لاحقتهما بنظراتي، وتخيلتُ جسدي وهو يرتطم بالصخور. تمسكتُ بهذه الفكرة، وأنا أعي فقط بأنني لم أعدْ أشبه نفسي على الإطلاق، أنني بعيد ومنفصل تماما عن العالم.

انتهك صوت شهيق سريع سكوني.

أدرتُ رأسي، فرأيت مصطفى جاثما في السديم، نظراته مثبتة عليّ. بدا رماديا، جموحا، متوحدا أكثر من أي وقت مضى. شعرتُ بهدوء غريب يستولي عليّ في تلك اللحظة. أومأت له بأن يجلس إلى جواري وسحبت نفسي من الحافة.

كيف وجدتني هنا؟ سألته.

كنت أقتفي أثرك منذ مغادرتك منزلنا، قال مصطفى بصوت أجش.

وبعدها قال: حسن، لقد أمضيت ثلاثة أيام بعيدا عن المنزل.

هل كانت مغادرتي بهذا الطول؟ سألته.

وبقوة طوّق كتفيّ بذراعيه وانفجر باكيا.

المنية

بعد عودتي إلى المنزل وجدتُ أبويّ هرمين ولا يكاد المرء يستطيع تمييزهما.

أمسكتْ بي أمي وراحت ترتجف من دون انقطاع. وكان وجه أبي النحيف، والداكن متوترا بسبب الأرق. قال لي إنه لا يستطيع الاستمرار في روي القصص: لم يعد يحب هذه المهنة.

قال: زهرة أصبحت الآن في العالم الآخر، لكن روحها ستظل دوما معنا.

قلت: نعم، أبي.

ولكن ماذا عنك يا بني؟ نحن نراقبك، كما لو أننا نفعل ذلك من مسافة معينة، عاجزين، لا حول لنا ولا قوة. هذا الحزن أشبه بظل يخيم على أفئدتنا.

قلت: لا تقلق بشأني.

حسن، كل شيء متروك للقدر، والموت ما هو إلا النهاية التي يفرضها القدر.

قلت: أعرف ذلك يا أبي.

قالت أمي: زهرة الآن في مكان أفضل من مكاننا هذا. كانت امرأة صالحة جدا بالنسبة لعالمنا هذا.

قلت: أعرف ذلك يا أمي.

قالت: نحن نحزن عليك. نحن لا نعرف ماذا نفعل.

قلت: لننتظر بعض الوقت، يا أمي.

علينا أن نترك كل شيء لمشيئة الله، قال أبي. إنها إرادته هو. لكل شيء سبب وهدف.

أبي، ماذا عن ابني الميت؟

خفض رأسه وظل صامتا.

راوي قصة مراكش

بعد وفاة زهرة بعشرة أيام، سألتُ أبي ما إذا كان باستطاعتي أن أتولى مهنته، مهنة روي القصص، طالما أنه صمم على التخلي عنها. احتجتُ إلى زمن طويل لكي أقنعه بأنني أشعر بقوة كافية تؤهلني لاحتراف مهنته، ولكنني حين قلت له أخيرا إنني أحتاج إلى القيام بذلك لكي أضيّع نفسي في عالم آخر، فهم حالا ولم يعدْ يمانع.

تعال معي، قال، وهو يجمع عصي القصة الخاصة به في أكياسها.

مشينا إلى الكهف حيث كان يزاول حرفته صباح كل يوم من دون انقطاع. في طريقنا إلى هناك، توقف برهة وقال لي: حسن، لم أشعرْ بالتعب والإعياء من قبل مثلما أشعر به الآن. حسن، في اعتقادي أن التقدم في السن يحصل عندما تبدأ بالشعور بأن حركة الزمن باتت أشبه بعبء لا سبيل إلى تغييره.

أبي، إنك لم تصبحْ مسنا إلى هذا الحد. سوف تتجاوز هذا الشعور.

لا أعرف، يا حسن، لكنني أتمنى أن تكون على صواب.

دخلنا الكهف وجلسنا على الصخور الرمادية الباردة. مر بعض الوقت لم ينبس خلاله بكلمة، لكنه ظل فقط ينظر من

حولـه وكأنه يرى المكان لأول مرة. وفـي النهاية، تنفس الصعداء وقال لي: هذا الكهف كان أشبه بمنزل ثان بالنسبة لي.

هذا المكان، وليس ساحة الجامع؟

ابتسـم. حينمـا أكـون فـي السـاحة، أتخيـل أننـي هنـا. إنه يناسبني. أشعر هنا بالأمان والسكينة.

التفـت لينظـر إلـيّ؛ كان يلوح علـى وجهه تعبيـر غريب، هو مزيج من السعادة والندم. قال لي إنه اصطحبني إلى هنا عندما كنـت طفلا. كنت في سـن الثالثـة أو الرابعـة، لا أتذكر. لم يطرأ عليه أي تغيير.

كانت عيناه تلمعان.

أجيـال عـدة مـن أسـرتنا شـحذتْ حرفهـا فـي هـذا الكهف المتواضع. هذه الصخور الحية تشربتْ مئات القصص. تحليقات لا حصر لها من الخيال. لا حصر لها. حينما كنتُ صغير السن، كنـت أحب أن ألصق أذنيّ بالجدران وأنصت إلى ما كان عليهم أن يقولوه لي.

سأتذكر ذلك حينما أكون في الساحة، قلت بلطف.

أومأ برأسـه. لا تقلق. لن أسـتمر في التذكر بلا نهاية. أعرف أننـا جئنـا إلى هنا لغـرض ما. لفّ ذراعيه حـول بدنه كما لو أنه شعر بالبرد.

أبي، أنا لست قلقا. لديّ متسع من الوقت.

إنما علينا أن نبدأ، وإلا فسـيكون لزاما عليّ أن أتكلم وحدي. لقد حان الوقت.

وهو يفتح ذراعيه، قام بإيماءةٍ واسعة محتضنا الكهف.

تصـوّر أننـا لم نعدْ هنا، بل في الجامع، في مراكش، قال أبي.

مـدّ إحدى يديه بصورة أفقية أمامه وجعل اليد الأخرى عمودية عليهـا. هـذه هي سـاحة الجامـع، قال، وهو يشـير إلى المسـتوى الأفقـي، وهذه اليد الأخرى تمثـل مئذنة (الكتبية). الآن، قل لي ماذا ترى.

على مدى لحظة، رأيت نفسي كما بدوت في عينَي أبي وأدركت أنني لا أقدر أن أتصور أنني ألعب دورا يتسم بمزيد من التحدي. تطلعت إلى يديه؛ لم أشـأ أن أخذلـه، لكنني لم أكنْ متيقنا ماذا يسعني القول. وعلى الرغم من ذلك، وجدتني أتكلم:

إنني أرى الشمس. أرى الشمس في الظُلل البراقة، والأكشاك المفتوحة تتصاعد منها أبخرة الروائح، والدخان الأزرق السديمي المنبعـث مـن المواقد يرتفع في الهواء. السـماء مملـوءة بأصوات الباعـة الجوالـين. ثمار البرتقـال فوّاحة بصـورة خاصة في هذا اليوم: إنني أشـعر بعصيرها اللذيذ على لسـاني. إنه يوم صحو، لذلك بوسـعك أن ترى الجبال من بعيد. في الناحية الثانية من الجبـال، فـي واد أخضر ومورق تسـقيه جـداول بـاردة، هناك أب يختبر ابنه في فن سرد القصص في داخل كهف. آثار قدمَي الابن مـا زالـت مرئية في الهـواء بينما هو يتنقل بـين (جامع الفناء) والكهف، إنما هناك نسـيم منعش يهبُّ، والبصمات الباهتة جدا هـي وحدها التي بقيـتْ في الأفق. وفي داخـل الكهف، ثمة مرآة تصـل إلـى الأرض، وقبالتهـا يقـف الأب موحيا بأنه ليس سـوى راوي قصة مراكش. عبر فضاء المرآة يشاهد حشد الناس المألوف لسـاحة الجامـع، لكن بدلا من أن يرى نفسـه وهـو يلقي خطبة أمـام حلقة مسـتمعيه، يرى ابنه، حسـن، يخترع قصته، يسـمّي، يصف، يطوي العالم كما لو أنه هو نفسه كان واقفا هناك.

ابتسم أبي. بسرية تقريبا، كما لو أنه بين ندين، قال: طيب، ببساطة سوف ننتقل إلى سرد القصص إذن. سأختار موضوعا، وأنت تختار الحبكة، وسنستمر في الطريقة المتعارف عليها.

أخرج عصي قصته من أكياسها وكان يهمّ بانتقاء إحدى العصي حين قاطعته. أبي، قلت بلطف، هل هذا ضروري حقا؟

نظر إليّ. ماذا تعني؟

أعني أنني فقدتُ زوجتي منذ عهد قريب.

كيف يمكنني إذن أن أعرف أنك مستعد بشكل كاف؟

صدّقني. لقد رافقتك إلى مراكش منذ مدة تزيد على أربعة عشر عاما. إنني أعرف ماذا أفعل. عندما أصل إلى ساحة الجامع سأكون في حالة عقلية مختلفة. لن أخيّب ظنك.

أحنى رأسه. يمكنني الجزم بأنه لم يكنْ مقتنعا، وكان لديه سبب وجيه، لكنه أخذ الأمر باعتباره مقياسا لحبه لي حينما أعطى موافقته، على مضض.

ثمة شيء أريده منك، على أي حال، أضفتُ قائلا.

ما هو؟

نصيحة. اقتراحات في مجال الطريقة التي يمكنني بها أن أمهد الطريق.

ابتسم لي ابتسامة ضعيفة. هل تريد أفكارا مفيدة في كيفية توليف قصة ما؟

نعم، أريد.

حسنا جدا.

فكّرَ لحظة. وبعدها قال:

أولا، تذكّر دوما أن القصة إما أنها تنطوي على الحب

والجريمة، وإما أنها لا تنطوي على شيء قط. ثانيا، خارج الموضوعات الواسعة التي قررتها عصي القصة، العمل البارع هو أن تصنع كل شيء من النسيج كله. ثالثا، القصة يجب ألا يكون لها حل واضح. بتلك الطريقة سوف تجعل جمهورك يعودون لسماع المزيد. وفي النهاية - وهذا هو الشيء المهم جدا - إن مهنتنا تتطلب الانضباط والعمل الدؤوب؛ الخيال الخصب وحده ليس كافيا.

بتعبير جليل، أضاف أبي: يا حسن، إنك تهمّ بالدخول إلى مهنة ذات امتيازات. تذكّر على الدوام أن الأخوّة التي تجمع رواة القصص متشابكة بإحكام، وأن الروابط التي تجمعنا معا أقوى من تلك الموجودة بين أفراد الأسرة الواحدة. إذا ما كان أحد الزملاء الرواة بحاجة إلى مساعدتك، قدّمها له من دون تحفظات أو من دون تفكير بالعواقب المترتبة على ذلك. هل هذا واضح؟

نعم، أبي.

في تلك الحالة...

بغتة كفّ عن التحدث. بدا متعبا ومقطوع الأنفاس.

ماذا يمكنني أن أخبرك عدا ذلك؟ قال. ماذا يلزمني أن أخبرك باستثناء ذلك؟ أوه نعم، هناك شيء واحد عدا ذلك. لا تنسَ أن الآصرة بين راوي القصص وجمهوره تستند إلى الذوق الجيد، الاحترام المتبادل، والسلوك الحسن. يا حسن، لا تتنازل عن الكياسة في التعامل مع البشر. إنني أذكر هذا الأمر لأن (ساحة الجامع) من الجائز أن تكون موضعا تسوده القلاقل. وإذا ما اقتحمها قطاع الطرق، كنْ صلبا، اثبتْ في مكانك ولا تتزعزع، لا تخفْ.

دعْ عنك مخاوفك، يا أبي. لقد تعلّمت منك فأنت قدوتي ومَثلي الأعلى.

أومأ برأسه وعدّل من جلسته. هذا، إذن، هو كل ما عليّ أن أقوله الآن. ربما ستخطر ببالي أشياء أخرى لاحقا.

شكرا لك، أبي.

بدا كما لو أنه يروم الوقوف على قدميه، وكنت أهمّ باللحاق به عندما أطلق هتافا بلا كلمات وجلس مجددا وكأنه تذكّر تواً شيئا ما. بنظرة جانبية ألقاها عليّ كانت حيية بشكل غريب، تنهد وقال لي: ما يجب عليّ قوله لاحقا يتعلق بك شخصيا، أو ربما من الأدق القول إنه يتعلق بأمورك الشخصية، ومع أنه ربما لم يخطرْ ببالك حتى الآن، إن الزمن الذي نقضيه أنا وأنت معا زمن قصير، وليس لدي خيار سوى أن أدلي بهذا الأمر لك. وأمك تؤيدني في هذا الشأن، بالمناسبة، أضاف قائلا.

ما هو، يا أبي؟

إنه كما يلي. ما إن نتعافَ جميعنا من هذه المأساة، فسوف أتولى البحث عن زوجة لك، توقف هنيهة عن الكلام، ومن ثم غيّر نبرته فقال بلطف ورقة: زوجة ثانية.

لم أحرْ جوابا، لكنني التفت وأرسلت نظرات مركزة إلى خارج فتحة الكهف. كانت السماء في الخارج صافية، زرقاء براقة، من دون أي أثر للغيوم.

وبعد لحظات قليلة، أحسست بيده على ذراعي.

هل لديك رأي فيما يتصل بهذه المسألة؟ سألني.

أبتاه، قررتُ ألا أتزوج ثانية.

لكن مَنْ الذي سيهبنا الأحفاد؟ مَنْ الذي سيديم نسلنا؟

تطلعت إليه بهدوء. لم أشعر بالأذى ولا الغضب حيال أسئلته بل شعرت بالحزن العميق ليس إلا.

لماذا تهتم بهذا الأمر الآن؟ لديك ابنان آخران.

ليس هذا هو موضوعنا هنا. أنا وأمك نبحث عما يسعدك.

الراحة سوف تضمن لي ذلك، بمرور الوقت، سأكون مقتنعا.

مال إلى الأمام ونظر إليّ من دون أن تطرف عيناه.

ربما لم أفصحْ بوضوح عما يعتمل في داخلي من أفكار وأحاسيس. نحن نريدك أن تتزوج يا حسن. إنه جزء من تقاليدنا المتوارثة، جزء من معتقداتنا. إنك تمجد الله حينما تطيع والديك. حتى عندما يكونان على خطأ، المسلم يطيع أبويه، لا يُمكننا أن ندع الأشجار تتساقط إذا كان لا بد للغابة أن تظل صامدة.

كنت أكنّ له قدرا كبيرا من الإجلال والاحترام بحيث وجدت من الصعوبة أن أرد على أسئلته؛ ومع ذلك شعرت أنني مرغم على ذلك. وضعتُ يدي على رسغه. أبي، إنك تعرف مبلغ إجلالي واحترامي لك، لكنني في ما يتعلق بهذه المسألة لا يمكنني أن أطيعك، قلت له.

حتى قبل أن أنتهي من حديثي، رأيتُ ملامحه المصدومة وشعرتُ بالخجل. نحيت بصري حالا. رفع يدي عن رسغه. انتظرتُ لحظة قبل أن أحدق إليه ثانية.

حسن، قال لي.

نظرت إليه بتركيز. لم يكنْ صوته مثيرا للاستياء، أو محبطا، لكنه خائف.

إنكَ تحبس نفسك في سجن من صنع يديك، قال لي.

هذه إحدى الطرق في النظر إلى الأمر. الطريقة الأخرى هي الاعتقاد بأنني أحترم عهود الزواج التي قطعتها لزوجتي.

الحياة، يا بني، ليستْ صارمة وقاسية إلى هذا الحد. إنك لم تزل شابا في التاسعة عشرة. حياتك بأسرها لا تزال أمامك. لا تحكم على مستقبلك من خلال اتخاذ قرار تمليه عليك ظروفك الحالية. إن الأعوام التي تقضيها في تغذية الألم ليستْ بديلا سليما للحيوية.

تطلعت إلى ملامحه المجعدة بينما كان يتحدث، غير أن ذهني كان في موضع آخر. بذلتُ مجهودا لكي أرد عليه: أبي، هل يجب علينا التحدّث عن ذلك الآن؟

ارتعد قليلا وأغمض عينيه. استقرت يداه على ركبتيه الهزيلتين. هذا المكان بارد، قال. إنني رجل مسن الآن وأحس بالبرد.

راقبته برقة وعاطفة.

فتح عينيه ونهض ببطء على قدميه. بدا مرهقا، وأحسستُ بألم خفيف ناجم عن الندم. وقفت بدوري على قدميّ.

أبي، لا أريد أن أخيّب أملك، قلت له.

نظر إليّ؛ بدا مستسلما وحزينا.

بُني حسن، إنني متأكد أنك لن تخيّب أملي. إنك ابن صالح وطالما شعرتُ أن ثمة تفاهما عميقا بيننا حتى عندما نختلف في الآراء. بل يمكنك القول، خاصة خلال تلك الأوقات.

ابتسم، بيد أنها كانت ابتسامة عصرتْ قلبي. لم يكنْ باستطاعتي التفكير في أي شيء. بعد فاصل زمني، استطرد قائلا: لكنني قلق فيما يتعلق بأخيك مصطفى. ليس فيما

يتعلق بأخيك أحمد، بل مصطفى. أحمد سيكون على ما يرام، إنه يعرف طرق العالم. لكن مصطفى مبعث قلق دائم لي ولأمك. إنه مفرط في التهوّر والطيش، وواثق من نفسه بصورة مبالغ بها.

واثق من نفسه بصورة مبالغ بها، أجل، قلت برقة، وهو عاطفي نوعا ما، لكنه يمتاز دوما بصورة شاعرية. أبي، لو كنت مكانك لما قلقت عليه. مصطفى يعرف كيف يتولى العناية بنفسه.

أتمنى أن تكون على حق. إنه أذكى من أحمد، وشخصيته جذابة أكثر. لكنه يراوغني. وفي بعض الأحيان يكون وقحا كالطفل.

تلعثم هنيهة، ومن ثم خاطبني قائلا:

متى ترغب بالذهاب إلى مراكش؟

ربما يومين أو ثلاثة من الآن، قلت، قبل أن أضيف بعجالة، لأنني أدركتُ أنني لم أدعْ له مجالا للإجابة: أو في أي وقت تعتقد أنه الأفضل.

بُني حسن، عسى أن يكرمك الله بحكمته.

وأرواح أجدادنا، أبي، قلت ببسمة.

إذا ما صادفك أي خطر، استعنْ بالله، لأنه سبحانه يرحم أولئك الذين يؤمنون به، ويغفر لنا كلما ضللنا عن الطريق المستقيم.

سأفعل، أبي.

وإذا لم يحالفك الحظ في المدينة، فارجعْ إلينا فورا. لا تتردد. إنك تعرف أن منزلك هنا.

أعرف ذلك، يا أبي.

الشمس السوداء

وهكذا غادرتُ متجها صوب المدينة ذات الأسوار الحمراء منذ سنوات كثيرة مضت وشببت وأنا أرتدي جلابيب أبي. وبعد وقت قصير غادر أحمد إلى فاس وكان قادرا على إعالة نفسه بمرور الزمن، كما توقعتُ. لكن مصطفى مضى في الاتجاه المعاكس، إن صح التعبير، وأثبت صحة أسوأ المخاوف التي كانت تراود أبي. شيء ما في شخصيته كان قد تغيّر بشكل جوهري بعد وفاة زوجتي وابني، ومزاجه الهزلي الجيد حلّتْ محله نوبات طويلة ومتكررة من الغضب، وهي صفة غريبة جدا على أسرتنا، بدا أنه كان يستطيب إذكاءها إلى أن تصلبتْ وتحولت إلى خاصية محددة من خصائص شخصيته. أحمد، الذي كان يتحلى بسوء الحظ وبالشعور بالتأثيرات البغيضة لذلك المزاج في أكثر من مناسبة، شكا لي ذات مرة متفجعا من وجود ذلك الغريب في أسرتنا، وجود أخينا.

في إحدى المرات، حين كنا نلتقي في منزل عمنا مهند في مراكش، قدّم مصطفى ملاحظة إلى أحمد، وكانت ملاحظته تلك تنطوي على قسوة غير مألوفة بحيث إن أبي قال بوقار: لن أدعك تحوّل هذا اللقاء إلى ميدان معركة. أحمد أكبر منك سنا ويستحق احترامك. إما أن تعتذر له، وإما أن تغادر المكان فورا.

لماذا يتعيّن عليّ أن أحترمه؟ سأل مصطفى.

شحب وجه أبي غضبا. وبينما هو غير قادر على السيطرة على نفسه، قال بنبرات مدروسة: لأنه يستحق احترامك. لأن ذلك من واجبك. لأنه حوّل حياته إلى شيء ثمين وذا قيمة. لأنني أقول لك أن تفعل ذلك.

لن أعتذر له، قال مصطفى بعناد، وهو ينهض على قدميه.

في هذه المرحلة، تدخل عمي. قال عمي وهو يتحدّث بعجالة وبصوت عال ينم عن امتعاضه: يا غلام، ألا يوجد شيء تعيره اهتمامك؟ اتبع نصيحة أبيك ودعنا ننتهي من هذه القضية.

خرج مصطفى من المنزل، ماشيا ببطء وخيلاء، من دون إلقاء نظرة إلى الوراء.

نظر أبي إلى الباب المفتوح الذي غادر عبره ابنه وقال مهموما: هذا الغلام وُلد تحت شمس سوداء.

عرفنا لاحقا أن مصطفى سار مباشرة إلى محطة حافلات (سوبراتورز) والغضب يستبد به، ابتاع لنفسه تذكرة سفر إلى (الصويرة)، وغادر من دون أن يراجع قراره في السفر. وفي وقت لاحق سمعنا أخباره بعد مضي أربعة شهور، إنما بعد أن كتب أبي لصديق مشترك سائلا إياه ما إذا كان يعرف أي شيء عن مكان وجود مصطفى.

إمديازن[27]

الآن ألقيت نظرة عامة وحزينة على مستمعيّ، نشّطتها ذكرياتي عن أخي. كنت أود ألا أدّخر أي تفاصيل في محاولة مني لمساعدتهم على تفهم جذور سخط مصطفى. لكنني ضبطتُ نفسي لأنني لم أشأ أن أدخل الكآبة إلى نفوسهم. وما هو أهم، على الأرجح، هو أنني لم أشأ أن أدخل الكآبة إلى نفسي. لذلك شرعت أتحدث عن ساحة الجامع عوضا عن ذلك، وأعدت قصتي إلى صلبها.

(27) إمديازن: موسيقيون محترفون جوالون من جبال الأطلس - هامش المؤلف.

جذبتُ انتباههم إلى أكشاك العصير التي تشكل الطرف الشمالي للساحة. فبالنسبة لي، هذه الأكشاك هي جوهر الجامع بسبب وابل روائح الفواكه الطازجة التي كانت تدشن بها كل يوم. كان تعاقب الروائح يترك علامة يتعذر محوها على الساعات المتتالية بحيث إن كل ساعة يكون لها أريجها المميز الخاص بها، من أبيات الشِّعر المثيرة للصباح الباكر إلى مسك الليل الذي تصل حلاوته إلى درجة الغثيان. وفي المدة الفاصلة هناك ألوان كثيرة من السعادة. مصطفى، في زيارته الأولى لساحة الجامع وهو في سن الرابعة، أحصى ست روائح منفصلة ونسب لونا معينا لكل واحدة منها. وبينما كانت عيناه مغمضتين، وأنفه مرفوعا في الهواء، راح يتلو بصوت رتيب: ذهبي براق - برتقالات قُشرتْ توا في الساعة الخامسة صباحا؛ ذهبي - برتقالي - الأباريق الأولى من العصير في الساعة السابعة؛ أصفر - الذباب الدائخ بسبب الحرارة يغرق في العصير ظهرا؛ أصفر - ضارب إلى البني - اللب يصبح كريه الرائحة في صناديق الحفظ في الساعة الثانية بعد الظهر، بني مالح قليلا - العصير يبدأ بالتخمر في الساعة الخامسة مساء؛ عشب بحري وملح - العصير الفاسد يُرمى في الساعة السابعة مساء.

خلال ساعات النهار، تشكل الساحة تقاطع طرق من بين أرض بهيجة، وملتقى، وسوق. أما في الماضي، فإن أي سلعة من السلع التي لا تباع في الأسواق تتم المتاجرة بها هنا صباحا. وكانت هناك مناطق محددة من الساحة للمواشي، وأخرى المحاصيل الزراعية، وغيرها للجمال. أما في أيامنا هذه، فالساحة مفتوحة أمام الجميع، وكما يقول المثل: ما لا تجده في ساحة الجامع لا يستحق امتلاكه.

في منتصف النهار، تبدأ أولى الفرق الموسيقية بعزف أنغامها. في الأصوات المصفَّرة، الرتيبة، المتبدلة دوما لآلات الناي، والعود، والربابة، والناقوس، تُظهر الأذن الكبيرة نفسها للأبدية، ومع ذلك، ففي الحرارة الوامضة للشمس، يكون السكون هو الذي يبدو مسموعا أكثر من أي شيء آخر. وعلى الرغم من أن الموسيقى تشكل خلفية دائمة، فأنا أسمعها باعتبارها نغمات متنافرة ليس إلا، لأنه، وبصورة فضولية بما يكفي بالنسبة لرجل بربري مثلي، الألحان التي تروق لي أكثر من سواها هي التأملات الأندلسية، خافتة الأصوات. المنبعثة من نقر أوتار الآلات الموسيقية. غير أنني أعتبر استثناء نادرا. فبالنسبة للجميع، الطبول هي التي تشكّل جوهر الساحة. ففي حضرة الطبول يتحرق كل شيء شوقا للاندماج في رنينها، كل شيء - المرايا الصغيرة التي تتلألأ في ضوء الشمس، السماء التي ترتجف بسبب الصوت، السُحب البيض التي تهبط كأعلام ورقية خفاقة على المناضد، أكشاك الباعة الجوالين التي ترقص على امتداد الأرصفة، العربات ذات الأغطية القابلة للطي التي تجرها الأحصنة في الحدود الخارجية للساحة. في وقت ما بعد الظهر، يصل المضيفون. ثعابين بطيئة الحركة وقرود حزينة الوجوه تكافح من أجل لفت انتباه حشد متقلّب المزاج. حيوانات كثيرة تهلك خلال محاولات آسريها لترك الانطباعات لدى الجمهور. انطباعات كانت قد نُبذتْ بصورة عشوائية. لا مجال للوجدانية في الجامع. حتى وإن كانت الأرض حمراء والسماء زرقاء، بين القرد والثعبان يربض الموت. هي قاعدة يبدو أنها، على أي حال، تمتد لتصل إلى البشر. العربات التي تسحبها

البغال، والدراجات النارية المنخفضة، على السواء تشق طريقها بنحو ملتوٍ وبصورة متهورة بين حشود الناس، متحدية الكارثة. غير أن الساحة لها إيقاعاتها الخاصة، والكارثة - على الدوام تقريبا - يتم تفاديها.

بعد أفول الشمس، تغيّر الساحة شخصيتها. الموسيقيون، ممارسو الألاعيب البهلوانية، فنانو أرجوحة البهلوان، المداوون بالدين، بائعو الماء (السقاؤون)، فنانات الحناء، بائعو العصير الجوالون، سحرة الأفاعي، الراقصات الشرقيات، آكلو الزجاج، حاملو الفوانيس، رواة القصص؛ جميعهم يتخذون خاصية الأشباح، وهي أشباح مثيرة ودائمة الشباب. لم يتغير جوهرها خلال مئات الأعوام، هي الرموز الثابتة لساحة الجامع، صور الاستقرار والأمان وسط الاضطراب المتواصل الذي يسود العالم. يبزغ القمر هو أيضا بين الأكشاك المتنوعة، وهنالك فروع بيضاء قزحية اللون من الضوء تقفز من منضدة إلى منضدة، تنير الوجوه، وتترك آثارها. وفي وسط الاهتياج والإثارة، يدور الراقصون والراقصات حول أنفسهم كالدوّامات من دون ضوضاء.

بالنسبة للشخص الغريب، لكي يواجه الحقيقة القائلة إن الشيء العصي على الفهم موجود فعلا وهو يُظهر نفسه بشكل ما من أشكال الحياة ويستمر على مدى قرون عدة؛ فهذا الإحساس حاضر في قلب الساحة. وبعد لحظة تماس أولية، والتي يصفها الكثيرون باعتبارها أشبه بلقاء روحي، يوجد شيء مهم واحد فقط: العلاقة بين الفرد والساحة. وكما دأب أبي على القول، يكتشف المرء حب الساحة لكونه يضاهي الحب الذي يقرؤه في بسمة الحبيب. في هذه المملكة المليئة بالعواطف المتأججة

والغوايـات المتحـررة من أغلالهـا، حيث الانغماس في الشـهوات الحسية هو أعلى أشكال التعبير، ثمة تناغم خاص بين الطبيعة والوعـي. إنه نظام الأشـياء الذي تأسـس على العضويـة والثقة. لا ينشد المرء الحقيقة من ساحة الجامع بل ينشد غذاءه هو.

طبول في الليل

إن وصـول الطبـول يعلن حلول الليل. إنه صوت يُمكن سـماعه من بعد أميال حول الساحة، صوتُ أُسُودٍ، ينبض كأجنحة متململة، صوت معقد، يتجمع الظلام حول حواشيه. يبدو أن أبوابا غير مرئية تُفتح في جميع أنحاء السـاحة، معلنة عن بداية جديدة. تستسـلم والممنوعات في مناسك بكماء للمعابر، تُفك الأحزمة، تُفتح الأزرار، تظهر البسـمات وتختفي، تخمد بـراءة الضحك، تتقطع كما لو أن ذلك كان بفعل سكين، ممنوعات غير متوقعة ومرتبكة في وجه هذا الانقلاب المفاجئ. يهبط القمر على وسـط الساحة. دخان الخشب يغمـر الأرصفة؛ إنه يتمايل ويترنـح، يومض، ويتجمد متحولا إلى ضبـاب. وفـي أية ليلة مـن الليالـي، يتضافر الطبل المطـوق بإطار (البندير)، والطبل الكبير المسـتقر علـى الأرض (الكديرة)، والدف، لكـي يخلقـا فسيفسـاء وهمية لا فواصـل بينها، تجعـل دقات قلب الإنسـان تتسـارع وتنفذ مباشـرة إلى الروح. ما من صوت يشبه هذا الصوت تماما، وما من مقاومة لإغرائه.

فـي الصحراء القريبة نوعا ما، تزمجـر الريح. تزمجر أعلى قمـم جبـال الأطلـس وتكتسـح الجـزر الصخريـة القريبـة من السـاحل الأطلسي. إنما في (جامع الفناء) حتى الريح تستسلم للطبول التي تقرع في الليل.

قهوة للموت

في شارع محمد الخامس المشجر، وإلى جانب (فندق أصلان) وعلى الجهة الأخرى من (جامع الكتبية)، حيث يوجد الآن مخزن الكتب الكبير طلق الهواء الذي يبيع كتب القرآن الكريم، كان هناك دوما محل لبيع المرطبات. كان ذا جدران زجاجية وعلى الطراز الغربي. لعل بعضكم يتذكرون هذا المحل. كان واحدا من تلك الابتكارات التي تدعو للأسف والتي كان هدفها هو الكسب السريع من السياح الذين كانوا يمرون بالساحة مرور الكرام. كان المحل يُدعى (ليبيس) «مرحبا»، ويظل مفتوحا طول الليل. وكان ماهي، الابن الأصغر لصديقي محمود، يعمل هناك. كان محمود في الأصل ينحدر من قريتي، لكنه استقر في مراكش منذ سنوات كثيرة خلت. وُلد ماهي ونشأ هناك. إنه شاب مراكشي اكتسب معرفته بالناس والعالم من الشارع، ولا أظنه زار في يوم من الأيام مسقط رأس أبيه.

في الليلة التي مضى فيها أخي مصطفى للبحث عن الغريبين، كان ماهي يقوم بمناوبته الليلية في (ليبيس). كان زميله في العمل قد جرح يده بالمصادفة وذهب إلى المنزل في وقت مبكر، لذلك تعيّن على ماهي أن يحل محله. أخبرني ماهي بلقائه بأخي عندما كنت قد تخليتُ تماما عن التفكير في مواصلة مهنتي، مهنة سرد القصص، ومضيت للبحث عن مصطفى، صادفته في الساحة. حدث ذلك في ساعات الصباح الباكرة، وكان ماهي عائدا إلى منزله بعد أن أنهى عمله.

قال لي إن الغريبين كانا قد جاءا إلى محل المرطبات في نحو الساعة العاشرة من تلك الليلة. كان يحدث أحدهما الآخر

بأصوات منخفضة، وبدا أنهما كانا يتجادلان حول شأن ما. بدا الرجل مرهقا وشارد الذهن ولم يلقِ على ماهي نظرة واحدة، غير أن المرأة بدتْ مصممة على التمهل في الاختيار وفي النهاية طلبت مغرفتين من (الآيس كريم) بنكهة (قهوة للموت)، الذي تناولته باستمتاع واضح.

هل استطعتَ أن تسمع بالمصادفة شيئا ما من حوارهما؟ سألته.

لم أسمعْ إلا بعض ملاحظاتها، قال ماهي، ولم أسمعْ إلا حين تكلمتْ الفرنسية. وذات مرة، سمعتها تقول: لديّ تحفظات شديدة، وإنني أعتمد عليها. وفي مرة ثانية سمعتها تقول: اليأس ترف لا يمكنني تحمله.

اليأس؟ سألته بدهشة. ليس الخوف؟ هل أنتَ متأكد؟

متأكد تماما، أجاب ماهي.

كان الرجل هو الذي سدد النقود، أضاف قائلا، وكانت هي قد حثته على دفع الهبة لي مع أنني لم أقدّم لهم أي خدمة. كانا واقفين بجوار منصة البيع طوال الوقت الذي أمضياه هناك.

وبعدها غادرا المحل؟ سألته وأنا أشعر بخيبة الأمل.

كلا، كانت لا تزال تتناول الآيس كريم حينما دخل أخوك ماشيا.

أخي مصطفى؟

نعم، قال ماهي.

وبعدها ماذا جرى؟

نظر أخوك إلى المرأة وتوقف وهو في منتصف خطوته السريعة، كما لو أنه رُمي بالرصاص. كانت يداه قد نزلتا إلى

جانبيه وبات شديد الشحوب بحيث إنني حسبتُ أنه يكاد يفقد وعيه. وعوضا عن ذلك اقترب نوعا ما من منصة البيع وطلب مني أن أحضر له الماء.

ماهي، قال بصوت غير واضح وضعيف في الوقت نفسه، أعطني شيئا من الماء، وبسرعة.

وحين ناولته قدحا، شرب نصفه في جرعة واحدة ورمى البقية على وجهه. إذا كان القصد من هذه الإيماءة لفت الأنظار فإن النجاح لم يُكتبْ لها، لأن الغريبين تطلعا إليه فورا، مرعوبين. ومن دون أن تفوته أي حركة من الحركات، مسح مصطفى الماء من وجهه وسار إلى الأمام. خاطب المرأة بشكل مباشر، وسألها عن اسمها، ومن أي مدينة أو بلد أقبلتْ، كم يوما تخطط للمكوث في مراكش؛ هذه الأسئلة كلها طرحها مرة واحدة. كان مصطفى يبدو غافلا تماما عن حضور زوجها، الذي تطلع إليه بابتسامة ضعيفة وساخرة وكأن لديه تجربة طويلة في التعامل مع الرجال الذين كانوا يُفتنون فورا بزوجته.

وبعد أن تبادلا كلمات مؤدبة قليلة، كانت المرأة تهم بأن تعرض عنه حين دنا منها مصطفى فجأة وأمسك بيدها، وراح يحدّق في عينيها المتسعتين وعلى ثغره ترتسم بسمة انتشاء.

ليبيس؟ سألها لاهثا. هل أنتِ سعيدة؟

ولأنها لم تفهمْ سؤاله تماما، أفلتتْ يدها وقالت بارتياب: الحمد لله، أنا سعيدة.

إنكِ تتحدثين العربية؟

إنني أدرس لكي أصبح مترجمة في (الأمم المتحدة).

رائـع! رائـع بـكل معنى الكلمــة! صاح مصطفــى. التفت إلى زوجها لأول مرة وقال بصوت خفيض وحماسـي: السـلام عليكم. رفيقتــك جميلــة. إنهــا جميلة كغــزال نادر. يــا لتَيْنِـك العينين البـراقتين! إنهما تذكّرانني بواحة أطفئ فيها عطشي.

وفــي هــذه الآونــة، قام ماهــي بحركـة منحرفة مقلـدا أخي. وباهتيــاج قلما يمكن إخفــاؤه، كرر كلمات مصطفــى التالية. كم تقبل ثمنا لها؟ سأل أخي.

كان واضحا بالنسبة لي، قال ماهي، أنه كان في منتهى الجد حــين طرح عليه هذا السـؤال، لكن المرأة، التــي كانت هي وحدها مَن اســتوعب العرض، الذي كان قد قدّمه بالعربية، ضحكت كما لو أنها لم تـع سوى سخافة ذلك العـرض.

وبينمــا كانت لا تزال تضحك، ترجَمَت العرضَ لزوجها فيما كان مصطفــى ينصــت بعينين متســعتين، وهو يـرتشــف كل نغمة موسيقية من أنغام صوتها الشجي. وحين أنهتْ حديثها، ضحك زوجها هو الآخر. ومع أنه كان مؤدبا شأنه شأن زوجته، بدا جوابه مشــحونا بالتعالي، وكأن مصطفى لم يكنْ أكثر من مصدر إثارة غير خطير، أو شخصا يستطيع المرء أن يتحمله بالكاد.

شكرا لك، قال له بأدب، إنما عليّ أن أرفض.

احمرّ وجه مصطفى وتوقّدتْ عيناه حتى أصبحتا كجمرتين.

لديّ مخزن فوانيس في (الصويرة)، قال مصطفى بإلحاح. كما لدي حصص في فندق مواجه للســاحل. سأعطيك الاثنين عوضا عنها. إنك لن تندم، سوف يجلب لك هذان عوائد مالية ممتازة.

تخضبــت المـرأة بحمرة الخجـل بينما كانت تترجـم كلماته، وطوقها زوجه بذراعه تعبيرا عن حمايته لها. هذا شــيء محال!

قال بنبرات سـريعة. لقد أثنيتَ علينا لكننا يجب أن نرفض. من فضلك دعنا وشأننا. ليلة هانئة.

لاحقـا، فـي زنزانتـه، يقول لـي مصطفى إنـه كان ينظر إلى ذلك الرجل بعين الحسـد، ويتسـاءل في سـره كيف اكتسب ذلك الرجل سيماء التعالي غير المبالي، كما شرع يتساءل عما إذا كان باسـتطاعته هو أن يحوز أناقة السـلوك نفسـها، هو الذي بدتْ، بالنسـبة لـه، كل كلمـة، كل إيمـاءة وكل مصافحة يد، مشـحونة بإمكانية التحريض والإهانة.

حين سـعيتُ إلى تصحيح ما قاله من خلال الإشـارة إلى أنه ليس هناك مبرر يدعوه للحسـد لكونه ينحدر من سلالة بربرية قديمة، قلل من أهمية إشـارتي مبديا احتقاره. وعوضا عن ذلك، قال لي: ليتك رأيت سلوكه الخالي من العيوب، وسيماء الدماثة والنقاء التي يمتاز بها، لأدركت سبب حسدي، بحيث ما كان عليّ سوى أن أشعر فورا بالعار من دناءة تنشئتي السيئة.

لماذا يجب عليك دوما الركض وراء الغربيين؟ سألته، وأنا أشعر بألـم ممض. لماذا يبدو لك أن نسـلك غير جيـد بما يكفي؟ نحن أنـاس بربـر، أمازيغيون، نبـلاء ومولودون أحـرارا، نحن لا ننحني لأي فرد. ليس هناك مبرر لشعورك بالدونية حيال الآخرين.

أظهـرت الملامـح الباديـة على وجـه مصطفى أنـه كان يبذل مجهودا لكي يسـيطر على نفسـه. نحن أناس بربـر، كرر كلماتي هازئـا، وهـذا كله يعنـي أن عالمنا صغير جدا بحيـث إنه يجعلني أرغب بالضحك. افتح عينيك، يا حسـن. هل سبق لك أن غادرت المغرب؟ إن حدود تجاريك محدودة بطول ساحة الجامع وعرضها، وهذا الأمر يجعلني عاجزا عن الكلام.

عاجزا؟ سألته.

أجل، محروما من الكلام، وأكافح من أجل نفحة هواء. في الساحة يرى المرء دوما الوجوه نفسها، الملامح البليدة والقروية، وأن الشيء الذي يلهمك يجعلني أشعر بالكدر.

أجبته بكبرياء أنني أفترض جدلا لكوني أخالفه الرأي. إن ساحة الجامع هي بوتقة للناس والأفكار. ما على المرء سوى أن ينظر إليها بعينين مفتوحتين لكي يرى أنها صورة مصغرة للعالم وتشتمل على أفضل الأشياء فيه.

أوهامك ترحب بك، قال مصطفى بإيجاز. الآن، انصرف عني ودعني وحدي، أرجوك.

أطعته، بحزن، لكنني بينما كنت أغادر السجن تذكّرتُ تلك المحاورة القديمة جدا التي دارت بيني وبين ماهي في منتصف الليل. كان قد أخبرني كيف، عندما طلب زوج المرأة من مصطفى المغادرة، رفض أخي، وكأنه لا يرى ولا يسمع شيئا باستثناء السحر الذي أسرته به المرأة.

كانت تلك لحظة حرجة، قال ماهي، وكنتُ أخشى أن يقوم مصطفى بشيء متهور. لكن الزوج وضع نفسه أمام زوجته، ومع ذلك حاول مصطفى مراوغته، احتفظ بموقعه وتعامل مع الموقف بهدوء.

شعرتُ بالخزي بسبب هذا الوصف لسلوك أخي وتعاطفت مع مأزق الزوج. مبديا إعجابي بحضور ذهنه، سألتُ ماهي ماذا قال الأجنبي بالضبط لكي يجعل مصطفى يغادر.

فكّر ماهي لحظة، وتجعد حاجباه. ومن ثم انتحل دور الزوج، تراجع إلى الخلف قليلا وقوّم ظهره. خفّض صوته، وقال بثبات:

أرجوك لا تقفْ هنا وتحدق بإمعان إلى زوجتي. إن هذا يجعلها تشعر بعدم الارتياح. امضِ في حال سبيلك، واتركنا وشأننا. مع السلامة.

لسعته كلمتا (مع السلامة)، مضى ماهي يقول، خرج أخي ببطء وزهو من محل المرطبات، لكنه لم يخرج قبل أن يلقي نظرة أخيرة، ومتلهفة على المرأة التي كان قد قارنها بالغزال تعبيرا عن إعجابه الشديد بها.

شكرتُ ماهي على سرده حقيقة ما جرى، واستأنفتُ بحثي عن شقيقي، وفي فمي طعم مُرٌّ. شعرتُ بالعار بسبب مصطفى؛ شعرت بالعار أكثر من أي شيء آخر، بسبب عدم تمكنه من احترام الحدود الأدبية.

بعد مضي شهور عدة، حينما أُتيحتْ لي فرصة أن أستحضر القضية خلال زيارة أخرى لي وهو في السجن، أجاب مصطفى بسخط ودهشة. وفي كل مرة يتغير فيها مقام صوته كان بمقدوري أن أكتشف إحساسا بالزهو المبالغ به ونكرانا للحقيقة، وهما صفتان متأصلتان في شخصيته.

حسن، تلك المرأة خلقها الله لكي يعشقها الرجال، قال بإصرار. ويمكنني الجزم أنها لم تكنْ سعيدة معه.. غير راضية بشكل جلي. كان عدم الرضا جليا في نظرات عينيها. كانت مجرد لمحة صغيرة جدا. لا تكاد ترى، لكنه كان كل ما لديَّ لكي أقوله، وكان ذلك كافيا.

كانت امرأة متزوجة، ذكَّرْتُه.

ذلك ما اكتشفته لاحقا، أجاب، لكنني لم أر أي علامة على ذلك في اللقاء الأول. صدقني، يا حسن، إنني لا أكذب عندما

أقول لك ذلك. لم تكنْ تضع خاتم زواج في إصبعها، وكان باستطاعتي معرفة ذلك، لأنني قبضتُ على يدها.

وبينما كنتُ أصغي إليه، أرحت مرفقي على مسند الكرسي. وأنا أشعر بالاستنزاف، والإعياء بسبب عناده. الآن، وقد أحسستُ بالارتباك بسببه، نكستُ رأسي. أردتُ أن أخبره بشكل واضح وصريح، بحيث لن يكون هناك سوء فهم لما أعنيه، أخبره بأنني رأيتُ خاتم الزواج الخاص بها. كان الخاتم مصنوعا من الذهب على شكل ثعبانين ملتفين أحدهما حول الآخر. لكنني أدركتُ أنني لا أملك الجرأة لأنكر صحة أقوال أخي المسكين حينما كان يتعفن في السجن وليس هناك من شيء معه سوى أوهامه. لذلك احتفظتُ بأفكاري وخواطري لنفسي ولم أقلْ شيئا البتة.

الطحال

توقفت قليلا في منتصف سردي للقصة ومررتُ يدي على لحيتي، وأنا أحدد هذه اللحظة بتلك الإشارة. وبينما كان ذهني لا يزال منشغلا بأخي مصطفى، تطلعتُ إلى جمهوري من المستمعين، واحدا واحدا، وأنا أتمهل في تسجيل وجوههم. بعضهم نظروا في عينيّ مباشرة؛ بعضهم الآخر أشاحوا بوجوههم مبدين عدم ارتياحهم بشكل جلي. بعضهم كانت لهم ملامح واضحة؛ وبعضهم الآخر كانت ملامحهم أقل وضوحا وقد اندمجتْ مع الظلال ووجدتُ أنا صعوبة في تذكرها. وبصورة مناسبة تماما، كانت الوجوه الأخيرة هي التي وجدتها أكثر إمتاعا، لأنها تحدّتْ قدراتي باعتباري راويا لأنها لفتتْ انتباهي بحيث كان باستطاعتي أن أميز خاصية ما قبل انتقالي إلى

الوجـه التالـي. ومع ذلك، في نهاية الأمـر، كل ما انبثق من هذا التمرين الطويل في النظر عن كثب هو استنتاج بسيط، وهو ما يلـي. لم يكنْ هناك شـيء ما في أيّ من تلـك الوجوه يمكنني أن أعتمد عليه لكي يذكّرني بأخي مصطفى أو أن أركز الانتباه عليه كنقطة مقارنة. كان مصطفى فريدا بكل معنى الكلمة، وهو كيان قائم بنفسه.

قاطـع فرد من الجمهور، وقد أسـاء فهمـي، تأملاتي وصمتي الطويـل باعتبـاره شـرود ذهن. وهتـف، هذا ليس وقـت النعاس، يـا حسـن! استـمرّ، تابـعْ كلامـك، الليلـة بـاردة جدا ولا تسـمح لنفسك بالتوقفات الطويلة.

شـكرته على ملاحظته، باسـما. اسـتأنفت سـرد قصتي بأن منحت صوتا للأفكار التي كانت تجول في ذهني. جعلتُ ذكرياتي مرئيـة، لكنني أيضا مضيتُ شـوطا أبعد. أظهرت الدهشـة التي كنت أشـعر بها في كل مرة كنت أفكر فيها في عدم فهم شـخصية أخي.

أخي مصطفى، قلت، هو أكثر الرجال الذين قابلتهم وسامة. إنه أشـقر البشرة بشكل استثنائي بالنسـبة لرجل بربري، طويل القامـة، عريـض المنكبـين، ذو شـعر أشـعث، ذو عينـين فاتحتين ونظـرات ثاقبـة، وكان محـط غيـرة جميـع الرجال فـي قريتنا. وحتـى إبان عهد صبـاه كان مظهره أسـطوريا. في لحظة ظهوره علانيـة أمـام الملأ، يصبـح قِبلة الأنظار. وفي إحـدى المرات، حين كان في سن السادسة أو نحو ذلك، اكتشفه أبي وهو يرتدي ثياب إله وثني وهو جالس على قمة عربة ضيّقة تسحبها ثماني فتيات يتشحن بملاءات بيضاء. وفي أوقات أخرى كان يتخذ وضع تمثال

في ساحة القرية، وكان موضع إعجاب كامل من جانب النساء، والسخرية من جانب الرجال.

وحينما وصل إلى مرحلة البلوغ، كان مصطفى يقضي وقتا طويلا جدا في العناية بكلماته، بملامحه، بإيماءاته، بحيث أصبح موضع سخرية في كنف أسرتنا. لكنني في أحد الأيام، حين فاجأته وهو يبدي إعجابه بنفسه في المرآة بينما كان يدخن سيجارته الأولى، قرر أبي أنه لا بد من اتخاذ إجراء ما. طلب مني أن أرافقهما هو ومصطفى إلى مراكش، إلى الجامع، حيث كان أبي يعرف رجلا من (الساحل)، وهو مداوي (موري)[28] جوال، بوسعه أن يشفي أخي من غروره.

هذا الرجل الذي يحمل اسم (باسو)، كان رجلا ضخم البدن، ممتلئا، وأصلع تماما. كان يجلس على بساطه المحيك مثل تمثال جامد، وهو يدخن النرجيلة. وبعد أن تبادل مع أبي التحيات المعتادة، كوّن رأيا عن مصطفى من خلال نظرة فاحصة. وبقدر ما كان يخاطبه كان يخاطب أبي حينما قال: هناك أبخرة في الهواء تحتوي على الشوائب، وأجسادنا أشبه بورق الذباب الذي يجذب هذه السموم ويمتصها. في العصور القديمة، اعتاد أجدادي أن يخاطبوا هذه الأبخرة بوصفها نوعا من الجن ويتعاملوا معها وفق ذلك. لكنني أكثر علمية، وأؤمن بمجاراة أحدث وسائل التشخيص. بنظرة واحدة، يمكنني الجزم أن ابنك تشوهه عدد من العُقد التي أدتْ إلى محاولته إخفاء إحساس طاغ بعدم الاستقرار مع الغرور المتزايد. وبعد الاستئذان منك، أود أن أصف له حمّاما للقدمين من شأنه أن يقوم بتطهير شامل

(28) الموري: قبائل بربرية غربية، تقيم في موريتانيا - هامش المؤلف.

وغير مؤلم من - دعنا نسميه - مرضه. غسل القدمين سوف ينظف أعضاءه، غدده، شرايينه، أعصابه، أنسجته، مفاصله، ويزيل، خلال هذه العملية، سموم الجسم.. سأفعل هذا من خلال إحداث حرب بين الأرواح الطيبة والشريرة، وفيها تَهزِم قوى النور قوى الظلام من خلال إلصاق نفسها بالشوائب وتطهيرها من خلال المسامات الموجودة في القدمين. إنني أسمّي هذه العملية التناضح. إنه مصطلح علمي، وإنك تجده قيد الاستخدام في أفضل المستشفيات والعيادات الطبية. وبعد معالجتي، سوف يمر ابنك بإحساس عال من الخير والسعادة، وستكون أوضح تجلياته هي في المواقف الأكثر صحة تجاه الحياة، وسيشعر كذلك بالمزيد من الطاقة والنشاط.

بعد هذه الخطبة المنمقة والمؤثرة، فتح باسو لفيفة مطوية من الورق كانت قد أُلصقت عليها شهادات عدة تؤكد صحة فوائد وسيلته العلاجية. كانت تلك الشهادات من مرضى مقرين بالجميل من كل أنحاء المغرب، وقرأتُ بعضا منها لأبي، الذي كان أمّيا.

- الأكزيما التي كانت موجودة في رقبتي وصدري زالت بعد أربع جلسات من الاستحمام.

- بعد سنوات من ركوب الجِمال، كان الألم في وعاء خصيتيّ شديدا جدا بحيث كنت أبكي ليلا. الآن بعد عشر جلسات من العلاج بوسعي أن أكون رجلا من جديد.

- أمي البالغة من العمر ستة وتسعين عاما كانت مصابة بالتهاب المفاصل في كلتا ساقيها، الأمر الذي جعل منها معاقة. الآن بعد إحدى عشرة جلسة من غسل القدمين تحت عنايتك

اللطيفة، عادت لتطهو الطعام في المطبخ وصارتْ تؤدي العمل المنزلي.

- ابني ذو الأعوام العشرة صار يمارس عمله أفضل بكثير منذ أن بدأ يخضع لمعالجات التناضح. بات أقل تجهما وكآبة، وهو يبتسم كثيرا، ولم يعدْ يتشكى حينما يتعيّن عليه الاستيقاظ فجرا ليساعدني في عملي بالحقل.

- بعد جلستين، لم تعدْ زوجتي تتكلم عن الهرب. نحن الآن أسرة تنعم بالسعادة، وسأرجع إليك عندما أريدها أن تكون حاملا مني.

هل أنت راض؟ سأل باسو أبي وهو يبتسم.

إني راض، قال أبي، وقد ترك فيه باسو انطباعا قويا.

سيكون الأجر إذن عشرين درهما لقاء نصف ساعة من المعالجة. معدل الأجر المعتاد هو أربعون درهما، إنما لابنك، يا صديقي القديم، سيكون نصف الأجر.

سلّمه أبي النقود بيده، وبقينا جالسين حينما ذهب المعالج ليبدأ عمله مع أخي. في البداية، طلب من مصطفى الذهاب وغسل قدميه في نافورة قريبة.

ادعكهما جيدا، أمره. إنني أريدهما نظيفتين تماما، لا تشوبهما شائبة.

وبشيء من التجهم، أطاعه شقيقي، وحينما رجع إليه، أغطس باسو قدميه في حوض من المينا البيضاء مملوء بالماء.

هذا الماء له صفات تطهير خاصة، قال باسو. إنه من أنقى الينابيع الجبلية بالقرب من قمة (جبل توبقال). لقد جمعته بنفسي حينما ذابتْ ثلوج الشتاء. لا يوجد ماء آخر يضاهيه.

ظل يراقبه بانتباه شديد إلى أن نقّطتْ فقاعات فضية قدمَي أخي. وعندما اقتنع على ما يبدو، غطى الحوض بقماش منيع من القار الأسود، وصرف انتباهه إلى مرضى آخرين كانوا في الانتظار.

بعد مرور نصف ساعة بالضبط، رجع إلى شقيقي ورفع قماش القار بحركة شبه مسرحية. لفت أنظارنا إلى الماء الموجود في الحوض. مددنا عنقينا أنا وأبي لكي نرى التغيرات. ويا لدهشتنا، كان الماء قد استحال أخضر وسخا.

ابنك، قال باسو لأبي، لديه زيادة من الطحال. الأخضر هو لون مادة الصفراء، وهي تطفو بحرية هنا وهناك في أجهزة الجسم بدلا من تخزينها. إنها تفسر وضعه، وإن لم تتم معالجتها الآن،فسوف تؤدي إلى أن يغدو مُدعيا ومُحبا لإظهار إمكاناته بطريقة تلفت الأنظار إليه. إنها مشكلة غير عادية، لكنني أراها تزداد شيئا فشيئا لدى شبابنا. لا بد أنها صفة لها صلة بالفساد العام الذي يسود مجتمعنا وحياتنا: التلفزيون، سينما الطراز الغربي، وما إلى ذلك. سأعطيك بعض المعادن في كيس. استخدمها في أربع جلسات من غسل القدمين وسيبرأ من مرضه.

وخاطب باسو أخي قائلا: بعد الجلسة سوف تشعر بالعطش، والدوار، والصداع الخفيف، والجوع، والحاجة للراحة. ربما ستعاني أيضا من الإسهال على مدى يومين. لا حاجة لأن تقلق؛ هذه الأعراض كلها هي ردود أفعال طبيعية على إزالة السموم من الجسم. تأكد فقط من أنك تسترخي، وتتناول طعاما طازجا، وأن تشرب الكثير من الماء، وأن تحترم والديك. هل تفهمني؟

سكت عن الكلام هنيهة، وحدق في أبي بابتسامة محبة للخير.

وكأنه يرد عليه، مال مصطفى -الذي كان يلقي نظرات مركزة على الماء الأخضر المندفع بقوة حول قدميه- فجأة نحو ركبتيه وشرع يتقيأ مباشرة في داخل الحوض.

(ميردي)! صاح المعالج بالفرنسية، وقد نسي كل كبريائه فيما هو يقفز على قدميه بخفة لم أكنْ أعتقد أن ذلك ممكن في رجل في مثل ضخامته.

«أششعر بالضضعف»، استطاع مصطفى أن يقول بصوت ضعيف.

الكديرة

بعد انقضاء بضعة أعوام، حينما زرت أخي في (الصويرة)، تذكّرنا تلك الواقعة وانفجرنا ضاحكين. في ذلك الحين، كان مصطفى يقيم في حجرة مستأجرة في حي (شبانات) الذي تسكنه الطبقة العاملة، بالقرب من مدخل باب حانوته المؤدي إلى المدينة. كانت هناك حجرة صغيرة خالية من الشبابيك، وذات باب ينفتح على بئر الفناء المظلم. كان الأثاث متسما بالبساطة وبعيدا عن الترف. كان السرير منخفضا في الوسط، وملاءات الفراش بالية ومليئة بالبقع، وبقدر ما يسعني القول، كان مصطفى يملك شيئين فقط يخصانه: أدوات حرفته المتعلقة بالجلود - كان قد بدأ بمزاولة عمله في صنع الفوانيس والقناديل التي ستشكّل أساس مخزنه المستقبلي - وطبله المحاط بإطار (بنديره) الذي كان قد صنعه

بيده. وكان هناك قفص خشب مقلوب بجانب سريره يستخدم كمنضدة عمل له.

وفي إحدى الليالي، دعاني مصطفى للقاء أصدقائه الذين كانوا يعزفون في فرقة الطبول الخاصة به. كانت جلساتهم تُعقد في مخزن صغير جدا للطبول يقع أسفل الشرفات المفرّجة لـ (سكالا دي لا فيلي)، وهي منطقة بحرية محصنة مكسوة بالمدافع مطلة على المحيط الأطلسي. كان الوقت متأخرا أصلا حين وصلنا إلى هناك، وقدّمني مصطفى إلى أصدقائه واحدا واحدا: سعد، عبدو، فريد، مبارك، خالد، لحسين، بوشايب، عبد الجليل. كان أغلبهم شبانا في مثل سنه، باستثناء عمر، صاحب المخزن، والذي كان كذلك قائد فرقة الطبول. كانت الحجرة، التي قلما تزيد مساحتها على ثماني أقدام مربعة، مغطاة بعدد كبير وعجيب من آلات النقر الموسيقية اتخذ الأولاد مواقعهم وراءها. كانت هناك آلات (الجمبي)[29] والطبلات الصغيرة، والطبول المحاطة بالأُطر (البنديرات) وطبول الكلام، آلات (الدمبك) و(الدريكة)، وآلات (التار) و(التاريجا)[30]، وطبول الكديرة من (غوليمين) ودفوف (الغناوة) التي تُمسك بالأيدي. أسماء موسيقية، وأصوات موسيقية. ومن كلاليب معلقة على الجدران المبقعة بالرطوبة تتدلى تشكيلة من الصنوج، و(الكركبات)[31] المعدنية، وأنواع من الصنوج التي يُعزف عليها بالقضبان. جلست متقاطع الساقين على الأرض في ما يبدو أنها الزاوية الخالية

(29) الجمبي: طبل شبيه بالكأس، مغطى بالجلد، يُقبض عليه بين الفخذين، لكي يُعزف عليه باليدين المجردتين – هامش المؤلف.

(30) التار والتاريجا: نوعان من الدفوف الصغيرة – هامش المؤلف.

(31) الكركبات: صنوج مزدوجة يستخدمها موسيقيو (الغناوة) – هامش المؤلف.

الوحيدة في الغرفة بينما وضع أخي، ويا لدهشتي، آلة (جمبي) ضخمة، خفيضة الصوت بين فخذيه، وبإشارة من قائد الفرقة الموسيقية، بدأ يعزف لحن الأغنية الأولى.

بعد لحظات قلائل، وصلت امرأة، دفعت إلى الوراء قلنسوة جلابتها، لتكشف عن نفسها بكونها امرأة أجنبية. تطلعتُ إليها، مصدوما، إنما كان ذلك في منتصف الأغنية، ولم أكنْ أعتقد أنه من الأدب أن أقاطع، حتى حين جلستْ لصقي، وأرغمتني على التنحي عنها أبعد ما يمكن. كنت لا أزال أستوعب وجودها حينما دخلت أجنبيتان أخريان. كانتا تلبسان ثيابا غربية هذه المرة. وفي نهاية الأمر، دخلت امرأة شقراء ذات جمال كلاسيكي ترتدي سروالا من (الجينز) وسترة رثة من جلد الخروف، لكي تكمل المجموعة وتضاعف حيرتي وارتباكي. فمن ناحية، كان من الصعب مقاومة الإيقاعات المنومة للطبول، ومن الناحية الأخرى، بدت الغرفة الصغيرة وكأنها تنتج النساء الأجنبيات دقيقة بدقيقة. لم أخضْ تجربة كهذه من قبل.

وما زاد غمي أنه لم يكنْ ثمة توقف قصير بين الأغاني، وهكذا لم تُتحْ لي الفرصة لكي أتحدث إلى مصطفى. ببساطة، كنت أجلس هناك ثابتا في موضعي. وخلال الأغنية الثالثة، الفتاة الأولى - التي كان اسمها زافييرا والتي عرفت لاحقا أنها فرنسية - والشقراء بسروال (الجينز) - التي كانت هولندية - كلتاهما أخذتا طبلين، وعليّ الاعتراف أنهما كانتا تقرعان بنفس جودة الرجال. الشقراء، بالأخص، حشرتْ طبل (الكديرة) بين ساقيها، وبينما كانت يداها ترتفعان وتنزلان، لاحظتُ أنهما كانتا

حمراويـن وصلبتـين من جـراء قـرع الطبول على مدى سـنوات كثيرة. لكنها كانت غافلة عن نظراتي. وشأنها شأن جاراتها، كانت قد نكسـتْ رأسـها وكانت منهمكة في قرع الطبـل كما لو أنها في حالة جنون مؤقت. وحتى الشـرفات المفرجة نفسـها بدتْ وكأنها تنبض.

أخيرا، كان هناك توقف مؤقت في الموسـيقى، وسـمح لي بأن ألفـت انتبـاه أخـي. مضينا إلـى الخارج، إلـى الفنـاء، حيث كان هناك ضباب كثيف يلتف قادما من البحر، وكان الهواء قد أصبح كريه الطعم.

مـا الخطـب، يا حسـن؟ سـألني مصطفـى. إنهـم يحضرون (الكيـف) إلـى هذا المكان، وسـوف يفوتنا ذلك. إنهـا أفضل أنواع (الماريجوانا)؛ عمر يحصل عليها مباشـرة من أصدقائه الإسـبان المحنكين في (مليلة).

لم أكنْ قادرا على التفوه بكلمة واحدة.

ليـس لـدي النيـة فـي تدخـين (الكيـف)، قلـت، ولا الذهاب إلـى الداخل. هل فقـدتَ عقلك؟ أولئك النسـوة يخلعن ثيابهن ويبقـين فـي قمصانهن القطنية! يمكنني رؤيـة أكتافهن العارية، وأشـمهن وهن يتعرقن كالخنازيـر. ألا يخجلن؟ ألا تخجل أنت؟ كيف يمكنك أن تحضرني إلى هنا؟

اعترض مصطفى على اتهاماتي.

إنهن مسـتغرقات في اللحظة، يا حسـن، تسكنهن الموسيقى. آخر شيء يجول في خاطرهن هو لباسهن. من المؤكد عليك أنت، من بين الناس جميعا، أن تعرف ذلك النوع من الأحاسـيس التي تستحوذ على المرء؟

لا أعرف شيئا عن ذلك النوع، أجبته. هل تجدني أنزع ثيابي عندمـا أروي قصصي؟ لم يسـبقْ لي أن سـمعت بأي شـيء بمثل هذه السخافة!

خطا مصطفى خطوتين إلى الوراء وتفرس في وجهي ببرود. كان يبدو أن شعوري بالعار قد جعله هادئا، وغير مكترث. تبادلنا النظرات بصمت إلى أن تكلّم، أخيرا، بصوت لطيف وخطير.

يـا أيهـا المتطهر الريفي المسـكين، قـال مصطفى بابتسـامة معبرة عن الإشفاق. استيقظْ وشمّ رائحة القهوة.

نظرتُ إليه بذهول وارتباك.

مـاذا يُفترض أن يكون معنى ذلك؟ سألته.

إنه مثل أمريكي سائر. إنه يعني مرحبا بكم في عالمي.

أي عالم هذا؟ لا أعرف ماذا أقول لك.

ظـلّ ينظـر في عينيّ برهـة طويلة، وبعدها، بغتـة، بدا وكأنه فقد صبره.

حسـنا جـدا، انظـرْ، إذن، إلى الأمـر كما يحلو لـك، قال لي. إنك تبرهن على كونك كارها للنساء، وأنك ضيق الأفق غير قادر على الفهم، فضلا عن كونك غير قادر على التعاطف. الموسـيقى هـي التي جذبتِ النسـاء إلى هنا، صدّقْ ذلـك أو لا تصدّقْ؛ إنهن مولعـات بشـكل أصيـل بقرع الطبـول. لكنني سـأخبرك بما تود سماعه. هؤلاء النسوة لسن كالفتيات اللواتي يقبعن في منازلنا، هـذا الأمـر ينبغـي أن يكـون واضحا. لقـد أقبلن إلـى هنا بملء إرادتهـن، وأنهـن - كيف يعبّرن هن أنفسـهن؟- بـالغـات مدركات. بمعنـى آخـر، إنهـن يدركن ما يفعلـن. كما أنني لسـت غافلا عن سـحرهن وجمالهـن الأخـاذ. علـى سـبيل المثـال، الأمريكيتـان

«شانيا» و«جوهانا»، هما شقيقتان، وترغبان بأن تناما معي؛ الفتاة الفرنسية، «غزافييرا»، تريد الزواج مني؛ في حين إن المرأة الشقراء من أمستردام لا تعرف ماذا تبغي. أيّ واحدة منهن التي تستوطن خيالك؟ قلْ لي فقط، وسأرتب لك الأمور.

شاعرا بالخيبة، ترنحت إلى الوراء واصطدمتُ بالباب نصف المفتوح الذي ثُبّت عليه ملصق إعلاني ملون لرجل أسود شديد النحول ذي خصلات شعر مجدولة. وفي محاولة مني لاستعادة توازني، أمسكتُ بزاوية الملصق الإعلاني وتمكنتُ من تمزيقه إلى نصفين.

يا إلهي! همس مصطفى وهو يتطلع بفزع إلى ما اقترفته يدي. ماذا فعلت؟

لماذا؟ سألته بوحشية. هل هذا هو معبودك الجديد؟ هل هو الشخص الذي يحبه أولئك الهيبيون؟ هل نسيت أنك مسلم؟

أنت رجل أبله! عقيدتي لا صلة لها بهذا الأمر. ذلك هو «بوب مارلي»، ملك موسيقى (الريغي). إن عمر يكنُّ له الإجلال والاحترام. الآن سوف يشيح بنظراته عني غضبا!

بقدر تقديري لعواطفه، فإن فظاظة لغته هي التي دمّرتني. فقدتُ صوابي ورددتُ عليه بشفقة.

لقد سمّيتني رجلا أبله! ألا تحترم الحقيقة القائلة إنني، على الرغم من كل شيء، أخوك الأكبر؟ أين صفاتك الحميدة؟ أم أنكَ نسيتها في زريبة الخنازير تلك مع عاهراتك الأجنبيات؟

أوه، اخرسْ، يا حسن! لقد سئمت كثيرا من طريقة كلامك هذه التي تشبه طريقة الأساقفة! إن لم يكنْ باستطاعتك تقبّل

الطريقة التي أعيش بها، فلماذا إذن لا ترجع إلى المكان الذي أتيتَ منه؟

تفرَّس كل منا في وجه الآخر باشمئزاز متبادل، مع أن مشاعري أنا لم تكنْ خالية من اليأس. وددتُ أن أصفعه على وجهه لكنني استطعت منع نفسي من ذلك، لأنني أدركت أن ذلك، ببساطة، سيزيد الأمور سوءا. وهكذا مشينا حول الفناء الدائري إلى أن أشار مصطفى، بهزّة عدم اكتراث من كتفيه، إلى أنه عائد إلى الداخل. راقبته وهو يغادر من دون التفوّه بكلمة واحدة. كان في فمي طعم مُرّ. خفضتُ نظراتي، وسرتُ مبتعدا بفؤاد مثقل بالغم والحزن، إنما ليس قبل أن يتذكر أخي أن يندفع كالسهم عائدا ويسلّمني مفتاح غرفته.

الغوص

هذه هي الأفكار التي دارتْ في ذهني خلال تلك الليلة المنحوسة في ساحة الجامع حينما واصلتُ البحث عن شقيقي. كانت تلك أول مرة في حياتي أختصر فيها جلسة سرد القصص، غير أنني أحسستُ أنه ليس لديّ من بديل آخر. ذهولي المستمر سرعان ما تحوّل إلى حالة اهتياج تضاريتْ كثيرا مع تركيزي بحيث إنني، أكثر من مرة، ألفيت نفسي أتوقف برهة عن الكلام لأنني ببساطة لم أكنْ قادرا على تذكّر أي خيط من خيوط القصة يتعيّن عليّ الإمساك به، ولماذا. شتمتُ أخي سرا، اعتمدتُ على كل قواي الاحتياطية لكي أبقى هادئا ولئلا أغدو غاضبا، لأنه ما من تنفيس للغضب، بل هناك فقط الانزعاج المخيب لآمال المرء. وبشكل من الأشكال أحسستُ بأنني أحتاج إلى كل حصافتي في تلك الليلة.

أسترا[32]

في الساحة، كانت الأمور بعيدة عن الهدوء. كانت الشائعات تروج هنا وهناك حول الأجنبيين، بخاصة تلك المتعلقة بالجمال النادر والباهر للمرأة، وقد غمرتْ هي الجو بإثارة لم تألفها الساحة حتى بالنسبة للمعايير المجنونة. وفيما يتصل بأخي، على أي حال، لم تكنْ هناك أي إشارة تدل على مكان وجوده، وبينما كنت أدور بسرعة حول الساحة، بدأتُ أشعر بالمزيد من القلق والاضطراب. كان هذا الشعور يزعزعني، وعقدت العزم على البحث عن صديقتي فنانة الحناء، دنيا، التي تعرف دوما هي وبناتها الثماني، أكثر من أي فرد آخر، ما يجري من وقائع في الساحة.

كانت دنيا في مكانها المعهود، بالقرب من أكشاك تحميص البندق في الطرف الشمالي من الساحة، وهو موضع كانت تفضله لأنه يجعلها قادرة على العمل في ضوء المجامر الضخمة التي كانت تكسو مدخل سوق الخزافين المجاور. تبادلنا التحيات، وقدمّتْ لي شيئا من شاي النعناع القوي لكنها استنتجت على الفور تقريبا من ملامحي المضطربة أن هنالك أمرا ما. وحين شرحت لها أنني كنت أفتش عن أخي، أشارتْ إحدى بناتها حالا إلى (جامع الكسابين) حيث، كما قالت، شاهدتْ مصطفى يدخله قبل عشرين دقيقة تقريبا.

أخي دخل إلى الجامع؟ سألتها، وأنا غير قادر على تصديق أذنيّ.

(32) أسترا: مقدمة موسيقية تستهل أداء (الرواي)، تُعزف على الربابة، تقدّم النوتات الرئيسة للألحان التي ستأتي لاحقا - هامش المؤلف.

هرع إلى هناك مباشرة قادما من محل الآيس كريم الذي يملكه ماهي، قالت بتأثر. حيث سمعتُ أنه التقى هناك باثنين من الأجانب.

كيف تسنى لك معرفة ذلك؟ سألتها بدهشة.

لأنها وضعتْ الحناء على يد المرأة بعد ذلك بوقت قصير، قالت بنت أخرى من بنات دنيا وهي تضحك.

أجل، أجل، رسمتُ سمكة على كفها اليسرى، ورسمت عينا على كفها اليمنى لكي تحرسها من الأرواح الشريرة. سوف تتعرف على علاماتي. كانت جميلة، وفي منتهى الرقة. تحادثنا بينما كنت أعمل، وأخبرتني الحسناء عما جرى في محل (ليبيس). حدثتني عن أخيك! إنه معتوه.

أليست بناتي مدهشات؟ سألتني دنيا بضحكة متسامحة. تعال إلينا إن كنت تريد سماع أخبار العالم. لدينا عيون وآذان في كل حدب وصوب.

عليّ الذهاب والبحث عن أخي الآن، قلت، ونهضتُ استعدادا للمغادرة.

بلّغه تحياتي، صاحتْ دنيا ورائي. وقلْ له أن يحافظ على رباطة جأشه. هناك خط فاصل بين الملحدين وبيننا، وهذا الخط الفاصل يجب ألا يعبره أحد. علاوة على ذلك، إنه شيء ضار بالمهنة.

شكرتها على نصيحتها بتلويحة من يدي.

كان مدخل الجامع لا يبعد سوى خطوات قليلة عن كشك دنيا، وخلعت لباس قدمي ودلفتُ إلى المسجد. إن توقع نشوب جدال آخر مع أخي العنيد أريكني، خاصة في مكان مخصص

للعبادة، وحتى حين ندمتُ على المسألة الدنيوية التي جعلتني آتي إلى هنا، تلوتُ الصلاة بصمت بينما كنتُ أنظر من حولي وعلى الفور شعرتُ أنني أكثر هدوءا وسكينة.

يا للأسف، لم يكنْ أخي في المسجد. ولأنني كنتُ محبطا ومرتاحا معا، تسللت خارجا من المسجد وقررت أن أرتاح برهة وأن أقيّم الموقف. جلستُ على مصطبة في الزقاق الضيق الواقع خلف الجامع. وإلى يساري، كان باستطاعتي أن أشم رائحة لحم يُطهى في أكشاك (الطنجية)[33]؛ كان الوهج المنبعث من مصابيحها الاستيلين يلقي ظلالا طويلة كانت تصل إلى مكان قريب جدا من الموضع الذي جلستُ فيه. وإلى يميني، كان الزقاق مهجورا ولم يعدْ يصدح بالمزاح اليومي للتجار والحرفيين. نظرتُ في ذلك الاتجاه، وبينما كنت أفعل ذلك، لمحتُ بنظرة خاطفة مصطفى وهو يتجه صوب الساحة. كان يبدو عليه أنه يروم التوجه إلى وسط الساحة، حيث كانت مجموعة (الرواي)[34] من (وادي سوس) قد بدأتْ توا أداءها حول نار مشتعلة في الهواء الطلق. سمعتُ النوتات الافتتاحية النابضة بالحيوية لكمانها ذي الوتر الواحد، الربابة. كان زعيم المجموعة، الريّس، ينادي الجمهور بصوت عال، حاد، وثاقب بصورة عجيبة. شاهدتُ الناس يحتشدون هناك كالنمل. بدأت الربابة تعزف مقدمتها الموسيقية، الأسترا.

(33) الطنجية: لحم يُطهى ببطء شديد في قدور من الخزف - هامش المؤلف.

(34) الرواي: فرقة من الموسيقيين المحترفين الذين ينتمون إلى (جلو) البرابرة من (وادي سوس)؛ يتألف أداء (الرواي) من حركات تُدعى: أسترا، أمارج، أموسو، تامسوست، أبيرداج، وتبيات - هامش المؤلف.

الأمارغ[35]

في الوقت الذي وصلتُ فيه إلى (الرواي)، كان الريّس قد بدأ يغني الأمارغ، القصيدة التي توحّد الأداء، غير أنني لم أعدْ أرهف السمع. بحثتُ عن أخي، وحينما ثبّتُ نظراتي على الثنائي الواقف قبالتي وكان الضوء الأصفر المحمر للنار المشتعلة ينير وجهيهما. لم أكنْ بحاجة إلى التعرف عليهما لكي أعرف مَنْ هما. لم يكنْ بمقدوري رفع عينيّ عن المرأة. إن مسألة كونها جميلة شيء لا ريب فيه. كانت أطول مما وصفوها لي، وذات بشرة عاجية صافية وشعر متموج، داكن اللون. كان يبدو عليها الجد، وملامح الجاذبية، لكن أيضا ملامح سرعة التأثر، والبساطة، بحيث إنها أذهلتني وصدمتني. كانت تلك هي الميزة المتعلقة ببراءة الأطفال الكامنة في تلك المرأة، هي التي جعلتها تترك انطباعا لا يُمحى فيَّ. كانت تقف بلا حراك، غافلة عن محيطها وهي تصوّب نظراتها إلى الأمام، وانتباهها كله منصبٌّ على الموسيقيين.

كانت حلقة المستمعين قد بدأتْ تتحرك نحو إيقاعات (الراوي) المُعدية. وفي غفلة من الزمن، وجدت نفسي بجوارها. ابتسمتْ لي وعادت ثانية تراقب العازفين الموسيقيين. دعاها أحد الموسيقيين للجلوس على كرسي واطئ لكنها رفضتْ. جاءت آلات العود، وأعقبتها الطبول.

وخلال سكون مؤقت للأغنية، التفتت إليّ وسألتني بالعربية ما إذا باستطاعتي أن أخبرها عن أي شيء كانوا ينشدون. لا أستطيع استيعاب لغتهم، قالتْ. لا بد أنها لغة البربر.

(35) الأمارغ: القطعة المغناة، قلب أداء (الرواي) - هامش المؤلف.

نعم، إنها لغة البربر، أجبتها. إنهم يغنون بـ (التاشيلهيت)، لغة البربر الدارجة. الأغنية عن (إيسلي) و(تيسلي)، العاشقين الشابين الأسطوريين اللذين مُنعا من أن يجتمعا معا وملأا بحيرتين من دموعهما. وأضفت قائلا: البحيرتان لا تزالان موجودتين في نجد يقع في الشمال الشرقي من (إيميلجيل)، في أعالي جبال الأطلس. وسنويا ينعقد معرض للزواج هناك. إنه معرض ذائع الصيت. عليكِ أن تذهبي إلى هناك ذات مرة.

أوه، لكنني متزوجة أصلا، قالتْ، وضحكتْ. شكرا لك على أية حال. سوف أنقل ذلك إلى زوجي.

سيدتي، هل يمكنني أن أسألك عن اسمك؟

اسمي لوسيا، قالت، لكنها قبل أن تتمكن من قول المزيد، كانت الموسيقى قد قاطعتها، وبدأتْ حلقة المشاهدين تتحرك مجددا، وتباعد أحدنا عن الآخر.

بعد ذلك بوقت قصير، ألفيت نفسي واقفا بجانب زوجها. تفحصته من زوايا عينيّ. وكما لو أنه أحس بنظراتي الفاحصة، تطلّع إليّ ونكس رأسه. كان يبدو شابا لطيفا، داكن البشرة وغير مؤذ نوعا ما، وقد حاولتُ جاهدا أن أفهم لماذا حرّك مشاعر أخي مصطفى بالطريقة التي فعلها. في تلك الآونة، التفت ليحدق في زوجته وعيناه تتوقدان بوهج أرعبني لمعانهما. كان ذلك اللمعان قد جعل نظاراتيه تبدوان وكأنهما شيء مصطنع، وكأنه كان يسعى من وراء لبسهما إلى إخفاء حيوية روحانية طبيعية وراء واجهة ناضجة، أكثر وقارا ورزانة.

ومن جديد، كان هناك سكون مؤقت للموسيقى، وقررت اغتنام الفرصة لكي أُشركه في حوار ما. أولا، كنت أود سماع نبرة صوته.

بإنكليزيتي البدائية، خاطبته قائلا: سيدي، أتمنى ألا تمانع إذا ما وجهتُ إليك سؤالا، لكن هل أنت مسلم؟

كان جوابه ملتبسا. لماذا تسأل؟ قال بلا مبالاة. بسبب لحيتي؟

حسنا، ليس تماما؛ كما يحتمل أن لاحظت، ليس من السائد في المغرب أن يكون الرجال ملتحين، مع أننا قوم مسلمون.

لستُ متدينا، قال بإيجاز. إنني كاتب.

قهقهت.

حقا؟ وكذلك أنا. إنني أكسب رزقي من سرد القصص والحكايات.

ذلك الأمر لفت انتباهه. التفت لينظر إليّ مباشرة. نظر كل منا في عينَي الآخر برهة قبل أن يشيح بنظره إلى حيث كانت تقف زوجته وابتسم لها بسمة مبهمة.

بعدها مباشرة بدأت الموسيقى من جديد، ووضعتْ حدّا لحوارنا.

وفي الحال وقف قبالتي، مما منحني الوقت الكافي لإمعان النظر فيه أكثر. كل شيء فيه يبدو مبهما. كانت ثيابه بسيطة، لكنها تنم عن ذوق خال من العيوب، تواضعها بحد ذاته يعزز أناقتها. مما جعلني أتساءل ما إذا كان ذلك العنصر المتعلق بعدم التطفل البارد هو بالضبط الذي جعله عصيا على التعريف. وفي الوقت نفسه، أصبح الأمر واضحا بصورة متزايدة بالنسبة لي أنه كان يجهل الخطر الذي يحيق بهذه الأنحاء.

في المرة التالية التي اقترينا فيها من بعضنا، دنوت منه وأمسكت به من ذراعه. تحدثت بسرعة وإلحاح، غير أنني تحولتُ أيضا إلى اللغة العربية من دون معرفة ذلك، فقلت له:

سيدي، ينبغي عليك ألا تكون هنا الليلة ولا حتى زوجتك. إنك أشبه بقطعة مغناطيس تجذب أسوأ العناصر الممكنة هنا. أرجوك خذها واترك هذه الساحة قبل أن يقع حادث مؤسف يفاجئكما أنتما الاثنان. هذه هي الحقيقة. إنني خائف عليكما.

أفلت ذراعه من قبضتي وتحرك مبتعدا وهو يهز كتفيه بلا مبالاة. حينذاك فقط أدركت أنني تكلمت بلغة لا يستطيع فهمها. سار ووقف إلى جوار زوجته. شاهدتها وهي تنظر إليه باستفهام، وقد ربّت هو على جبينه برقّة، مرتين.

ما حصل لاحقا كان متوقعا تماما، لكن السرعة التي جرت بها الأحداث أثارتْ دهشتي. دفعه من مرفقه مجموعة من الرجال ممن يبدون أشبه بقطاع الطرق، وأخذوه جانبا، وطوقوا زوجته. وقبل أن يصدر أي رد فعل من أيّ منهما، امتد جيش من الأيدي للأمام للقبض عليها. لمحتُ أيدي تزحف بين ثدييها، تحيط رجليها، وتربّت علَى فخذيها. كانت قد جَمُدَتْ، اتسعتْ عيناها من جراء الصدمة والخوف. بعدها هزّتْ نفسها هزا عنيفا وتعثرت وهي تدنو من زوجها. كانت تلك لحظة عار. وقد ترنحا للخلف بسبب الاصطدام.

العار

هل من الممكن محو العار؟ هل من الممكن القضاء عليه؟ أم أن الذكرى تعيش معنا خلال ما بقي من سنوات حياتنا؟

طرحتُ هذه الأسئلة في محاورة لي مع أقرب أصدقائي، نبيل. كان نبيل هو النادل الرئيس في (الأرغانة)، المطعم الشهير الذي يقع في مواجهة الساحة. إنه رجل بربري من قرية في

(التافيلالت)، الكائنة في (وادي نهر الزيز)، وهي واحدة من أجمل الواحات في الصحراء الكبرى الشمالية. الشيء الذي جعله يأتي إلى مراكش هو قصة بحد ذاته، وسأحكيها لاحقا.

أما الآن، فردا على أسئلتي، طرح نبيل بعضا من أسئلته هو.

حسن، ما أول عاطفة شعرت بها حينما التقيت بساحة الجامع؟ سألني. أليستْ هي الإثارة؟ إثارة الحواس؟ هيا، اعترفْ بذلك. بمعنى آخر، إنها تروق لانغماسك في الشهوات الحسية. لكنني سأمضي أبعد وأقترح أن الساحة، وبخاصة في تلك الليلة، كانت في حالة من الفسوق الخالص. إنها طبيعة المكان. لماذا تدخل العار إليها؟

لا أعتقد أن الأمر بهذه البساطة التي تصورها، رددتُ على الحجة بمثلها. إنه أكثر تعقيدا.

بالطبع، لا بد أن يبدو أكثر تعقيدا بالنسبة لك، أجاب نبيل باسما، لأن هذا يرجع إلى كونك راوي قصص. إنكَ تقوّي الواقع بواسطة أساطيرك أنت.

أساطيري أنا؟

نعم، نعم، أساطيرك. هل سبق لك أن سألتَ نفسك من أين تأتي قصصك؟ إنها ليستْ سوى نتائج لاستغراقاتك، هواجسك، وفانتازياتك.

سأفكر في هذا الأمر، قلت مقطبا.

خذْ ما تشاء من الوقت، رد عليّ. شخصيا، لا أعتقد أن القضية لها حل واضح، لكنني قادر على استيعاب افتتانك بالأجنبيين، صدّقني. أنا نفسي لم أتفهم بعد التضمينات الكاملة للقائي الخاص بهما تلك الليلة.

مطعم أرغانة

لحظة دخولهما المطعم، قال نبيل، عرفتُ أن هناك شيئا خاطئا. كنا قد أغلقنا المطعم قبل نحو عشرين دقيقة أبكر من الوقت المتعارف عليه، إنما كان المطعم لا يزال مضاء بنور ساطع في الداخل ولم تكن الأبواب مسدودة، ولذلك لا توجد وسيلة يعرفان من خلالها أن مطعمنا غير مفتوح. في الواقع، كان هناك صبيان يعملان بصفة مساعد نادل يدحرجان وقتئذ برميلا فارغا من زيت الزيتون صوب مدخل المطعم لذلك تعيّن عليهما أن يتنحيا جانبا لكي يسمحا لهما بالمرور.

أسرعتُ إليهما، وأحسستُ من خلال وجهيهما الشاحبين شحوب الموتى أنهما كانا بحاجة إلى ملاذ. كان الرجل على صواب تماما، حتى في ذلك الموقف. لا بد أنه حدس بأننا كنا أغلقنا المطعم، لأنه أبدى استعداده للمغادرة إذا كان الأمر كذلك، لكنني طمأنته.

في هذه الحالة، قال، وهو يتحدث بإلحاح، هل يمكننا الحصول على مائدة أبعد ما تكون عن الساحة؟

أرشدتهما إلى منضدة في مؤخرة المطعم، حيث لا يمكن لأحد رؤيتهما. اخترتُ فضاء ضيقا يحميهما من لا نهائية الساحة. حين سحبتُ هي كرسيها إلى الخلف، لاحظتُ أن يديها ترتعشان بعنف. أشحتُ بنظراتي لكيلا أسبب لها الاضطراب وشغلتُ نفسي بسكب الماء. شربت هي، لكن شيئا من الماء انسكب على غطاء المائدة. اعتذر الرجل نيابة عنها، وأحسستُ بأنه ستمر برهة من الزمن قبل أن تكون قادرة على العناية بهذه التفاصيل الصغيرة بمفردها. وحاليا، كانت ببساطة جالسة هناك بهدوء

وسكينة، وعلى وجهها ظل ما. كان من الجلي أنهما كانا يحتاجان إلى وقت يختليان فيه بنفسيهما، وانصرفت عنهما.

أسرعتُ عائدا إلى الباب الأمامي وحدّقتُ في الساحة. كان الهواء مشبعا برائحة أوراق الشجر المحترقة. كانت هناك نار ضخمة مشتعلة في وسط ساحة الجامع. كان الدخان يشبه مذراة مصبوغة تتماوج في النسيم. كان يتمايل ذات اليمين وذات الشمال مثل شيء سيئ عاد إلى الحياة، يفرقع بذيله الطويل ويضرب الجماهير المحتشدة بعنف.

في أقصى الغرب، وما وراء سلسلة من الغيوم القرمزية، توهجت خفقة برق حمراء بلا صوت. هذه الخفقة جعلتْ ظلال السوق ترتطم بعنف على أحجار الساحة. ومن مكان أقرب سمعتُ ضحكة ثملة واكتشفتُ رجلا يمرق أمام (الأرغانة). طلبت منه أن يذهب إلى الجحيم فضرب فخذيه بعنف وقهقه ثانية. غيوم حمراء، قمر أحمر، ضحكة حمراء. أذهلتني الألف هيئة وهيئة التي تتخذها ساحة جامع الفناء وأغلقتُ أبواب المطعم بإحكام.

حين عدتُ إلى منضدة الثنائي، نهض الرجل على قدميه وعبّر عن امتنانه لمراعاتي لوضعهما وسماحي لهما بالبقاء.

شكرا لك على توفير وسائل الراحة لنا، قال الرجل. من الجلي أنكم أغلقتم المطعم بسبب حلول الليل.

قلت له: هنا في الساحة نحن نفتح ونغلق وقتما نشاء. الحال هنا يشبه ما يجري في لندن أو باريس؛ ليس ثمة ساعات محددة. للساحة إيقاعاتها الخاصة بها وهي تتغيّر من يوم إلى آخر. لا توجد ثمة قيود متحجرة وكل شيء خاضع للتفاوض. وإلا فأيّ سعادة هذه سيحس بها المرء حينما يكون هنا؟

إذن: مرحبا بكم في (الأرغانة)، وأتمنى أن يكون باستطاعتنا تعويض كل ما عانيتم في الساحة.

بدا أن كلماتي أثارتْ رد فعل لدى رفيقته التي كانت جامدة بلا حراك. أمالت المرأة رأسها إلى أحد الجانبين وتفرستْ في وجهي زمنا طويلا من دون أن تقول كلمة. صعقتني عيناها اللتان بلون الدخان بسبب عمقهما. سلبتني تلكما العينان الراحة، ولأنني لم أستطع التحديق فيهما، حوّلتُ نظراتي عنها.

وعندما تحدثتْ أخيرا، كانت نبرة صوتها واطئة جدا بحيث تعيّن عليّ أن أطلب إعادة ما قالته.

كنت أتوقع مزيدا من الشهامة المغربية، إن لم أقل الضيافة، قالت لي.

صعقني كلامها هذا وكاد يؤلم عظامي، وتورّدتُ خجلا.

سيدتي، ثمة أناس هناك في الساحة مرتبكون بشكل ميئوس منه. وهذا الاضطراب يجعلهم يتصرفون بطرق مخجلة. أتمنى ألا تعتبريهم ممثلين لحضارتنا التي تختلف عن ذلك تمام الاختلاف.

تفحصتني عن كثب. يمكنني القول إنها كانت تفكر مع نفسها ما إذا ينبغي أم لا ينبغي لها الوثوق بي. وفي نهاية الأمر، خاطبتني قائلة:

ما الذي يريبك هؤلاء القوم؟

فكرتُ مليا في رد مناسب، وبعدها حاولت أن أكون صريحا، لمجرد أن أساعدها على استيعاب ما جرى، وبذلك تتحاشى تكرار الحادثة.

قلت لها: ما يريبهم هو جمالك الأخاذ. إنه بالنسبة لهم شيء مغر، لكنه أيضا شيء مرعب.

مرعب؟

نعـم، مرعـب في مجموعه الإجمالي، في تجرده. سـامحيني على صراحتي الشـديدة، لكنك بـإزاء الليل أنت (عريانة)، عارية كالشمس، وأولئك الذين يبحثون عن العتمة سيكونون منجذبين إليك تقريبا رغما عن أنفسهم.

أمسى وجهها حزينا، ومن ثم أمسى قاسيا، ومر خط ما على فمها. ولاح أخدود عمودي بين حاجبيها.

لقـد تكلمـت بذوق وكياسـة، قالت، لكنها لا تمحـو ما فعلوه بـي هـذه الليلة. كما أنها لا تمحو المئة زوج من الأعين التي كانت مصوبـة نحونا كالبنادق، وهي تتعقـب كل حركة من حركاتنا في أنحاء الساحة.

توقفتْ برهة عن الكلام، وبعدها قالت بصوت أرق:

هل لديك شيء آخر تضيفه؟

لا شـيء، سـيدتي، باسـتثناء أن أحـذرك مـن زيارة السـاحة فـي سـاعة متأخرة من الليل. عـودي نهارا. هنـاك، في منتصف السـاحة المغمورة بالشـمس، يمكنك أن تعيشـي أعمق الذكريات للمـكان، إيماءاتها السـحرية، الإيمـاءات البسـيطة، وفي الوقت نفسـه المهيبـة، والموغلـة في القِـدم. إنمـا لا تزوريها بعـد حلول الظلام، لا تزوريها مطلقا بعد الظلام.

لاذت بالصمـت طويـلا. وبعدهـا نظـرتْ إلـيّ برباطـة جأش وقوّمتْ جذعها.

ذلـك شـيء غيـر سـار، قالت بهـدوء، لأننـي أنـوي الرجوع إلى هناك الليلة. الموسـيقى تحرّك وجداني، وأود سـماعها في بيئتها الطبيعية. هذا هو سـبب مجيئنا إلى هنا. ما من شـيء

يضاهيها نهارا. وها نحن نفعل عكس ما تريد. نحن عائدان إلى الساحة.

خفضتُ نظراتي والتفت جانبا. كنت أخاف على سلامتها، وكان ذلك واضحا على وجهي. كما كنت أسائل نفسي ما إذا كانت قد شعرتْ بإعجابي بجمالها وسحرها. ولأول مرة في حياتي لعنتُ الطبيعة المنحرفة للساحة، ووجهها الزائف.

غيّر زوجها وضع جلوسه على الكرسي، وراح يحول نظراته مرورا بنا إلى جهة الساحة. لاحقتُ نظراته. ظلال سريعة عبرت الألواح الزجاجية للنوافذ. كانت الساحة مبقعة بالنيران المشتعلة في الهواء الطلق والمشاعل.

كان ثمة سكون مطبق يخيم على داخل المطعم. في الخارج، يمكننا سماع أصوات الطبول، ومعها الخليط المألوف المؤلف من الهتافات، أصوات التصفيق، وصيحات الاستهجان.

تحرك زوجها حركة طفيفة، وحدّق بعيدا عن الشبابيك.

وكما لو أنه يحدّث نفسه، قال لي: غالبا ما يكون المرء مقرا بالجميل حينما تحدث أزمة جديدة؛ إنها تنزع الاهتمام من الأزمة السابقة التي قد تتلف العقل بحيث تؤذيه صحيا.

لا أستطيع الجزم ما إذا كانت كلماته موجهة إليّ. كنت أهمّ بسؤاله، حين وصل إلى الناحية الثانية من المنضدة وأمسك بيد زوجته. وببطء نقر على أصابعها الطويلة، على راحتها، رسغها. هذه المرة كان يكلمها هي؛ قال لها: عندما تبدو الأشياء الكبيرة في الحياة خارجة عن السيطرة، عندئذ السيطرة على الأشياء الأصغر تتخذ أهمية مبالغا فيها.

تطلعتْ إليه بهدوء وثبات. ومع أنها كانت تدير لي جانب وجهها، لكنني استطعتُ رؤية عينيها ورموشها الكثيفة وهي تتسربل بالدموع.

علينا الرجوع إلى الساحة، سمعتها تقول له.

جذبها إليه وتابع النقر على يدها. كانت تجلس متقاطعة الساقين، بلا حراك، رأسها يستريح على كتفه. كان كلاهما ينظر أمامه صوب عتمة الساحة. كان استغراقهما فيما هم فيه كاملا تماما بحيث أحسستُ أنهما نسيا وجودي.

دنَتْ أكثر منه تعبيرا عن توددها.

كم تبعد الصحراء عن هنا؟ سألته.

هي ليستْ نائية جدا، حبيبتي. إنها موجودة هنا دوما، أجابها.

يقول بعض الناس إنها مترامية الأطراف، لا يسبر غورها، كعمق المحيط.

شروق الشمس وغروبها في الصحراء هما أجمل شيء في العالم، أو هكذا سمعتُ، حين يكتسح النور القرمزي الكثبان الرملية، وسطوح الصخور البيضاء.

ألقتْ عليه نظرة ثابتة.

إنها مغرية بالتأكيد، أليس كذلك؟

بدا أنه كان يوافقها الرأي، ذلك أنه أمال رأسه إلى أحد الجانبين.

أغلب الظن أنه بمرور الوقت يصبح المرء جزءا من الصحراء نفسها، قال لها، يصبح مجرد ظل، من دون مادة.

تابعا النظر إلى الخارج. أدار الرجل رسغها ولمحتُ أثر ندبة على أوردتها، نجم عن الضرب الغاضب.

وفي الختام، كما لو تذكرا أنهما ليسا وحدهما، حدّق الرجل فيّ وابتسم باعتذار.

شكرا على اهتمامك بما جرى لنا، قال. لكن لا تغتم، نحن قادران على العناية بأنفسنا. سنغادر المطعم حالا.

أدركتُ أنهما كانا يصرفانني. خفضتُ رأسي تعبيرا عن شكري وانسحبتُ بحزن. كانت آخر نظرة لي عليهما هي عندما جلسا إلى تلك المنضدة جنبا إلى جنب، ليس كما لو كانا عالمين منفصلين بل كما لو أنهما اندمجا في كيان واحد، لا يتجزأ.

نبيل

تطلعتُ إلى نبيل بنظرات متشككة.

أنتَ إذن تقول لي إنك سمحتَ لها بالعودة إلى الساحة، على الرغم من كل شيء، وحتى إن زوجها لم ينصحها بخلاف ذلك؟

نعم، يا عزيزي راوي القصص، لقد فعلتْ ذلك. لماذا تجدْ هذا الأمر عصيا على التصديق؟ كانت تلك أمنيتها الصريحة، وشخصيا لا أعتقد أنني كنتُ قادرا على تغيير رأيها ولا حتى زوجها كان قادرا على ذلك. كانت ستذهب إلى هناك سواء حذرتها أو لم أحذرها من الذهاب. أما زوجها، فأعتقد أنه ببساطة كان يدرك أن ذلك شيء لا مناص منه، ومضى برفقتها كي يتفادى الخصام معها.

بشكلٍ من الأشكال وجدتُ ذلك شيئا عصيا على الفهم، وقلتُ إن الأمر كذلك فعلا.

لماذا وجدته شيئا صادما؟ سألني نبيل. أليس من طبيعة النساء أن يرغبن بما هو محظور.

كلا، قلتُ بعناد. هذا ليس صحيحا. لا يمكنني أن أؤيدك على تخمينك.

بالطبع أنت غير قادر على تأييدي، لأنك رجل رومانسي ميئوس منه.

حدّق فيّ بنظرة قلقة.

الأمر الذي يجعلني أتحول إلى مسألة مختلفة كليا، قال لي. في هذين الغريبين صفة ما - صفة في الرجل، على الأخص - ذكّرتني بك. إنكما تتقاسمان خاصية معينة.

ما هي، في اعتقادك؟

سألت نفسي مرارا وتكرارا هذا السؤال، حسن، لكنني حتى الآن لم أتوصلْ إلى جواب مقنع. قد يكون شيئا بسيطا كانتمائك إلى القبيلة ذاتها: قبيلة رواة القصص. أو قد يكون شيئا مختلفا بكل ما تعنيه هذه الكلمة، شيئا أعقد بكثير.

أعقد بكثير؟ كيف يكون ذلك، يا صديقي؟

فكرتُ في هذا الأمر مرارا، قال مستغرقا في تفكير متأمل، وصرفتُ عن ذهني السؤال الذي لاح على بالي أولا، بوصفه سؤالا خياليا.

أي سؤال؟

حسن، كنتُ أتمنى ألا تطرح عليّ هذا السؤال؟

إنني أطرحه عليك.

عندئذ سترى، حالما أفصح عنه، لماذا أطلقتُ عليه صفة (خيالي). وهذا سوف يريكني بالقدر الذي يريكك.

لا يهم، تابع حديثك.

طيب. هل كنتَ شريكا في جريمتهما تلك الليلة، أم كنتَ معارضا لها؟

قهقهتْ. أنت محق. هذا شيء خيالي.

لقد أخبرتك.

وعلى أي حال، أضفتُ قائلا، ما كنتُ لأقول لك ذلك إذا كنتُ أنا أحد هذين الشيئين. ما كنتُ لأخدعهما.

الحدّاد

ربما آن الأوان للتحدّث قليلا عن صديقي نبيل، الذي كان أقرب إليّ من أي صديق آخر. وهكذا، عن إذنكم، مستمعيّ الأعزاء، سأفعل ذلك بالضبط.

بصورة غير متوقعة إلى حد ما، سمعتُ تمتمات سخط وتذمر من حلقة مستمعيّ وتوقفت هنيهة عن الكلام، وأنا مندهش. تكلّم صوت خشن. جاء هذا الصوت من رجل ذي جسم أشبه بجسم حدّاد، قوي البنية، كث الحاجبين.

تكفي هذه الأحاديث الانفرادية! قال الرجل قوي البنية. لا نريد سماع ما يتعلق بصاحبك نبيل. نحن نريد معرفة ماذا جرى للمرأة الأجنبية وزوجها. استمرّ في سرد قصتهما.

سامحني، أجبته، وأنا أسعى جاهدا إلى الإبقاء على صوتي تحت السيطرة، لكن صاحبي نبيل هنا بينكم هذه الليلة، وبما أنه أقرب من أي شخص آخر على اكتشاف الحقيقة، يتعيّن عليّ الاعتراف بأنه هو المصدر. هذه هي الطريقة التي نتبعها هنا.

ما الحقيقة؟ سأل الحداد.

ليتك تحليتَ بقليل من الصبر، قلتُ بفظاظة، عندئذ ربما ستكون أقرب إلى الحقيقة مما أنت عليه الآن بمقاطعاتك.

إنكَ تنغمس كليا في استطراداتك غير الضرورية على الإطلاق! قال بإصرار.

نشرتُ ذراعيّ مندهشا.

هل تتوقع أن يكون الحال مختلفا حتى ولو نسبيا؟ على أية حال، أنا راوي قصص تقليدي جدا في ما يتعلق بذلك. إن كنتَ تنشد التسلية السريعة، اذهب إلى أقرب دار للسينما وتمتع بمشاهدة العرض السينمائي الذي يروقك. الصبر ليس فقط واجبك كمستمع، بل ممارستك للحرية في مواجهة سباق الزمن وسيل الأشياء الضرورية. أن تصغي إلى قصة ما من دون إبداء اعتراضات، وحتى من دون اضطرار للفهم بل ببساطة عليك أن تطّلع عليها، وهذا وحده سيكون كافيا. القصة فعل من أفعال التأمل وعليك أن تتقبل المسؤولية عنها بقدر ما يسهم انتباهك في حيويتها وحياتها.

وبمزيد من الاسترضاء، أضفت قائلا: لو كانت هناك أجوبة على الأسئلة، فلن يبقى شيء جدير بالقص. وبقدر ما يقدّم الراوي الأجوبة، فهو لا يقدّم شيئا واقعيا. لا يكتسب فنه الحياة إلا إذا تدفقتْ فيه دماء الغموض. ولهذا السبب فإن ذكاء المستمع النموذجي يراقب فقط، إنه يكتشف، لكنه لا يفتش عن الإلهام. إن مقومات القصة ليستْ حقائق مطلقة بحد ذاتها، إنها محطة على الطريق، وسيلة لغاية ما.

ما هذه الغاية؟ سأل الحدّاد، وهو لا يزال مسترسلا في عناده.

تفحصتُ وجهه، وتمهلتُ في صياغة جواب ما. وفي النهاية،

قلـتُ، بقدر ما أسـتطيع من الأدب في حـالات كهذه: تكمن حرية القصة في الطواف هنا وهناك والتهرب من الواقع.

بدا جوابي هذا مقنعا له لأنه لزم الصمت ولم أسمعْ تمتمات سـاخطة من جمهوري. شـبكتُ أصابعي وانتظرتُ لحظة؛ بعدها عـاودتُ التكلم ثانية، وبهـدوء التقطتُ الخيط من الموضع الذي تركته فيه في وقت سابق.

فانتازيا[36]

صديقي نبيل، على غراري، بدأتُ كلامي، رجل ملتزم بالعرف والتقاليد. هذا الأمر ربما له علاقة بالحقيقة القائلة إنه ينتسب إلى واحدة من أعرق الأُسـر في (وادي نهر الزيز)، حيث كان جده يمتلك في زمن ما واحدة من أروع واحات النخيل في (تافيلالت).

إلـى حد ما، اسـتطردتُ قائلا، كنتُ أعد نبيل قدوتي. لسـبب واحـد ألا وهـو أنني كنـتُ أود أن أعيش كما يعيـش هو الآن، لكن تحت ظروف أقل مأسـاوية. فقبل بضع سـنوات، فقد نبيل بصره بينما كان ينظف بندقية جده القديمة جدا، واعتزل مع مدخرات حياته في (طاووز)، وهي قرية تقع على حافة الصحراء الكبرى. هنـاك، على حافة (حمادة دو غويـر)، الأرض القاحلة الصخرية المشـهورة بعواصفها الرمليـة العاتية، يعيش في عزلة مع زوجته المولـودة فـي فرنسـا، إيزابيل، والتـي كان قد قابلها فـي مراكش، ومنذ ذلك الزمن التزمت بلبس الحجاب. لم يكنْ يسرني اللقاء بها - كان نبيل حريصا بشكل مفهوم على حماية خصوصيتها -

(36) الفانتازيا: عرض للفروسية في الاحتفالات الكبرى أو المواسم - هامش المؤلف.

لكنني سمعتُ أنها جميلة جدا، ومصدر عزاء لصاحبي في عماه. ربما يفسر هذا الأمر سبب رضا نبيل بوجوده في الصحراء. ومرة واحدة سنويا، خلال موسم البرد، كان يتلطّف هو ويغادر مسكنه لغرض زيارة مراكش، وزيارته هذه تتزامن مع إقامتي المؤقتة في ساحة الجامع. وبصورة محتومة، هذه الزيارات كانت مبرمجة في الليل الذي أروي فيه قصة اختفاء الغريبين، لأن نبيل، بنفس القدر الذي كنتُ عليه، بقي مفتونا بلغز ما جرى لهما.

سكت عن الكلام هنيهة وضممتُ نبيل بين ذراعيّ بحرارة.

كيف هو أدائي حتى الآن؟ سألته.

اكتفى نبيل بالابتسام وهز رأسه، تواضعه الطبيعي يجعله واثقا من نفسه في أن يكون محط انتباه الجمهور.

سكت عن الكلام برهة أطول، لكي أمنحه فرصة كافية للاعتراض، لكنه حين ظل صامتا، عاودتُ كلامي عنه.

كان جد نبيل فلاحا نبيلا وشهما بحكم الوراثة، وجامعا للصقور باختياره، قلت. يروي نبيل كيف أن الرجل العجوز، في وقت من الأوقات، كان يحتفظ تحت سقفه بعدد كبير من الصقور يصل عددها إلى ثلاثين، وكان يسهر على العناية بها وتدريبها جميعا بمفرده. كان ذلك في الأيام التي كانت فيها ممتلكات الأسرة التي تشتهر بالنخيل مزدهرة في ظل المحصول السخي للطبيعة، ولم يكنْ مطلوبا منهم سوى القيام بمجهود قليل للعناية بها باستثناء الحضور لحصادها السنوي في شهر تشرين الثاني (أكتوبر) من كل عام. وبعدها، في أحد الأعوام، من دون سابق إنذار، ضربها مرض بيوض النخيل المرعب، وخلال الأشهر الاثني عشر اللاحقة، هلك عدد ضخم من الأشجار الباسقة

يصل عددها إلى ألفي شجرة. وفي الأعوام القليلة التالية، تكررت القصة ذاتها، وانسحب جد نبيل الهرم، الذي لم يكنْ قادرا على التعامل مع حدود الآفة الزراعية، إلى أعماق قصره وإلى ظلام جنون بدائي جعل يدمره رويدا رويدا. كما يروي نبيل القصة، مرتْ برهة طويلة من الزمن قبل أن يدرك بعض أفراد أسرته - الذين كانوا يطيعون الشيخ الجليل طاعة عمياء - أن الرجل العجوز لم يعدْ قادرا على التحكم بوظائفه الجسدية، وحتى في وقتها، بدا الإغراء بإنكار ما حدث له شديدا جدا بحيث تعذر مقاومته. وأما والد نبيل، الابن الوحيد والوريث الوحيد، فكان في مكان بعيد، يدرس الهندسة الكهربائية في الرباط، ولم تجرؤ النسوة المرعوبات في الأسرة على الارتياب في أساليب الرجل العجوز التي كانت غرابتها تزداد شيئا فشيئا. ولم يدركنْ حجم الكارثة التي حلّتْ بهن إلا حين سمعن ثلاثين طلقة مسدس في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، وغامرن بالخروج من مسكنهن، ليجدن جثث الصقور لا تزال دافئة، الصقور المحبوبة الخاصة بالعجوز في عقده التاسع، كل واحد منها أُطلقتْ عليه بصورة بارعة رصاصة واحدة في الرأس بحيث كان الدليل الوحيد على الموت العنيف هو قطرة صغيرة أو قطرتان من الدم على المنقارين. لكن وقتذاك كان الأوان قد فات. كان الرجل العجوز قد أسرج حصانه المفضل، وهو حصان عربي فاحم السواد، هجين ذو عرف وذيل مسترسلين، وامتطاه متجها صوب (إيرفود) القريبة للمشاركة في الموسم الذي يتوّج مهرجان التمور الذي يستمر ثلاثة أيام هناك. وفي وقت الظهر تحديدا، حينما كانت الشمس في ذروتها، كان قد شارك مع تشكيلة من زملائه رؤساء

العشائر في الفانتازيا، كدأبه في كل عام، بمصاحبة قرع الطبول والتصفيق، وفي خاتمة الأداء، عندما أطلق الفرسان المدججون بالسلاح النار من بنادق (الموكالها)[37] الخاصة بهم، وهي بنادقهم المثمنة، ذات المواسير الطويلة، والصفائح الفضية، كان قد انقلب من حصانه وهوى عموديا على الأرض وفارق الحياة.

وخلال تنظيف البندقية اللعينة عينها فقد نبيل بصره، لكن اعتزازه بأسلافه بلغ حدا بحيث إن البندقية لا تزال تزين رف موقد مسكنه الآجري المتواضع في الصحراء.

لنعد إلى قصتنا، ونقول إن والد نبيل المواكب لكل ما هو حديث ومعاصر رفض أي صلة له بإرثه المأساوي والمشكوك فيه. وخلال الفترة الوجيزة التي قضاها في منزل أبيه تصرف بقطع نخيل أراضي البساتين المتبقية وباعها بالتجزئة بحسب قيمة كل جزء منها، ومن ثم رجع إلى الرباط ليواصل مسيرته المهنية كمدير في شركة كهربائية خاصة بالحكومة. في هذه الوظيفة، كان والد نبيل مسؤولا عن مد الكابلات الكهربائية على امتداد ممري (تيزي نتيست) و(تيزي نتشكا) عبر جبال الأطلس العليا. وفي قمة مسيرته المهنية، حين كاد يصل إلى مرتبة الوزير، توفي فجأة في منزله وهو في سن الأربعين من جراء صدمة كهربائية عَرَضية بينما كان يصنع لابنه لعبة مؤلفة من عربات السكة الحديد.

وطبقا لما قاله نبيل، فإن عودة أبيه المتهورة إلى الرباط وإدارة ظهره المتكررة لإرثه، لا يمكن تفسيرهما إلا بكونه يرفض التعامل

(37) الموكالها: بنادق ذات مواسير طويلة وصفائح فضية تعمل بصورة معقدة تعود للقرنين السادس عشر والسابع عشر، كان يثمنها رجال القبائل البربرية ويستخدمونها في المناسبات الشعائرية من مثل الفانتازيات - هامش المؤلف.

مـع الظروف القاسـية لموت جـده. لكن ذلك مجـرد تخمين، كما اعتـرف نبيل نفسـه بذلـك، وهو أول المعترفـين، ولعله كان يفعل ذلك في محاولة منه لأن يتصالح مع ما جرى، أكثر من أي شيء آخـر. وفي غضون ذلك، يتعايش نبيل مـع العواقب المترتبة على فقدانـه بصره بطريقة التحرر مـن الانفعالات، وهي قضية تنال إعجابنا الشـديد، نحـن الذين نعرفه، ونحن سـعداء بأن نرحب بـه فـي مراكش مرة واحدة سـنويا حين يغادر مـلاذه الصحراوي ويغامر بالدخول في العالم الخارجي.

المتاهة

خلال الفتـرة التي كنتُ أروي فيها قصتي، منذ ساعات المساء المبكـرة، كان نبيـل يصغـي إلـيّ ووجهه مخفيّ تحـت الظل الذي شـكّلته قلنسـوة جلابتـه. والآن، بدعـوة منـي، تقدّم ماشـيا إلى الأمـام ببسـمة وجلة، مـع أنه لا يزال يحني رأسـه بتواضع تحت مثلـث القماش البني المحيك بحيث لم يكنْ باسـتطاعتي الجزم مـا إذا كان يخفـي عاطفتـه أم أنـه كان يؤكدها بتلـك الطريقة. لكننـي بينما كنت أتأمله، كان هو يقف باسـتقامة، خداه مورّدان قليلا، عيناه فاقدتا البصر مستغرقتان في التفكير.

شـكرا جزيلا لك، عزيزي حسـن، قال نبيـل بصوته الواضح، المعسـول. إنني أسلّم ببعض الأشـياء التي وردتْ في تلك المقدمة وقـد نلـتُ مديحا فـي البقية. مـا السـلوكيات التـي يتحلى بها الأميـر، الحاجـة الملحـة لإعطائه صفـات مثالية هـي تلك التي يتحلـى بهـا صديـق، أو ربما، كما فـي هذه الحالـة، الصديق هو أمير في إخلاصه، لكنه أيضا راوي قصص.

شـق طريقه ببطء عبر حلقة المشاهدين وأقبل ليقف إلى جـواري، بينمـا ينُطـلـق من عباءتـه عبير الصحـراء المغبر. شـعرتُ بفـورة عاطـفيـة، وكذلك أيضـا بفورة مـن الحرص، بينمـا كنـتُ أتفحـص مشـيته المنتـصبـة. وأسـلوبه في محو ذاته الذي أصبح طبيعة ثانية له منذ حادثته المروّعة، كلّمني بصوت خفيض.

حسن، أي الأمكنة التي نواجهها الآن؟

إنك تنظر إلى الأسواق، وجامع (الكتبية) وراءك، أجبتُ على سؤاله.

(الكتبية)، كرر نبيل كلامي، وابتسم. أما تزال مئذنة (الكتبية) ترتفع كضربة فرشاة ذهبية عبر الهواء، بكراتها النحاسية الكبيرة الثلاث التي تتوّج قمتها؟

فعلا، يا صديقي، لا تزال كما كانت عليه.

ابتسم مجددا. جيد، نحن إذن في مواجهة مطعم (الأرغانة)، حيـث اعتـدت العمل فيه. فـي عتبته، رأيـتُ ذات مرة ظل حصان يمتطيه فارس يرتدي ثيابا من فولاذ.

وبينمـا كان يلتفـت إلـى جمهـوري، خاطبهـم، وعلـى وجهه النحيل يلوح تعبير فيه شيء من السخرية.

كمـا أخبركـم حسـن، إنني أحضـر إلى مراكش مـرة واحدة سـنويا وأحدد زياراتي بحيث تحدث فـي الليلة التي يتحدثون فيها عن واقعة الاختفاء. لقد سحرتني باستمرار عواقب ذلك الاختفـاء وأود أن أشـبع رغباتي من خلال اختلاس السـمع لما يرويه حسن عنه، وهو شيء يتغيّر بصورة رائعة وغير محسوسة فـي كل مـرة طالما هو يسـتقصي اتجاهات جديدة ويستكشـف

بدائل جديدة. إنه تقريبا أشبه بلعبة نمارسها، أنا وهو فقط نعرف اللاعبين المنخرطين فيها والرهانات عليها. إن ما يهمنا فيها هو استكشاف الذكرى أو، لنقل، بصورة أدق، تقريبها. نطرح الأسئلة أحدنا على الآخر، وعندما نفعل ذلك، نتحدى أنفسنا لكي نبني من جديد وبصورة متخيلة ما يحتمل أنه حدث في تلك الليلة، والذي نال اهتماما رهيبا منا نحن الاثنان. لقد سمّوا افتتاني انهماكا فكريا، إن شئتم، لرجل أعمى، لكن سرد القصة هذا شيءٌ أتطلع إليه بأمل ولهفة طوال أيام السنة بحدس كبير.

نبيل، هل هو انهماك فكري حصرا؟ قاطعته.

حسنا، نعم، بالطبع، أجاب نبيل.

وبعدها كفّ عن الكلام هنيهة وفكّر أكثر قليلا، قبل أن يؤهل نفسه للرد. لا، قال، لعلك على صواب، إنه ليس فكريا خالصا. إنني أتعجب ففي في كل مرة أستمع فيها أنا نفسي إلى هذه القصة، أتأثر وجدانيا من جديد. إنها تتحدّث إليّ وتذكّرني بأن حياتي لم تنته بعدِ، وهذا، بحد ذاته، لا بد أن يكون نوعا من الأعاجيب.

بدأ الجو يصبح باردا، وتوقف نبيل عن الكلام برهة وعدّل عباءته المصنوعة من جلد الخروف حول كتفيه. كانت قلنسوته قد انحسرتْ عن رأسه وانزلقتْ إلى الوراء. أضاء القمر عينيه العمياوين. بينما كان واقفا هناك، ورأسه مرفوع، كان لديّ إحساس بأن باستطاعته رؤية السماء. وهذا الإحساس حفزني على أن أدنو منه، وأشبك ذراعي بذراعه، وأقف معه كتفا بكتف ناظرا إلى النجوم.

بعـد انقضـاء بضع دقائق، خفّض رأســه وتحـدّث إليّ بنبرته الباريتونية[38] الناعمة.

حســن، لماذا، في اعتقادك، جاء هذان الغريبان إلى هنا؟ لماذا جاءا إلى المغرب، إلى مراكش، إلى ساحة جامع الفناء؟ هل كانا ينشدان النسيان؟ لا بد أنهما وبشكل مؤكد كانا يمتلكان عنصرا معيّنـا ويبغيـان نسـيانه. لكن ما هذا الشـيء الـذي كانا يريدان نسيانه؟

أغلب الظن كانا يريدان نسيان العالم الذي أقبلا منه؟ هكذا فكّـرتُ. الحداثـة؟ الغرب؟ هذه هي الأشـياء التي لن نعرفها، في اعتقادي، وهي أشياء لا أجوبة واضحة لها.

إننـي أتسـاءل، قـال نبيـل، وهـو يهـز رأسـه برفـق، لكننـي لا أستطيع الجزم ما إذا كان يهزه تعبيرا عن تأييده أم اعتراضه. كان يبدو راضيا بأن يحدد بنفسه ذلك الرد المحير.

مـاذا يحتمـل أن يكـون غيـر ذلـك؟ قلـت بإصـرار. الغربيـون يفقدون ثقتهم بقدرتهم على صياغة مستقبلهم، وهم يأتون شيئا فشيئا إلى هنا بالعشرات باحثين عن حلول للطريق المسدود الذي وجدوا أنفسـهم فيه. نحن نراه يوميا. إن عالمهم يحمل في ثناياه نقصه الروحاني الذي يشبه المرض. وهم غير قادرين على تطهيره لأنـه شـيء متوارث فـي القانون الـذي يحكمهم. كانوا قـد أبدلوا القيم الروحية بالنفاية المادية، الأمر الذي أدى إلى سـيادة العدم. إن عالمهـم ليـس عالـم الإيمان، ولا عالم الشـك. إنـه عالم الولاء السيئ، عالم العقائد الراسخة في غياب القناعات الأصيلة.

(38) الباريتـون: الجهير الأول، وهو صوت رجالي أعلى من الجهير وأدنى من الصادح - هامش المترجم.

إنني أسمع ما تقوله، يا حسن، وأعتقد أنه ينطوي على قدر من الحقيقة، لكنني لا أظن أن هذه هي أزمتهم الخاصة. أعتقد أن أزمتهم مختلفة عن ذلك إلى حد ما.

ما هذه الأزمة، إذن، في رأيك؟

التفت إلى ناحيتي وجعل يمسّد شاربه الشبيه بفرشاة الأسنان، وقال لي: على غرارك، فكّرت طويلا وبجدية في هذا الموضوع، وأنا أخمن أن الجواب، إن كان ثمة جواب، يكمن في غموض تأثير ساحة الجامع عليهما. إنني مقتنع أنه بشكل من الأشكال، خلال الزمن الذي أمضياه في الساحة وفي ما حولها، خلال مدة تفاعلاتهما الكثيرة، كانا قد عاشا تنويرا بطيئا إنما أصيلا وعميقا. لقد احتاجا إلى بعض الوقت لكي يتفاهما معه، لكنهما حين فعلا ذلك، كان تأثيره عليهما قد بلغ حدا بحيث إنه غيّر طبيعة حياتيهما ومسارهما. أعتقد أنني شهدتُ شيئا من هذا التأثير - على أنني لم أعرفْ ذلك في حينها - حينما كانا في (الأرغانة). وقد تسألني: ما هذا التأثير؟ لأقول ببساطة، إنني أعتقد أنه شيء يقع في خطوط الحرية، إقامة علاقات طيبة مع التفاوت الذي لا حد له بين واقع حياتيهما وعمق الكون. إنه يكمن في إدراكهما أن ليس ثمة يقين في الحياة بمعزل عن اللا أهمية المطلقة لما هو معروف، مقارنة بعظمة المجهول، وهو مع ذلك الشيء الوحيد الذي يهم. في رأيي، هذه هي الحقيقة الأجدر بشكل لا نهائي مقارنة بأي واقع حقيقي يتعلق بحياتيهما.

ماذا تسمي هذا الواقع؟

إنني أسميه القدر؛ سمّاه الآخرون المصير. إنها اللحظة التي نكتشف فيها من جديد الحكمة القائلة بأن الحياة محكومة

بكل الأشـياء المجهولة والتي لا يمكننا معرفتها. الإنسـان (جزء من كل)، مرن وغير محسـوس بصورة لا نهائية، والجزء لا يُمكنه فهـم أو تنظيـم الـكل. إن الخطأ الجسـيم الذي نرتكبـه هو أننا نفتـش عـن الحقيقة فـي الأحـداث الوقتيـة، لأن الزمن سـريع الزوال ولا يمكن اسـتعادته. وكلما اسـتجوبت الذاكرة أكثر، وهي ليـس أكثر من بحث عـن الحقيقة في زمن معين، ازداد اعتمادك علـى المصادفـة. هل فهمـت الآن لماذا أعلّق أهميـة أقل منك على المعادلات الخاصة لحياتيهما الفرديتين مقارنة بالحركة الكبرى التي أخذتهما لكي يلاقيا مصيرهما؟

أعتقـد أنني فهمت، أجبته، وطمأنته بأن ذلك جرى متزامنا مع حضوري. بدا راضيا، لكنه بدا متعبا أيضا.

بالمناسـبة، حسـن، قال لي بصوت منخفـض، أي ناحية التي أواجهها الآن؟ لقد ضللتُ سبيلي.

إنك تنظر إلى جامع (الكتبية)، أجبته.

رائـع، قال نبيل، وابتسـم. منـذ بداية إصابتـي بالعمى، كنتُ أتصفح الكتب في أكشاك الكتب الكائنة خارج جدران الجامع.

تفرستُ فيه.

نبيـل، سـوق المخطوطات لم يعـدْ موجودا قبـل مجيئنا إلى العالم بزمن طويل، قلتُ له موضحا.

أوه، أعـرف ذلـك، رد علـيّ بهدوء. هذا الأمـر يجعل تصفحي للكتب ذا قيمة أكبر. كما تعرف، إنها واحدة من الحسنات الفريدة لحالتـي بحيـث يمكنني العيش على حافـة الصحراء، ومع ذلك لا أزال أقضـي جـل وقتي هنا، في محيط سـاحة الجامع. وعلى أي حـال، مـاذا يكون هذا الموضع عدا كونـه مكتبة ضخمة، حيث

يكون كل فرد كالكتاب، إن شئت؟ إنني أتصفح هنا لكي أجمع مادة خاما لأفكاري، وحينما أعود إلى منزلي أقضي بقية أيام السنة أقرأ ما جمعته.

هل تقرؤني، سألته، وقد أثار فضولي.

أدار مقلتيه البيضاوين تماما إلى ناحيتي.

طوال الوقت، أجاب نبيل، أرى قنديل جسدك، أرى قناديل كثيرة أخرى في الظلام. أرى أشباح الموتى تستعرض نفسها في أي عدد من التفاصيل التي يتم سردها. ولذلك، وبصورة متزايدة، أنا أؤمن بأن ما يهم ليس الواقع الذي تراه بل ذلك الشيء الآخر.

هل تخشى ما تراه؟

لماذا يتعيّن عليّ أن أخاف؟ الخوف لحظة ضائعة من العزلة. فضلا عن ذلك، ينبع الخوف من الخشية الجامحة من الموت، وهذه الخشية ومنذ أمد طويل لم تعدْ تحمل بالنسبة لي أي قدر من الرعب.

فكرتُ طويلا في كلماته، وخلال هذه المدة الفاصلة، فكرت طويلا أيضا في موضوع كان يشغل بالي منذ زمن طويل. ولكي أفصح عنه، سألته: لماذا تعزل نفسك في الصحراء، يا نبيل؟ ما الشياطين التي أبعدتك إلى هناك؟

ابتسم لي بسمة خجولة.

ألا يبدو الأمر واضحا؟ ليس ثمة شياطين. بالأحرى، لقد عثرتُ أخيرا على مكان لي.

وهل عثرتَ على رفيقة أيضا؟

أمال رأسه تعبيرا عن موافقته. نعم، عثرتُ عليها كذلك، رد عليّ.

أميداز[39]

فـي هـذه الآونة، حينما سـادتْ حالـة من الارتباك الشـديد، تحدّث الحداد الذي لا يعرف التعب.

مـا زلتُ لا أفهم لماذا رجعا إلى السـاحة تلـك الليلة. هل كانا يجريان مصيرهما؟

تأملـه نبيـل ببسـمة واهنـة ولا مبالية. ومن ثـم أعرض عنه ونظر إلى ناحية جامع (الكتبية).

ربما، أجاب.

مرّ ظل على وجهه.

عقب ذلك خيّم سـكون طويل الأمـد. وواصل نبيل التحديق صوب الجامع. وفي الختام، سألته عن الشيء الذي يفكر فيه.

كنتُ أفكر أن الشـيء المهم جدا في الحياة هو موت ذو معنى؛ في النهاية ليس ثمة أهمية لأي شيء آخر.

كيف؟ سألته؟

فكّر في الأمر لحظة.

تأمـل جـدي، علـى سـبيل المثـال، أجابنـي. بـكل المقاييـس، عـاش جدي حيـاة كانت هزيلة فـي إنجازاتها، ومع ذلـك، برأيي، فبالطريقـة التـي مات بها كان قد فعل شـيئا أكثر من التضحية بنفسه.

وبعدها أضاف قائلا بصوت مثقل بالحزن: ربما تذكرتُ أيضا منزلي العتيق في (وادي نهر الزيز). كنتُ أفكر في مشاهدة رياح الصحراء وهي تغضن واحات النخيل. غادرتُ منزلي عندما كنتُ في سن الثامنة. كان موضعا يغمره الحب والفرح.

(39) الأميداز: الشاعر، أو رئيس مجموعة (الإمديازين) – هامش المؤلف.

استمر يحدّق في الجامع.

ماذا ترى هناك، يا صاحبي؟

إنني أرى أيام الحَر. أرى سنابل الحبوب الصفر في ظلال أشجار النخيل. أطول الأشجار تنتصب في ارتفاع يزيد على ثلاثين مترا. أما منطقة (تافيلالت) شديدة الخصوبة. فهم يسمونها (وادي رافدين شمال أفريقيا)، لسبب وجيه. إنها تطفو أشبه بحديقة مسحورة فوق وجه الصحراء.

أود الذهاب إلى هناك معك في يوم ما، قلتُ له باسما. أود رؤية منزلك القديم والتحدّث عن جدك.

لم يبقَ منه شيء، يا حسن. انهار سقف المنزل قبل سنتين خلتا. العوارض الخشبية تهرأتْ بين جدران البيت الآجرية، التي كانت تلتهمها الرياح ليل نهار. وكانت مصاريع النوافذ المثلثة تتدلى من مفاصلها المخلوعة؛ وكذا عتبات النوافذ المطلية بطلاء نيلي باتت بلون الغبار. وكانت هناك فجوة في السقف دخل الرمل من خلالها. والنافورة الكائنة في الفناء امتلأتْ بالوحل والقذارة واختنقتْ بالكروم. إنه منزل آيل للسقوط. منزل هامد، مجرد من الحياة. وعليّ يقع اللوم. كان يُفترض بي أن أكرّس حياتي لإنقاذ ميراثي، إنما، عوضا عن ذلك، حذوت حذو أبي، وهجرتُ تافيلالت. أمضيتُ معظم أوقاتي في مكان بعيد جدا، في مراكش، بينما انهار منزل أجدادي وأصبح آيلا للسقوط نتيجة للإهمال.

لا يقع اللوم على أحد، قلتُ بإخلاص. إن لك حياتك الخاصة لتعيشها؛ إنكَ تلاحق أحلامك الخاصة.

انحنى نبيل إلى الأمام وأضاءت النار وجهه.

إنـكَ صديـق مخلص، قـال لي، ولكـن حتى أنـت لا تقدر أن تحلني من تبعة العبء الثقيل للماضي. هذه هي مسـائل تتعلق بالقضاء والقدر. إنها الطريقة السائدة في العالم. في حين، هذا العمـى نعمـة إلهية. باسـتطاعتي أن أكون هنا، وهنـاك، وفي كل مكان في الوقت عينه.

قوّم جذعه، وراح يحدّق في الفضاء من دون أن يرى شيئا.

كانـت طفولتـي هبة. إنني أتذكّرهـا الآن وأقر بالجميل. ربما لهذا السـبب أود أن أتخيّل نفسـي أزور ذلك المكان. هناك الكثير من التفاصيل لم يسبقْ لي ملاحظتها من قبل. أقوم بمسـيرات راجلـة في الصباح الباكـر مع الريحِ بوصفهـا رفيقتي. كنا ننزل إلى ضفاف (نهر الزيز) التي كانت تُصان دوما باعتبارها مروجا. وبعد طلوع الشـمس تبـدأ التربة الرطبة بالتبخر. نتمشـى عبر حقول العشـب الطويل التي تحيط منزلنا. كانت أشجار الرمان والتـين تتخلل بسـاتين البرتقال. البغال تحـرك ذيولها بارتجاج عندما تحط عليها أسـراب الذباب الأسـود. قوافل النمل تتسلق جـذوع أشـجار (الداتـورة) البنيـة الطويلة. قطرات مـاء صغيرة ترطـب الجـدران الطينية الحمراء. نرهف السـمع إلى الأصداء التي ترددها ضفادع الفجر.

تنهد. كانت عيناه ترمشان كعيني شخص يحدّق في الشمس.

خـلال الليـل، تابـع كلامـه، تكون الظـلال سـاكنة وكثيفة، والنهار المشـتعل ينشـد راحته علـى حافة النهـر. رائحة النهر والتربـة النديـة ترهـق الظلام. الهـواء بارد وخفيـف. النجوم تملأ صفحة السماء. أطول أشجار النخيل تبدو أشبه بضربات سوداء في الليل.

ابتسم نبيل، وجعل يمرر لسانه على فمه وكأنه يتذوّق الهواء المشبع بالرطوبة، لكن شفتيه، كما لاحظتُ، كانتا متيبستين ومتشققتين.

هذه بعض الأشياء التي لم ألاحظها من قبل، قال، أود الإسهاب في ذكر التفاصيل. كانت أبسط الأشياء تبعث في النفس الفرح والغبطة.

وكل هذا استقيته من خلال نظرك إلى الجامع؟

ثمة حقيقة كامنة في الصلاة، وثمة معنى في التصوّف، قال نبيل. وهما يتخذان مظهر (الطبيعة)؛ النهر، الجبل، المحيط، والنسيم؛ هذا ما يخبرنا به الشعراء العظام.

إنني أؤيدك في ما يتعلّق بذلك، أجبته.

حسنا، لأنني كنتُ أتساءل في كثير من الأحيان ما إذا كانت هذه هي الطريقة التي تحلم فيها بقصصك، بالطريقة نفسها التي أحلم فيها بالأحجار على امتداد الحدود الخارجية المرتعشة للعالم.

نعم، إنني أحلم بهذه الطريقة، أجبته.

فهمت. أليستْ هي طريقة جميلة إذن؟ إنها فقط كما هي عليه، من أجل إدخال البهجة إلى نفوسنا.

جثا على ركبتيه أمام النار.

هل رويتُ لك حكاية النسر الذي اقتحم غرفتي حينما كنت طفلا؟ كان طائرا هائل الحجم. كان عرض جناحيه يزيد على عرض ذراعي جدي. كان النسر يطارد حمامة أفلتتْ منه في آخر لحظة. لكن النسر قد جثم على أرض الحجرة من دون أن يتحرك قيد أنملة. كانت عيناه وحدهما اللتين تتحركان. كانتا تعكسان جميع ألوان العالم.

مــد ذراعيــه وأبقاهما منشــورتين إلــى الخارج. وبعدها شــرع يحركهما ببطء. أصبح نبيل هو النسر. صرنا نراقبه وهو يترنح علــى قدميــه ويمط مخالبه. بهدوء، بصورة متعمدة، شــرع يثني جناحيه، ومن ثم انطلق في الهواء وطار خارج النافذة.

رفع يده إلى الأعلى.

اسمعْ! قال. الريح تتكلّم.

نبيل، ماذا تقول الريح؟

بلطف، حذرني، تكلّم بلطف! الريح تصنع فجوة في السماء، ومــن خلال الفجوة تتدفق الأعوام عائــدة إلى الوراء. الآن الأيام ليســتْ مضغوطة معا بل مكونة من صور متفرقة كالغيوم، وبين هذه الصور لا بد أن تمر الريح لكي تغدو ســيف الزمن الصقيل، المعقوف، وحيد الحد.

شاهدُ الشعر

أشــارت الســاعة إلــى منتصــف الليــل حين توقــف الزمن في ساحة الجامع.

في القرن الســادس عشــر، يســرد لنــا الراوي حســن المنصور ســير الأحداث، في كتابه المؤثر بصــورة مذهلة والمعنون «حكايات صريحة من ســاحة الجامع»، ويصف منتصف الليل في الساحة قائــلا: كانــت الظــلال تتمــدد كالرماح علــى طول الســاحة. كان الهواء يعبق برائحة الصقيع؛ نسيم خفيف يشق طريقه نازلا من الجبال. كانت الســماء صافية، والقمر ســاطعا. الغيوم انقشعتْ لتُكشــف ملايين النجــوم. كان (كلب الصيد) يتجــول هناك، مع (الكلــب الكبيــر)، (التوءمــين)، (الســرطان)، و(الأســد). (درب

اللبانة) تسرب عبر أفئدتهم، دفأتْ جلودهم وكهوف أعضائها الداخلية. دماؤهم تجري بالتزامن مع موسيقى الساحة. كانت السماء كلها تهتز مع أصداء قرع الطبول. أحسسنا بحيوية نابضة تفيض من السماء وتهبط إلى الأرض. بدأت الساحة تلف وتدور حولنا. انحرفتْ ومالتْ إلى الأعلى صوب النجوم. انزلقتْ إلى الوراء سطوح المنازل في المدينة. ارتفعت الساحة عاليا فوق الشعاب الجبلية السوداء. اجتازتْ (زحل)، و(المشتري)، والكواكب السيارة البعيدة جدا عن الشمس. سبع نجوم ثبتتها في موضعها المحدد في السماء. وبعدها، وبصورة مفاجئة، من دون سابق إنذار، انهارتْ في فضاء حبة رمل.

التسلسل الزمني لحادثة اختفاء

إنه شيء لافت أن يتعيّن عليك تقديم حسن المنصور، وهو صوت لاحظناه بتأمل قبل الكشف عن مالكه، لكونه رجلا نحيلا، داكن البشرة، وذا لحية خفيفة.

وما هو لافت أكثر، أضاف بعد توقف قصير، هو أنه ينبغي لي أن أكون حاضرا في هذا المكان غير المرغوب فيه، في زيارة ضالة إلى مدينتك، عندما تشير إشارتك الضمنية إلى عمله.

أنا فاروق، قال. أنا باحث في تاريخ أمتنا ومرتبط بـ (المكتبة الوطنية) في الرباط، وأنا أتساءل ما إذا كنتُ الفرد الوحيد هنا الذي يقرأ أيضا كتاب المنصور المعنون «التسلسل الزمني لحادثة اختفاء»، والذي لم يكنْ، بالطبع، جزءا من كتابه ذائع الصيت «حكايات صريحة من ساحة الجامع»، لكنه على الرغم من ذلك لا بد أن يكون موضع اهتمام خاص من جانب هذا الجمهور

علمـا أنـه يتعلق بحالة شـبيهة بصورة غريبـة بالحالة التي تتم مناقشتها هذه الليلة، باستثناء أنها جرتْ قبل نحو أربعمئة عام مضى، والرجل المتورط في ذلك المثال نبيل تركي، بينما المرأة هي أميرة إيطالية قاصر من (سـاليرنو) كانت قد فرَّتْ مع عشـيقها ووجدتْ في بلاط مراكش ملاذا لها، هربا من غضب أقاربها ومن اسـتياء بـلاط حكومة الدولـة العثمانية التـي كان ينتمي إليها حبيبها.

إنني أُعيد هذه القصة إلى الأذهان، قال باعتدال، لأنني أجد أن التشابه بين حالتي الاختفاء كبير جدا نوعا ما.

مـا لا تعرفـه، أغلب الظن، أجبته، والـذي ربما لم تتمكنْ من حدسه، هو أن المنصور كان جدي. في حقيقة الأمر، ولأن أبي كان يصدّق أنه ينتمي إلينا من جهة أسرة جدتي، سمّاني على اسمه، لكننـي غيـر متيقـن من أن هـذا الادعاء سـوف يصمـد طويلا. السـبب الأول، أن أسلافه البربر مجهولون. والسبب الثاني، يبدو أن هنـاك سـيرة ذاتية معاصـرة في (مكتبة القرويـين) في فاس، والتـي تبرهن بصورة نهائية أنه كان مهاجرا أندلسـيا وُلد ونشـأ فـي قرطبة قبل أن يشـد الرحـال إلى البلاط المؤيد للاسـتعمار في مراكش. ولكي نحسـم المسـألة ونقنع أبي، في أحد هذه الأيام يتعـيّن عليّ أن أتذكّر فأسـأل أخي أحمد ما إذا بوسـعه الحصول على موافقة السلطات بغرض فحص المخطوطة.

وعلى كل حال، واصلتُ حديثي، إنني أعرف التسلسل الزمني للحادثـة التي تشـير إليها، وأنـا، في الحقيقة، مندهش بسـرور نوعـا ما مـن معرفتك بها، طالمـا أنني صدّقتُ أن نسـخة واحدة فقـط كانـت موجـودة في مخطوطـات (غلاوي باشـا) المقيم في

مراكش، ومنها حصل أحد أصدقاء أبي على القصة، لكن تلك النسخة اختفتْ لاحقا ومن المفترض أنها فُقدتْ بلا رجعة.

لعلها اختفتْ من ممتلكات (غلاوي باشا)، أجاب الباحث في (المكتبة الوطنية) وهو يبتسم، لكنها وجدتْ طريقها إلى الرباط قبل بضع سنوات خلتْ، وفي ذلك المكان أمستْ ضمن المجموعة الخاضعة للحفظ والصون حيث لا تزال موجودة هناك حاليا.

كيف انتهت تلك الحادثة التاريخية؟ هتف أحد الأشخاص. هل عثروا على العاشقين؟

للأسف، كلا، رد الباحث، ولا حتى، في النهاية، المنصور نفسه.

ماذا تعني؟ سألته وقد أُخذتُ على حين غرة.

نهض أمين المكتبة على قدميه ومشى خارج الحشد.

هل يمكنني...؟ سألني.

نعم، بالطبع، أجبته، حيث كنتُ مسحورا شأني شأن أي فرد آخر في الحلقة.

جرى الأمر هكذا، قال لي. من خلال ما تمكنتُ من التثبت منه، كتاب المنصور المعنون «التسلسل الزمني لحادثة اختفاء» لم يستندْ فقط على الحقيقة، بل ضل الطريق بصورة غير مريحة وبات قريبا من تورط فرد من أفراد البلاط المؤيد للاستعمار في القصة الغرامية. ونتيجة لذلك، أصبح منصور - إذا جاز التعبير - رجلا خطيرا إذا ما ظل قريبا من المكان. وحينما قرر السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور عقب ذلك إرسال قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل لشن غارة على حصون (سونغهاي) في غاو، تمبكتو، وديجينيه في الجانب البعيد من الصحراء الكبرى، كان أجدادك طوعا أو كرها منتمين للقوة الغازية على الرغم

مـن كونهـم لا يملكـون تجربة فعليـة مهما كان نوعهـا. وكما هو معروف، دمرت الغارات إمبراطورية (سـونغهاي)، وأثرت الخزينة المغربيـة بإفـراط، وأدتْ إلى أن يتخذ السـلطان لقـب «الذهبي» أمـا ما يتصل بالراوي المنصور فلم يُسـمع المزيد عنه. يُعتقد أنه هلـك في مكان مـا خلال رحلته في الرمال التي لا ترحم، مع أن هنـاك خبـرا ذُكر مرة واحدة فـي مصدر مختلف يفيد بأن سُـمّا دُس في طعامه أو شرابه ودفنوا جثمانه في قبر لا علامة له. هذا المصدر ليس هو السـيرة الذاتية الرسمية في (مكتبة القرويين)، بالمناسـبة، التـي كنتُ قد رأيتها، والتـي لا تحتوي على معلومات عن أعوامه الأخيرة. وأيضا لم يعثروا على عظامه أبدا.

ليستْ لدي أي فكرة! صحت. هي ذي قصة في داخل قصة! أو بالأحـرى، قصـة فـي داخـل قصـة فـي داخل قصـة، وفرة حقيقيـة مـن القصص الخيالية، إن صح التعبير، أشـار الباحث بحكمة.

لم أسـتطعْ متابعة تلميحه المدروس، لكنني كنت راضيا لكي أومئ برأسي موافقا بينما كنتُ لا أزال مشدوها من جراء الوجهة التي اتخذتها الحكاية.

إنه شـيء استثنائي يمكن أن يصادفه المرء خلال بحثه، أنهى كلامه باسما.

وأنا أحسـب أنه شـيء مدهش أن يتعيّن عليك أن تتذكر هذه الحقائق بهذا الوضوح، قلتُ بتعجب.

إنها مجازفة مهنية، رد عليّ، وقهقه، وقد بدا مسـرورا بشـكل جلي.

التفت إلى نبيل، الذي كان يصغي إليه بانتباه.

ومـاذا عـن الغريبـين اللذين يشـكلان أسـاس قصتنا؟ سـأل الباحـث. فـي آخـر عهدنـا بهما، كانـا فـي (الأرغانـة)، يحدقان وهما يشـبكان ذراعيهما في عتمة السـاحة عبر النوافذ المضببة لمطعمك.

الوردة السوداء

كنتُ أريدهما أن يفرا هاربين، أجاب نبيل بصوت حالم نسبيا، لكـن، للأسـف، لم يتحققْ ذلك. كنتُ أعـرف أن زمنهما قد حان. نهضـا ووضـع الـزوج بعض عمـلات النقـود بجانب إبريـق الماء. راقبتهما وهما يغادران منضدتهما ويترددان قبل أن يسيرا خارج أبواب (الأرغانة).

تعالي، سـمعته يقول لها فيما هو يقبض على يدها. لقد آن الأوان.

تبعته المرأة.

تقدمـا بـرباطـة جـأش وجاذبية كبيرتين. مشـت المرأة ببطء، رأسـها مائل على كتفه. ألقى نظرات فاحصة على السـاحة. بدا ظلاهما طويلين.

أريدك أن تعرف، قالت بلطف، أنني سأظل مغرمة بك طوال مـا بقي مـن حياتي بقدر ما أنـا مغرمة بك الآن. أنـا أحبك. أنا أحبك.

أودعتْ كل رقتها ولطفها في صوتها.

لم يسبقْ لي أن كنتُ سعيدة مثل الآن، قالت له.

إنه أشـبه بالحلم، قال مؤيدا. حبيبتي، باسـتطاعتي أن أكون هنا معك كل مساء من دون أن يتسلل إليّ الملل.

تطلع إليها وراح يتنفس بصورة أسرع.

هل تتكلمين بصراحة؟ سألها.

نعم.

بدأ ظلاهما ينفصلان عن الظلام، ويقتربان منهما واحدا إثر الآخر.

أموسو

في هذه الآونة، تنحنحتُ ومشيتُ في وسط الحلقة. وبينما كنتُ أنظر إلى جمهوري، وقفتُ أمام النار. وقلت وأنا أنظر فوق رؤوسهم: جعلتُ عينيّ تطوفان في كافة أرجاء الساحة بحثا عنهما، وحين شاهدتهما يخرجان من (الأرغانة)، أمسكتُ بهما وأدخلتهما مجددا إلى حلقة موسيقيي (الرواي). كانا يبدوان مندهشين، ومطمئنين، وهما يجدان نفسيهما هناك.

توقفتُ عن الكلام هنيهة ردا على تنهدات الارتياح الصادرة من مستمعيّ.

ولكي أجعل القصة أفضل حالا، قلت، سأضعهما أحدهما جنب الآخر في الحلقة، ويداهما متشابكتان بقوة.

كنتُ أهمّ بمواصلة حديثي حين قاطعني صوت ما.

لكنهما قبل أن يصلا إلى هناك، يا حسن، قدّمت أنت لها باقة من الورود. لقد نسيتَ أن تذكر ذلك، أو لعلك لم تكنْ منتبها. لكنه شيء مهم من أجل دقة قصتك. وعلى كل حال، لا بد أن ذلك كان واحدا من لقاءاتهما الأخيرة في ساحة الجامع.

وهو يقول هذا الكلام، سار للأمام رجل هزيل يرتدي برنسا فضفاضا وراح يمثّل إيمائيا ذلك اللقاء الذي حصل منذ أمد

بعيد. كان ذلك الرجل هو مروان، المشعوذ، الذي كان مشهورا في الساحة بكونه ضليعا في ألاعيب الخداع وقادرا على جعل الكرة تقف بلا حراك في الهواء.

هكذا جرت الأمور، قال مروان. كانت تمشي هناك، وأنا واقف هنا. كنتُ أمشي عكس طريقهما حاملا ورودي.

دفع بطانيته إلى الوراء ومدّ يده مقلدا إيماءته.

هذه الباقة هدية لك، قلت لها بإنكليزيتي الشبيهة بإنكليزية تلميذ مدرسة. إنها تذكار لزيارتك إلى مدينتنا الجميلة، مراكش. مدينة الزهور.

لا أريدها، قالت، وهي متعجبة.

سيدتي، قطفت هذه الورود من أجلك، من (حدائق أغدال). إنها حديقة تعبق بروائح الشمس في الصباح، وتفوح بأريج الورود في المساء. خذيها، أرجوك. إنها تقدير لجمالك. لكوننا مسلمين، نعرف أن جمالا كهذا لا يوجد في الدنيا.

مَنْ أنت؟ سألني زوجها بحذر، وهو يحشر نفسه بيننا.

لا مبرر للقلق، أجبته. اسمي مروان. إنني مشعوذ أمارس ألاعيبي هنا. كنتُ أراقبكما أنتما الاثنان منذ ساعات المساء المبكرة. جمال زوجتك حرّك عواطفي، لذلك مضيتُ إلى (الأغدال)، وقطفتُ هذه الباقة الصغيرة. لغة الزهور لغة كونية. خذها، أرجوك. إنها شيء تافه. إنها لا شيء.

وهي كل شيء، قال الرجل، وأخذ الباقة من يدي وأعطاها إلى زوجته.

إنها جميلة بالفعل، قالت مؤيدة كلامي، وابتسمتْ.

إنها من أجل سعادتك، قلت لها.

ليس لديك أدنى فكرة عما يعنيه هذا لنا، أضافت قائلة، وهي تضغط وجهها على الزهور. شكرا جزيلا لك. لقد جلبت إلينا السعادة.

سعادتك هي سعادتي، قلت لها.

لقد غيّرتَ فكرتنا عن الساحة، قال زوجها بحرارة، وعلى هذا نحن نشكرك أيضا. كانت لدينا تجربة بغيضة في وقت سابق من هذا المساء. تركتْ طعما سيئا في الفم.

هل يمكنني الاعتذار نيابة عن مواطني بلدي؟ ثمة رجال أشرار كثيرون هنا. إنهم يسكنون في الشرانق، ومنقسمون على أنفسهم. هذا الأمر جعلهم يتصرفون بأساليب فاسدة ومنحرفة.

لقد منحتنا الأمل، قال الرجل، وما أثار دهشتي، نزع ساعة معصمه وناولني إياها. هذه الساعة هدية لك، قال لي، عوضا عن هدية الورود. يمكنك أن تفك لولب ظهرها وتُدخل صورة حبيبتك.

أعدتُ إليه الساعة بذعر.

لا، لا، سيدي! لا يمكنني أن آخذ ساعتك! إنها ثمينة جدا! وهذا كله مقابل عدد قليل من الورود المتواضعة!

لكنه أصر على منحي هديته، ودسها بقوة في كفي.

لم أعدْ بحاجة إليها، قال.

كيف يمكن هذا؟ ألم تعدْ تحتاج إلى معرفة الوقت؟

ضحك الرجل.

هل يمكنك أن تخبرنا ما اليوم؟ هل هو أمس، اليوم، أم غدا؟ أرأيت أنت لا تعرف ذلك. وماذا يهم؟

آه، أنت فيلسوف. إنك تذكرني بأبي الراحل، الذي كان حاجا، ليسكن الله روحه الجنة.

مستْ ذراعه.

علينا الذهاب، قالت، وابتسمتْ لي باعتذار. شكرا لك ثانية على الورود. سوف تكون محل اعتزازي.

إلى أين أنتِ متجهة، أيتها السيدة؟

نحن ذاهبان للإصغاء إلى موسيقيي (الرواي). كنا هناك في وقت سابق. إنهم مذهلون؛ إنهم ينبضون بالحيوية!

موسيقيو (الرواي) أشبه بالنار، قلت، وما من شيء يعادل أغنية جيدة تدفئ القلب. حسنا جدا، إن كانت تلك هي أمنيتك، فسأرافقك إلى هناك. ومن ثم سيذهب كل منا في حال سبيله. ربما سنلتقي غدا؟ يتعيّن عليكِ المجيء لكي تشاهديني وأنا أقوم بألاعيبي.

تلعثم مروان ودعك ذقنه وهو مستغرق في التفكير. تطلع إلى النار. وضع يده على قلبه ونظر إلينا.

هذه هي اللحظة التي تتخذ فيها الأشياء انعطافة غريبة، يا إخوتي، أدلى مروان بهذه الملاحظة. رافقتهما إلى الحلقة المحيطة بـ (الرواي). كانت الأموسو - الألحان الراقصة - قد بدأتْ توا. تفرقنا في الحال حينما شقا طريقهما نحو مقدمة الحلقة. ألقيتُ نظرة سريعة على ما حولي، إنما لم يكنْ هناك شخص واحد أعرفه، وكان هذا شيئا غير مألوف. كان هناك شيء مقلق فيما يتعلق بهذا الجمع من الغرباء، ولم يكنْ باستطاعتي معرفته. غير أن الموسيقى كانت تزداد حدة، كانت منوِّمة وأمسكتني من أذنيّ. قررتُ البقاء والاستماع برهة من الزمن.

نظـرتُ مــن جانب إلى آخر، صوب المكان الـذي يقف فيه رفيقاي السـابقان، غير أنهما كانا مسـتغرقين في الاستماع للموسيقى. كان الشـاب يطوق زوجته بذراعيـه بغية حمايتها، وكانت نظراته حذرة. وكان الدخان المتصاعد من النار المشتعلة قد أشعل الهواء وألقى غشاء أحمر ذهبيا، على وجهها. كانت المرأة تقف منتصبة القامة، وخفيفة؛ تبدو طرية العود، صغيرة السن.

كان موضـوع الأموسـو هـو الحـب الحقيقـي، الذي بحسـب طبيعتـه، محكـوم عليـه بالإخفـاق لأنه يولـد ميتـا. كان رئيس الفرقة يضع روحه في الأغنية، والصور التي أثارها كانت سوداوية وجميلة في آن واحد. أنشد أغنية عن حب متأجج وخالص، حب عميق كالشـمس ولا يمكننـا تصوره في الحيـاة الواقعية كوجود الشـلالات في الصحـراء. كنت أصغـي بينما كان يندب هشاشـة هـذه العاطفة الأكثر سـموا من بين العواطـف كلها، وبينما كنت أستمع إلى الأغاني فاضت عيناي بالدمع.

نظرتُ إلى الأجنبيين وكان من الجلي أنها كانت تتابع معنى الأغنية. كان وجهها يطفح بالحيوية والنشاط، وأصبحتْ تعابير وجهها رزينة، وكانت شـفتاها ترتعشـان بصورة لا إرادية. كان من الصعب ألا يميز المرء ألمها وأسـاها وأحسسـتُ أن قلبي يخرج من صـدري ويمضي إليها. وبغتة أمسـتْ سـاحة الجامع بـاردة وغير مغريـة، وارتعدتُ حين داهمني الهاجـس الذي كان قد اجتاحني في وقت سـابق. كنت أريد الوصول إليهما لكي أنصح الرجل بأن يأخذها بعيدا عن هذا المكان، لكنني كبحتُ رغبتي تلك.

أصبحـت الأغنيـة صامتة، وجعـل الريّس يعبّر عن اشـتياقه بنوتات موسيقية صافية، شبيهة بصوت الجرس. أحد الموسيقيين

مدَّ كرسيا نحو الفتاة، وقبلتْ بذلك، جلست عليه ولفّتْ ساقا على ساق، وشرعتْ تنظر إلى النار بقلب حزين. جثا زوجها بجوارها، وظل يركّز نظراته على وجهها. انخفض صوت الريّس وأمسى همسا. وعندما كانت الموسيقى في ذروتها، حيث كانت تتردد أصداء نوتات عود وحيد أشبه بصوت جرس في السكون، حينذاك فقط ظهرتْ شخصيات غامضة في حافة الحلقة. كانت أصواتهم خشنة، غليظة، عالية؛ اندمجتْ مع الأغنية، وعلى الفور غيّرت المزاج. كانوا يعتمرون قلنسوات، وجوههم ملفوفة بقماش أسود، وتساءلتْ في سري من أين أقبل هؤلاء الأشخاص. كان هناك نذير خطير وخبيث في حركاتهم، وفي اعتقادي أن الموسيقيين أحسوا بالخطر المحدق، لأنهم توقفوا عن العزف هنيهة، وتطلعوا إليهم بتردد وحيرة. ولكي يحافظ على الهدوء، بدأ رئيس الفرقة يقول شيئا ما عندما قاطعه همس ساخر من الخلف ورأيتُ شبحين يندفعان بقوة نحو الفتاة. نهض زوجها على الفور لكي يبعدهما عنها لكن شخصا من الخلف اعترض سبيله وجعله يقع ممددا على الأرض. وفي اللحظة التالية، انفصمتْ وحدة الحلقة وتحوّلتْ إلى هرج. تزاحم الموسيقيون بالمناكب بصورة لافتة، عازمين على إنقاذ آلاتهم الموسيقية. سمعتُ أصوات زعيق وصراخ. كان الضوء المنبعث من النار قد تضاءل وهو يمر على الوجوه. بدأ الناس يولون الأدبار هاربين. اندفعت صوب الفتاة لكن يدا نزلتْ على كتفي. حاولتُ المقاومة، كافحتُ مستخدما ذراعيّ، غير أن صفعة على رأسي جعلتني أفقد الوعي.

حين عدتُ إلى رشدي، كانت الأرض مكسوة برماد النار التي انطفأت. نوّرت الساحة حلقة من سيارات الشرطة ذات الأضواء

الوامضة، وكان هناك رجال الشرطة ببزاتهم الرسمية في كل حدب وصوب. وبجواري يرقد رجل فاقد الوعي، تعلو يديه وذراعيه الكدمات والخدوش. ترنحتُ على قدميّ وفي الحال طوقني ضباط الشرطة وراحوا يمطرونني بالأسئلة. لمحتُ الزوج وهو يتكئ على سيارة إسعاف، ثيابه ممزقة. كان هناك ممرض يتولى العناية به، لكنه كان ينشج كالمجنون. أدرتُ وجهي وأنا أشعر بالأسى وأجبتُ على أسئلة الضباط قدر استطاعتي. دونوا اسمي وعنواني حينما انتهوا وأخلوا سبيلي وحذروني قائلين إنهم سيعاودون الاتصال بي مجددا.

عندما رجعتُ إلى الساحة صباح اليوم التالي، كانت بعض أجزاء الساحة قد طوّقها رجال الشرطة. كانت بعض الأكشاك مفتوحة نهارا، لكن المزاج العام كان مكبوتا ومبهما. سرتُ إلى المكان الذي كان يعزف فيه (الرواي) ووجدتُ وردة واحدة مرمية على الأرض. كانت قد غدتْ سوداء، وبعض تويجاتها قد تفحمتْ. ورحت أسائل نفسي هل من المحتمل أن تكون تلك الوردة من باقتي. التقطتها، غير أنها كانت تفوح برائحة حريق ورميتها بعيدا وأنا أشعر باليأس والإحباط.

توقف مروان عن الكلام هنيهة، وقرفص أمام النار. ومن ثم ابتعد عنها ونظر إلينا واحدا واحدا. كانت نظراته تنم عن قلقه وانطوائه على نفسه.

هكذا أتذكر تلك الليلة الصعبة، إخوتي وأخواتي، قال بصوت خفيض. انكسر قلبي على منظر زوجها، الذي رأيته منذ ذلك الحين مرات كثيرة على مدى السنوات اللاحقة، بينما كان، أنا متأكد، ومثلما رآه كثير منكم، يطوف الساحة كالمعتوه،

مفتشا في كل وجه من الوجوه عن بقايا حبيبته. يقولون إنه بسبب فقدانه لها، هجر منزله وتخلى عن مصدر رزقه وهو يقيم حاليا في مكان ما في مراكش. يقولون إنه بات يكلّم نفسه وأصبح وجهه مليئا بالتقلصات اللاإرادية والتكشيرات. لكنني غير متأكد من صحة هذه الأقوال. كل ما أعرفه هو أنني لن أنسى وجهه في تلك الليلة. عسى ألا أشهد مثل ذلك الحزن ثانية. ذلك الحزن يكفي ليعكر هدوء بال المرء طوال عمر كامل.

هذه هي الحقيقة، قال مروان.

أبيرداغ

تلك ليستْ هي الحقيقة! إنها تشويه للحقيقة!

خرج رجل من حلقة المستمعين. كان طويل القامة ونحيلا، ذا وجنتين بارزتين وفي فمه طعم مُرّ. كان النصف الأسفل من وجهه ملفوفا بوشاح يحجب حنكه.

ليستْ تلك هي الطريقة التي أتذكر بها الأحداث التي جرت تلك الليلة، أعلن الرجل. كان صوته ذا نبرة غليظة كما لو أنه لا يتوقع منا إلا الشيء القليل.

أرنا وجهك، يا صاح. ليس من الأدب واللياقة أن تخفي ملامحك.

حلَّ وشاحه بحركة مفاجئة وشحبتُ فزعا. كان فكه مدمرا ومشوّها. عكستْ عيناه الازدراء بينما كان يسجل رد فعلي.

تعوّدتُ أن أكون حارسا في أحد السجون، قال. رمى أحد السجناء الحامض على وجهي.

لفَّ الوشاح حول وجهه من جديد بحيث لم يعدْ بوسعنا أن نرى سوى عينيه. شعتْ عيناه، ومن ثم بدأتا تصبحان داكنتين. ألقى علينا نظرة عامة وهو يتخذ وضعا عسكريا، بدنه مشدود بقوة وتوتر.

اسمي وليد، أنا جندي سابق وأعزب. أقيم وحيدا في (القصبة). كنتُ في الحلقة أشاهد (الرواي) في تلك الليلة. مضيتُ إلى هناك من أجل الاستماع إلى الموسيقى لأنني أعزف على العود بنفسي بين الحين والآخر. إنها آلة تتطلب براعة وتحتاج إلى الفن. لم يكنْ لديّ اهتمام بالغريبين.

ألقى علينا نظرات متوحشة وكأنه يتحدانا ويطلب منا تكذيبه. وعندما لم ينطقْ أحد بكلمة، تابع حديثه.

كان (الرواي) الذين يعزفون تلك الليلة، قال وليد، من (شيلوه) البرابرة المنحدرين من قرية بالقرب من (تارودانت). كانوا فرقة كبيرة، مزودين بربابتين، وآلتي عود، وصنوج، وبطارية من الطبول ذات الأطر. لم يكن الريّس هو أفضل العازفين الموسيقيين الذين سمعتهم، لكنه كان نشيطا، وماهرا في اجتذاب الحشود. كان صوته ينثر الريح، بينما كانت الموسيقى تشكّل الصور وراءه. صور أنهار، مروج، بذور لها شكل النجوم، تربة ممهدة. كانت الأغاني مفرحة، وأعادتْ إلى الأذهان ذكريات مواسم الحصاد الغنية. وكانت كل أغنية جديدة تجذب حشودا أكثر من سابقتها.

وعلى أطراف أصابعه، أحصى الجندي السابق الأغاني. وبعد أن اقتنع أنه أحصاهم جميعا، رفع أصابعه إلى الأعلى وقال: كانوا قد أنشدوا أربع أو خمس أغاني حين ظهر الغريبان.

كانا جافيَي السلوك منذ البداية. شقا طريقهما بالمرفق نحو مقدمة الحلقة ووجدتُ نفسي بجوارهما. لم أبالِ بالمرأة منذ الوهلة الأولى. كانت هناك نظرة مجنونة في عينيها. التفتتْ إليّ وقالتْ شيئا ما عن القمر الأحمر. لا أحب أن تتحدث إليّ النساء الأجنبيات، ولذلك لم أردّ عليها. اعتبرتُ وجودها هناك، بوصفها امرأة، في تلك الساعة من الليل، مخزيا. لم أتعجبْ عندما شرعت تلفت الأنظار إليها.

خلال برهة، بدأتْ تتحرك مع إيقاع الموسيقى. تراجعتُ إلى الوراء بنفور عندما شاهدتها تموّج ردفيها. في نظري، كانت هي تفتقر إلى أي إحساس بالحشمة. لم تكنْ حركاتها متزنة ولائقة. كانت استفزازية بكل معنى الكلمة، فاجرة حقيقية، حالها حال أغلب النساء الأجنبيات. وزوجها ذاك الذي يزيد قليلا على الصفر، راض بأن يبقى صامتا بينما كانت هي تجعل من نفسها موضع سخرية وخزي.

وفيما كنتُ أراقب حركاتها الدائرية، صدمني كيف كان أولئك الأجانب يستصغرون ثقافتنا. إنهم يستوردون عاداتهم ويتباهون بها أمامنا، إنهم يحولوننا إلى قوم دخلاء، نحن بالنسبة لهم أناس مجهولون، لوح أردوازي خال من الكتابة يفرضون عليه أخيلتهم الجامحة. ونحن نشجعهم، ويا لعارنا الدائم.

حين تعتقد امرأة ما أن بوسعها التصرّف على هذا النحو، ما الذي يحدث؟ تثخن عقول الرجال. يبدؤون بالتفكير بطريقة بدائية. إنهم ينسون كلمات الموسيقى ويحسون فقط بالضربات النابضة. وحتى تلك الضربات تتحوّل إلى شيء آخر:

ألـم غامض، وحـارق. أفئدتهم تُصاب بألم حـاد، ووجوههم تغدو سوداء من فرط الحرارة والغضب.

لا يمكنك أن تلوم الرجال على ما جرى لاحقا. إن امرأة بهذا الشـكل لا تسـتحق الاحترام. كانت ترقـص كالبهيمة في الأرض المغبـرة. كانـت قد تقدمتْ إلى وسـط الحلقة خـلال هذه الآونة. وهـا هـي ذي الآن وقـد توقفتْ بعـض الوقت أمـام مجموعة من الرجال وكأنها تتحداهم. كانت تُذكي نيرانهم، تحفزهم بطريقة مهينة لكي يطلقوا العنان لحواسهم.

غيـر أن الرجـال لم يتحركوا مـن مواضعهم. كانـوا يراقبون القمر الأحمر. كانت تنتشر في الجو رائحة مُرة، كرائحة السائل الـذي يجـري فـي أوعيـة النباتـات. كان الريِّس يصيـح بقوة في جميع الأرجاء، لكننا لا نكاد نسمع صوته.

كان ذلك حين نزعتْ حذاءيها وحلّتْ شـعرها. سـمعنا صوت قدميها الحافيتين وهما يخدشان الأرض. هناك بعض الحيوانات التـي تفعـل ذلـك حينما تذهب للشـرب في الصحـراء ليلا. إنه صـوت وحشـي، شـبيه بصوت الحيـوان حين يحفـر الأرض، وهو يطلب اسـتجابة عاجلة. بحركتين سـريعتين، تقدّم أحد الرجال ورفعها في الهواء. كان حائك سلال من (سمارة)، وكان قد انضم إليه شـخص آخر. شـرعا يرقصـان كذبين بينما كانـا يحملانها على رأسـيهما. رفع زوجها صوته محتجا، لكن الرجلين تجاهلاه وأدارا له ظهريهما. وحين حاول أن يحررها من قبضاتهما، اندلع شجار، ولمحتُ شيئا يومض في العتمة. كان شخص ما قد ضربه بخطاف معدني وجعلهِ يقع ممددا باسـتقامة على الأرض. شرع يزحـف علـى يديه وركبتيه. ضربوه على رأسـه، علـى عنقه، على

كتفيه وعلى ذراعيه. بدأتْ زوجته تنشـج وأخلى الرجال سبيلها. غطستْ في الأرض. ومن ثم لزمت الصمت ولم تقلْ كلمة. كانت تكز على أسنانها، وفمها يرطبه اللعاب. كنت أعتقد أنها ستفارق الحياة.

وعلى حين غرة سمعنا صفيرا حادا. رأيتُ خيالات مظللة تظهر مـن جميـع نواحي السـاحة. الشـيء التالي الـذي عرفنـاه أننا كنا مطوقين بعشـرات من رجـال البوليس. ضربوا طوقـا حولنا. حاول بعـض الرجـال أن يولـوا هاربين، لكنهم لـم ينجحـوا. كان الجميع يركضون هنا وهناك، وبعدها هدأ كل شيء. أما أنا فلم أحاولْ الذهاب إلـى أي مكان؛ كنت راضيا بالوقـوف جانبا ومراقبة ذلك الهزل. كان ذاك عمـلا أسـود تحت سـماء داكنة. ومن ثم زحـف الضباب، ضباب مثقل بالظلال الضارية للاحمرار والهواء البارد، الكئيب.

ذلك حين سمعنا صرخة مثيرة للأعصاب. كانت الصرخة قد اخترقت السكون كصرخة حيوان بري. كانت تلك هي المرأة، وهي تصرخ تعبيرا عن شعورها باليأس. ماذا فعلتم به؟ صاحت المرأة. يا أبناء السوء!

وفـي جميـع الأرجاء المحيطة بنـا ران صمت حينما سـمعنا ذلك. كان رجال الشرطة قد تراجعوا. ما من أحد كان يعرف ماذا يقول أو كيف يتفاعل مع الموقف. كنا نحاول معرفة أين هي. كان الضباب قد لف الساحة بحزم رمادية كثيفة. رائحة الخوف قوية في كل مكان. والليل قد تحوّل إلى رصاص.

عثـروا عليها مقرفصة على الأرض وعلى جبينها كدمة. كان قميصهـا ممزقـا، وتعلـو فمها خيوط مـن الـدم. كان أحد رجال الأمن قد قدّم لها منديلا لكنها رمته جانبا.

بـدؤوا يفتشـون عن زوجها، لكنهـم لم يعثروا عليـه. لا أحدَ يعـرف أين يتعـيّن عليهم البحث عنه. فتشـوا عنه في السـاحة، الأسـواق، القيصريات. إنها، لا ريب، مهمة مسـتحيلة. مرَّ الوقت سريعا. وكان الضباب عائقا.

آخر مرة رأيت فيها المرأة، كانت مستلقية على الأرض، تبكي بحرقـة. كان هنـاك ضابط شـرطة يجثـو بالقرب منهـا، يحثها على النهوض. وبين الحين والآخر، كانت تفتح فمها على وسـعه وكأنهـا تهمّ بالصـراخ، إنما لم ينبعث منهـا أي صوت. بعد برهة طويلة، توقفتْ عن البكاء ويهدوء سـمحتْ لنفسـها بأن يقودوها مـن دون تفكيـر. كانت تلك المرأة قد ذكّرتني بشـيء ما، إنما مرَّتْ برهة طويلة من الزمن قبل أن أفطن ماذا كان ذلك الشـيء. كان ذلك هو الخروف الذي يُقاد إلى الذبح. كانت لها النظرة نفسها، والرائحة نفسها. كان يلزمني أن أشعر بالأسف عليها، لكنني لم أشـعرْ بذلك. لم أشـعرْ بأي شيء. حسـنا، ماذا كانت تتوقع تلك المرأة؟

توقف الجندي السـابق عن الكلام، ورجع إلى الوراء. كان قد تحدّث بسـرعة، وسـكت عن الكلام لكي يسـتعيد أنفاسـه. أشعل سيجارة ووقف بسكون على مدى برهة طويلة من الزمن. ظهرتْ علـى وجهه المشـوّه غير الاعتيادي آثار الإعيـاء. ألقى عليّ نظرة طويلة قاسية قبل أن يبدأ بالحديث ثانية.

سمعتُ أنها خلال السنوات القليلة الأولى بعد اختفاء زوجها كانـت تطيـر إلى مراكش كل شـتاء للبحث عن أخباره. شـاهدها مـرة أحـد معارفي في السـاحة وقـال لي إنها بـدتْ هادئة تماما. كانت ترتدي ثيابا غربية غير مناسبة بشكل نموذجي وتتنزه هنا

وهناك متباهية. لكنها بعد ذلك توقفتْ عن المجيء، وبحدود علمي، لم يُسمع عنها شيء منذ ذلك الحين. أفترض أنها رجعتْ إلى المكان الذي أقبلتْ منه.

وأنا أقاطعه برضاء، شكرته على إسهامه في القصة بطريقة كانت تشي بقليل من الأدب. تطلعتُ إليه بنفور، وأصبح الخط الحاقد بين عينيه معلّماً أكثر حينما قال: هكذا جرت الأمور، وهي ليستْ غلطتي إن لم يعجبك كلامي.

لم تجرِ الأمور هكذا، أجبته بثبات، وأنت تعرف ذلك.

جوابي هذا أثار غضبه بحيث بدأ يكرر مزاعمه، لكنني قاطعته وساندني الآخرون في الحلقة من خلال ملاحظاتهم. وحين رأى أنه كان سيئ المزاج بشكل جلي، قال بحقد: يمكنني أن أرى أنك لا تستطيع تقبّل الحقيقة. كان صوته أكثر برودة من كلماته نفسها.

لا جدوى من ذلك، أجبته. لا جدوى على الإطلاق من محاولة إقناعك أو إعادتك إلى جادة الصواب.

حقا؟ قال لي، وهو يظهر ذلك التجعد الكائن بين عينيه الشبيه بجرح بليغ. إنكَ تقف إلى جانب الأجنبيينح هذه هي حقيقة الأمر!

لن أنهمك في جدال معك. اذهب وعالج نفسك.

سأتذكرك. لن أنسى هذه اللحظة.

هل هذا تحذير أم تهديد؟

لا هذا ولا ذاك. إنني لا أهددك. إنني أتكلّم تعبيرا عن ازدرائي. لقد بعتَ روحك مثلما فعل شقيقك مصطفى.

أزاح وشاحه جانبا وبصق على الأرض. ومن دون أن ينتظر

ردي، ألقى عليّ نظرة جليدية أخيرة، انحنى بثبات للآخرين، وشق طريقه إلى خارج الحلقة بتأن مليء بالازدراء. كان قد تقدم ما يقارب اثنتي عشرة خطوة حين توقف بغتة وألقى عليّ نظرة من فوق كتفه. كان قد وجدني أنظر إليه بتصميم وقام بحركة طفيفة من حركات الارتداد. راقبته وهو يندفع كالسهم نحو الظلال وبعدها لم يعدْ باستطاعتي رؤيته قط.

أحسستُ بيد تمسني برفق في منطقة الكتف. جفلتُ والتفتُّ لأرى مَنْ هذا الذي مسني. وبعدها أدركتُ أن قبضتَيّ قد أُطبقتا بإحكام.

تامسوست

كان يقف خلفي رجل في مقتبل العمر يترنح من دون استقرار. وكان بؤبوا عينيه متسعين، وأنفاسه تفوح برائحة (الحشيشة). يلبس جلابة بنية قذرة قلنسوتها مرتدة للوراء؛ كان شاحبا، وذا وجه منمش، وكانت عيناه الصفراوان المائلتان للرمادي توحيان بأنه نتاج عرقين مختلفين.

(لا بيس داريك)، قال لي، وهو يلقي عليّ التحية بلهجة (تاشيلهيت). مرحبا.

(لا بيس)، أجبته.

ذلك الوصف كله الذي سمعته توا كان مجرد كذبة، قال ببطء. كنتُ هناك في تلك الليلة. كانت تجربة سيئة جدا، لكنها لم تكنْ قط بالصورة التي وصفها ذلك الرجل.

ألديك نسخة أفضل؟ سألته بطريقة جافة.

إنها قصة طويلة.

دعنا نسمعها.

حسنا إذن.. قال الشاب، وتوقف هنيهة عن الكلام.

كانت عيناه مجهدتين. رفع يده أمام وجهه وحدّق من بين أصابعه إلى النار.

سيطرتُ على نفاد صبري وسألته ماذا كانت الحالة.

لا شيء، أجابني.

هل تشعر بأنك مريض؟

كلا.

ماذا، إذن، ماذا لديك من أقوال؟

الله يعلم إنني آخر فرد يتعيّن عليه المغامرة بالإدلاء برأي معين يتعلق بالحقيقة. في الواقع، إنني حتى غير متأكد من معرفة ماذا يعني ذلك. إنما يمكنني أن أحدس بهذا القدر. ربما لا يفصلنا عن الحقيقة سوى خيط واحد، أو ربما بون شاسع، لكننا سنتيقن من ذلك فقط حينما ننظر إلى النسيج كله.

مَنْ أنت؟ سألته، من دون أن أرفع صوتي.

اسمي رشيد، أجابني. إنني أبيع المدوّمات[40] في الساحة. لعلك رأيتني هنا أو هناك. تعوّدتُ أن أبيع أشرطة التسجيل الموسيقية بالقرب من (كافيه دي فرانس)، لكن هذه المهنة لم تنفعني ماديا.

مدوّمات؟

نعم، إنني أصنعها بنفسي من خشب (الثويا). وإنني أعطي بها ضمانا أبد الدهر. إنها أفضل المدومات في العالم.

(40) المدوّمات: جمع (مدوّمة) وهي لعبة أطفال ذات حركة دوّامية، وتُدعى باللهجة العراقية بـ (الفرارات) - هامش المترجم.

سأصدّق ما تقوله.

إنــك تنظــر إليّ كما لو أنني معتوه، لكنني لســتُ معتوها. إنني صحيح العقل تماما. لقد دخنتُ قليلا من (الحشيشة)، وهـذا هو كل شـيء. مثلما كنتُ عليه فـي تلك الليلة، لن أنكر ذلك.

قليلا؟

أجل، مجرد كمية قليلة، قال رشيد وهو يسحب نفسا عميقا. مـن دون (الكيـف) أشـعر بطنين في رأسـي ولا يمكننـي أن أقول كلمـة واحدة على الإطلاق. سـأكون أول مَن يعتـرف قائلا بأنني ربما لن أكون أكثر الشهود ممن يستحقون التصديق. إنما هناك عيوب كثيرة جدا في الوصفين السابقين بحيث أشعر أنني مرغم على التحدث.

ماذا تعني بـ «عيوب»؟

أعني ما أقول.

هل كانا يكذبان، بحسب رأيك؟

إننــي لا أقـول ذلك. لكنهـا نقطة جديرة بالملاحظة، حسـنا، الأشياء التي اختلقاها.

لماذا لا تخبرنا بها مرة وإلى الأبد؟

هل لديك سيجارة؟

أنـا لا أدخـن، قلـتُ له، لكن شـخصا مـا من الجمهـور ناوله سـيجارة من ماركة (جيتان). أشـعلها، وسـقط ضوء على وجهه. وبينمـا كان يدخـن، مـن دون أن يتطلّع إلى أي فرد، والسـيجارة ترتجـف فـي يده، يـدأ يتكلّـم بلطف، وهـو يتوقف كثيـرا، وكنت أفضّل عدم مقاطعته ومعرفة ما يقول.

كانـت تعتمر (بيرية) حمراء قانية في تلك الليلة، قال. إنني أتذكرها لأنني وجدتها في بالوعة في سـوق الخزافين وسـلّمتها للشرطة.

سحب نفسا عميقا من سيجارته.

شـأني شـأن الجميع لم أحـبْ منظر القمـر الأحمر في تلك الليلـة. حـين واجـه القمر الشـمس الآخذة في الأفـول، بدا كما لـو أن هناك جرحين في كبد السـماء. أينمـا وليتَ وجهك، تجد السماء تنزف. كانت ظاهرة غير طبيعية على الإطلاق.

سـحب نفسـا جديـدا مـن سـيجارته، وأومـأ برأسـه لنفسـه مرتـين، صوته يكتسـب الثقة مع انقضاء كل لحظة. رأسـه مائل إلى أحد الجانبين، عيناه تنظران إلى ما وراءنا فيما هو يتحدث، ورويدا رويدا أصبح التعبير البادي على وجهه أكثر استغراقا في التفكير.

لا، لـم أحـبّ منظر القمـر البتة في تلك الليلـة، كرر كلامه. ولـم أكنْ الشـخص الوحيد الـذي أحس بهذا الشـعور. أتذكّر أن شـخصا ما هتف من وسـط السـاحة. حلّتْ نهايـة العالم! حلّتْ نهاية العالم! بدت الكلمات وكأنها تتدفق في الهواء إلى أن باتتْ مهيـأة للانفجار. كانتْ تلك كلمات رجـل يهودي واهن من الحي اليهـودي فـي المدينة، وكأنه شـبه معتوه. كان رجال الشـرطة قد أبعـدوه بخفـة، لكن بينما أنتـم تنظرون إلى تلك السـماء كنتم مقتنعين تقريبا أنه يعني شيئا ما.

وعقب ذلك اشـتعلتْ أضواء الأكشـاك. سـاحة جامع الفناء ليـلا. كل شـيء فـي حركـة مسـتمرة. الدببـة التي كانـت تمثل، الموسـيقى، ممارسـو الألعـاب البهلوانية، آلات النحـاس الأصفر

البراقة الخاصة بموسيقيي (الغناوة) الجوالين. ازدحم مطعم (بليس فوكولد) بظلال سوداء طويلة وسجائر متوهجة. دراجات هوائية ودراجات نارية كانت تتسابق بأساليب منحرفة عبر شارع محمد الخامس المشجر. وكانت نوافذ (كافيه دي فرانس) و(مطعم الأرغانة) أشبه بأسنان ظاهرة للعيان في الظلام الدامس.

وهو يبتسم متذكرا ما حدث، بدأ يرقص ببطء حول النار. وهو يغني، مرحبا بالسيرك، حيث كل شيء مجرد وهم.

وبينما كان ينسحب إلى أحد الجانبين، التفت ووضع يده على قلبه.

أنا طفل البحر، قال. إنني آت من الساحل الغربي، من (أخفنير)، وفي نظري بدت الساحة في تلك الليلة أشبه بمحيط تتقاذفه العاصفة. كانت أضواؤها وانعكاساتها شبيهة بالزوارق، بالصخور، بالأمواج. كان دخان الخشب رذاذا منبعثا من الأمواج المتكسرة.

كنت جاثيا خلف أحد أكشاك الأطعمة، أتناول وجبة خفيفة من عيون السمك. كانت تلك الوجبة هدية من صديقي نور الدين، وهو ينحدر من الساحل مثلي. ست عيون، ثمان، عشر؛ يا لوفرة العيون، لذيذة جدا، وفي النهاية، كل شيء يُغسل مع الشاي القوي الساخن، إنه كاف لكي يجعل المرء يشعر بتجدد النشاط.

شبعانا، وسعيدا، تمددتُ على مصطبة -حسنا، لم لا أعترف بذلك؟- هيأتُ بعناية سيجارة (كيف) وتقاسمتها مع نور الدين. اضطجعنا جنبا إلى جنب، ندخن بصمت سار، لكنه بعدها مضى يتجول في مكان ما وتركني وحدي مع الهواء الذهبي كرفيق لي.

كانت سماء الليل بكل معنى الكلمة نيازك، ثقوبا سوداء، والطائرة التي كانت تمر من هناك بالمصادفة تخفق كالسراب في حكاية من حكايات الجان المخصصة للأطفال. سمعتُ أوتار أوركسترا فرقة من فرق (الرواي) تعزف من جهة ما في الساحة وظلتْ تدندن زمنا طويلا. مصصتُ الليمون الذي رافق عيون السمك ورحتُ أتساءل هل سأكون محظوظا بما يكفي بحيث أحصل على جائزة اليانصيب لذلك العام. كانت أفكاري مبعثرة، لكنها كانت مرحة، كالضحك. سديم محبب إلى القلب شق طريقه بحذر من خلالهم، وجعلهم مضيئين وذوي ألوان براقة. عبر السديم سمعتُ أحدهم يقول لي (مساء الخير) بالفرنسية، وأجبته بلطف ورقة. كان ذاك صوت امرأة، ولم أفكرْ فيه طويلا. كل واحد من الناس يعرف الناس الآخرين في ساحة الجامع. صباح الخير، مساء الخير، وكل ما يحلو لك، أجبتُ.

وبعد ذلك نهضتُ.

كانت هناك امرأة خارقة الجمال تقف بالقرب من مصطبتي. ظننتُ أنني أحلم، ومرت لحظة قبل أن يتسنى لي معرفة أنها أجنبية لأنها كانت ترتدي مثل بنات البلد، سروالا، قفطانا، ووشاح رأس مخططا زاهي الألوان مزينا بقطع النقود. كان الضوء الآتي من أكشاك الأطعمة يجعل إكليل القطع النقدية على جبينها يتلألأ. أردتُ أن أقول شيئا ينطوي على التودد والشاعرية لكنني لم أفلحْ في قول كلمة واحدة. لذلك قررتُ إبقاء الحال على ما هو عليه من البساطة وألا أقول سوى (بونجور)! لكنني وجدت نفسي أفتح فمي وأغلقه من دون صوت، مقلّدا السمكة تقليدا مثاليا. كانت يدي التي تحمل سيجارة

(الماريجوانا) ترتعش. خفضتُ عينيّ. مرت اللحظة.

ماذا تدخن؟ سألتني باسمة.

أخبرتها، وسألتني ما إذا يمكنها أن تشاطرني التدخين.

جلستْ لصقي ودخنّا السيجارة معا. اتكأتْ بوهن ونفختْ حلقات نموذجية في الهواء. وددتُ أن أسألها من أين أقبلتْ، وما الذي جعلها تأتي إلى ساحة الجامع، وكم سيطول بقاؤها هنا، وكل صنوف الأسئلة التي تدور في ذهن المرء؛ لكن، إذا جاز التعبير، الخجل تغلب عليّ بحيث حتى لم يكنْ باستطاعتي أن أتجرأ لأسألها ما اسمها. ببساطة ظللتُ جالسا في صمت مشدوه.

حين أسترجع الآن تلك الآونة، لا أزال غير قادر على فهم ما جرى لي في تلك الليلة. فكرتُ في ذلك مرارا وتكرارا. ليس من عادتي أن أكون فردا رزينا، متوازنا. كنا نجلس متلاصقين، ننظر إلى النجوم نفسها، ومع ذلك ربما كانت هي في الوقت نفسه في كوكب آخر. ما من تفسير، ما من سلوى. في الحقيقة، خذلتُ نفسي.

في نهاية الأمر، نهضت المرأة وشكرتني على الصحبة. والأدهى من ذلك: شكرتني على صمتي، على عدم إزعاجها بأسئلة غير ضرورية.

أن تعرف متى تلتزم الصمت هو أعظم المواهب قاطبة، قالت لي.

تظاهرتُ بأني فهمتها، وتلعثمتُ وأجبتها بجواب غير كاف. استطعتُ أن أطلب منها (سيجري)، كان لساني الذي أثقله (الكيف) قد التف حول الكلمة.

تطلعتْ إليّ بحيرة وارتباك.

سيجري، غمغمتُ. هل يمكنكِ أن تعيريني سيجري؟

استمرتْ في التحديق إليّ على مدى دقيقتين إلى أن فهمت ما قلته فهزتْ رأسها نفيا وابتسمتْ.

مع الأسف، أنا لا أدخن السجائر، ردّتْ قائلة.

تمنّتْ لي ليلة هانئة وسنة قادمة سعيدة.

لا تذهبي الآن! توسلتُ إليها بصمت. إنني لا أعرف شيئا عنك. اسمي رشيد. ما زال الوقت مبكرا جدا للمغادرة.

نظرت وراءها إلى حيث كان نيزك يستهدف مئذنة جامع (الكتبية). كان نيزكا سريعا جدا، ساطعا جدا. وحين خفضّتُ بصري ثانية، كانت قد غادرت المكان.

بالطبع، حينذاك فقط استعدتُ صوتي. أحسستُ بشيء ما ينفجر في داخلي، وأقبلت الكلمات اللعينة منهمرة كالطوفان. حسنا، حدثتُ نفسي، يكفي هذا الهراء عن الصمت اسمي رشيد ما اسمكِ؟ إنني أبيع المدوّمات ما هي مهنتكِ؟ ومن أي مدينة أتيتِ؟ لي ثلاث أخوات وأبي يملك عشرة خراف هل تتزوجينني؟ هل يمكننا أن نتحدث عن الجنة؟ سأبني لكِ منزلا ذا حديقة غنّاء سيكون لنا أطفال كثيرون ما رأيك بشاربي؟ هل باستطاعتي أن ألمس فؤادك؟ سوف نزرع جميع أنواع الحشيشة التي ترغبين بها... وهلم جرا... وهلم جرا...

وفي غضون ذلك، هناك في الساحة، كان أعضاء فرقة (الرواي) يطلقون الشرر بأغانيهم. كان الجو يزداد حرارة. فككتُ أزرار قميصي. استلقيت، نهضت، استلقيت، نهضت مجددا. كان (الرواي) ينشدون الأغاني، يقرعون على الطبول، ينشدون الأغاني، يصمتون، ومن

ثـم يبدؤون بالغناء ثانيـة. وفي الختام، تخليتُ عن محاولة تهدئة قلبي، قررتُ أن أتمشـى وانضم إلى أعضاء الحلقة وهم يشـاهدون أداء (الـرواي). فـي حقيقة الأمر لم أكـنْ أود الذهاب، لكنك تعرف ما هي الحال. قدماك تبدأان بالحركة من تلقاء نفسيهما، ومن ثم كل ما تسـتطيع فعله هـو أن تجاريهما. غادرتُ مصطبتي وتوجهتُ صوب الموسـيقيين غير أنهم كانوا أبعد مما خمنت. ضللتُ طريقي وألفيتُ نفسـي في الجهة المقابلة من السـاحة. كانت الوجوه تأتي وتمضـي كالرايـات فـي مهب الريح. مـررتُ برجل يسـير على حبل مشـدود يحمـل مظلة في الهـواء. كان ثمة رجل يقذف السـكاكين بطريقة المشـعوذين بجوار صبي يبيع فاكهـة مصنوعة من الفخار الصلب غير المزجج المصبوغ، من سـلة ما. وكان هناك عملاق عاري الصدر بشـعر أصفر مصبوغ يرفع عاليا جذع شجرة ضخما. كانت زوجتـه تسـير حول المكان وهي تحمل طاسـا خشـبيا لجمـع المال. وحـين تفاديـتُ المرور بها ودنوتُ من (الرواي)، بدأت الحشـود تزداد كثافة والتقطتُ شذرات من الحوار.

... جمالها أشبه بالوردة الحمراء.

... النار نفسها تبدو شاحبة بجانبها.

... عيناهـا كثيفتـان وزرقـاوان؛ فـي داخلهما يمكنـك أن ترى المحيط.

... علـيّ المغادرة، لا يمكنني أن أتحمل بعد الآن؛ لقد حبسـتْ أنفاسـي. إنني أراهن أن قبلة واحدة تهبها لك يمكنها أن تعلّمك كل ما تحتاج لمعرفته عن الحب.

لـم أكنْ بحاجة إلـى التخمين عمن كانـوا يتحدثون. حثثتُ خطاي ووصلتُ إلى (الرواي) في قفزة واحدة.

كانت الفرقة الموسيقية قد بدأت بالـ (تامسوست)، بأغنية مفعمة بالحيوية عن الحب. كان الريّس منهمكا فيها كما لو أن الحياة باتتْ على كف عفريت، وكان المشاهدون يصفقون ويحثونه على الغناء. أجلتُ بصري هنا وهناك ناظرا إلى الحلقة، ومسحتُ الوجوه عسى أن ألمحها، وبعدها هدأتُ. كانت تجلس على كرسي واطئ بجوار الموسيقيين. كان هناك شاب نحيل، داكن السمرة، يقف خلفها ويضع يديه على كتفيها. كان وشاح رأسها قد انحسر فشدّته من جديد كما لو أنه منديل كبير حول رقبتها. وبدلا من الوشاح، كانت تلبس الآن (بيرية) حمراء قانية. نظرتُ إلى رفيقها وغطس فؤادي. من الطريقة التي يضع فيها يديه على كتفيها كان واضحا أنها تنتمي إليه. تطلعتُ إليهما واليأس يفترسني وأنشد الريّس الخواطر التي جالت في بالي:

فتاة من نار

فتاة من نار

خُلقتْ كي أضمها بين ذراعيّ

خُلقتْ من أجل رغباتي

لقد انتظرتكِ

انتظرتكِ منذ أمد بعيد

أما الآن فقد ضاع كل شيء

الآن سُحق كل شيء

كان صوت رشيد قد خمد حتى أصبح همسا.

أصدقائي، إخوتي، تلك هي بعض أسوأ اللحظات في حياتي. كانت السماء السوداء مغلقة فوق رأسي. كان الجو يعبق برائحة يأسي. لعنتُ (الكيف) الذي سلب مني صوتي. كنتُ أريد مغادرة

ذلك الموضع في تلك اللحظة تحديدا وأزحف إلى داخل ثقب في مكان ما. من الأفضل مغادرة المكان، حدّثتُ نفسي، ومن ثم فكرتُ: من الأفضل عدم المغادرة. أقنعتُ نفسي بالبقاء دقائق قليلة أكثر أثناء وجودها.

لا أعلم كم طال مكوثي هناك. شعرتُ كما لو أن شللا أصابني. إن ألما مبرحا كهذا لا يمكنك أن تصفه بالكلمات. تساءلت في سري ما إذا كان ينبغي لي أن أترك لديها واحدة من مدوّماتي كتذكار سياحي. وحتى إنني أخرجت واحدة من كيسي، لكنني بعدها أسقطتها على الأرض. كم تعذبت، يا إخوتي! وددتُ ألا تخذلني شجاعتي بينما كنت أستعد للرحيل عنها إلى الأبد.

تورّد وجهه بصورة غير مناسبة، وبدا مرتبكا من جراء ذكرياته ومن جراء خجله واشتياقه المستمرين على السواء. كان يلوح عليه الشعور بالاستسلام. تحدث ببطء ومن دون حيوية.

قال: ومن ثم، بصورة غير محسوسة، تغيّر شيء ما، كما لو أنه يعكس حالة فؤادي أنا. بدأ الجميع ينظرون من دون تحفظ إلى المرأة. تبدّل مزاج الحلقة. جميع عيوننا كانت تجردها من ثيابها. حتى الموسيقى عكستْ ذلك المزاج، بدأت الطبول تردد أصداءها بصورة مشؤومة. ربما يعود ذلك إلى مجموعة الرجال الذين ظهروا من اللامكان، رؤوسهم ووجوههم محجوبة عن الأنظار. أو لعل ذلك كان نتيجة الكلمات التي أنهى بها الريّس أغنيته:

الآن جرحتني

الآن حطمتني

أي خيار تركته لي

غير أن أسدد إلى قلبك طعنة بالسكين؟

التفتُ بتردد، وبدأتُ أشق طريقي بعيدا عن الحلقة. لا بد أن تعاستي كانت بادية على وجهي لأن شخصا ما وكزني بمرفقه وأطلق ضحكة ساخرة. لم أكنْ في مزاج يصلح للابتهاج وحاولتُ أن أجد طريقا لنفسي لكنني وجدتُ دربي مسدودا.

أوهو! سمعتُ أحدهم يهتف بذلك. هو ذا شخص آخر ذبحته الحورية.

غضبتُ بسبب تحديه، ورفعتُ يدي وكنتُ أهمّ بدفعه بعيدا عن طريقي حين اندلعتْ جلبة. سمعتُ صفيرا حادا يقاطع صوت الموسيقى. بدأ أحدهم يصيح بجنون وكان هناك صراخ مروّع. حاولتُ الالتفات لمعرفة ماذا كان يحدث لكنني زللتُ وهويتُ على رأسي. حينما اصطدمتُ بالأرض شعرتُ بأن سيقان الآخرين تدوسني بينما كانوا يمرون مسرعين من هناك. حاولتُ أن أرفع قدميّ لكنني هويتُ من جديد. بدأتْ عتمة سديمية تسد الطريق عليّ ورفعتُ ذراعيّ لأبعدها عني. شعرتُ بأنني أنزلق إلى هاوية، باردة ومظلمة. كان آخر شيء رأيته هو قطعة من فستان وبعدها غبتُ عن الوعي.

حين رجع إليّ رشدي، ألفيتُ نفسي مضطجعا في سرير أبيض نظيف بحجرة متاخمة للحديقة. كانت تلك الحجرة في مستشفى في إقليم (هيفرنيج). أمضيتُ هناك يوما قبل أن يخلوا سبيلي. عرفتُ أن عليّ إبلاغ مركز شرطة ساحة الجامع في صباح اليوم التالي.

في مخفر الشرطة، استجوبني ضابطا شرطة ورقيب. أخبروني بأن الأجنبيين كليهما فُقدا بعد الشجار الذي نشب في فرقة (الرواي). أجبتهم على أسئلتهم بأفضل ما استطعت،

لكنهم لم يبدوا مهتمين اهتماما شديدا وأخلوا سبيلي في أقل من ساعة. فقدتُ كيس المدوّمات الخاص بي ودوّنتُ شكوى، لكنهم أخبروني بأن فرص العثور عليه ضعيفة.

وحين تجرأتُ بالدخول إلى ساحة الجامع كان ذلك خلال ضياء الشمس الباهر وكل ما حدث لي أثناء اليومين الماضيين بدا لي أشبه بالهلوسة. رجعتُ إلى المكان الذي كنتُ أرهف السمع فيه لفرقة (الرواي) ووجدتُ راوي قصص يقص بحيوية حكاية العاشقين المشؤومين اللذين ينحدران من الصحراء: ليلى والمجنون. أصغيتُ له برهة طويلة، لكن الحكاية بأسرها بدتْ لي غير حقيقية، وتركته وفي فمي طعم مُرّ. قررت الابتعاد عن الساحة خلال النهار والذهاب إلى المنزل، وفي طريقي، التقطتُ وردة كانت مرمية على الأرض لكنها غرزتْ شوكة في إبهامي. اغرورقتْ عيناي بالدموع بينما كنت أشاهد الدم ينضح من إصبعي. حتى الزهور في ذلك الصباح كانتْ تلسع.

وقف رشيد لحظة ينظر إلى الظلال. لم يصدرْ أي صوت في حلقتنا، باستثناء طقطقة النار المشتعلة. لم يتحرّكْ أي منا.

فتش رشيد في جيوبه بحثا عن شيء ما. وعندما وجده، أخرجه من جيبه، وقرّبه من وجهه. كان تعويذة، كانت (يد فاطمة) معلقة بسلسلة من الفضة. وضعها برفق على شفتيه قبل أن يعيدها إلى جيبه.

لا يزال يزعجني أنني لم أكنْ قادرا على معرفة اسمها، قال، لأن الأسماء مفاتيح.

لا بد أنكَ لم تكنْ هنا حين كشفتُ عن اسمها، قلتُ. كان اسمها لوسيا. إنه يعني الضياء.

الضياء، قال رشيد، وابتسم بسمة طفيفة. يا له من اسم لائق.

من دون أن يقول كلمة أخرى، عاد إلى موقعه في الحلقة، وجثا على ركبتيه. ظل بلا حراك لحظة، ومن ثم استلقى ومال على جنبه، رأسه توسد ذراعيه.

غطوه ببطانية، قلتُ ناصحا. لقد تعذب كثيرا.

طرح عليه أحدهم بطانية من النوع الذي يلبسه البربر.

العنقاء

كان القمر ينزلق بين الغيوم في جهة الغرب. وأمست الأسواق مظلمة. وهجعت الحدائق الكائنة وراء جامع (الكتبية) في الليل. تحت أجمة ورد مزهرة كان ثمة قط برتقالي اللون يلعق مخالبه. وفي عمق حي اليهود بالمدينة، في غرفة معتمة شملها الصمت والسكون، كان ثمة شاعر بعين واحدة يضع اللمسات الأخيرة على أغنية تدور حول الحزن. بيتها الأول يقول:

ما هي الحياة، على أية حال، إن لم تكنْ خيالا عابرا؟

القمر، القط، الشاعر، هذه الحلقة من المستمعين؛ نحن جميعا نقف في الصفحة نفسها. بين التعويذة وما تنطقه الشفاه، بين الحنجرة والصوت، بين القلب والأمل، ثمة شيء يرتعش باستمرار، ثمة شيء يعيش ويموت باستمرار. هل هو الأمل؟ هل هو الجنون؟ هل هو البحر؟

إنه الحب.

انظر: هو ذا يمضي، صامتا، مرتجفا، نظرات حيية قليلة، إيماءة هاربة، قصيدة شعرية عن (الماريجوانا)، مساء جدير بهذيان الحمى، ومن ثم، لا شيء.

إنـه الحب. للحب سبع حواس، سبعة أصوات، تسعة جلود، أحد عشر وهما. الحب رقيق وناعم. الحب زهرة تنمو في أعمق المحيطات. الحب شمعة تخفق، يافطة مغروسة في الثلج، بلاد جميلة، رماد الصحراء. الحب نداء ولعنة وتعويذة طويلة الأجل جديرة بالإنشاد ليلا. الحب صورة فوتوغرافية، نواح، حكاية مروية على وفق تسلسلها الزمني، رسم. الحب (صندوق العجائب) في متنزه تغمره أشعة الشمس، في (شجرة الغراب). الحب تيه، تشوش، عزلة، ضياع، حلم.

إنه الحب. إنه أجمل الطيور قاطبة.

الخيتارة[41]

كانت التقارير المتعلقة بما جرى في تلك الليلة متباينة جدا. حتى لم يتضحْ مَن هو الذي غاب عن الأنظار. أشارتْ بعض الصحف إلى أن المرأة هي التي اختفت، في حين أشارت صحف أخرى إلى أن الرجل هو الذي اختفى، وزعمت بعض الصحف أن الاثنين غابا عن الأنظار. قالت إن الرجل الذي لا عزاء له كان يضايق الشرطة بصورة متكررة وجعلهم في حيرة من أمرهم؛ قالت إن الزوجة قد عمدتْ إلى النوم على درجات مركز الشرطة تعبيرا عن يأسها الناجم عن اختفاء زوجها؛ قالت إن عددا من القنصليات الأجنبية قد انخرطتْ في محاولة لاكتشاف ماذا حدث لمواطنيْها المفقوديْن. أما التقارير الرسمية فكانت هي الأخرى متضاربة بالقدر نفسه. أولا، سمعنا أنه تم اقتفاء أثر الغريبين حتى (ساحل الموز)،

(41) الخيتارة: قنوات للري واقعة تحت الأرض - هامش المؤلف.

وهو جنة الأمواج المتكسرة بالقرب من (تاغازوت)، لكن المرأة هناك تبين أنها هولندية، ورفيقها من أصل سوري، وبعد أسبوع من الاستجواب الدقيق جدا، أطلق سراحهما. وأظهرت تقارير أخرى مَشاهد في طنجة، في (جفجوان)، في (وادي الجنة)، في (أموزير)، وفي داخل صالة سينما (ريالتو) القريبة من (شارع ديس فار) المشجر في أغادير. تم احتجاز عدد من الأجانب، على الأغلب بسبب شبههم بالرجل والمرأة المختفيين، مع أن حالة المهندس المعماري السويدي في سن السبعين وخليلته المراهقة كانت مثيرة للجدل أكثر. ومن ثم، بعد انقضاء أيام معدودات، تلاشتْ تماما الأنباء المتعلقة بالحادث. انتشرتْ شائعة مفادها أن نقابات تجار الساحة، قوية التأثير، حاولت الضغط على السلطات المحلية لإخماد القصة لأنها كانت تؤثر سلبا على معنويات الباعة الجوالين والسياح على السواء. وإثر ذلك لم نعدْ نسمع شيئا ويبدو أن الحادثة قد حُكم عليها بأن تغدو واحدة من الأساطير الكثيرة المتعلقة بالساحة وليس أكثر من ذلك، باستثناء كونها إضافة غامضة بوضوح إلى أساطيرها العديدة. ومع ذلك، ظلت الأسئلة، أسئلة يبدو أنها كانت تستجدي أجوبة. كانت هناك نظريات كثيرة مثلما كانت هناك جوانب محيِّرة تتصل بتلك الليلة. لماذا، على سبيل المثال، لم يحققْ أحد في السيارة (المرسيدس) التي انسحبتْ مبتعدة عن الساحة أثناء المشاجرة، وكان محركها يزعق؟ قالوا إن تلك السيارة عائدة لأحد الشيوخ العرب. مَنْ يكون ذلك الشيخ، وإلى أي مدينة أو بلد ينتمي، وما الذي جرى له؟ أو ماذا عن المجموعة الغامضة من الرجال ذوي الوجوه الملثمة؟

ومهما يكن من أمر، ثمة شيء يشي بالتهديد بنحو لا سبيل إلى الشك فيه في ما يتصل بهما، شيء فاسد ومعرض للشبهة. مَن كان هذان الأجنبيان، هل استجوبتهما الشرطة، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك، ما قصتهما؟ قال بعضهم إنهم سمعوا تلميحات تشير إلى تورط أشخاص مؤثرين في الحادث؛ قال آخرون إن رجال السلطات المحلية كانوا يتجادلون في ما يتعلق بوجود الغريبين أصلا، بكل ما تعنيه هذه الكلمة. لكن ماذا بشأن التقارير المتوافرة في (وزارة الخارجية)، دائرة ضابط جوازات السفر، مكتب الأجانب، الجيش؟

زعم كثير من العازفين أنه كان باستطاعتهم الشعور بنشاط مدمر ينبعث من الساحة عقب الأحداث التي وقعتْ في تلك الليلة، الأمر الذي جعل بعضهم يقرر مغادرة ساحة الجامع نهائيا والانتقال إلى مكناس أو فاس أو طنجة. وحتى إن بعضهم تمادى كثيرا جدا بحيث قام برحلة محفوفة بالمخاطر عبر (مضيق جبل طارق) متجها صوب أوروبا؛ ثمة فرقة من بهلوانيي (تازيرولت) الذين ينتمون إلى (وادي أملين)، القريب من (تيغمي)، يعمل أعضاؤها الآن في سيرك بمدريد.

وكما اكتشفتُ لاحقا من خلال قريب لي كان يعمل في مخفر شرطة ساحة الجامع، خلال الأسابيع الثلاثة الأولى التي أعقبت الاختفاء، أن المخفر كان خلية نحل في نشاطه. كان الضباط قد قسموا المدينة بصورة نظامية إلى نظام مؤلف من شبكة من المناطق المحددة ومضوا يفتشون كل جزء من الأجزاء. لم يدخروا جهدا، وما من موقع عُدَّ بمنأى من الشك، وتعيّن على الجميع، المراكشيين والأجانب على السواء، أن يتحملوا المعاملة المهينة

الناجمة عن رخص التفتيش. فتشت الشرطة المنازل الشخصية، فتشوا المباني الحكومية، فتشوا الرياض والفنادق ودور البغاء والقصور. كما أرسلوا فرق تفتيش إلى القيصريات، والأسواق، والقصبة، وحي اليهود في المدينة، ومدابغ الجلود. قيل لي إنهم فتشوا حتى المدارس، الحمامات التركية، (الخيتارات) الواقعة تحت الأرض والموغلة في القدم التي ظلتْ غير مستخدمة على مدى قرون طويلة. لكن، في نهاية المطاف، على الرغم من جهودهم الحثيثة وعلى الرغم من الرجال والمبالغ الضخمة التي أنفقوها فيها، لم يتوصلوا إلى نتيجة مثمرة. وبدا كما لو أن الواقعة بأسرها كانت شيئا ملفقا من نسج الخيال الشمولي.

وبعدها، في نهاية الأسبوع الثالث، في صباح صحو ومشمس، توجه أخي مصطفى إلى مركز شرطة الساحة ودلف إلى الداخل وسلّم نفسه.

الأفيسينادو[42]

هذا ما جرى لاحقا في داخل مركز الشرطة بعد اللحظات القليلة الأولى من اللبس الذي حدث. كان الرقباء الحاضرون قد هجموا على أخي وجردوه من متعلقاته. كل فقرة من فقرات مقتنياته أُلصقتْ عليها ورقة ووُضعتْ في الكيس البلاستيكي الأسود الذي كان يحمله مصطفى وقتئذ. حين تلقيتُ الأنباء المتعلقة باعتقاله هرعتُ مسرعا إلى المركز، سلّموني الكيس من دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة. وبينما كنت حائرا ومرتبكا أفرغتُ الكيس في حضني ووجدتُ، من بين أشياء كثيرة، محبرة

(42) الأفيسينادو (بالإسبانية): هاو، وبالأخص في مصارعة الثيران – هامش المترجم.

صغيرة كتلك التي يستعملها الناسخون، منحوتة من الحجر اللين الأحمر وبهيئة أسد. جلستُ هناك، وأنا ممسك بذلك الأسد الصغير، فمي متيبس، وعقلي مشدوه. قلّبتُ ذلك الأسد في راحة يدي المرة تلو المرة، وأنا أفكر كم هي غريبة حياتنا، وبعد ما انتهى كل شيء، وحدث ما حدث. نحن نعتقد أن كل شيء لا بد أنه يتعلق بالذكريات، بالحكايات التي تحصل على وفق تسلسلها الزمني، بالمواقف، بالشهادات، حالات الفهم، الاستنتاجات المزعومة، ومع ذلك، في نهاية الأمر، نظل جاهلين بصورة مطلقة. يا الله! هتفتُ بغضب صامت. أين المعنى الخاص بكل شيء من الأشياء؟ هل الحياة لا شيء سوى أوهام؟

نظرتُ إلى الأسد وأحسستُ بأن عينيّ تطفحان بدموع لا قِبَل لي بها.

تطلّع إليّ رجل الشرطة المسؤول بفضول إنما بتعاطف أيضا. ما هذا؟ سألني وهو يشير إلى الأسد.

إنه محبرة، أجبته.

ولكي أُشغل نفسي وأنا كنتُ أنتظر اللقاء بمصطفى أكثر من أي شيء آخر، قررتُ أن أخبر رجل الشرطة بالقصة المتعلقة بالمكان الذي كانت تنتمي إليه المحبرة.

انتظر لحظة، قال لي، وهو يباغتني بابتسامة. دعني أولا آتيك بشيء من شاي النعناع لكي أرطب حنجرتك. لكي لا يُقال عنا إننا لا نراعي هنا القواعد الأساسية للضيافة.

كان الشاي ساخنا ويطلق صوتا حادا وأكثر حلاوة بالنسبة للمذاق الذي تعودت عليه، لكنني شكرتُ رجل الشرطة لاحترامه. جلس قبالتي، ولفّ ساقا على ساق وراح ينتظر بترقب. لأن

سـمعتي كـراوي قصـص كانت معروفـة للقاصي والدانـي، ولأنه كمـا أخبرنـي لاحقـا، كان يحـب أن يتصـوّر نفسـه كأحـد أفراد (الأفيسينادو).

الصحراء الكبرى

عندمـا كنـا صغـارا، بـدأت حديثي، أخذنـا أبونا فـي رحلتنا الأولى إلى الصحراء الكبرى. ذهبنا إلى (حمادة الدرعة)، النجد القاحـل بصـورة بغيضة الذي يمتد على طـول الحافة الجنوبية القصوى من المغرب ويشكّل حدوده مع الجزائر. كان لأبي صديق هناك وهو راوي قصص. كان صديقه هذا يقيم في قرية (محميد الغـزلان)، الواقعـة بالقـرب مـن (عـرق اليهـودي)، علـى حافـة (الحمـادة). كانـت رابطـة رواة القصص رابطة صغيـرة محكمة، وأعارنـا صديـق أبـي جمالـه لكي نقـوم برحلـة إلى (شـيغاغا)، حيـث تكون كثبان الرمـل هناك هي أعلى الكثبـان وأكثرها إثارة للإعجاب في المنطقة بأسرها.

كنـا منبهريـن أيمـا انبهـار لدى رؤيتنا المشـهد الـذي يلتقي بالصحراء من دون توقع أخيرا. سمعتُ أن هذا الانبهار هو شبيه بالعاطفـة التي يشـعر بها أميـر من الأمراء حين يـرث مملكته. وعلى حد قول أبينا، الصحراء الكبرى أشـبه بأفعى ذهبية تسبح في دمنا.

لا أزال أتذكّر مأدبة العشـاء الممتدة على ما يبدو التي صفها لنـا «طيـب»، صديـق أبي، فـي ليلـة مغادرتنـا. في باحـة منزله المفتوحـة، تحـت السـماء المرصعـة بالكواكـب، ثمـة نـار ضخمة تتصاعـد مـن ألواح خشـب شـجر العرعـر كانت توفـر الصحبة

المثاليـة، إن جاز التعبير، للون بعد لون من الحمل اللذيذ وكباب الدجاج، والسمان المطبوخ بالغلي البطيء، والكسكس[43] المصنوع مـن أخـف أنواع السـميد (لباب الدقيـق)، فطيـرة الحمام، جبن الماعـز، (الباسـتيللا)، التمور، التـين، والعصائر الشـهية المحلية مـن البطيـخ الأحمر المطيّب. وكما أشـار أخي أحمـد، الذي كان ينظـر إلى هـذه الأشـياء بتركيز شـديد، بصوت هامـس، إلى أن راوي القصص «طيب»، على ما يبدو، كان يعد نفسه راويا ناجحا. ومن سـوء حظ أحمد، أن أبي سـمع تعليقـه بالمصادفة. وبصوت هامـس أيضـا، انحنى على ابنه الأوسـط وأخبره بـأن يبقي فمه مغلقا إذا كان يريد الاسـتمتاع برفقتنا المتميزة. رد أحمد بحجة مضـادة لـه، لأن الصحراء كانت تومئ إلينـا كخيال مغر من وراء محيط الفناء. وبعد أن شـبعنا من الطعام، تمددنا على ظهورنا في أسـرّة النهار[44] التي كانت مهيأة لهذا الغرض، ورحنا نصغي إلى النسيم الذي يتمتم عبر أشجار النخيل. كان الضوء الأسمر المحمر يغلفنا ويجعل المساء لطيفا.

رحلنا ليلا لكي نتفادى الحر.

كان أبـي يمشـي فـي المقدمة، يقـود الجمال، بينمـا كنا نحن الثلاثة نتبادل الأدوار في ركوبها. وفي طريقنا، مررنا بمنزل جار «طيـب» الـذي كان غارقا في الظلام الدامس. كانت الأسـرة كلها في حالة حداد بسـبب هرب زوجة الابن الأصغر الجديدة بعد أن وضعـتْ طفلا ميتا. كانت من مواطني (تافيلالت)، ومعتادة على

(43) الكسكس: طبق من شمالي أفريقيا، يحضر بتبخير (عجينة) الدقيق على المرق، وغالبا ما يُضاف اللحم والخضر أو الثمار - هامش المترجم.

(44) سرير النهار: سرير ضيق يُحول في النهار إلى أريكة - هامش المترجم.

وديانها الخضراء شديدة الخصوبة، وانتشرتْ شائعة مفادها أنها كانت تجد صعوبة في التأقلم مع الصحراء الشاسعة والقاحلة. أردتُ معرفة المزيد، لكن أبي نهرني قائلا إن هذا شيء لا يعنيني.

أما شقيقاي فكانت تشغلهما أفكار وخواطر أخرى، أقل رهبة. كان كلاهما مفتونا بسحب الغبار التي تثيرها حوافر الجمال بينما كانت تجتاز الرمل. قارنها مصطفى بالفراشات ذات الأجنحة البيضاء؛ قال أحمد إنها كانت تذكّره بالزغب الريشي الأبيض الذي كانت تبطن به طيور (الدج) المغردة أعشاشها في فنائنا الخلفي. ومن ثم قارنها مصطفى بالزبد الذي يفترش الساحل حينما تتراجع الأمواج، بينما قال أحمد إنه شديدة الشبه بالرغوة حينما كانت أمي تطبخ الرز في القدر. كانا منهمكين في الخصام حول أكثر النظائر دقة، حيث كان مصطفى يتهم أخاه بكونه مبتذلا بصورة ميئوس منها؛ بينما كانت ألسنتنا تصطدم بأسناننا كانت جمالنا تمشي متثاقلة، وتجعلنا نشعر بأننا جميعا مصابون بدوار بشكل من الأشكال.

وصلنا إلى (شيغاغا) في منتصف الليل ونصبنا خيامنا في ظل جبل رملي. كانت بعض فروع ضوء القمر تنير الرمل. كان عالما أبيض، الأرض أفتح لونا من أي شيء آخر صادفناه من قبل. كانت كثبان الرمل تتحمل عبء طريقهم عبر المشهد الطبيعي المتموج بلا نهاية، بخفة ومهابة كتحليق النسر. كان الهواء بلوريا في صفائه، لكن حينما كدّرت الريح الرمل، كان الغبار الذي تصاعد أشبه بالدخان على وجه الليل.

ما إن نُصبت الخيام حتى سمح لي أبي بأن أتمشى قليلا. درتُ حول أقرب كثيب رملي وتبعتُ سفحه إلى القاع حيث

انتهى أخيرا ليستريح في أخدود ضيق محجوب عن الرياح. شلالات صغيرة جدا من حبات الرمل رافقتْ مروري بصوت هامس. كان الهواء عذبا وساكنا. جثوتُ وضغطتُ راحتيّ على الأرض، ورحتُ أصغي عبر أطراف أصابعي إلى صوت الصحراء. كان صوتا موغلا في القدم، أكثر تصميما من الجبال، وأقوى من المحيط. صدمني ذلك، لأنني لم أتوقعْ طاقة كهذه، وقد أدركتُ أنه يلزمني أن أنقح صورتي المتعلقة بنظام العالم الطبيعي. ذكّرني ذلك بشيء كان أبي قد ذكره قبل انطلاقنا في رحلتنا تلك: إن لم تر الصحراء الكبرى فإنك لم تر شيئا على الإطلاق.

تمشيتُ متمهلا في أسفل الكثيب، ورحتُ أتبع محيطه إلى أن صار باستطاعتي رؤية جذوره وهي تنبثق من صفحة من الصخر الصلد. دفعني حافز لأن أتمدد على معدتي، ولاطفتُ الجذور بيديّ، وأحسستُ بأنها تتواصل معي بلغة حميمة جدا، لغة واسعة وبعيدة على غرار ليل الصحراء. كانت لغة فهمتها فورا، وكانت لغة متواضعة. وأنا مستغرق في عجبي، بدأتُ أرسم خطوطا في الرمال، رسمتها بطريقة ما بحيث كانت تردد أصداء الأصوات الموجية التي كنت أسمعها في ذهني. كان يهب نسيم خفيف، وكان قد أرسل لوالب صغيرة من الغبار التي كانت قد تبعتني في مساراتي، وبصورة عشوائية راحت تغرف الرمل وتعترض أخاديده الناعمة بقمم وشقوق متناهية الصغر. وأنا غافل عن معجزتها، رحتُ أراقبها برهة طويلة كما يراقب امرؤ صديقا له. كانت قد شقت طريقها عبر الرمال كما تخترق الشبكة الماء وسرعان ما محتْ جميع

سطور أغنيتي. وأنا منزعج قليلا، ساءلتُ نفسي ما إذا كان عليّ الاستمرار في أحاديثي الودية تلك حينما سمعتُ من قمة الكثيب أحدهم يصيح:

حسن!

كان ذاك أخي مصطفى. كان صوته قد وصلني في السكون الذي يهيمن على كل شيء.

لقد تغيّر اتجاه الريح، هتف مصطفى. يقول أبي إن علينا الرجوع!

في الوقت الذي خفت فيه صوته، كان قد أصبح لصقيا بي. وضع يده على كتفي وظل واقفا هناك، وهو يلهث.

يا للسخرية! فكرتُ مع نفسي. كنا قد وصلنا إلى هنا توا. ولم تكنْ هناك أي علامة من علامات الخطر. لم أكنْ مستعدا للعودة بعد.

لاحظ مصطفى ترددي لأنه أشار بإصبعه إلى جهة الشرق. الريح تأتي من ذلك الاتجاه وهي تندفع نحونا بسرعة. استمعْ إليها فقط!

أحاط أذنه بكفه وظل واقفا بلا حراك.

من الأفق ارتفع صوت عالي الطبقة بصورة مخيفة، جعل الشعرات الكائنة في مؤخرة عنقي تنتصب. بدت السماء كلها وكأنها تمتلئ بوعيدها. كانت تشيع في الهواء رائحة كبريتية حادة.

الصحراء في حالة تحوّل، قال مصطفى. علينا أن نتحرك بسرعة.

لا أعرف كيف كنت غافلا عن ذلك، تمتمتُ، وأنا منزعج من

نفسي، ولكنني انزعجت أكثر من ذكاء أخي ذي السنوات الثماني الذي كان يوجه إليّ الأوامر.

خذْ يدي، أشار عليّ.

ما هذا الذي تتكلّم عنه؟ أجبته بحدّة. يمكنني أن أجد طريق عودتي بنفسي! هيا.

تطلّع إليّ من دون أن يصدقني.

ما الخطب؟ سألته.

لماذا تتجه إلى تلك الناحية؟

لأنها الجهة التي أتيتُ منها!

كلا، ليستْ هي الجهة التي أتينا منها، يا حسن. يقع المخيم في الاتجاه المعاكس.

كانت الريح قد بدأتْ ترفعنا الآن، وكان بوسعنا رؤيتها وهي تخب بحوافر ضخمة بيضاء عبر الرمال.

وماذا بعد؟ سأل مصطفى بإلحاح. هل يتعيّن علينا الذهاب؟

نعم في هذا الاتجاه، قلتُ. لنذهب.

مضيتُ عائدا مباشرة في الطريق الذي أتيتُ منه، لكن ما إن سرتُ خطوات قليلة حتى شعرتُ بالرمال تدوّم من حول ساقيّ. كان سفح الكثيب قد بدأ يتموج وكأنه حي.

انظرْ إلى الأفق إن لم تصدقني! صاح مصطفى.

ما من أفق. كان الوضع مخيفا. بدلا من الخط الواضح الأبيض المرسوم إزاء الليل لم يكنْ باستطاعتي أن أرى شيئا باستثناء سديم بني يتلاطم كالموج. ريح لاذعة صفعتْ وجهي، وجعلت عينيّ تدران دموعا غزيرة.

هرع إليّ مصطفى راكضا، وعيناه تتسعان من فرط الخوف.

أنصتْ إليّ، هل تنصت إليّ؟ صاح. أنا أعرف الاتجاه حق المعرفة!

ليس لدينا متسع من الوقت! أجبته بصوت عال، ومددتُ يدي وأمسكتُ به من ذراعه. علينا الخروج من هذا الأخدود والوصول إلى تلك الصخرة الضخمة فوقنا. هل تراها؟ إنها تبعد عنا عشر خطوات من جهة اليمين.

أمسكنا جلابتينا بإحكام، ورحنا نشق طريقنا بصعوبة صاعدين صوب الجلمود. كان سطح الصحراء قد بدأ يتقشر كجلد الأفعى. ارتفع بهيئة موجة عميقة وانطلق بسرعة مفرطة في اتجاهنا. بدأت الحبات الحادة الأولى من الرمل تضربنا حال وصولنا إلى الجلمود. كان الغبار المنتشر في الهواء يمنعنا من التنفس.

ترجلْ خلف الصخرة! صرختُ. غطِّ وجهك واستجمعْ قوتك!

ضغطنا قلنسوتي جلابتينا فوق رأسينا. استللتُ عباءتي بسرعة ولففتها حول جسدينا بأقصى ما أستطيع من قوة. سمعتُ خشخشة أشبه بوابل ومن ثم بهسيس يصم الآذان، كانت العاصفة الرملية قد هجمتْ على الكثيب وبدأتْ تشق طريقها في كل الأنحاء المحيطة بنا. كانت سرعتها عجيبة. تضرب بالسياط عبر الهواء وفوق الأرض وبدتْ كما لو أنها تأتي إلينا من جميع الجهات مرة واحدة. أمسكتُ بأخي وطوّقتُ خاصرته. حشرنا رأسينا بين ركبنا والتصقنا بالصخرة بقوة. كان الرمل قد تدفق عبر ملابسنا وفي داخل الشقوق الكائنة بين جسدينا. شعرتُ بآلاف الإبر تكشط الجلد عن ظهري. بدأتْ عيناي تؤلمانني ألما شديدا وتفيضان بالدمع. كان مصطفى يلهث ويسعل بجانبي.

وملأ أذني صرير مكبوت الصوت طويل الأمد. بدأتُ أختنق وأحسستُ بأن بدن أخي ينحرف نحوي. كانت يداه قد انزلقتا عن خاصرتي. وحينما بدأتُ أظن أن نهايتنا باتتْ قريبة كانت العاصفة قد بدأتْ تهدأ. توقف الرمل عن التسلل في ثيابي. فجأة بدا الهواء كأنه يخف. مددت يديَّ بصورة مترددة إلى داخل العتمة ولكنني لم أشعرْ بشيء يصدم ذراعي.

لقد نجونا من عنف الصحراء الكبرى.

علينا أن نخرج أنفسنا من عمق الرمال التي دفنتنا حتى خاصرتينا. ترنحتُ على قدميّ وأزحتُ إلى الوراء قلنسوة جلابتي. كانت طبقة كثيفة من الغبار قد غشيت وجهي. بصقتُ الرمل من فمي. كان مصطفى يتقيأ عند قدميّ، ورفعته إلى الأعلى. كان وجهه مكسوا بقشرة وبدا وكأنه يضع قناعا أبيض اللون. فتح فمه بطقطقة وكانت شفتاه المجروحتان تتفجران دما. ربّتُ عليه برفق، ولم يكنْ باستطاعتي التكلّم بسبب الصدمة.

أماه! قال بلطف وبصوت باك.

كان المشهد المحيط بنا قد تغيّر كليا. لم تعدْ كثبان الرمل في الموضع الذي اعتادتْ أن تكون فيه. بدا كما لو أننا أصبحنا في موقع آخر بكل ما تعنيه هذه الكلمة. تطلعنا من حولنا ببطء وأدركنا أن أيًّ واحد منا ليس لديه أدنى فكرة عن الطريق الذي كنا نحتاج إلى أن نسلكه لكي نعود إلى مخيمنا. كانت صفحة السماء لا تزال مكسوة بالغبار ولم يكنْ بمقدورنا أن نهتدي إلى طريقنا بواسطة النجوم. شرعتُ أفكر بسيئي الحظ الذين لا حصر لهم ممن هلكوا في الصحراء الكبرى وشعرتُ بذعر رطب. ومن ثم فكرت بأبي وأحمد اللذين فارقا الحياة على

الأرجح، وهويتُ على ركبتيّ ودفنتُ رأسي بين ذراعيّ. أمواج من اليأس مقرونة بالشك وإحساس جارف بالعجز، لكن، أكثر من أي شيء آخر، كان الإحساس الذي بزّ جميع الأحاسيس الأخرى هو ذلك الإحساس الخاص بالإثم. حتى يومنا هذا ما زلتُ مقتنعا بأنني أنا نفسي تسببتُ في العاصفة الرملية بواسطة التجاوز غير المتعمد على حدود الطبيعة من خلال التحدث بصورة ودية كما فعلتُ أنا نفسي مع روح الصحراء. لا بد أنه كانت هناك أشياء كثيرة تتعلق بسطور الأغنية تلك، بحيث لم يكن بوسعي سبر أغوارها في أي وقت مضى.

بطبيعة الحال، في تلك الآونة، احتفظتُ بهذه الأفكار لنفسي وأحجمتُ عن تقاسمها مع شقيقي الذي، بسبب سنواته الغضة، لم يكنْ من المتوقع أن يفهمها.

كما لو أن مصطفى قرأ أفكاري، ففي الحال كسر الصمت.

حسن، قال لي بصوت ضعيف.

ماذا هناك؟

أعتقد أننا ضللنا السبيل.

شكرته بصمت لأنه صرّح بما كان جليا.

دعني أفكر لحظة، هل تسمح لي بذلك؟ قلتُ بنزق.

كانت بحوزتي حفنة من اللوز في جيب جلابتي والتقطتها وأعطيتها له لكي يمضغها. جذبتُ انتباهه إلى الحقيقة التي تذهب إلى القول بأن الريح لم تعدْ مسموعة.

كنا موفوري الحظ لأن تلك كانت عاصفة رملية صغرى، قلتُ له، وأنا أكلّمه بثقة عالية بالنفس كانت قد ضخمتْ جهلي المطلق بالحقائق. لو كانت تلك عاصفة كبرى، مضيتُ أقول، لكنا

دُفنا عميقا تحت الرمال. لذلك قدّر تلك النعم، واشكر نجومك.

أيا منها؟

ماذا تعني بأي منها؟

أي نجم يتعيّن عليّ أن أشكره؟ قال ببؤس. قلتَ لي إن عليّ أن أشكر نجومي لكنني لا أعرف مَا نجومي. وعلى كل حال، إنني حتى لا أستطيع رؤية نجم واحد من خلال هذا السديم.

وضعتُ ذراعا مطمئنة حول كتفه.

عليك إذن أن تنتظر حتى زوال الغبار، قلت له ناصحا. وفي غضون ذلك، توقفْ عن الدردشة. إنني أحتاج إلى أن أقرر ما الذي ينبغي علي القيام به لاحقا.

وعلى حين غرة ارتجف كما لو أن قشعريرة سرتْ في جسده.

كم هي هادئة هذه الصحراء! همس مصطفى. إنني خائف يا حسن.

لا حاجة للخوف، أجبته. لنصعد إلى قمة تل الرمل. ربما تكون هذه صحراء شاسعة، لكن بيننا نحن الاثنان سنعثر على طريقنا للخروج منها.

حسنا، وافق مصطفى، من الجلي أنه مسرور بأن يكون قادرا على الانخراط في أي نشاط مهما كان نوعه. إنني معك. لن نضل السبيل.

وصلنا إلى قمة تل الرمل، وانفتح الليل بكل سكونه. كان الغبار معلقا في كل حدب وصوب، وكانت تنتشر في الهواء رائحة لاذعة وحادة، أشبه برائحة لصقة طبية لاذعة. ومن مكان بعيد، كان بوسعنا سماع همس حيث كانت العاصفة ما تزال تثور. أما في الموقع الذي كنا فيه فكان الوضع ساكنا بصورة رحيمة. وكما

أشار مصطفى لاحقا، كانت الصحراء خرساء، أما السكون فكان عميقا.

لا أحب هذا المكان، قال مصطفى.

لا تقلق، لن نمكث هنا طويلا. سنتحرك في وقت قريب.

أنا مصاب بالإعياء يا حسن.

أعرف ذلك، لكنه يتعيّن علينا التحرك الآن، ليلا. ففي النهار ستقضي علينا حرارة الشمس الحارقة.

لن يحدث هذا إذا ما بدأنا حركتنا في وقت مبكر بصورة كافية، قبل طلوع الشمس.

لا تناقشني! إنني أعرف ما سأقوم به.

تأملتُ الأفق وقررتُ أيّ الاتجاهات ينبغي لنا أن نسلكه. أخبرتُ مصطفى وشعرت بالارتياح عندما لم يعترضْ عليّ. انطلقنا في مسيرنا بخطوات متساوية، متقدمين بصورة سريعة نسبيا. على الرغم من أنه لم يكنْ هناك مطر، كان الرمل قد تجمد في كتل. تساءلت ما إذا كانت القوة الغريبة للريح قد تمكنت من فعل ذلك.

وفي لحظة ما قال مصطفى: لا يلزمك أن تتظاهر.

أتظاهر بخصوص ماذا؟ سألته من دون أن أبطئ مسيري.

تتظاهر بأنك تعرف إلى أين نحن ذاهبان.

توقفتُ عن المشي وحملقتُ في وجهه، وأنا أشعر بالغضب.

هل تعتقد حقا أنني أقضي الليل ماشيا هنا وهناك لمجرد أن أسلّي نفسي؟

أطلق تنهيدة عالية.

إنه كبرياؤك الذي يتكلّم، رد عليّ. كنْ منطقيا، يا حسن. نحن بحاجة إلى الراحة. لا يمكننا أن نظل نمشي هنا وهناك

إلى الأبد. في اعتقادي يجب علينا الانتظار ريثما تبزغ الشمس. أو، على الأقل، ريثما تصحو السماء ويكون بوسعنا رؤية النجوم.

رغما عني، كان عليّ أن أسلّم بصحة ما ذهب إليه. اعترفتُ له بنفس القدر من السخط، والارتباك، وبإحساس واضح بالارتياح. ومن ثم حدق فيّ بتعاطف.

لا تقلق في ما يتصل بذلك، قال لي ببهجة. كنت أعرف طوال الوقت أننا ضللنا الطريق. سوف نخرج من هنا غدا. الأمر، كما قلت، بيننا نحن الاثنان، سوف نصل إلى شيء ما. أما الآن، فهل بوسعنا أن ننعم بقليل من النوم؟

كنت أود أن أسأله كيف يقوى على التفكير بالنوم في وقت كهذا، لكنني لزمتُ الصمت. وبدلا من ذلك، أجلتُ البصر من حولي واقترحتُ بقعة في الجانب الذي تهب نحوه الريح من تل الرمل الذي كنا موجودين فيه.

صنعنا منخفضا في الرمل وغطسنا فيه. كانت الريح تهب حذرة من حولنا، وكانت شديدة البرودة. كانت قد أقنعتني بحقيقة وضعنا. الآن وقد تحملنا وطأة عاصفة رملية حارقة، كان يلزمنا أن نتبارى مع عدو جديد ومؤذ بالقدر نفسه، ألا وهو البرد القارس لليل الصحراء. وكان قد جعلني أتساءل ما إذا كان من الأفضل لنا نحن الاثنان مواصلة السير فقط لا غير؛ على الأقل كنا ظللنا نشعر بالدفء. وبينما كنتُ أفكر مليا في الاحتمالات التي تنتظرنا، بدأتْ أسناني تصطك.

رفعتُ بصري ناظرا إلى السماء ورأيتُ أنها بدأت تصحو. وكان باستطاعتي تمييز أول الكواكب فوقنا مباشرة. هي ذي، أخيرا، الخارطة التي كنا نحتاج إليها! التفتُ إلى مصطفى

لألفت نظره إلى ذلك، لكنه لم يحركْ ساكنا. سرعان ما غطّ مصطفى في نوم عميق. ولأنني قررتُ عدم إيقاظه، لففتُ عباءتي حول جسدينا. وفي الحال أحسستُ بدفء بدنه يطوقني كالبطانية. يا له من دخول فريد من نوعه إلى عالم الصحراء، فكرتُ، لكنني حتى حين فعلتُ ذلك، كان الإعياء قد أخذ مني كل مأخذ وسرعان ما خلدتُ إلى النوم.

في تلك الليلة حلمتُ أنني ملفوف بملاءات بيضاء طويلة. بدا الحلم غريبا ومألوفا في آن واحد، ومنذ ذلك الزمن ساءلتُ نفسي مرارا ماذا كان يعني ذلك الحلم. هل كانت تلك الملاءات تمثل برد الصحراء القارس؟ أم أنها كانت تعني بديلا عن كفن الجنازة، كما اقترح أبي لاحقا، وهي علامة تدل على مدى قربي من الموت؟ لكنه لم يكنْ هناك خوف في الحلم ولا أي إحساس بالتهديد. بالأحرى، كان ثمة شعور بالترف الضعيف جدا لم يسبقْ لي أن شهدتُ مثيلا له من قبل. كان ذلك أشبه بشيء من (كتاب ألف ليلة وليلة). ومهما كانت الحقيقة - إن كان ثمة شيء كهذا يوصف بأنه حقيقة في الأحلام - فإنني أفكر بها الآن بعد أن أمست من الماضي، أفكر بها من دون أن أي يراودني أي قدر من الإحساس بالتنوير مثل ذاك الذي شعرتُ به في حينها.

كان صوت (كيوتل - كيوتل) الشبيه بصوت آلة (الفلوت) الذي أطلقه طائر من طيور الصحراء هو الذي أيقظنا من النوم. لم يكنْ باستطاعتنا رؤيته، غير أن صوته كان متواصلا ومليئا بالحيوية. قال مصطفى الذي كان مغرما بالطيور إنه صوت قطا متوّج. رد على صوت القطا، ويا لعجبي وغبطتي، رد الطائر على مصطفى.

طردنا النوم من عيوننا ونهضنا نحو فجر وردي اللون. من جميع الجهات المحيطة بنا، كان الليل يتبدد، وكانت أسواره الظليلة تنسحب للوراء. وكما شاهدنا، كان القمر الشاحب قد انزلق نحو الأسفل وغابتْ آخر النجوم.

في الضوء الرمادي كنا قادرين على رؤية الضرر الذي ألحقته بنا العاصفة الرملية بوضوح أكثر. كلانا غمرتنا الرضوض والخدوش، وقال مصطفى إن لدي خدشا كريها على خدي الأيمن. فأشرتُ له إننا لا نزال على قيد الحياة وهذا هو أهم شيء.

أجل، بالطبع، قال مصطفى بصوت ضاحك. يا لها من قصة تلك التي سنتقاسمها مع الجميع!

حسنا، هو ذا أنت إذن، قلتُ بلطف. الموقف هو الذي يؤخذ بالحسبان. بالموقف الصحيح باستطاعتنا أن نقهر العالم.

شعرتُ بتورم في حنجرتي بينما كنتُ أفكر في النهار الذي نحن بصدده وأخمن فرصنا في البقاء. كان خوفي الأكبر هو أن يدركني وهج الشمس الحارقة وأنا في العراء، لكنني احتفظتُ بمخاوفي لنفسي. واكتفيتُ بأن أومأتُ برأسي لأخي وحثثنا خطانا صوب الوهج الأحمر في الأفق. كانت كثبان الرمل التي بلون (الكراميل) قد ذكّرتني على نحو غريب بأمواج المحيط.

بعد أن مشينا طويلا، خاطبني مصطفى قائلا: أتعرف أن والد صديقي صلاح تاه في الصحراء؟

كلا، أجبته بصورة جافة، ليستْ لديّ أي فكرة.

لم يته في هذه الأنحاء، بل في بقعة شرق هذا المكان، على مقربة من (مرزوكة). جرى ذلك خلال سباق السيارات بين باريس

وداكار. كان يعمل ميكانيكي سيارات، وقد مضى إلى هنالك لتقديم المساعدة إلى إحدى الفرق المشاركة في السباق. لا علم لي بالتفاصيل، لكن الخبر نُشر في الصحف. بحثوا عنه على مدى أيام عدة، لكنهم في نهاية الأمر تخلوا عن ذلك. وعلى كل حال، بحوزة أم صلاح شهادة من منظمي سباق السيارات تثبت مشاركته في السباق.

ألقيتُ عليه نظرة مدمرة.

هل لديك قصص أخرى تحكيها لي عن أناس تاهوا في الصحراء؟ انتظرتُ جوابه، لكنه لم يفهم معنى تهكمي. فكّر لحظة واعترف قائلا إن تلك هي القصة الوحيدة التي كان يعرفها.

حسنا، أنا مسرور، أجبته.

لم تحب هذه القصة، صحيح؟ سألني، وهو يبدي عجبا أصيلا.

ربما كنتُ سأحبها أكثر لو أنهم عثروا عليه، أجبته.

تجهمتْ سحنته. أوه حسنا، اعترف قائلا، هنا بيت القصيد، بالطبع. أخمن أنني فهمتُ ما قصدته.

كان يهمّ بمواصلة حديثه حينما توقف بغتة خلال مشيته السريعة.

انظرْ، قال برفق، ثمة شخص ما يقف أمامنا.

أين؟

هناك، ألا ترى؟ بمحاذاة الصخرة الشبيهة بالسهم.

الصحراء تخدعنا بألاعيبها، فكرتُ، وألقيتُ نظرة عامة على المنطقة التي أشار إليها. كان بوسعي تمييز الصخرة، إنما، بقدر ما أستطيع الجزم، لا وجود لشيء آخر هناك.

كان مصطفى قد شرع أصلا بالركض في ذلك الاتجاه. ركل بعقب قدميه الانتفاخات الصغيرة من الغبار. تبعته وسمعته يصيح: مرحبا، أنت يا مَن هناك! هل بوسعك أن تساعدنا، من فضلك؟ نحن تائهان.

خفض سرعته حالما دنا من الصخرة وكنتُ قادرا على اللحاق به. التفت إليّ ووجهه شاحب، وعيناه ضيقتان من فرط الحيطة والحذر. وعلى حين غرة، تحرك بضوضاء نحو أحد الجانبين. ومن خلال التعابير البادية على محياه، يمكنني الجزم بأن شيئا ما ليس على ما يرام.

حسن، ناداني بهدوء، تعال إلى هنا بسرعة.

حسنا، قلت، وبدأتُ أتقدّم على مضض.

زحفتْ نحوي رائحة عفنة ولاحظتُ أسرابا طنانة من الذباب. وحتى الهواء بدا أثقل في ظل الصخرة. تحسس مصطفى اضطرابي وقلقي ورفع يده.

ما هذا؟ سألته هامسا، وأشار بإصبعه.

كان هناك شخص ما يجلس من دون حراك على الإطلاق على الجانب الآخر من الصخرة.

كانت تلك امرأة شابة، نحيلة العود، مجللة بفستان قرمزي اللون مطرز بالذهب. عديمة الحراك ومجردة من نبض الحياة، كانت تجلس هناك وهيكلها الهش يستند إلى الصخرة. كان وجهها يابسا وأسود، عيناها المبيضتان تحدقان نحو الشمس مباشرة. كان يتجلى في نظرتها البدائية والأصيلة رضاها العميق والتام بمصيرها.

مصطفى، قلتُ هامسا، أعتقد أننا عثرنا على الزوجة الهاربة.

ويا لفزعي، خطا مصطفى نحو الأمام ولمس وجهها.

ابتعدْ عنها! قلتُ له، مصعوقا.

كم مضى على وفاتها، بحسب اعتقادك؟

وما أدراني. تنحَّ عنها!

انتظرْ، ألا تنتظر!

سحب برفق الحلي الفضية في شعرها.

لا بد أن لبس هذه الحلي تطلب تفكيرا طويل الأمد، قال مصطفى، وجفلتُ أنا بسبب الرقة والرهافة في صوته.

مسح وجهها بنظرات عاجلة.

هذا شيء يبعث على الحزن والأسى، قال بنبرات هامسة.

ماذا حدث لها في اعتقادك؟

ليس لديّ أدنى فكرة.

أتحسب أنها ماتت من الحسرة؟

ربما.

لا أريد أن يحدث لنا أبدا شيء من هذا القبيل.

دنا منها لكي يلمس يدها. في بادئ الأمر، ظننتُ أنه كان يبغي مس الفراشة البيضاء التي رفرفتْ بجناحيها حينما مس أصابعها مسا خفيفا. لكنه تجاهلها، وبدلا من ذلك، رفع بقوة شيئا ما لم تكنْ تمسكه بإحكام في قبضتها. كان أشبه بحجر أحمر يتخذ شكلا ما إنما تبين لاحقا أنه محبرة بهيئة أسد. وبينما هو ينظر إليه، قال أخي، بصوت كئيب بصورة مميزة: إنني أحبك، يا حسن. إن صادفتك أي مشكلة، فسأضحي بحياتي لكي أنقذ حياتك.

سوف ينقذ أحدنا حياة الآخر، قلتُ مصححا كلامه.

نعم، لكنني سأنقذ حياتك أولا.

شكرا لك، قلت له، وقد أثار إصراره مشاعري. كلماتك هذه ستظل عالقة بذهني.

ويا لدهشتي، طبع مصطفى قبلة على الأسد ودسه في جيبه، وهي فعلة وجدتها غير مبررة البتة.

ما هذا الذي تفعله؟ قلتُ بسخط. إنه يخصها!

هي ميتة.

أَرْجِعِ الأَسد ولا تجادلني! نحن لسنا لصوصا.

إنه ملكي الآن، قال لي، وكان فكه الأسفل يتخذ وضعا عنيدا. إن من يجد شيئا يحق له الاحتفاظ به، أضاف قائلا. هكذا هو الحال دوما في دنيانا.

لا طائل وراء الجدال معه بشأن أحوال دنيانا. إذا كان يريد الاستحواذ على المحبرة بتلك الطريقة السيئة، فبوسعه أن يفعل ذلك. كل ما تمنيته الآن هو العثور على أبي وعلى أحمد قبل أن تصبح أشعة الشمس قوية جدا.

حسنا، قلتُ باقتضاب. إذا كانت المحبرة تعني لك شيئا كبيرا، فواصل مسيرتك واسرقها من الجثة. إنني مسرور لأنك لا تؤمن بالخرافات.

إنها تكلّمني. ستكون تعويذة حظي السعيد.

لقد أفادتها كثيرا جدا، قلتُ بهزء. هلّم بنا. لنذهب.

شعرتُ بأن ساقيّ غير مستقرتين حينما انطلقنا في مسيرتنا مجددا. غطستْ أقدامنا في الرمل في كل خطوة نخطوها لكننا تصرفنا كالجنود، ووجهنا أنفسنا بحسب الشمس. مع أن أشعة الشمس لم تكنْ بكامل قوتها، كانت

تسقط علينا متوهجة بضراوة. كان النظر إلى السماء فعلا مؤذيا. بدأتْ ظلالنا تذوب. وحتى حواشي الغيوم في الأفق كانت تقريبا بيضاء جدا. ورويدا رويدا، بصورة لا ترحم، بدأتْ عيوننا تكتسي بقشرة وحنجرتانا أصبحتا جافتين. كان الرمل يحرق أقدامنا. لم يكنْ هناك أي ظل على مدى أميال عدة. حينما اشتكى مصطفى من كونه بدأ يرى شموسا عديدة، كنتُ أخشى حدوث ما هو أسوأ. دنوتُ منه وأمسكته من يده وجررته إليّ. وحينما انتصرت عليّ حرارة الجو، سمعتُ اسمينا يُنادى بهما: حسن! مصطفى!

رفعنا وجهينا وجعلنا رأسينا منتصبين. بعيون مفتوحة على وسعها تتبعنا أثر النداءات حتى مصدرها. هناك، على قمة كثيب رملي يبعد عنا مسافة كبيرة إلى الأمام، كان أبي وأحمد واقفين، كل منهما يلوّح ببطانية حمراء قانية. على خلاف جميع التوقعات، عثرنا عليهما. شرع مصطفى يرقص طربا وأطلق صيحة فرح. أما أنا، ببساطة أغمضتُ عينيّ وارتخختْ ركبتاي تحتي انطلاقا من شعوري بالارتياح.

الأسد الحجري

تقلب جمهوري الذي يتكون من فرد واحد حين أنهيتُ كلامي.

الصحراء الكبرى في حقيقة الأمر ليستْ من النوع الذي يمكن المزاح معه، قال مصطفى بوقار. لستُ بربريا، إنما باستطاعتي أن أفهم سلطتها على قومكم.

توقف عن الحديث هنيهة ونظر إلى السقف، حيث كانت ذبابة قد حطتْ عليه.

كان حلمك غريبا، قالها رجل الشرطة بصورة غير متوقعة نسبيا. هل تحلم كثيرا؟

أحلم في بعض الأحيان.

أما أنا فلا أحلم. لو كنتُ أحلم لأصبحتُ راويا على غرارك. عوضا عن ذلك، أنا أتشبث بقلم الحبر هذا من أجل تسجيل الجرائم بكل صنوفها.

أصبح رجل الشرطة كئيبا.

كل شيء يُعزى إلى المال. لي أسرة كبيرة العدد عليّ إطعام أفرادها. حينما يكون لديك ستة أولاد، ليس لديك أدنى فكرة كم تتطلب إعالتهم من الكفاح.

تطلّع إلى السقف مجددا إذ يبدو أن الذبابة استحوذتْ على إعجابه.

حسنا، هذه قصة شيقة، قال رجل الشرطة في الختام. لفت انتباهي إلى الحقيقة القائلة إنه خلال الوقت الذي كان يستمع فيه إليّ كان قد حوّل غصين الجوز الذي كان يلوكه إلى قطع صغيرة. لم يحدث ذلك من قبل، أسرّ لي حينما تنحنح وبصق الشظايا في دلو معدني.

هل أبلغتما عن العثور على العروس المفقودة؟ سأل رجل الشرطة.

أجل، أبلغنا، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليها.

هل هو اختفاء آخر لا يمكن تفسيره؟

أعتقد هذا.

لا بد أن حيوانا بريا أو سواه كان قد حملها بعيدا، اقترح رجل الشرطة.

ربما.

يـا لها من نهاية رهيبة لكائن بشـري. وفي ذلك العمر، زيادة على ذلك.

توقف فجأة وحدق فيما حوله بارتباك وحيرة.

إنني أقول: من أين أتت كل هذه الرمال؟ يمكنني أن أقسم إن الكناس نظّف المكان قبل ساعتين مضتا. هذا شيء غريب.

كشـط أرضيـة الغرفـة بأسـفل حذائه وسـألني بصـورة غير ملائمة نوعا ما، ما إذا بوسعه رؤية المحبرة.

هـي ذي إذن؟ قال رجل الشـرطة، وهـو ينظر إليها بحذر. في اعتقادي أنها لم تجلبْ حتى لأخيك الحظ السـعيد. كان يتعيّن عليـك الإصـرار بأن يتركهـا أخوك هنـاك. لو كنتُ فـي مكانك، لتخليتُ عنها، وعلى جناح السرعة.

أين شقيقي؟

نظـر إلـى سـاعة معصمـه وجفـل. وبينمـا كان يحـدّق إلـيّ معتذرا، اسـتأذن مني لكي يذهب ويكتشـف السـبب الذي يجعل مصطفى محتجزا لديهم.

سأحضره إليك بنفسي، قال لي. لن أتأخر كثيرا.

وفّـى رجـل الشـرطة بعهـده، إذ عاد بعـد دقائق قليلـة ومعه مصطفى.

تطلعتُ إلى أخي بفزع. كان شيئا موجعا أن أراه مرتديا ثياب السـجن وفي يديه الأغلال. كان وجهه متجهما ومهموما، وكانت هنـاك كدمـة أرجوانيـة كبيرة علـى جبينـه، وبدا أن عمـره ازداد عشرين عاما على الأقل بين ليلة وضحاها. ومهما يكن من أمر، كان يتحلى بهدوء مميز. جلس مصطفى على الكرسـي الصغير

الـذي أحضـروه وتطلّع إليّ بهـدوء من خلال الحاجز الشـبكي. نظـرتُ إليه بدوري، ووجدت أن من المسـتحيل تفهم ظروفه التي تغيّرت تغيرا قاسيا ومفرطا.

أوه، مصطفى، مصطفى! انفجرتُ قائلا بيأس. ماذا فعلت؟

مرحبا، حسن، قال لي. صباح الخير.

تحدث مصطفى برقة من دون أي عاطفة واضحة. كانت تبدو عليه العزلة بمعنى من المعاني، وقد عزوتها إلى وضعه. وأنا أشير إلى الكدمة، سألته قائلا: هل ضربوك؟

هز كتفيه بلا مبالاة.

إنها طريقتهم المألوفة هنا.

حملقت في رجل الشرطة وأومأتُ بحدة إلى أخي. تورد رجل الشرطة وتحاشى نظرات عينيّ منذ تلك اللحظة فصاعدا.

ظل مصطفى يحدّق فيّ بهدوء. ومن ثم انتبه إليّ وأنا أحمل كيسه البلاستيكي.

أرى أنهم أعطوك مقتنياتي، قال لي. أنا مسرور برؤيتك.

رفعتَ الأسد الحجري: من أين حصلت على هذا؟

سـأخبرك خلال لحظة، قال لي، وهو يرسـل نظرة ذات مغزى إلى جهة رجل الشرطة.

حتـى يومنـا هـذا كنـتُ قـد أحجمتُ عـن إخبارك كـم كانت سـرقتك ثقيلة الوطأة عليّ في حينها، قلت له. الآن، لا أستطيع أن أتمالك نفسي من التفكير في كونها جلبتْ لنا سوء الطالع.

هز رأسه مؤيدا.

أخـي المؤمـن بالخرافات بالوراثـة. متى تتعلّم؟ قـام بإيماءة عرضية، وهو يمرر يده عبر خصلات شعره.

هــذا ليــس مهما جدا، قــال مصطفى، ولكن بمــا أننا نتناول موضــوع المقتنيــات، مــن فضلك أعــطِ مجموعتــي المنتخبة من شــرائط التســجيل الموســيقية، وعلــى وجه الخصوص شــرائط «خالــد» والشــاب مامــي، و(دي جي دا كوول) إلــى صديقي «عمر» مــن الصويرة. إنك تعــرف أين يمكنك العثور عليه. لقد زرنا معا مخزن الطبول الخاص به قبل بضع سنوات خلت.

نعم، بالطبع، أجبته، ورحت أتســاءل مع نفسي: لماذا، من بين الأشــياء كلها، يجب علينا التحدث عن بعض شــرائط التسجيل الموسيقية المهجورة.

لا بــد أنه حدس الأفكار والخواطر التي جالتْ في ذهني لأنه ابتسم لي بسمة باهتة، ولسان حاله يقول: سامحني، أعرف أنها لا تعني لك شيئا البتة، لكنها ذات قيمة كبيرة في دنياي.

مــا الــذي تعتــزم القيام بــه حاليا؟ ســألته، وأنا أشــعر بأنني أحمق نوعا ما حتى وأنا أنطق بالسؤال.

جوابه جعلني ألوذ بالصمت.

بصــوت متــزن تماما، قــال لي: أنــوي أن أقضي بقية ســنوات حياتي في عزلة واســترخاء. بعد عمر من الانغماس في الأهواء والنزوات، أتمنى أن أجد الســكينة والســلام في الســجن. بحسب معتقدات ديننا، حيث يكون فضاء الجامع هو تجربة مســبقة لما يكون عليه الحال في الجنة، أعد الخطط لكي أحوّل زنزانتي إلى مــلاذ للصــلاة. لا أتوقع أن يكون الأمــر غاية في الصعوبة. وعلى كل حال، ما من دين رائع في بساطته كالدين الإسلامي.

تطلعــتُ إليــه، وأنا أجــد صعوبة في تصديق ما ســمعته توا. وفي نهاية الأمر، تمكنتُ من الشروع بالحديث.

لقد وجدتَ الدين؟

لا بد أن صوتي كشف عن حقيقتي لأنه ابتسم.

لماذا تجد ذلك شيئا عصيا جدا على الفهم؟

لا أدري. إنه مجرد شيء مفاجئ جدا، هذا هو كل ما في الأمر.

ستتفهم ذلك، حسن، كما حصل معي. امنحه فقط قليلا من الوقت.

كنتُ أحسب أن طموحك الوحيد في الحياة هو أن تكون شخصا حضريا رفيع الثقافة.

تغيّر هذا الأمر حين وقعتْ عيناي عليها.

حدّقت إليه مدة طويلة جدا، وأنا أسائل نفسي عن أفضل السبل للرد عليه. لا جدوى من ذلك. تخليتُ عن الأمر وكان بمقدوري فقط إخباره بأن أفعاله عصية على الفهم.

لماذا هي عصية على الفهم؟ سألني.

هل قادك الإحباط الشديد في الحب إلى هذا المآل؟

لا أدري ما إذا كان يتعيّن عليّ أن أقول ذلك. إنني أشعر أنني حققت مرادي ومتصالح مع ذاتي. الحب الحقيقي وحده هو الذي يبرر التضحية، وقد ضحيتُ بنفسي من أجل أعظم أنواع الحب قاطبة: ذلك الحب الذي من المؤكد أن يبقى من دون جزاء. كما ترى، إنني مغرم بها من كل قلبي، وعندما تحب امرأة بهذا القدر الكبير، تكون مستعدا للتخلي عنها.

لكنها لم تكنْ ملكا لك، وهذا أول شيء! أجبته محتجا.

تلك هي مسألة جانبية، رد عليّ، وكان صوته واقعيا بحيث بدأتُ أخشى على سلامة عقله. وببسمة طفيفة، استطرد قائلا:

كل منا يسافر وحيدا نحو الحب، يسافر وحيدا نحو الإيمان ونحو الموت، إنما في بعض الأحيان تستطيع لحظة جميلة أن تكون بمنزلة الحجرة المفضية إلى الفردوس. لقد لمحتُ الخلود في الوقت الذي أمضيته معها. كيف يمكن مقارنة أي شيء آخر بلحظات الشعور الصافي تلك؟ كل ما أريده الآن هو التشبث بتلك اللحظات، ولا شيءَ غير ذلك.

أنتَ تخطط، إذن، لأن تدير ظهرك للعالم؟ سألته، وأنا أحاول جاهدا أن أبقى هادئا.

إنني أنوي أن أفكر في كل يوم أولا فأولا، أجابني. لن أفكر بعد الآن في المستقبل؛ لن أفكر بعد الآن في الماضي. الحاضر وحده هو الذي يهمني، والحاضر سيكون معيشا في دنيا الروح، حيث لا وجود لشيء باستثناء السكينة والسلام.

لم يعدْ باستطاعتي السيطرة على نفاد صبري.

حسنا، إنني مغتبط لأنك وجدت سكينتك وسلامك، قلت له. لكن ماذا عنا نحن الآخرون؟ ماذا سأقول لوالديّ، على سبيل المثال، أو أحمد وزوجته؟ هل أقول لهم إنك تحولت من رجل منغمس في الملذات إلى رجل متصوف بين ليلة وضحاها؟ وهذا التحوّل جرى في سجن دخلته عن جريمة لم ترتكبها؟ هل يعني هذا لك شيئا؟ أرجوك قل لي لأن كلامك بالتأكيد عديم المعنى بالنسبة لي.

لا أعرف ماذا أقول لك، يا حسن. ليس لديّ أجوبة عن أسئلتك. إنها أسئلتك أنت وليستْ أسئلتي. جل ما أعرفه هو أنني وصلتُ إلى موضع مختلف تماما في حياتي. قد يكون من الصعوبة فهم الأمر من منظور العالم الذي تحيا فيه، إنما أرجوك افهمْ أنني غادرتُ ذلك العالم وأصبح وراء ظهري.

أحسستُ بيأس مفاجئ حين واجهني هذا الغريب المبهم تماما الذي كان أخي. ألفيتُ نفسي أبحث عن كلمات استعصتْ عليّ. كيف يكون بمستطاع الدم أن يكون غريبا جدا على الدم؟

مصطفى، قلت له، إن عالمي يتهاوى.

لا بد أن شيئا ما في صوتي لامس وترا حساسا فيه، لأنه اقترب من قضبان الحاجز السلكي وضغط وجهه عليها. بدتْ عيناه حتى أكثر غموضا بالنسبة لي، حنونتين ومليئتين بالتأمل الكئيب.

قل لي كيف يمكنني أن أقدّم لك المساعدة، قل لي، وسأبذل أقصى ما أستطيع من أجل ذلك.

انظرْ، قلت له، لا أعتقد أن لك أي صلة مهما كانت بالأحداث التي وقعتْ في الساحة. على الأقل قلْ لي ماذا أخبرت رجال الشرطة. ما قصتك؟ ماذا أخبرتهم لكي تودع نفسك خلف القضبان؟

لا تقلقْ، يا حسن، قال لي باسما. يمكنك أن تريح بالك. أنا راوي قصص جيد حالي حال أي فرد من أفراد أسرتنا.

لكن لماذا فعلتَ ذلك؟ إنك تعرف جيدا أنك بريء!

أتتذكر ما أخبرتك به في الصحراء بعد العاصفة الرملية؟ في ما يتعلق بأن أضحي بنفسي من أجل إنقاذ حياتك؟

أجل، أجل، أتذكر بالطبع. لكن ما علاقة ذلك بما نتحدث عنه الآن؟

وهل تتذكر كيف تعوّدتَ أن تقول لي: إن جميع الأعمال الإبداعية العظيمة هي بمنزلة إيماءات للتحدي؟ حسنا، هو ذا كلامك يتجسد على أرض الواقع. هي ذي إيماءتي بالنيابة عنك. استمعْ إلى قصتي وقلْ لي رأيك فيها.

الرمل

انتظـرْ دقيقـة، قلتُ له، والتفـتُّ إلى صديقي السـابق، رجل الشـرطة، الذي كان يجلس في ركن الحجرة ويلقي علينا نظرات متفحصـة. سـألته كـم طـول الوقت الـذي يمكـن أن أقضيه في مقابلتي أخي.

نصف ساعة أو نحو ذلك، أجابني.

في تلك الحالة، هل تسمح لنا إذا زاد على ذلك؟

نظر إليّ ببلادة حس. ليس مسموحا لي، رد عليّ.

تمشيتُ إليه وسلّمته باليد ورقة نقدية كبيرة كنتُ جلبتها خصيصـا لهذا الغـرض. لم ينبسْ أي منـا بكلمة حينما دس النقود في جيبه. ويا لعجبي، على أي حال، استمر في جلوسه هنـاك، وأدركـتُ أن التدابيـر الأقـوى الأخرى كانـت مطلوبة. فكـرتُ لحظـة بينمـا كان يتطلع إلـيّ بجمود. ومـن ثم خطا خطـوة إلـى الوراء ووجـه انتباهه إلى الرمل الذي كان يكسـو أرضية الغرفة.

ذلك الرمل الذي لاحظته في وقت سابق، قلتُ بهدوء، هو من الصحراء الكبرى.

نظر إليّ كما لو أنني فقدتُ عقلي.

اخرجْ من هنا! قال لي بسخرية.

انحنيتُ للأمام ونظرتُ في عينيه مباشرة.

إنني في منتهى الجد، قلتُ له. تسلل الرمل إلى الغرفة بينما كنتُ أسرد عليك قصتي. قل لي كيف يتسنى للرمل أن يدخل إلى هنا بخلاف ذلك.

كان يهمّ بمناقشتي من جديد حين رفعتُ يدي.

بالمناسبة، قلت بصورة عرضية، هل يمكنك أن تتفحص جيوبك، من فضلك؟

نظر إليّ بارتياب، وبعدها دس يديه في داخل جيبَيْ بنطلونه. وبينما كان ينقب فيهما كرجل ممسوس، أخرج حفنتين من الرمل.

وبينما كان ينظر إليّ بقدر من الدهشة لم تكنْ تخلو من الخوف، همس قائلا لي: كيف يمكن أن يحصل هذا؟

لي القدرة على ذلك، أجبته. الآن دعنا، أرجوك.

كان لدي إحساس بأنه سيكون مسرورا بأن يغادر الغرفة عقب ذلك. وحين عدتُ إلى شقيقي، رأيته يتطلّع إليّ بلهو.

عمل جميل، قال لي مصطفى، وابتسم. متى تعلّمتَ هذه الحيلة؟

من صاحبي أكرم، الساحر، أجبته. إنه لا شيء.

نظر إليّ مصطفى بتصميم.

أنا متأسف لأنني جعلتك تواجه هذه الحال، أشار مصطفى. إنني أرى أنك لا تبتسم. حسنا، إنني ممتن لأنك هنا.

إنها الأشياء التي يجب عليّ القيام بها من أجلك، قلت باقتضاب. على أي حالٍ، ماذا لديك لكي ترويه لي؟

أمال رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه نصف إغماضة.

ما قاله لاحقا حبس أنفاسي.

ماذا ينبغي لي أن أقول لك؟ ببساطة ما يلي: شاهدتها ثانية تلك الليلة بعد (الرواي).

توقف هنيهة لكي يرى وقع كلماته عليّ. كنت أعرف أنه يراقبني عن كثب.

حقا؟ قلت. لماذا يتعيّن عليّ أن أصدقك؟

هل لديك بديل آخر؟

قصة مصطفى

عندما لم أردَّ عليه، مال أخي إلى الأمام وشرع يتكلم بهدوء شديد، بهمس تقريبا، وكأنه قلق من احتمال أن رجل الشرطة لا يزال يستمع إلينا، مع أنه كان قد غادر الغرفة. وبينما هو يتحدث، كان باستطاعتي سماع أصوات حركة المرور في الخارج، أو أصوات المشاة وهم يتحاورون بضوضاء. في تلكم الأوقات، كان يتعيّن عليّ أن أميل إلى الأمام لكي أنصت إليه بصورة أفضل وخطر ببالي أننا كلينا قد قمنا حتما بمشهد مثير للسخرية، بوجهينا الملتصقين معا عبر قضبان الحاجز الشبكي.

بادئ ذي بدء، قال مصطفى، أريدك أن تفهم، بكل ما تعنيه هذه الكلمة، أن تلك هي ليلة أفضل يوم في حياتي. أتمنى أن أحتفل بذكرياتها خلال ما تبقى من أعوام عمري، وأؤكد لك أنني لا أبالغ في ما أقول. بطبيعة الحال، لم يبدأ الأمر بتلك الطريقة. في البداية، حدث اللقاء المشؤوم معهما في محل (الآيس كريم)، وبعده فتشتُ عنها في جميع أنحاء الساحة حتى الموضع المباح للجميع عند (الرواي) الذي لفت انتباهي، ثم قابلتهما وجها لوجه من جديد. وبما أنك كنتَ هناك أيضا، لن أدخل في أية تفاصيل تتعلق بالعراك الصاخب باستثناء أن أخبرك بأنني حتى أنا وجدته شيئا مفزعا. لقد حددتُ موضعها على الفور، وبطبيعة الحال، كنتُ مسرورا بصورة مستميتة؛ وبعدها صدمتنا واقعية الوضع في عقر دارنا ورحتُ أخوض في الشجار وقبضتاي

تتدليان. وجدتها فرصة مثالية لأثبت ذاتي من خلال إنقاذها من أولئك السفاحين الذين كانوا يعتزمون بشكل جلي القيام بأعمال مؤذية. كان أحدهم، وهو عميل مثير للاشمئزاز بصورة مميزة وذو رأس حليق، وفي غمرة وضع كيس من الخيش فوقها، لكمته على حنكه فسقط على الأرض بصفير كان صوته أعلى من الضجيج. وبينما كنتُ أكافح من أجل تحريرها من طيات الكيس، بدا أنها ميزتني.

زوجي! صاحتْ لاهثة. أرجوك أنقذه!

ماذا عساي أقول لك، يا حسن؟ الكلمات تعجز عن وصف مشاعري. أحشائي أمستْ دافئة ومن ثم بردتْ. لم تكنْ لتؤذيني أكثر لو أنها صفعتني على خدي. ذاك الشاب الملتحي كان إذن زوجها! مع أنني أرجعتُ رأسي للوراء تعبيرا عن شعوري بالزهو، كنتُ مطعونا من الداخل. بالطبع، كنتُ أريدها لنفسي وكانت نزوتي الأولى هي أن أتحاشاه، لكن غرائزي الأفضل تغلبتْ وهرعتُ معها إلى الموقع الذي كان يتصارع فيه مع الرجال الذين يهاجمونه.

تعال معي! صحتُ بالإنكليزية، وأنا أجره من ذراعه. أنا صديق!

أنقذْ زوجتي! رد عليّ بصوت عال من دون أن يحدّق فيّ. يمكنني أن أتحملهم مدة أطول من الوقت، لكن أنقذها، أرجوك!

إنها في مأمن! هتفتُ، واستطعتُ أن أسحبه بعيدا في الوقت عينه الذي كنتُ أمسك بذراعها. ألقتْ عليّ نظرة امتنان بينما كنتُ أدفعهما وأحثهما على المسير.

إلى الأسواق! قلتُ بصوت لاهث. بسرعة!

نظر كل منهما في وجه الآخر كما لو أنهما غير متأكدين ما إذا كان عليهما أن يصدقاني أم لا. جذبتُ انتباههما إلى المجموعة الظليلة من الهيئات البشرية التي كانت تفصل نفسها عن المشاجرة وتتوجه بقصد معين نحونا.

الأمر متروك لكما، قلتُ لهما، إنما قررا بسرعة، إكراما للباري! هؤلاء الرجال لا يمزحون!

إنني خائفة بصورة مروّعة، همست المرأة، وحينما تحسستْ عبء خوفها، استحوذ عليّ من جديد حبي لها.

حاولْ أن تحافظ على هدوئك ظاهريا، درتُ على عقبيّ متجها ناحية زوجها. ما رأيك في الأمر؟ خاطبته قائلا.

نظر إليّ من فوق كتفه بشفتين مزمومتين.

لنذهب! قال الشاب، وشرعنا نحث الخطا في نشاط جنوني.

وراءنا، سمعتُ أصوات الذين يلاحقوننا وهم يسيرون في أعقابنا.

هرولنا بسرعة الريح. صاح أحدهم علينا، غير أننا لم نبطئ خطواتنا. لا أعتقد أنه سبق لي أن ركضتُ بهذه السرعة الشديدة خلال سنوات حياتي كلها. اندفعنا بعجل مارّين بمحاذاة أكشاك الطعام والعصير التي أُغلقتْ نوافذها، والـ (كافيه دي فرانس)، وجامع الكسابين، ومن ثم توجهنا مباشرة إلى الأزقة الضيقة التي تتوالد فيها الأرانب المفضية إلى الأسواق.

في هذه الآونة، بإيماءة تبريرية نوعا ما، توقف مصطفى عن الكلام هنيهة وسألني ما إذا كنت أتذكر اللعبة التي كان يريدنا أن نلعبها إبان سنوات طفولتنا حينما كنا نرافقه إلى ساحة الجامع. تلك اللعبة، قال لي، حيث كان يطلب منا أن نتخيل

أنفسنا أننا نطوف في أرجاء الساحة وقد انفصلتْ عيوننا عن أجسادنا. حسنا، يمكنني أن أقول لك إنني لم أكنْ مغتبطا بذلك التمرين أكثر من تلك الليلة لأنني كنتُ قد عوّدتُ نفسي على الساحة والأرجاء المحيطة بها. كنتُ أعرف على وجه الدقة إلى أين يمكنني الذهاب، وكيف يمكنني العثور على طريقي في الظلام الحالك.

كنتُ قد وصلتُ إلى مخزن صاحبي الإسكافي كريم. أعرف أن وراء مخزنه هناك حجرة عرض سرية حيث كان يبيع الأحذية المستنسخة من آخر التصميمات في ميلانو وباريس. وأعرف أين يحفظ المفاتيح؛ كان يخفيها تحت قرميدة مرتخية، وهناك ألفينا أنفسنا، في غضون دقائق لا غير. أغلقتُ الباب دوننا ووقفنا نلهث في العتمة، ونرهف السمع لأصوات مطاردتنا، وأصداؤها تتردد عبر الأروقة، تارة تصبح قريبة، وطورا بعيدة.

ماذا يريدون منا؟ همست المرأة بصوت خائف.

إنهم يريدونك أنت، قلتُ ببلادة حس، وأحسستُ بأن زوجها يدنو منها بينما كان يشير إلى تأييده إلى ما ذهبت إليه.

إنه على حق، قال زوجها. الأمر واضح بما فيه الكفاية.

أخذ وجهها بين راحتيه وسمعتهما يتبادلان قبلة.

التفت الشاب إليّ. ماذا سنفعل الآن؟ سألني. هل يتعيّن علينا البقاء هنا فترة طويلة؟ متى يكون الوضع آمنا لكي نعود إلى فندقنا؟ أو، هل ينبغي لي أن أعيد صياغة سؤالي: هل سيكون الوضع آمنا في فندقنا؟

بصراحة، لا أعرفِ، أجبتُ. لقد لفتِّ انتباه بعض الناس الخطرين جدا. من المؤكد هم أناس يصممون على القيام بأشياء

كثيرة، وفي المقام الأول، يبغون الحصول على المال. إنهم قطاع طرق من الطراز الذي لا يتورع عن محاولة القيام بعملية اختطاف في مكان عام من مثل ساحة الجامع، ولن يحصلوا من وراء ذلك على ثمن بخس. هناك تنظيم قوي جدا وراء هذه العملية المدبرة، ويبدوا أنهم يعملون وفق خطة محكمة ومحددة. لذلك أعتقد أنه من المستحسن الانتظار هنا بعض الوقت. وفيما يتصل برجوعكما إلى فندقكما، أنصحكما بالبقاء هنا على الأقل حتى بزوغ الفجر. من المؤمل أنهم سيقلعون عن البحث عنكما وقتئذ. وفي غضون ذلك، بينما تلتقطان أنفاسكما، سأحضر لكما جلابتين يمكنكما أن تلبساها لكي تخفيا أنفسكما.

في العتمة أحسستُ بأن كلا منهما كان ينظر إلى الآخر، ومن ثم قال الشاب: لماذا الملابس التنكرية؟

لأنك لا تستطيع أن تتحمل خطر فقدان زوجتك. الأنباء سريعة الانتشار في المدينة، والرجال الذين كانوا يلاحقونها لن يرجعوا ويستسلموا.

أحسستُ بأنها مدّتْ يدها وقبضتْ على يده، ومسّتْ أصابعها كمي مسا خفيفا. دنوها مني جعل نبضات قلبي تتسارع. أملتُ جبيني على الباب وحاولتُ جاهدا ألا أظهر مشاعري. من أعماق قلبي تمنيتُ أن يميل جسدها المطواع بأكمله بصورة لا إرادية ناحيتي. لا بد أنها أحسّتْ بمتاعبي لأنها ابتعدتْ عنّي، وتراجعتْ نحو جزء الغرفة الذي كان أكثر عتمة. سمعتها تطلق زفيرها بلطف وتهبط إلى قدميها.

من الطبيعي، كان زوجها قد اندفع إليها بسرعة وتبادلا قبلة أخرى، بجلبة، على نحو ما يفعل الغربيون.

كان الجـو باردا في الغرفة. شـعرت بالبـرد القارس في قلبي. التفـتُّ جانبـا وآليتُ على نفسـي ألا أنظر إليهما. لم أشـعرْ بأي ألم، بل شعرت بمجرد لمحة مما كان ممنوعا عني. يا إلهي، فكرتُ مـع نفسـي، كم هي غامضـة حياتنا، كم هي عصيـة على الفهم! كانـت هي حبيبتي الأبديـة ويلزمني أن أكون قـادرا على الادعاء بأنها ملكي، لكن حقيقة الأمر لم تكنْ كذلك. كان بالمسـتطاع أن أكون على غرار زوجها، أو، حتى أحسـن منه، كان باسـتطاعتي أن أكـون زوجها، لكن الله قدَّر شـيئا آخر. هـا أنا ذا في نفس الغرفة معها، وها هي تقبِّل رجلا آخر غيري. ذلك كله كان يبدو مضحكا جدا وتافها.

ومـا هو أسـوأ، بعد كل ذلك الجري هنا وهنـاك، بدأتْ ركبتي تنبـض من جـراء إصابـة قديمة عندمـا رميتُ نفسـي من أعلى الجـرف. وبينما كنتُ مسـتندا إلى الباب، ثنيـتُ ركبتي وتوصلتُ إلـى تفاهـم مع الشـيء الذي مـا لا مناص منه: علـيّ أن أتخلى عـن أمنياتي بالفوز بها. كانت تلك فكـرة كئيبة، وتطلعتُ إليهما وعلى حين غرة شـعرتُ بأن عَزلتي تتجـدد. بدا كما لو أنني كنت غيـر مرئـي. لقد جعلتني أرغب بهجرة المـكان حالا وأتركهما مع مكائدهمـا. ومـع ذلـك حدّثتُ نفسـي أننـي حملتُ علـى كاهلي مسـؤولية سـلامتهما وكانـت سـمعتي الحسـنة تتطلـب مني أن أتصرف وفق ذلك.

حتـى وأنا مسـتغرق في هـذه الأفكار والخواطـر، تناهت إلى سـمعي تمتمتهـا الوادعـة معـه. وحينما أحسسـتُ بأنهمـا كانا يحتاجـان إلـى وقت كافٍ يقضيانه معا، نأيتُ بنفسـي عن الموقع المتاخم للباب وقررتُ أن أمنحهما بعض الخصوصية.

سأترككما الآن لكي أجلب الجلابتين، قلت لهما. لن أتأخر طويلا. حين أعود، يمكنكما أن تقررا ماذا ستفعلان لاحقا.

تقدم زوجها إليّ وضغط على يدي بحرارة. نحن حتى لم نوجه إليك شكرنا، قال لي.

لا تشكراني الآن، أجبته. أنتما لستما بمنأى من الخطر. إن شاء الله فستنتهي هذه الليلة حالا وسوف تقضيانها هنا بسلام وأمان. حتى حلول ذلك الوقت، دعونا نتمنَّ ما هو أحسن.

إن شاء الله، قال الزوج، وسمعتها تردد شكرها من مؤخرة الغرفة. رفعتُ يدي في إيماءة تضامن، فتحتُ الباب بطقطقة، وأجلتُ البصر من حولي لكي أتيقن من أن الساحة خالية. ومن ثم انسللتُ إلى الخارج وأغلقتُ الباب ورائي. لم أكنْ أعلم وأنا أجري في الزقاق الأسود كالقار أن تلك هي آخر مرة أراهما فيها.

النقوش

توقف مصطفى عن الكلام هنيهة، وحبستُ أنفاسي؛ بدا أن لهبا داكنا سفع عينَيْ أخي. تقلّص وجهه كما لو أصابه تشنج، ورفع نفسه إلى الأعلى. مرّر يده على جبينه، انتصب بشكل مفاجئ ومشى خطوات قليلة مهتاجة على طول الحيز الضيق بين كرسيه والجدار الكائن خلفه. طافتْ عيناه في الحجرة واطئة السقف، ولم تستقرّ على شيء معين. وبعد مرور دقائق قلائل من هذا التخمين القلق، توقف والتفت لينظر إليّ بتركيز مريك. كانت عيناه الداكنتان تلمعان ببريق بارد. ظننتُ أنه سيؤوب إلى مقعده، لكنه اكتفى بالغمغمة قائلا:

حسن، ماذا عساي أقول لك فيما يتعلق بما جرى بعد ذلك؟ في الحقيقة، ثمة القليل القليل مما يستحق السرد. رجعتُ بعد مدة قصيرة ومعي الجلابتان، كما وعدتهما، لكنني حين وجدتُ باب الغرفة منفرجا عرفتُ على الفور أن هناك خطبا ما. دلفتُ مسرعا إلى الغرفة وأنا مستعد للقتال إنما لم يكنْ فيها أحد. قابلتْ عيناي شبكة كثيفة من الظلال؛ كل شيء كان ساكنا وجامدا تماما. وحتى إنني أشعلتُ النور لأتيقن من أنني لم أكنْ أتخيل الأشياء. لكن لا، كانا قد رحلا، ولم تكنْ لديّ أدنى فكرة عما حدث لهما؛ باستثناء شيء واحد.

وبينما كانت عيناه لا تزالان مركَّزتين عليّ، رجع إلى مقعده. تطلّعتُ إليه باستفهام.

وما ذلك الشيء؟ سألته، مع أنني خبرتُ شعورا متجددا بالخيبة؛ صدمني أن تغيّرا حاذقا كان قد طرأ ليس فقط على ملامح أخي بل على طريقته كلها في التعامل معي.

وبينما هو يحني رأسه قليلا، وعيناه تركزان نظراتهما على القضبان القائمة بيننا أكثر مما تركزانها عليّ، أجابني مصطفى بنبرة صوت بدتْ وكأنها بعيدة بكل معنى الكلمة عما يحيطنا: كانت هناك محبرة صغيرة بهيئة أسد، منحوتة من الحجر اللين ومطلية باللون الأحمر. لا بد أن شخصا ما أسقطها بمحض المصادفة في الزقاق خارج مخزن كريم مباشرة، وقد ميّزتها على الفور، كما ينبغي عليّ أن أفعل. يا سلام، تعيّن عليّ أن أميزها في العتمة. أنت تعرف، أنني عثرتُ عليها في الصحراء الكبرى منذ أمد طويل حينما كنتُ صبيا. كنتُ أخذتها من جثة امرأة وظلتْ في عهدتي طوال تلك

الأعوام كلها إلى أن أعطيتها إلى شقيقي الأكبر المحبوب حسن، لمناسبة عيد ميلاده الثالث عشر. إنه راوي قصص يحب الكتابة بالقلم والحبر في يومياته التي يدوّنها على جلد الخروف وأعتقد أنها مفيدة له أكثر من فائدتها لي.

كان المزاج في الغرفة قد طرأ عليه تبدل كتبدل البحر بينما كان شقيقي يتكلم. الآن نظر إليّ بصورة غير ملائمة، وحتى بخجل، مع أن عينيه كانتا تؤلمانه، وكان وجهه متجهما وحزينا.

لقد نقشتُ اسمك على قاعدة المحبرة، إذا ما زلتَ تتذكر. إذن، ليس ثمة مجال للخطأ، يا حسن. إنها تلك المحبرة التي أعطيتك إياها، وليستْ سواها.

توقف فجأة عن الحديث ووجه نظراته بشكل تبريري تقريبا نحو المحبرة التي في يدي.

المشربية

أصدقائي الأعزاء، كنتُ سأنفجر بضحك غاضب لو أن الاتهام جاء من شخص ما غير أخي. وإذا جاز القول، نظرتُ إليه بذهول. كلانا من دم ولحم واحد؛ كان باستطاعتي النظر إلى العالم من خلال عينيه، ومع ذلك لم يكن بميسوري النظر من خلال قلبه وسبر أغوار أفكاره وخواطره.

أساء فهم صمتي وسعى إلى استثارة ذاكرتي.

لا ريب أنك تتذكر حينما أعطيتها لك، صحيح؟ حصل ذلك في ليلة ما، في منزلنا، وفي الحديقة تحديدا. كنا نقف جميعا هناك. كان أحمد قد عزف لك لحنا على آلة (الفلوت)؛ وكان أبي قد ألقى قصيدة شعرية.

على الرغم من أنني لا أجرؤ على الوثوق بصوتي، شعرتُ بأنني مرغم على الرد. مصطفى، حصل ذلك قبل أقل من عامين، قلت له. ما كنت لأنسى ذلك.

حسنا إذن؟

وجب عليّ أن أبتسم، كانت سخافة كل شيء تجعلني أحزن.

هل جننت؟ سألته.

تفرس في وجهي. بالطبع لا، أجابني، وقد تغيّر لون وجهه تغيّرا قويا.

لعلك إذن مصاب بهذيان الحمى؟

لستُ كذلك على الإطلاق.

كيف يمكنك أن تفترض أن لي صلة بالاختفاء؟

بدأ يتبجح، لكنني قاطعته.

وهكذا يفتش المرء عن الحقيقة في الأشياء الصغيرة الملموسة، كعلاج للشيء الكبير غير المحسوس ألا وهو الحياة، قلت له.

بدا أن كلماتي صدمته.

ألا تصدقني؟ أنت تعتقد أنني أختلق الأشياء كلها؟

أوه كلا، إنني أصدقك فعلا، قلت له. لا تنسَ أنني راوي قصص. بهذه الطريقة أكسب رزقي. بالنسبة لي، فإن أي شيء يتخيله المرء لا بد، بطبيعته، أن يطمح لأن يكون أمينا، ومع ذلك...

سكت عن الكلام هنيهة واخترت كلماتي التالية بعناية.

دعني أقُلْها بهذه الطريقة. كما دأب أبي على القول: الأمر يتطلب أكثر من مخيلة سليمة من أجل أن تصبح راويا ماهرا.

لم أتخيلْ ذلك. إنها الحقيقة.

إنها ليست الحقيقة. لا يمكن أن تكون الحقيقة. ثمة عنصر جوهري مفقود.

كان هناك توقف قصير الأمد.

بدا منزعجا. وبعدها مرر لسانه على شفتيه.

لا أفهم ما تريد قوله. ما الذي يجعل قصتي قابلة للتصديق أكثر، بحسب رأيك؟ ما الشيء المفقود منها؟

عنصر البرهان.

ماذا تعني؟

ببساطة، أعني التالي: لقد مضيتُ إلى هناك للبحث عنك في تلك الليلة. فتشتُ عنك في جميع الأمكنة التي اعتدت أن تأوي إليها في المدينة، عاقدا العزم على أن أنصحك بالعدول عن السير في الطريق الذي اخترته.

مضيتَ إلى مخزن كريم؟

نعم، مضيتُ إلى هناك، وإلى دنيا وبناتها، وجامع الكسابين حيث كانوا قد شاهدوك تدخل إلى هناك، وأمكنة أخرى كثيرة غيرها. من الجلي أن المحبرة وقعتْ حتما من جيبي حينما كنت واقفا أمام المخزن المغلق، حيث كنت آمل أن أجد كريم يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، وأن تكون أنت بصحبته، وسيكون بوسعنا نحن الاثنان أن نجعلك تفكر في الأمر بطريقة معقولة.

نظر إليّ غير مصدّق. اختصرتَ جلستك كراوي قصصك في الساحة؟

وصرفتُ جمهوري. هذه هي أول مرة في حياتي.

حسن، ليستْ لديّ أي فكرة عن ذلك!

بلـى، بالطبـع ليسـتْ لديـك فكرة. كنـتَ مسـتغرقا جدا في جنونك.

مددتُ المحبرة إليه.

مصطفى، نحن نتقاسم قلب الأم نفسه. إن كان ثمة أي شك في ذهنك في ما يتصل باشـتراكي فـي القضية كمجرم، فعندئذ سأكشف أنا شخصيا شكوكك للشرطة.

تطلّـع أخـي إلى المحبرة ثـم تطلع إليّ بارتباك شـديد - كان وجهـه خلاصة وافية لمشـاعر كثيـرة، متكاملـة ومتضاربة في آن واحد - قبل أن يجلس من جديد وعلى وجهه ملامح الدوار.

وهكـذا كمـا تـرى، قلـت، إن هـذا الموضوع يمكـن أن يصبح قصـة جميلة، مع أنها قصة سـطحية جدا حسـبما أراها. من الممكـن أن نخلـع عليها - كيف يمكنني صياغـة ذلك؟- مزيدا مـن الجاذبيـة، إنما مع مزيد مـن الترقب أيضـا. إذا ما فكرنا فقـط في مثـال واحد، كان ذلك الشـجار في السـاحة ضاريا، علـى ما أذكـر، ولا أعتقد أنك وصفته بدقـة. إلى جانب ذلك، لقد اندفعتَ بسرعة متخطيا أفضل الأجزاء، وهذا عادة خطأ يرتكبـه أغلب الهـواة في ما يتعلـق بطريقة إطـلاق الأحكام. إذا جعلـت نبـرة صوتـك أقـل لهاثا فسـتجعلها تبـدو ملائمة أكثر، وأقل عفوية، وبطبيعة الحال ليسـتْ شـبيهة جدا بفيلم سـينمائي مـن الدرجـة الثانيـة. ومـع ذلـك، إنـه أول مجهود شجاع. أم أنه كان أول مجهود؟

لأننـي أدركـتُ بغتـة أن ليس لـديّ أدنى فكـرة، تحركتُ حركة مفاجئة سريعة نحو الأمام وركزتُ عليه نظراتي. مصطفى، قلتُ بخفة مباغتة، هل هذا ما أخبرتَ به الشرطة؟

بالطبع لا، قال، وقد تورّد وجهه بذرّةٍ من السخرية، سريعة الزوال بحيث إن العين اليقظة وحدها تستطيع أن تلاحظها، وقد ارتسمتْ على زاويتي شفتيه. واجه نظراتي الجدية وخاطبني قائلا: هناك وقت للأسرار ووقت للاعترافات. قلتُ لك إنك تستطيع أن تريح بالك.

نعم، قلتُ مصعرا خدي. لقد أخبرتني بأشياء كثيرة.

تورّد وجهه من جديد وتأملني وعلى محياه لاحت علامات الندم.

حسن، إنني أهتم بك، قال لي. أهتم بك اهتماما عميقا. إنني أفعل ذلك دوما. لا أنسى هذا الأمر أبدا.

شكرا لك، أجبته. وعلى كل حال، هذا الأمر لا يغيّر فكرتي بأنك أبله وكذلك مجنون تماما. وإضافة إلى ذلك، طائش إلى أقصى حد.

عبّس وجهه لكنه لم ينبسْ بكلمة. كان وجهه لا يزال يحمل آثار دهشته النابعة من دحضي لادعائاته المتعلقة بالمحبرة، وكان من الواضح أنه الآن فضل التعقل على الشجاعة.

وأنا أتمرن على الكبت، ضممتُ أطراف أصابعي ونظرتُ إليه بصبر عميق.

إنك تعرف جيدا، صحيح، قلت له، أنه لم تكنْ هناك حاجة بك لأن تقوم بفعلتك تلك؟ لقد تصرفتَ مثل رجل مغفل تماما.

نكس رأسه خجلا من دون أن يتفوه بكلمة.

حسنا؟ حثثته.

اعتدل في جلسته وأغمض عينيه. على وجهه الوسيم، المرتبك، والمليء بالكدمات، ظهرت الآن آثار من وهنه. ويا لعجبي، بدا وكأنه يهمّ بالبكاء.

أدركتُ على الفور أنني كنتُ في منتهى الفظاظة وحاولتُ التكلّم بنبرة صوت استرضائية. مصطفى، قلت له، إنني متأسف على ما وصفتك به الآن، كما أنني أعتذر على كلماتي القاسية بحق قصتك، لكن على الأقل فيما يتعلق بالقصة فإن لدي معاييري، وهي معايير راقية.

أنا أعرف ذلك تمام المعرفة، قال لي، وهو يفتح عينيه، قرّب وجهه من وجهي. بدا أن شعورا بالخجل قد جعله يحزن، ويوقف عبراته المترقرقة في عينيه. نظر إليّ مدة طويلة قبل أن يشيح ببصره جانبا ويوجه نظراته إلى أنحاء الغرفة؛ كانت نظراته متضاربة بشكل غريب.

هل يمكنني أن أحصل على فرصة أخرى؟ سألني. كان صوته أجش.

شعرتُ بأن قلبي مثقل بالهم بينما كنتُ أحدق إلى شقيقي.

كانت الغرفة تفوح بعرقنا، عرقه هو وعرقي.

أزحتُ بصري عنه وخاطبته قائلا: ليتك أخبرتني بما حصل فعلا في تلك الليلة. باعتباري أخاك، هذا هو أقل ما أستحقه.

في موضع ما على أرضية الحجرة طقطق كوب من الصفيح بصوت عال. لا مصطفى ولا أنا صدر عنا أي رد فعل. بدلا من ذلك، تابعنا التحديق أحدنا في الآخر، من دون أن يجرؤ أي منا على انتزاع عينيه عن وجه الآخر حتى ولو لحظة. وفي الختام، تحرك مصطفى حركة طفيفة. كان وجهه المتعب قد بدا أنه بات أكثر إعياء.

طيب، سأخبرك بما حصل، أجابني.

شكرا لك، قلت له. لنكن عادلين، ستوافق على ما أقول.

كان بوسعي رؤيته وهو يهدئ نفسه. وبينما كان وجهه يحمر احمرارا خفيفا، سعل مرتين، وتوقف هنيهة ليلتقط أنفاسه، ومن ثم، بصوت مرهق، ومنهك، روى لي قصة حبه لامرأة غريبة عنه تماما والتضحية التي قد قام بها من أجلها.

العطر

سأبدأ من النقطة التي عدتُ فيها إلى مخزن كريم ومعي الجلابتان، قال مصطفى. حينما دخلتُ الغرفة، وجدتُ، ويا لعجبي البالغ، أنها كانت بمفردها. وحينما رأيتها مجددا، شعرتُ على الفور بأنني أحسن حالا وسألتها أين زوجها. وبدلا من أن ترد عليّ، طرحتْ عليّ سؤالها هي.

أوه، لهثتْ قائلة، لماذا كان عليك أن تعود بهذه السرعة؟

حدّقتْ فيها من دون أن أفهم ما قصدته، وحاولتُ إدراك محنتها. لعل ذلك يرجع إلى كونها خائفة من بقائها وحدها في الغرفة المظلمة مع رجل غريب؟ وعلى كل حال، طمأنتني من خلال الحقيقة القائلة إنها لم تبدُ غاضبة معي لأنني عدتُ، وسارعتُ إلى تبديد مخاوفها.

لا بأس، قلتُ بوداعة، هوّني عليك. أنتِ في أمان معي. أين زوجك؟

ران صمت طويل، وعقب ذلك ردّتْ قائلة: رحل.

رحل؟ ولكن كيف استطاع الخروج من هنا؟ ظننتُ أنني أغلقتُ الباب.

وجد طريقة ما، قالت لي. كان صوتها يبدو متوترا؛ كانت تبدو منفعلة.

حدّقتُ فيها بذهول، كنتُ مترددا، وكنتُ صامتا. لم أكنْ أعرف ماذا أقول؛ ببساطة لم يكن الأمر مفهوما. إلى أي مكان يحتمل أنه ذهب في هذه الساعة من الليل؟ وكيف يمكنه أن يتركها وحدها؟ كلما فكّرتُ في هذا أكثر، شعرتُ بمزيد من الحيرة، وبغتة انتهكتْ ذهني سلسلة مختلفة جدا من الأفكار. قلما كنتُ أحتاج إلى تفسيرها لنفسي، غير أنني تساءلتْ مع نفسي ما إذا كان زوجها قد هجرها. بدا الأمر غريبا وشاذا، بيد أن كلماتها بدتْ وكأنها تلمح إلى فراق دائم أكثر من كونه غيابا مؤقتا لا غير. ربما كانا قد تشاجرا وكان قد تخلى عنها؟ من المعتاد أن تحصل أشياء أكثر غرابة. إذا كان الحال كذلك، فالمجال مفتوح أمامي، يمكنني الزعم أنها ملك لي. كان زوجها قد مضى بعيدا، وبوسعها الذهاب معي! يمكنها أن تكون لي! لن نلجأ إلى الافتراق ثانية.

بينما كانت هذه الأفكار تتسابق في ذهني، كانت هي تقف جامدة كالتمثال في الظلال. وها هي ذي الآن تحركتْ مجددا وكسرت الصمت. خاطبتني قائلة بنبرات منخفضة، مندفعة: لماذا تتفرس فيّ بهذه الطريقة؟

ربما حاولت الإجابة، لكنني لم أستطعْ. بالكاد سمعتُ ما قالته، وعلى أية حال، بدا كما لو أنني فقدتُ صوتي. كنتُ أتمنى رؤية وجهها، غير أن الأمر لم يكن ذا بال في الحقيقة لأنني عهدتُ بالأمر إلى ذاكرتي. كنتُ أعرف على وجه الدقة أين موضع الخال الموجود على خدها الأيمن، الندبة التي كانت مرئية بالكاد فوق عينها اليمنى، النقرة التي في حنكها. شعرتُ بأنني أرسم ذراعيها، أشكّل مرفقيها، أطوّق معصميها. وبينما كنتُ أتطلع

إلى شكلها الوهمي، أحسستُ بأنني ظمآن، ككائن صحراوي هي وحدها من يقدر أن يطفئ عطشه. بدأ فؤادي يخفق بعنف، والارتعاش يهز جسدي، أنا...

معذرة، قالت لي، وهي تقتحم أفكاري ثانية. لقد جعلتني أشعر بعدم الارتياح، وأنت واقف هناك تتفرس فيّ بهذه الطريقة.

جفلتُ ورجعتُ إلى الواقع. أدركتُ أن زوجها قد يؤوب حالا وعليّ أن أغتنم وقتي معها. من المؤكد ربما لن تواتيني فرصة كهذه مجددا، وكنتُ أعرف أنني لن أكون في سلام مع نفسي إذا تراجعتُ الآن عن إخبارها بما يجيش في صدري من أحاسيس. قررتُ أن أكشف الحقيقة. لم أجدْ مبررا لإخفائها.

إنني مغرم بك، قلتُ بجرأة.

شعرتُ أنها تنظر إليّ وتتلعثم. اتخذتْ خطوة إلى الوراء وشكرتني، لكن نبرتها كانت تفتقر إلى الثقة بالنفس.

أنتَ شاب عطوف جدا، قالت لي، لكنك تنسى أنني متزوجة وأحب زوجي حبا جما، وسيرجع هو بين لحظة وأخرى.

لا يهم، قلتُ بتصميم. إن حبي لك سيغيّر الطريقة التي تشعرين بها. حب يوّلد حبا، اشتياق يوّلد اشتياقا، والشيء نفسه يمكن قوله عن الرغبة. يمكنك أن تتعلمي الوقوع في غرامي.

لكنني أصلا مغرمة برجل آخر! زوجي هو دنياي! إنه يعني كل شيء بالنسبة لي.

أحجمتُ عن الرد عليها بجواب سريع وحاسم وضغطتُ على نفسي.

ربما يكون الأمر كذلك، قلت لها، لكن ما من شيء في الكون بأسره يعني ما تعنيه أنتِ لي. هكذا كانت الحال منذ أول وهلة

وقعتْ فيها عيناي عليك. في كل ما تقولينه وتفعلينه أنتِ امرأة أحلامي. إنني أنظر إليك وأنا أعرف أنك في المكان الذي أبغي أن أكون فيه. أود أن أكتب الأغاني من أجل عينيك. أود أن أسبح في بحر فؤادك؛ أنتِ محيطي وسعادتي وينبوع بذرتي.

اسمعي! أضفتُ مقطوع الأنفاس، وأنا أستبق جوابها. هل سبق لك أن سبحتِ مع الدلافين؟

من خلال صمتها الطويل يمكنني الجزم أنها صُدمتْ.

في النهاية، غامرت بالقول: الدلافين؟ لا.

وماذا عن سمك (سياف البحر)[45]؟ قلت بإلحاح.

لا، قالت من جديد، وكان باستطاعتي أن أحس بأنها كانت تتساءل ما إذا جننتُ.

سآخذك إذن إلى مكان قريب من جزيرة (موغادور)[46] حيث يمكنك مشاهدتها وهي تتقافز من الماء بينما أنتِ تسبحين.

أوه؟ ولكن لماذا تفعل ذلك؟

لكي تدخل البهجة إلى قلبك، أجبتها. إنها تفعل ذلك تقديرا لجمالك الساحر.

في العتمة، شعرتُ أن بسمة ترفرف على شفتيها.

كذاب، قالت.

إنني لا أكذب في ما يتعلق بهذه الأمور. إنني أقيم في الصويرة، الواقعة على البحر. إنني أقدّس البحر. المحيط الأطلسي حديقتي.

ألا تعتقد أنك تمزج المقدس بالدنيوي؟

---

(45) سياف البحر (أبو سيف)؛ سمك أوقيانوسي ضخم طويل المنقار - هامش المترجم.

(46) موغادور: جزيرة صغيرة تقع في خليج (الصويرة) - هامش المؤلف.

لم يعدْ صوتها يحمل ذرة من الخوف بل بدا مسليا، ومن جديد هيمن عليّ ذلك الشعور الغريب بالمرح والابتهاج، بالثقة غير المحدودة بالنفس، وبوعي فخور بأحاسيسي.

إنني مغرم بك، قلت لها مجددا. لم أقلْ ذلك لامرأة سواك.

إنك صريح جدا، ردَّتْ عليّ بشيء من النزق، لكنني أستطيع أن أجزم بأنها كانت مسرورة. كان من الجلي أنها كانت تستمع إليّ، وكان سيماء تفكيرها الهادئ قد شجعني.

نعم، إنني إنسان صريح، اعترفت لها. ذلك لأنني في مقتبل العمر مثلك. نحن نعمل بسرعة كالنار.

النار تحرق. كانت ليَ في يوم ما غرفة احترقتْ من حولي. كان ذلك مروّعا.

أتمنى ألا تكوني خفتِ مني؟

كلا، لم أخفْ منك.

جيد، أنا مسرور بذلك، لأنني أتحدث من أعماق قلبي.

لم تجب.

أنتِ صلاتي! أضفت قائلا بحرارة. ليتك رأيتِ نفسك من خلال عينيّ. قلبك هو كوني؛ روحك تلبي كل حاجاتي.

لكنك لا تعرف شيئا عني، أشارتْ قائلة.

على العكس، إنني لست فقط لا أعرفك؛ بل أنتظرتك طوال حياتي كلها.

أحسستُ بأنها تهز رأسها.

إنك إنسان عفوي، قالت لي.

إنني إنسان صادق.

إنكَ إذن تخدع نفسك.

هـذا ليـس ما يخبرني بـه فؤادي. أنتِ خلاصـي، تحرري من خطيئتي، وعدي.

إنكَ تتحدث عن التحرر من الخطيئة، قالت. وقد غدتْ كئيبة فجأة، لكنني أستطيع أن أخبرك من خلال خبرتي بأنه لكل تحرر من الخطيئة ثمة ثمن ينبغي دفعه.

سأدفع هذا الثمن. من دون ندم.

هل تفهم ماذا تطلب؟

إننـي أطلـب قلبـك لأبدلـه مـكان قلبـي. اسـتمعي إلـيّ، سـنعيش بالقرب من المحيط الأطلسـي. سـأكون الرمل الذي يحيطـك، سـأكون حبـات الرمل والسـاحل. سـتكونين الهواء الذي أستنشقه.

توقـفْ عن التحدث إلـيّ بهذه الطريقة! قالت لي. لم أعطك الإذن بذلك.

وأنـا لـم أطلب منك الإذن، قلت بمـرح، لأن حبي لك جعلني أشـعر بالدوار وقد اكتسـح جميع صنوف الاحتشام المعتادة التي أجدها مضجرة، على كل حال.

إنك أشبه بطفل طماع لم يتعلّم السيطرة على نفسه.

إنني أشبه بالمحيط الذي صقله غروبك.

إنك إنسان لا سبيل إلى تقويمه!

إنني فعلا كذلك، وأنا أعترف بذلك، طالما أنك تعترفين بأنك النور الذي يهديني، خيطي الذهبي، بوصلة عالمي.

هل أنت شاعر؟ سألتني، وأحسستُ بعودة ابتسامتها.

لا، أجبتها، لكنك منبع إلهامي.

في اعتقادي، يتعيّن عليك أن تمتهن كتابة الشعر.

تلك هي مهنة أبي، أجبتها، ومهنة أخي. أنا حِرَفي متواضع. إنني أصنع الفوانيس من جلود الجمال والأغنام. في بعض الأحيان، أمارس الرسم. إنما تلك هي حدود جهودي الفنية.

أنتَ إذن رسام بالكلمات.

أنتِ كريمة جدا، لكنني سأتقبل إطراءك. دعيني أؤكد لك أنني قادر أيضا على أن أدعم كلماتي بالأفعال.

أوه، إنني متيقنة من ذلك، قالت بعجالة. ليس لدي شك في ما يتصل بذلك.

باركي إذن أحاسيسي نحوك بالتبادل.

إنك تعرف جيدا أنني غير قادرة على ذلك.

لِمَ لا؟

للأسباب كلها التي شرحتها لك آنفا، قالت بصبر.

إنك متحجرة القلب، فظة، ولم يسبقْ لي أن أحسستُ بأنني واهن مثلما أحس الآن. ألا يمكنك أن تتلمسي يأسي وقنوطي؟

أنا متأسفة، قالت بصوت ضعيف، لكنني لستُ مسؤولة عن أوهامك.

أوهام! إن ما تسمّينه أوهامي هي لحمة واقعي.

إذن لا أستطيع مساعدتك، قالت بوداعة.

قبّليني، أرجوك. قبلة واحدة فقط، تعبيرا عن أسفك.

لا، لا أقدر. لا أريد أن أؤذيك إنما يتعيّن عليك أن تفهم أنني لن أتنازل عن وفائي لزواجي.

نكست رأسي خجلا.

إذن على الأقل تنفّسي معي على مدى لحظة إن لم تمنحيني شيئا آخر.

حـل صمـت. ومن ثم، مـع توقف مؤقت في صوتها، سـألتني قائلة: أتنفس معك؟ ماذا تقصد؟

أحب أن أشعر بأن أنهار أنفاسك تتردد في روحي، قلت بحماسة. أود أن أحمل ذلك الشعور خلال ما تبقى من أعوام حياتي.

تحركـت بخفّة على قدميهـا. اقتربتْ مني وطبعتْ قبلة على خـدي. كان بمسـتطاعي رؤيـة عينيهـا تشـعان في الظـلام. أما عواطفـي فجعلتنـي أشـعر بالـدوار ولا بد أن دقيقـة كاملة مرَّتْ قبل أن أفهم ما كانت تقوله لي.

سأكون معك دوما، قالت لي. إنما يتعيَّن عليك المغادرة الآن.

كانت الصلابة في صوتها قد أخذتْ أنفاسي.

إنني حتى لا أعرف اسمكِ، قلتُ محتجا.

الأسماء ليستْ مهمة. اذهب الآن، أرجوك.

حملقتُ فيها، كانت ثقتي بنفسي قد فارقتني.

ألا يمكننـا التحـدث بشـأن ذلـك؟ سـألتها، وقـد شـعرت بالانكماش فجأة.

تحركتْ مبتعدة عني بسرعة وطواعية.

إن كنـتَ تحبنـي فعـلا، قالت بصـوت واطئ، فسـتفعل إذن ما أطلبـه منـك. لا يمكننـي أن أرغمـك على المغـادرة، لكننـي أقدّر مشاعرك تجاهي. لا تطلبْ مني التفسيرات. من فضلك.

لا تقلقي، غمغمتُ. سأغادر.

شكرا لك، قالت لي.

عبـرتُ الغرفـة بوهن. وحـين دنوت من البـاب، اصطخب في داخلـي شـعور بالعقـم، شـعور باليـأس الغريـب، وأعقبه شـعور بالتمرد. تفحصتُ خطواتي ودرتُ على عقبيّ. وبينما كنتُ أسعى

إلى السيطرة على غضبي، خاطبتها قائلا: لماذا تصرين على أن أغادرك؟ إنني مغرم بك، ومع الغرام تأتي المسؤولية. إنني أتقبل حقيقة زواجك. إنني أتفهم مسألة كونك مغرمة برجل آخر. إنني أتعهد بأنني لن أناقش هذا الأمر. لماذا يجب عليك إذن أن تجبريني على الرحيل من هنا قبل الأوان؟ كل لحظة أقضيها معك ستظل معي حتى نهاية عمري. دعيني أنتظر هنا حتى عودة زوجك، على الأقل، وحالما يصل إلى هنا، سأغادر.

كلا، قالت لي بعناد مميز، لا يمكنك البقاء هنا. من فضلك لا تجادلني.

جاءتْ كلماتها على عجل؛ كان من الجلي أنها كانت تريدني أن أرحل فورا. لم تكنْ تلك هي الطريقة التي أحبذها، وواصلت التلعثم. إن عدم موافقتها، وحتى نفاد صبرها، ناهيك عن كونهما أوقفاني عند حدي، ببساطة نخساني بمهماز.

ليس من الأمان أن أتركك بمفردك، قلت لها.

أيجب أن تجادل؟ هذا شيء محرج. كنتُ أثق بحسن نيتك وها أنت ذا تنكث العهد.

حاولتُ أن أُبعد الأذى عن صوتي.

إنكِ تتكلمين عن حسن النية؟ طيب، هنا يكمن التناقض، صحيح؟ لقد أنقذتك مما حصل في الساحة. أتيتُ بك إلى مكان آمن. غادرت لكي أجلب لك ثيابا يمكنك أن تلبسيها. لكنني حين رجعتُ، كان زوجك قد غاب عن الأنظار من دون تفسير وأنت لا تقدرين أن تنتظري ريثما أرحل من هنا. أخبريني، هل هذا هو حسن النية؟ هل يتعيّن عليّ كذلك أن أذكّرك أن هذا هو مخزن صديقي؟ اسمه كريم. إنك هنا بفضل صفاتي الحميدة.

ران صمت طويل بينما كنا واقفين هناك أحدنا في مواجهة الآخر. كنتُ أعرف أنها كفَّتْ عن الابتسام، لكن شفتيها كانتا لا تزالان منفرجتين، لأنني كنت لا أزال قادرا على رؤية الوميض الأبيض لأسنانها. كان عبق عطرها قد انحرف صوبي، وتطلب الأمر مني بعض الجهد لكي أكبح جماح نفسي. أقنعتُ نفسي بالتحديق مباشرة في وجهها، ولأن خطبتي المسهبة العنيفة أرهقتني، حافظتُ على هدوئي.

كانت تقف منتصبة بلا حراك، لكنها الآن أحنتْ رأسها. وقالت لي وهي تتكلم بتلعثم إنما بوضوح، بنبرة صوت مخففة وأكثر رقة: كلانا ممتنٌ لك لما قدمته لنا. لا يمكن للصديق أن يفعل أكثر من ذلك. كنتَ رائعا، وقد أثار قلقك على سلامتي مشاعري. إنه شيء يعني الكثير بالنسبة لي. إنني أعرف أن عنادي المتعلق بمغادرتك يمكن أن يكون من الصعب تقبّله. لكن أرجوك افهمْ هذا، إن كان ذلك ممكنا، لأنه هكذا تجري الأمور. باستثناء ذلك التفسير غير الكافي، ببساطة لا أستطيع أن أخبرك بالمزيد ولا يمكنني أن أقوم بشيء أفضل من أن أطلب منك أن تصبر.

كنتُ أود كثيرا الرد عليها بلطف، لكنني كبحتُ نفسي.

إنكِ محقة، قلت ببرود. لا أفهم. إن كنتِ قلقة في ما يتعلق بالخروج من هنا، إنني أعرف الأسواق مثلما أعرف ظهر كفي. يمكنني أن أقدّم لك المساعدة لكي تمضي في طريقك في غضون لحظة.

لقد تلقينا المساعدة أصلا.

أوه؟ مَن قدمها لكما؟

رجل ما.

رجـل مـا؟ هذا الجـواب لا يفصح عن شـيء. هل هو صديق؟ هل يقيم هنا؟ هل ينحدر من هنا؟

لا يمكنني أن أخبرك بذلك.

تراجعتُ. غمرتني سلسـلة كاملة من المشـاعر المتناقضة. كنا نتحدث بنبرات صوت منخفضة، ونميل قليلا أحدنا نحو الآخر، ولأول مـرة حصلتُ على أقـرب مرأى طوال الليلـة كلها للجمال الشـاحب لوجهها، الذي كان قد تأثر بسـرعة مـن فرط الإعياء. شـعرتُ بالحيـرة والارتبـاك وأنا أرهق نفسـي كثيـرا، وكنت تحت رحمة كل نزوة من نزواتي.

تلعثمتُ. كلما تتحدثين أكثر، يقل فهمي، قلت لها.

ربمـا لهذا السـبب عدلتُ عـن إخبارك بالمزيـد، قالت لي. لم تقلْ شيئا آخر، ولم أرغمها على إخباري بأكثر من ذلك.

كنتُ قد درتُ على عقبيّ اسـتعدادا للمغادرة حينما قالت لي فجأة: حدّثني عن الدلافين ثانية.

آه، قلـت، وأنـا أتوقف فـي منتصف خطوتي، إنهـا لن تتواثب بعد الآن.

لماذا؟

لأنها ستعرف أنني حزين.

سألتني عن اسمي. اسمي لوسيا.

أنا مصطفى، قلت لها.

مدّت يدها فأمسكتُ بها.

مصطفـى، لقـد أثـرتَ مشـاعري بسـبب قربـك مـن البحر، قالـت لي. آخر مرة أسـعدني فيهـا البحر حصلتْ في المكسـيك، فـي مكان يُدعى (باجا كاليفورنيا). إنه مكان بعيد جدا من هنا.

كان ذاك زمن الفرح الغامر بالنسبة لي، السلام العظيم. قابلت حبيبي هناك. ذات ليلة كنا ننام في العراء، على الشاطئ، تحت سماء مرصعة بالنجوم. لا بد أن تعرف كيف هو ذلك المشهد. كان الهواء نديًا ومشبعا بالملح، والأمواج المتكسرة على الشاطئ بيضاء وسوداء في العتمة. فكرتُ في سرّي: هذه هي أروع ليلة في حياتي. نمتُ على صوت موسيقى المحيط، لكنني أفقتُ من النوم في منتصف الليل على صوت مختلف جدا. كان صوتا مرتفعا ومن الصعب سماعه فوق هدير الأمواج. جلستُ، استيقظ فضولي، وذُهِلتُ حينما شاهدتُ سربا من الدلافين تسبح عند الساحل، قريبة من اليابسة بصورة خطيرة. راقبتها طوال وجودها في ذلك المكان، وعندما عادت، دولفين بعد دولفين، إلى أعماق المحيط، ألقيتُ عليها تحية الوداع.

كانت الدلافين تصطاد السمك، قلت لها. كانت تقبض على السمك في المياه الضحلة وتتعقبها. كنتِ محظوظة لأنك رأيتها.

أجل، كان ذلك منظرا جميلا. أعتقد أنك ستفهم ما أقصده.

إنني أفهم. شكرا على أنك جعلتِني أشاطرك هذا المشهد.

على الرغم من أنها ربما كانت غير قادرة على رؤيتي، ضغطتُ يدي على قلبي.

لزمَتِ الصمت لحظة.

ثمة أشياء ستفهمها، قالت لي، وأشياء أخرى لن تفهمها. لقد عدلتُ عن إخبارك بحقيقة وضعي، ربما يرجع السبب إلى أنك ستجده وضعا غير قابل للتصديق.

يلزمك ألا تنظري إليّ باستعلاء وعجرفة إن كان باستطاعتك أن تقولي ذلك.

ولن تنظر إليّ باستصغار إذا أخبرتك؟

لا، قلت لها.

لا أعرف..

حاولي، حثثتها، وأنا أجرؤ على التنفس بالكاد.

لم تردّ عليّ، لكنني أحسستُ أنها تستجمع شجاعتها لكي تنطق. مشتْ خطوات قليلة في أرجاء الحجرة بينما كنت واقفا بلا حراك، أتابع كل حركة من حركاتها، وانتباهي كله منصبّ عليها، وأنفاسي سريعة لكنها طويلة.

دارتْ على عقبيها ووقفتْ قبالتي. كانت خطوتها ثابتة وقوية العزيمة، كما لو أنها تقبّلتِ العواقب المترتبة على قرارها. وقالت لي برباطة جأش أثارت إعجابي: الرجل الذي كان معي ليس زوجي. زوجي الحقيقي - الذي كان حظي المنحوس أن أتزوج منه حينما كنت أصغر سنا من أن أعرف الحياة بصورة أفضل - رجل قوي ذو ثروة طائلة. كان زواجي منه قد مات في الليلة التي تحقق فيها. لا يمكنني أن أخبرك بأكثر من ذلك؛ إنه زواج صعب جدا وباعث على الحزن. إلى جانب ذلك، لم يكنْ هناك وقت. لعل الشيء الجيد الوحيد الذي أسفر عنه هو أنه جعلني أدرك أنه ما من شيء أثمن من الحياة وأنها قصيرة بصورة مرعبة.

سكتتْ عن الكلام هنيهة، تقلص كتفاها قليلا وكشفا التوتر الذي كان يعتمل في جسدها، بينما لم يكشفْ وضعي سوى عن العاطفة الخالصة جدا، وكان موقفي قلقا ودفاعيا. كانت تحدق في الظلال، صمتها متوتر من جراء العواطف والانفعالات، من جراء الخجل تقريبا. وعقب ذلك ارتعدتْ، تدلى كتفاها، والآلام التي لا بد أنه وجب عليها أن تتحملها جعلتْ قلبي يخرج من

صدري ويمضي إليها. خفضتْ صوتها إلى أن بات من الصعب عليّ سماعها، عمدتْ إلى إخباري ببقية قصتها.

نعم، الحياة ثمينة، قالت لي، وغريبة أيضا. بعد مضي سنوات عدة، حينما قابلتُ حبيبي واسترجعتُ ثقتي بالعالم، سعيتُ إلى ترك زوجي، إلا أنه لم يكنْ يريد أن يسمع مني ذلك. قال لي إن ذلك سيضعف منزلته في المجتمع وأصر على أن أفعل ما أخبرني به. كان قد أحاطني بالحراس، بالمحامين؛ رفض الإصغاء إلى توسلاتي، رفض أن يدعني وشأني. كان يوميا يأتيني بأساليب إذلال جديدة، وأساليب احتقار جديدة. وفي خاتمة المطاف، بعد أن مُنيتْ جميع محاولاتنا في إقناعه بالحجة والمنطق بالفشل، أنا وحبيبي لم نر سبيلا آخر غير الفرار. لم يكنْ اتخاذ هذا القرار سهلا، لكن البديل هو كبت بطيء يفضي إلى الموت. غير أن زوجي رجل عنيد، غاضب؛ إنه يطاردنا في كل حدب وصوب.

أولئك الرجال إذن ممن كانوا في الساحة...؟

ربما كانوا تابعيه، مع أنني غير متيقنة من ذلك. كان قد بيّن أنه لن يدخر أي جهد مهما كان لكي يعيدني إلى بيت الزوجية، وأنا أخشى على سلامة حبيبي. هربنا مرات عدة وكان هربنا يستغرق مدة قصيرة، وفي كل مرة كنا نتمكن فيها من الفرار كان يفلح في اقتفاء آثارنا.

ألهذا السبب كنتِ بحاجة إلى التظاهر بأن رفيقك هو زوجك؟ لكي تبعدي مطارديك عن طريقك؟

إلى حد ما، نعم. إنه زوجي روحيا.

لكنه ليس زوجك من الناحية الواقعية، قلت لها، وأنا أشعر بالحاجة إلى التأكيد على الفارق بين الاثنين.

لا، قالت مؤيدة كلامي، لكننا أمضينا معا وقتا طويلا جدا بحيث إنني بدأتُ أنظر إليه بشكل مختلف. نحن شريكان مدى الحياة.

بعدها ساد توقف مؤقت، وخلال ذلك اتخذتُ خطوة إلى الوراء.

ولأنني أدركتُ أنني من المحتمل أن أعكر مزاجها، قلت لها، ببساطة شديدة، إنني فهمتُ ذلك - وكذلك إنني بالكاد أعتبر نفسي متمسكا بالتقاليد - ويبدو أنني كنت أبغي طمأنتها.

بنبرة ثقة متجددة بالنفس في صوتها، قالت لي: العام الماضي، بعد أن نجا حبيبي من حادثة مبهمة أخرى، عهدنا بمشكلاتنا إلى أحد الأصدقاء. إنه كاتب، رجل ذكي جدا، عبقري، وفضلا عن ذلك، طيب القلب. طلع علينا بحل لورطتنا. كان الحل يشتمل على مجيئنا إلى مراكش، التي لم نزرها من قبل، لا أنا ولا حبيبي. وكان الحل يتضمن أيضا أن نأتمن رجلا آخر؛ صديقه. في البداية، بدا الأمر كله صعب المنال، إنما لم يكنْ لدينا ما نخسره، وبناء على ذلك وافقنا على الحل كاحتمال وارد. ونحن الآن تقريبا هناك، قالت بثقة بالنفس يجب عليّ أن أجدها مؤثرة، على الرغم من أنني أعترف بأنها كانت ثقة مريكة جدا.

إنني متأسف لأنني لم أتابع كلامك، قلتُ وأنا أحاول أن أجعل صوتي رزينا وفي الوقت نفسه لا يكشف مقدار الحيرة المطلقة التي أحسستُ بها. سامحيني إن كان هذا السؤال يضايقك، استطردت قائلا: لكن هل كنت تختلقين قصة الاختفاء هذه؟ هل كان الهجوم في الساحة عملا مسرحيا؟

بدتْ منزعجة انزعاجا حقيقيا.

أوه، أرجوك، توقفْ عن طرح المزيد من الأسئلة!

كانت ردة فعلها تخبرني بكل ما وددتُ معرفته.

ولكن ماذا لو تم اكتشافك؟ سألتها.

إنها مجازفة، لكنها المجازفة التي نستعد للقيام بها.

ما الخطة؟ إلى أي مكان ستذهبين إذا ما خرجت من هنا؟

لحسن الحظ إلى موقع لا يمكن أن يجدنا فيه أحد.

لم يكنْ باستطاعتي النظر في عينيها مباشرة. حاولتُ الابتسام تأييدا، لكن شفتيّ ظلتا متوترتين. كل دقيقة تمر تصبح فيها المرأة غريبة بالنسبة لي أكثر فأكثر. بغتة شعرتُ بأنها قد جرحتني، مع أنها لم تقلْ شيئا لإثارة رد الفعل ذاك في داخلي. ومع أنني كنتُ أعرف أصلا ماذا سيكون جوابها حتى قبل أن أجرّب طرح السؤال، عرضتُ، على الرغم من ذلك، مساعدتي.

كان رد فعلها مصحوبا بهجوم مباغت.

لا، لا! قالت. من فضلك استمع إليّ وحاول أن تفهم. كل شيء تم ترتيبه.

أوه، حسنا جدا، أجبتُ، وقد استسلمتُ لتهميشي.

لكن ما رأيك بهذا كله؟ سألتني. من خلال النبرة المتجددة من العاطفة في صوتها، يمكنني الجزم بأن اعترافها جعلها تشعر بأنها مبتهجة أكثر.

هل بت تعرفني الآن بشكل أفضل؟ سألتني.

أجل، بت أعرفك بشكل أفضل، كذبتُ عليها. وماذا عني؟

أنا لا أعرفك البتة، إنما هكذا يجب أن يكون الحال.

كنتُ ما أزال منشغلا جدا بقصتها بحيث لم يخطر ببالي أن أطرح عليها سؤالا جديدا.

تطلّعتْ إليّ بعينين وامضتين.

أنا مسرورة لأنك فهمت. وأتمنى أن تفهم كذلك أنني إذا لم أطلب منك أي شيء، فالسبب يرجع إلى كوني لا أحتاج لشيء.

لقد فهمتُ هذا أيضا، إنما فهمته إلى حد ما، قلت لها.

أذهلتني بفعلها التالي. خلعَتِ الوشاح الذي كانت تلبسه وسلّمتني إياه. كان النسيج دافئا.

حاول أن تجدْ امرأة لك، قالت لي. ستسعد لأنها ستكون معك.

لقد وجدتها، قلتُ بحزن.

أود أن أصدّق أن العاطفة التي أسبغتها عليّ هي أشبه بالرقة الأخوية، قالت لي.

الرقة ليست الشيء نفسه، أجبتها، وأنتِ تعرفين ذلك.

سحبتْ يدها من ذراعي. اذهب بسلام، قالت لي. وتذكرني كما تتذكر المحيط.

لتكنْ نظرتك إليّ جيدة، أجبتها وأنا منصرف. سأكون حيثما يكون موقعك المفضل.

الأحلام والأوهام

توقف مصطفى عن التحدث هنيهة وحملق فيّ بعينين مكتئبتين.

حسن، وماذا يمكنني أن أخبرك سوى ذلك؟ آخر مرة رأيتها فيها، هي حينما كانت واقفة هناك في وسط الغرفة المظلمة،

فستانها (الموسلين) الأبيض يلتصق بطيات بدنها، رأسها الآن حاسر بعد أن أعطتني وشاحها.

لا أعرف ماذا أقول لأخي. في سرده قصة غرامه، كان قد كشف جانبا شهما غير متوقع في شخصيته لم أكنْ أعرف أنه موجود فيه. والأدهى من ذلك، ولأن مدى محنته جعلني أغير رأيي فيه، فأنا الآن مستعد جدا لتصديق ما قاله لي، وتمتمتُ بملاحظة غامضة قلما أنصفتْ مشاعري المتبدلة. ولم يسبقْ لي أن تعاطفتُ معه من قبل.

تجاهل أفكاري وخواطري، تابع مصطفى سرده بنبرة مستسلمة: ربما يمكنك أن تخمن ما جرى لي لاحقا. ولأن الوضع صعب، خرجتُ من الباب مع وعدي الصامت لها بأن أحترم عواطفها وألا أرجع إليها، على الرغم من مشاعري الجياشة. لم أكنْ أعي إلى أين كنت متجها، كل ما سجلته هو وميض ضعيف من ضوء القمر يتسلل عبر العرائش التي تعلو الرؤوس، تجولتُ في الأسواق وأنا مصاب بالدوار، محاولا التشبث بقراري. لكن قلقي بشأن سعادتها كان هو الحاكم الأعلى وبدأت أشعر بالغيظ، كانت تضايقني جميع صنوف الأسئلة وتحرمني من راحة البال. هل كان عشيقها قادرا على أن يجد طريق عودته إليها عبر شبكة الأروقة، وهو شيء صعب بما يكفي حتى في وضح النهار، ناهيك عما هو عليه في منتصف الليل؟ وهل سيكون الاثنان قادرين على الخروج من هناك من دون أن يضلا سبيلهما وأن يكشفا عن وجودهما لأولئك الذين كانوا يبحثون عنهما؟ ولأنني غير قادر على تجاهل حسي الداخلي، الذي كان يغدو أقوى فأقوى مع كل دقيقة تمر، بدأتُ أخشى وقوع ما هو

أسوأ. شعرت بالحاجة إلى الاستجابة، إلى الحركة، إلى القيام بعمل ما. وهكذا بإحساس قوي من الارتياح، مخففا بالذنب، ألفيتُ نفسي أمشي في الاتجاه المعاكس. بررتُ نقضي لعهدي بأن أخبرتُ نفسي أن سلامتها تبيح لي ذلك. بدأتُ أركض، وبينما كنت أفعل ذلك، أحسستُ بأن الأروقة المحيطة بي تميل صوبي وتحضنني باستحسان. كان إحساسا عنيفا، مشحونا، وأمسى عميقا جدا بسبب الحرية التي تمتعتْ بها عواطفي. شعرتُ أنني لا أُقهر؛ وكان باستطاعتي أن أتولى زمام قيادة جيش وقتئذ. تقت توقا موجعا لأن أكون مفيدا جدا لها وأن تكون هي مرآة لأفعالي.

مبتهجا، أسرعتُ عائدا إلى مخزن كريم واقتحمتُ الغرفة الخلفية، وكنت مستعدا للسقوط عند قدميها، لولا أنني وجدتُ الغرفة مهجورة. تراءت صورتها بسرعة خاطفة أمام عينيّ، لبثتْ بلا حراك للحظة، وبعدها تهشمتْ إلى مليون شظية. لم تعدْ هي هناك، ومع رحيلها، تحطم صرح آمالي الذي لم يكنْ متوازنا بشكل ثابت.

أوه، حسن، قال لي، كان ذلك يفوق طاقتي على التحمل! كانت الحجرة خالية، كالفراغ، وحتى لم تبقَ نفحة من عطرها. انهارتْ أعصابي وشرعتُ أبكي مثلما لم أبكِ من قبل في حياتي كلها.

شعرتُ بالبرد القارس وأنا أستمع إلى مصطفى. كان باستطاعتي رؤية الحجرة المظلمة والزوايا الظليلة، تخيّلته واقفا هناك، وجهه مبلل بالعبرات، ونظراته تشي بالهزيمة والخذلان. كانت تلك رؤية مخيفة.

إنه حزن أخي، فكرتُ مع نفسي، نعم، هذا هو الشعور الذي تملكني.

قال مصطفى: كان ذلك كله حلما عديم الجدوى، غير مفهوم بوضوح، مبتسرا، غريبا وبشعا، لكنه في الوقت عينه، كان مؤلما جدا. كان من المؤلم أن تكون أنت هناك بينما تكون هي قد رحلت. جلستُ على أرضية الحجرة وحاولتُ أن أستعرض ذكرياتي معها لكن ذهني كان مصدوما. بدا كما لو أن قلبي قد سُحق مرتين، أول مرة حينما اكتشفتُ أنها ملك لسواي، وثاني مرة حينما تعيّن عليّ أن أتحمل فقدانها مرة أخرى، وهذه المرة من دون احتمال أن يحدث العكس.

أسند جبينه على القضبان.

كان ذلك جحيما، يا حسن، جحيما خالصا! شعرتُ كما لو أن حياتي قد انتهتْ بالنسبة لي. كنتُ في حالة انهيار.

ماذا فعلتَ بعدئذ؟ سألته.

بينما كان جبين مصطفى لا يزال مستندا على الحاجز المشبك، قال لي: جلستُ هناك في الحجرة، ذاهلا. ليس لدي أدنى فكرة كم طال بقائي هناك. وبعدها جعل الظلام يضايقني، ولأول مرة خلال تلك الليلة. تلمّستُ طريقي وأشعلتُ مفتاح النور الكهربائي. تطلب الأمر مني لحظة ريثما أعوّد نفسي على سطوع النور، وما إن تعوّدتُ على ذلك حتى رفعتُ الأسد الحجري وتوّصلتُ إلى استنتاجي المتهور فيما يتعلق بدورك في الحادثة. ومرة أخرى، يا حسن توّسلتُ إليك لكي تصفح عني. إنه، ببساطة، لم يخطر ببالي المرهق الغيور - وأنا أعترف بذلك - أنني كنتُ أندفع لإطلاق الأحكام.

لا أريدك أن تفكر بعد الآن بدوري، قلتُ بثبات. كان ذلك سوء فهم استند إلى الحقائق الجاهزة، وقد قبلتُ اعتذارك. هذا هو كل ما يتعلّق به.

تطلّعتُ إلى الساعة المعلقة على الحائط.

لا أدري كم بقي لدينا من الوقت، قلتُ، لكنني لا أريد المغادرة من دون سماع القصة كلها. إن الأمر يتطلب مستمعا أذكى مني لكي يربط بين الدرب الذي قطعته بين الحجرة المظلمة ومقر إقامتك الحالي، ومن المؤكد أنني غير قادر على فعل ذلك من دون مساعدتك.

كانت سخريتي متعمدة وكان القصد منها أن تمتزج بروح الدعابة، غير أن مصطفى لم يبتسم. كان من الجلي أنه أخذ ملاحظتي على محمل الجد، لأن فمه نزل إلى الأسفل حيث كان يتوقع الاستمرار في تذكّر خيبة أمله في الحب.

أشفقتُ عليه، لكن فضولي - الضعف القاتل الذي يمتاز به كل رواة القصص - انتصر على تعقّلي. وحينما ظل صامتا، على أي حال، ووجهه متوتر بسبب الانفعال، أدركتُ أنه ربما كان يرغم نفسه على تفهم أنانيتي.

إنني أفهم، قال بهدوء، وهو يخمن الأفكار التي تجول في رأسي. إن فضولك، فضول راوي القصص - إذا جاز للمرء أن يسميه هكذا - في حقيقة الأمر يستحوذ عليك استحواذا كاملا ولا تستطيع منه فكاكا. إنني أعتقد أنك حتى في هذا المكان لا تستطيع أن تدعه وشأنه، أن تتخلص منه!

استقرّتْ عيناه على وجهي.

حسنا، لقد جنيتُ على نفسي، أليس كذلك، عندما كنتُ أتفاخر بمسألة كوني ندا لأبي ولك. وأنا لا ألوم إلا نفسي.

توقـف هنيهـة عـن التحـدث، وحول نظـره وأمسـى وجهه مكتئبا.

المحيط

حسـن، قال لي بصوت منخفض وجـدّي، ماذا يعني أن يكون المرء محيطا؟ إنني مسكون بما قالته لي حينما افترقنا.

فكرتُ في الأمر مدة طويلة قبل أن أغامر بالرد عليه: أعتقد أنه يعني أن تكون في شـيء واحد وفي جميع الأشـياء في الوقت عينه. لقد سـمعتُ هذه الكلمة تُوصف في المصطلحات الصوفية بأنها الطاقة التي تجري في كل شيء.

بنـاء علـى ذلـك لكـي يتطابـق المرء مـع المحيـط - أن تكون المحيط كما وصفتْ هي - يعني الالتحام بتلك الطاقة؟

مـن المؤكـد الالتحـام، إنما أكثر مـن ذلك؛ يتضمـن أن تكون أنت تلك الطاقة؛ هدوءها وسكينتها المحيطية، فضلا عن عمقها وجاذبيتها. وبهذا المعنى، هي مرادفة لما نفهمه بوصفه الحقيقة.

هل يستطيع المرء أن يصبح المحيط؟

من المؤكد يستطيع المرء أن يحاول ذلك.

تأمـل جوابـي، وبعدها قال: كنتُ أتمنى لـو أنني أمتلك تلك الطاقة تلك الليلة لأنه حينما ومض الفجر في الأفق شعرتُ بأن كل شيء قد انتهى.

دعـك حاجبيـه بأطـراف أصابعه وابتسـم لي بتجهـم. هوّن عليـك، قـال لي، سـأعيد بناء ذلـك الصباح لك مـن جديد، مع أن بـدء اليـوم الجديد لم يجلب الضوء لي بل جلب لي بدلا منه ظلمة شتوية طويلة الأمد.

كان المحيط صامتا.

كليا.

إنني متأسف، قلت له، وطأطأتُ رأسي.

علام؟ هي ذي طبيعة الأشياء، صحيح؟ نحن نغطس، نحن نسبح، المحيط لا يبالي بنا. أما بالنسبة للتعاسة فلا علاج لها. أو هكذا اكتشفتُ حينما غادرتُ الغرفة ورحتُ أتجول هنا وهناك على غير هدى حول الأسواق، وأنا لا أزال أتمنى أن أنعطف حول ركن ما وأجدها هناك. إنما لم يحصلْ هذا. لم تكنْ هناك أعجوبة، ولم تظهرْ هي. في وقت الفجر، أقررتُ بهزيمتي وهدَّني التعب ورحتُ أجرجر خطواتي كالحيوان المضروب متجها صوب ساحة الجامع. من المؤلم أن تكون حيا في موقف كهذا. شعرتُ بوحدة قاتلة. من المؤلم أن تكون في هذا العالم وأنت كسير القلب. في الواقع لا أتذكر ما جرى لي لاحقا.

جفل، وشاهدتُ على وجهه، كما لو أنه صدى من الماضي، لمحة من الإعياء المطلق الذي لا بد أنه تحمله خلال اللحظات المظلمة جدا من حياته. لقد أثار في داخلي شعورا مفاجئا بالغثيان، كما لو أنني أنا من خاض غمار تلك التجربة.

هل تتذكر عندما لسعتك سياط العاصفة الرملية في الصحراء؟ سألني. ذلك لا شيء مقارنة بالإحساس الذي أشعر به الآن. وحين عدتُ ثانية إلى الصويرة، سعيتُ إلى استئناف حياتي السابقة إنما كل شيء بدا عديم الجدوى. لم يعدْ بوسعي النوم، وفارقتني رغبتي في العمل، وفقدتُ ولعي بأصحابي. حاولتُ قراءة الكتب؛ كتب الحكمة، كتب الحب، الكتب التي تتحدث عن الذات، لكنني سرعان ما تخليتُ عن القراءة؛ فأنا

علـى العكس منك، لم أكـنْ قارئا. وحتى المسيرات الراجلة على الشـاطئ التي كانت تقويني لم تعدْ كافية. كانت أشـبه بالتدريب على مهنة ما في عزلة، واعتمادا على تعريفك للنجاح، فأنا كنتُ إما أفشل بصورة بائسة وإما أتخطى أعلى التوقعات. وخلال تلك المدة كلهـا، كانت لي حوارات لا حد لهـا معها، حوارات تجري في رأسـي فقط. كنتُ أتخيل أننا ما زلنا معا، وجعلني ذلك أسـتمر في الحياة. كنتُ أسـترجع كل لحظة قضيتها معها، كل كلمة، كل إيمـاءة صغيرة جدا، وكل تعبير صغير جدا. ملأتْ تلك الذكريات سـاعات يقظتـي، وباتتْ موضوع أحلامي. كانـتْ تتراءى لي دوما وكأنهـا ملتصقـة بـي، وثمة بسـمة خفيفـة ترقص علـى زاويتَي شفتيها. إن الخيال شيء قوي وفعال.

لقد تماديتَ في الأمر، يا مصطفى، قلتُ له.

أرسل إشارة مراوغة كما لو أنه يلمح إلى القول إن ذلك ليس من شـأني. لكنه أيضا لاذ بالصمت، وظل شارد الذهن، واغتنمتُ الفرصة لكي أطرح عليه سـؤالا. حاولتُ جاهدا أن أصوغ سـؤالي بطريقة لائقة، لكنه مع ذلك بدا طائشا حينما خرج من فمي.

سألته: هل يستطيع الحب أن يكون منفصلا جدا عن الواقع؟

ألقـى علـيّ نظرة مائلـة، ويمكنني الجزم بأننـي جرحته في الصميـم، وآذيتـه. أخـي المسـكين، أسـير هـذا الهاجـس الهائـل والميئـوس منـه! كم يملك في داخله من بسـالة وكذلك من عمى أولئك الذين أنهكهم الحب وضحوا بأنفسـهم من أجله. أشفقتُ عليه، ومع هذا، شعرتُ بأنني أبتعد عنه أكثر فأكثر. كانت عاطفته مفرطة جدا بالنسبة إلى إحساسي بالراحة؛ لعلي متحفظ نوعا ما في ما يتعلق بهذه الأشـياء، وفـي ظروف أخرى ربما كنت أرى

الأمور بشكل آخر، أو حتى أجدها مسلية، لكن ذلك يرجع إلى حقيقة كونه في السجن نتيجة لما حدث.

في النهاية، وهو يعي أنني أنتظر جوابه، هز كتفيه.

ريما يمكنني الرد عليك، قال لي، إذا ما فهمتُ ما عنيته بوضوح. إذا صح التعبير، كل ما بوسعي أن أقوله لك هو أن الحب نادرا ما يكون الشيء المنطقي جدا في العالم.

عدلتُ عن النظر إليه. قلتُ له بشيء من الفظاظة: مصطفى، لن أتجادل معك حول المنطق، مع إنني لستُ ذلك الرجل متبلد الحس. لكنني أؤمن فعلا بأن الحب يملك حتما بعض الجذور في أرض الواقع. إنه ليس فكرة تجريدية نفهمها من الكتب. ليس من العجب أن تلك الكتب التي حاولت قراءتها لم تكنْ تملك شيئا تقوله لك. الحب لمسة، صوت، ذوق، شم، رؤية، كل ما يجعل العالم بالصورة التي هو عليها حاليا. وبالطبع، ربما يستند الحب إلى مثل أعلى، لكنه لا يقدر أن يحيا على المثل العليا فقط. إنه يحتاج إلى شيء محسوس أكثر ليقوّي نفسه. فكّر في تشبيهك المتعلق بالمحيط، على سبيل المثال. يمكنك أن تستقي الإلهام من المحيط، يمكنك أن تبدي إعجابك به، لكنك لا تستطيع ان تسبح في صورة فوتوغرافية له، مهما كانت هذه الصورة جميلة. وبناء على هذا، يجب عليك أن تمتلك الشيء الحقيقي.

هذا تشبيه متحيز بشكل هائل، يا حسن! قال محتجا. من الواضح أننا لن نتفق في ما يتصل بهذا الموضوع.

ربما لن نتفق فعلا، لكنه نادرا ما يكون هذا هو الشيء المهم جدا، أجبته. أنا لا أبالي البتة حول ما إذا تطابقت آراؤنا

فـي موضـوع الحب أم لا، إنما يجدر بك يـا مصطفى أن تتركها وشـأنها. عليك أن تدعها وشـأنها وإلا فلن تجد السكينة وراحة البال.

آه، لكـن هـذا هو الشـيء الـذي تخطئ فيه، يا حسـن! هتف مصطفى.

تجلـى فـي صوته اهتيـاج نادر. مـال عبر القضبان وأمسـك بيديّ. دُهشتُ لتحوّله المباغت.

لا يمكننـي أن أدعهـا وشـأنها، قـال لـي بحيويـة، وليس ثمة حاجة إلى ذلك. إنها تسكن أصلا في داخلي. المحيط ليس شيئا خارج الذات. إنه الذات نفسـها. إنه يهبها البُعد، ويعيرها المعنى. صدّقني، إنني أعرف هذا لأنه حقيقة. لقد مررتُ بأصعب مرحلة مـن مراحل حياتي، وإن ما يجعلني أسـتمر فـي الحياة هو حبي لهـا. لكـن هو ذا بيت القصيـد: إنني في الحقيقة لا أفعل شـيئا قط. ذات يوم أفقتُ من نومي وألفيتُ نفسـي إنسـانا آخر. الأمر بهذه البساطة. لا يمكنني أن أطلع عليك بتفسير أفضل.

رنَّتْ ضحكته الصبيانية، المبتهجة في أنحاء الغرفة.

حـدث الأمـر علـى هذا النحو، قـال لي. كنـتُ مضطجعا في سـريري في سـاعة مبكـرة من صباح أحـد الأيام حينما سـمعتُ صـوت المـؤذن وهـو يدعـو المؤمنـين لصـلاة الفجـر مـن الجامع القريـب، والشـيء التالـي الـذي عرفتـه هـو أنني شـعرتُ بأنني أسـقط من السـرير. إنهـا الطريقة الوحيـدة التي أسـتطيع أن أصـف بها ذلـك الموقف. كان قد غمرني شـلال صوتـه. لقد فتّح حواسـي كلهـا، وأصبحـتُ المحيـط. كنـت ممتنّا جدا؛ أحسسـتُ براحة بال تامة. شـعرتُ بأنني إنسان لا يُقهر. مضيتُ إلى عملي

وأنا أترنم بالأغاني. في طريقي، لفتتْ انتباهي جرائد الصباح. كانت تستمر المرة تلو المرة في تناول موضوع الاختفاء. رفعتُ بصري وشاهدتُ النوارس تحلّق في الجو. تلوتُ صلاة صامتة واتخذتُ قراري. كان واضحا بالنسبة لي ما الذي يجب عليّ القيام به لاحقا.

قوّم جذعه، وجعل ذقنه تبرز للأمام، وتابع حديثه قائلا: سأزيل أي خطر يتعلق باكتشاف خطتهم من خلال إعلان موتهما. سأدّعي أنني خطفتهما وقتلتهما معا. ذلك سيمنع زوجها من الاستمرار في ملاحقتهما من الآن وإلى الأبد، وسيمنحهما الفرصة لكي يعيشا حياتيهما كما يستحقانها. وحين توصلتُ إلى هذا القرار، حبّا في السكينة وراحة البال والانسجام. نفّذتُ ما عقدتُ العزم عليه. إنني أعترف بملء إرادتي أنني عشتُ هذا الحلم.

لقد غدوتُ المحيط، قال مصطفى مجددا، وهو يبتسم.

رماد الأسد

بعد انتهائه من إصدار بيانه، جلس مصطفى جامدا بلا حراك، ساكنا ومتورد الوجنتين. تذكرتُ أيام شبابنا حينما كان يقف أمام المرآة، ذقنه مرفوعة إلى الأعلى، ذراعاه مشبوكتان خلف ظهره، ووضعه يشي بتمرده الفطري، لأنه، حينما قرر أن يسلّم نفسه للشرطة، خمنتُ قدرا كبيرا من التمرد ضد الواقع.

مر بعض الوقت من دون أن يتحدث أيّ منا. وبعدها قلت بهدوء: مصطفى، هل تستحق أي امرأة هذا القدر من التضحية؟

هو كذلك تحدث بهدوء: يمكنني أن أجيبك في حال إذا استطعت أن تخبرني لماذا قُدِّرَ لنا أن نلتقي أنا وهي.

التفتُّ بعيدا عنه وصرتُ أتأمل أرضية الغرفة. لا يمكنني أن أعطيه جوابا شافيا. على كل حال، فكّرتُ، مَن أكون أنا حتى أغامر بإعطائك رأيا عن القدر؟ وأنا أتفادى الأحاسيس العالية المجردة، قررتُ الالتفات إلى حقائق أكثر مباشرة. وأنا أحاول إبعاد اليأس عن نبرة صوتي، قلتُ له: أتضرع إليك، هل تتفضل بسرد هذه القصة للشرطة؟

بالطبع لن أخبرهم بها! هل جننت؟ لن أتنازل عنها مطلقا!

من خلال لونه المحمر يمكنني أن أرى أنه انزعج انزعاجا شديدا. بقينا هكذا دقائق قليلة، كل منا في مواجهة الآخر، من دون أن نتبادل كلمة واحدة. كان قد فقد وضعه المسترخي؛ وقد غطس رأسه بين كتفيه، وكان ينظر إليّ بتجهم. في النهاية ضممتُ ساقيّ ومررتُ يدي على جبيني. بتأنٍ شديد، وأنا أختار كلماتي بتردد وعناية، سألته قائلا: إذن هناك نسخة ثالثة لما حصل في تلك الليلة؟

أطلق ضحكة مفعمة بالازدراء، نصف مكبوتة: أجل، هناك نسخة ثالثة. إنما لا تغتم. إنها نسخة لا تأتي على ذكرك أو على ذكرها أو ذكر أي فرد آخر. إنها تشير إليّ فقط.

كانت النبرة الغنائية قد غادرتْ صوته.

فهمت عندئذ أن الطريقة الوحيدة التي أستطيع بواسطتها أن أجعل أخي يتفهم المنطق هو أن أتبنى موقفا هو ضد عواطفي التي جُبلتْ عليها بأن أشكك في صحة ما قالته له. قررتُ المجازفة بكل شيء من خلال طرح سؤال مباشر وصريح.

هل صدَّقتَ قصتها؟ سألته.

جفـل مصطفـى كمـا لو أننـي صفعته علـى وجهـه. في ردة فعلـه الواضحـة تلك، قرأتُ كل ما كنـتُ أحتاج إليه في ما يتعلق باحتمـال إقناعـه بصورة مختلفة. استسـلمتُ حتـى قبل أن يرد عليّ باحتقار: هل تشك بمصداقيتها؟

حسنا، توجد مسألة المعقولية، ألا تعتقد ذلك؟

معقوليـة مـاذا؟ أجابنـي، كان سـلوكه ينبئ بأنـه متحير من رؤية أي صلة بين سؤالي هذا وكل الأسئلة التي سبقته.

تلعثمـت، ومـن ثـم أضفت قائـلا: إن معاييـر المعقولية التي يجب أن يحكم بها أي رجل منطقي على حقيقة أو كذب أي شيء مهما كان هو أن يُطلب منه أن يصدقها.

ران صمـت قصيـر الأمـد. وبعدهـا رنّ صوته بنغمـة عالية: إننـي مغـرم بهـا، إنني مغرم بها، ولا أريد سـماع أي شـيء آخر! حينما تعشق أناسا مثلما فعلتُ، فأنت تهواهم إلى حد الجنون. أنـتَ تهـوى حد الجنـون في كل جزء منهم. إنـك لا تنكر صحة أقوالهم. إنك لا تشـك بصحة أقوالهم. هذه مسألة جانبية. أنا لا أحبها.

لم يكنْ باستطاعتي كبت ثورة الانزعاج التي اندلعت مني.

هذا الأمر بحد ذاته مشكلة، صحيح؟

تقوّس حاجباه وصارا أشبه بهلالين ينمّان عن الاستهزاء.

حسن، كنتُ أعرف دوما أنك إنسان ساخر، لكنني أعتقد أنني لم أكنْ أعرف حدود هذه السـخرية. يمكنك أن تجد عيبا فيّ، إن شـئت، إنما دعها خارج هذا الإطار. إنهـا لا تعيش وفق قواعدك. إنهـا ليسـتْ جزءا من عالمـك. على المرء أن يؤمن بشـيء ما، وقد اخترتُ الإيمان بالحب.

ساخر، رومانسي، هاتان كلمتان، مصطفى، إنما هي ذي الحقيقة المحزنة، وهي ليستْ - وهذا من سوء حظنا الكبير، والذي نتقاسمه معا - قصة خيالية. أنتَ الآن نزيل في السجن، بسبب جريمة لم تقترفها لكنك اعترفتْ بأنك اقترفتها. صدّقني، حتى أنا لم يخطر ببالي أن هناك قصة تفوق قصتك هذه في كونها غير محتملة أو مفروضة بالقوة. فيما يتعلق بالأجنبيين، إن كانا سالمين، أو أيا كانا، أتمنى لهما الخير والصحة والسعادة. أما بالنسبة لي ولك، ثمة حقيقة واحدة فقط، وهي أن الحياة لا تزال أمامنا، وهي حياة كئيبة.

لم يقلْ مصطفى شيئا؛ ببساطة ألقى نظرة متعالية عليّ. وعلى وجهه البيضوي الخالي من العيوب ظهر إحساس بالتفوّق بحيث لم يعدْ بمقدوري النظر إليه. خفضت بصري باكتئاب وأنا أركز نظراتي على نعليّ. كانا خفّين من الجلد الأصفر، متغضنين وباليين عند الكعبين. مع أنني حصلت عليهما في مراكش، لكن شيئا ما فيهما ذكّرني بقريتنا الواقعة في الجبال. تلك الحياة تبدو لي نائية جدا، ولأنها صارتْ جزءا مما لا يُمكن استعادته شعرتُ بحزن منهِك.

أذعن أخي لمزاجي الصامت. ومن دون أن نتبادل النظرات، من دون كلام، جلسنا في جهتي الحاجز المشبك الذي كان يفصل بيننا، كل منا مستغرق في أفكاره وخواطره. بدا أن لقاءنا كان قد تخبط في العقبة الخطرة المرعبة لغرامه، ولم أكنْ أعرف كيف أنقذ هذا الغرام. وكلما مر المزيد من الوقت، كنتُ أغطس في الكآبة، فيما كنت ألاحظ أن حالته هي بالضبط على العكس من ذلك تماما. وبصورة متزايدة، فإن السكون الذي كان قد ساد

الغرفة وقت دخوله إليها بدأ يُظهر مرة أخرى. هذا الأمر جعلني أتساءل ما إذا كان ملاذ عشقه شيئا قريب الشبه بالسلوان الذي يوفره الدين. ومع هذا، فكّرتُ في نفسي، ماذا يجدي أن تربح مملكة إذا ما تعين عليك أن تخسر حياتك؟

حينما تحدثت أخيرا، كان سؤالي صدى للأفكار التي جالتْ في ذهني.

كيف تصلي في وقت كهذا؟

ولكي يغيّر موقفه، لم يبدُ عليه أنه انزعج من سؤالي.

كان جوابه هادئا، ثابتا.

دعوتُ الباري الذي يصدقني. رجوته أن يشملني بعونه في إماطة الخمارات التي تغلّف العالم. إن ذلك يشبه السباحة نحو ساحل بعيد حينما تعرف أن المحيط من حولك واسع وعميق وهناك احتمال قوي أنك لن تستطيع الوصول إليه.

سمعتُ صوتا ورائي والتفتُّ.

كان رجل الشرطة واقفا بمحاذاة الباب. دلف إلى الغرفة وأشار إلى الساعة المعلقة على الحائط. نهضتُ من كرسيي، وشعرتُ نوعا ما بالارتياح لأنه قطع سلسلة حديثنا. أحسستُ بأنني متعب وأفتقر إلى القوة اللازمة لإطالة اللقاء. وأنا أواجه عزيمتي الواهنة، استحوذ عليّ إعياء تام. كان قلبي يؤلمني؛ وشعرت بضيق في صدري. تطلعتُ باعتذار إلى مصطفى، بيد أنه هو أيضا كان قد نهض على قدميه. مال إلى الأمام فجأة وبنبرة صوت مختلفة، تواقة ولطيفة، همهم قائلا: حسن!

أتمنى أن أشاطرك إيمانك، قلت له بسأم.

المنارة

قبل مغادرتي مخفر الشـرطة، فتّشْـتُ عن الضابط المسـؤول عـن قضية مصطفى وسـألته ما هي، في رأيـه، العقوبة المحتملة التي سينالها أخي.

سيظل في السجن مدى الحياة، قال الضابط بلا مبالاة.

إنــه بريء، قلـت له. كل ما أخبرك به هـو فبركة. لقد اختلق الحكاية برمتها.

أذهلني رده.

أعـرف ذلك، قـال لي. لقد روّضتُ عددا كافيـا من القتلة في حياتـي بحيث اكتشـفتُ أنه ليس واحدا منهم. لقد اسـتجوبته، لكنــه لـم يكنْ قـادرا على تزويدي بـأي تفاصيـل. ولا حتى جزء واحـد. غيـر أنه اعتـرف بالجريمة وعلينا أن نقبـض عليه ما لم يتكشـفْ شـيء آخر. بصراحة، أعتقد أنه مصـاب بالجنون. هذه المرأة الأجنبية شوشًتْ عقله.

إنه متيم بها، قلت.

مـال إلى الوراء في كرسـيّه وتفحّصنـي برهة طويلة من دون أن يتفـوه بكلمـة. ضيّق عينيه إلى أن بدا كأنـه يمعن النظر فيّ. وحين بدأتُ أشـعر بأنني قلق بشـكل جلي، قال لي: ألسنا جميعا مجانين قليلا؟

حدّق فيّ، وهو متردد، وبعدها التفت جانبا.

غـادرتُ مخفـر الشـرطة وأنـا مشـوش الذهـن وقانـط جدا. وأنـا أهبـط درجات السـلم، أدركـتُ أنني لا أزال أمسـك بالأسـد الحجري الصغير. سـاءلتُ نفسـي ماذا أعمل به. ليستْ لي رغبة لأن أتذكّـر حماقـة أخي. بعـد أن فكرت مليا فـي القضية يومين

كاملين، نزلتُ إلى حديقة (المنارة)، رميته بقوة وعجلة في البركة العميقة المتاخمة للجناح الوسطي. حينما اقتربت المياه منه، نطقتُ بصمت الكلمات التي كنتُ أتمنى أن تقلل العبء الرازح على ضميري. فكرتُ أنه إذا كان هناك فرد يستطيع إنقاذي من ذكرياتي، فهذا الفرد لن يكون سواي. مشيتُ بمحاذاة حافة البركة، وأنا مشغول البال. كان سطح البركة قد رقشه نسيم عذب. وكانت تعكس السماء الزرقاء، الحافات المسننة للغيوم. وللحظة تولد لديّ انطباع بأنني وحيد في هذا العالم. لم يكنْ باستطاعتي سماع ضوضاء الشارع أو رؤية حشود السائحين وهم يطوفون هنا وهناك من دون نظام، حول الجناح الذي شُيّد من أجل السلاطين المستبدين لكي يمضوا فيه مواعيدهم الرومانسية. توقفتُ هنيهة ونظرتُ إلى الشرفة ذات الدرابزين التي منها، كما قيل لي، كان أحد السلاطين، صباح كل يوم، يرمي محظيّته التي أمضى معها ليلته في الماء. وفجأة، حدث لي شيء غريب، ربما كان ذلك هو منظر السماء الزرقاء بصورة مدهشة أو الهواء المعطر برائحة البرتقال والياسمين أو سرب الطيور التي كانت تغرد متوقعة قدوم الربيع. أو ربما كان ذلك هو تفهمي للحقيقة القائلة بأن مصطفى إنسان بالغ وكان قد اتخذ قراره لأسباب هو وحده الذي يستطيع أن يفهمهما فهما تاما. على أية حال، في النهاية، إنها حياته التي يعيشها، حتى إذا لم تكنْ تعني لي شيئا ما. ومهما كان الحال، فإنني قررتُ الاستمرار في مشوار حياتي، ولعله مشوار صعب. عدتُ إلى منزلي أكثر هدوءا مما غادرته.

الأسطورة

بعـد حبس مصطفى، تحاشـيتُ الذهاب إلى سـاحة الجامع ردحا من الزمن، حيث وجدتها مكتظة جدا بتداعيات غير سارة. في الحقيقة، خلال أيام قلائل، تجنبتُ مراكش بكل معنى الكلمة، ورحتُ أفتش عن مأوى لي في منزل أبويّ الواقع في الجبال. في الوقت نفسـه، لم يكنْ باسـتطاعتي البقاء بعيدا عن المدينة مدة طويلة من الزمن بخاصة أنني كنتُ أشعر بأنني مجبر على زيارة أخـي في زنزانته بالسـجن، وكان ذلك الأمـر يتطلب مني القيام بذلـك مـن دون تأخير. لكننـي حتى بعد عودتي إلـى المدينة، لم يكنْ من السـهل عليّ مواجهـة احتمال أن يمكث مصطفى خلف القضبـان طـوال سـني حياتـه. كنـتُ أخـاف عليـه، وكان خوفي ممتزجا باليأس بحيث جعل لقاءاتنا المرتقبة لا تطاق تقريبا.

فـي البدايـة، حاولـتُ أن أتحـدث معـه بعقلانيـة. انتابتنـي الهواجـس لأيـام عـدة مـن دون انقطاع فـي ما يخـص الطريقة الصحيحـة لجعلـه يرجع لعقلـه، وحتى جنّدتُ مسـاعدة أحمد لهذا الغرض. لكننا سرعان ما اكتشفنا أن التفسيرات العقلانية كانـت بلا جدوى مـع رجل عكف على أن يجعل الحقيقة تتطابق مـع الحلـم. ومع مـرور الأيام، تخلـى أحمد عما سـمّاه «مجهود مثير للسخرية»، في حين أدركتُ أن مصطفى بقراره اللاعقلاني بصـورة فريـدة توقـف علـى الأقل عـن المعانـاة داخليـا. الوجع، كالنـدم، يخف بمرور الزمن، لكن حـب أخي بدا كأنه ينمو ويكبر ويصبح قويا بصورة عجيبة بحيث كان يسمو فوق كل شيء آخر. ولمـا كانـت ذكرى لوسـيا لا تـزال تتملكه، لم يكنْ فقـط غير قادر على التحدث عن أي شيء آخر، بل غير قادر حتى على التظاهر

بأنه مهتم ببقية أنحاء العالم. وفي تصميمه على تصديق نفسه، عاش كما لو أنها كانت ملكا له. كان يقهقه فيما هو يتكلم وجعلني أتورد حينما كان ينعتها بكلمات مشبوبة العاطفة. كان من الجلي أنه شاهدها عن كثب في الزمن القصير الذي أمضاه معها لكي يقيّمها أكثر. إن بسمة ما، ترنيمة ما، أو مجرد إيماءة، كل شيء كان يعبر عن الصورة الوفية تماما إنما الحزينة التي رسمها لحبيبته.

وهكذا، على العموم، من خلاله تهيأ لي أن أعرف أكثر في ما يخص هذه المرأة الغريبة تماما، أو، على الأقل، تلك النسخة منها التي جعلها ملكا له. خلال حضوري كان يستعيد تلك الصورة، يزخرفها، يضيف إليها كل الخصال التي لم يسبقْ له أن تخيلها في امرأته المثالية، ويصبح مفعما بالحيوية المتزايدة حين يحس بأن انتباهي الصامت يشجعه.

ذات يوم، مال إلى الأمام عبر القضبان ووضع يديه على كتفيّ. أشعر بالراحة حينما أثق بك، يا حسن، قال لي. أسمع نفسي وأنا أستعيدها من أجلك وهذا يجعل منها حقيقية أكثر بالنسبة لي.

أنا مسرور بذلك، قلت له.

إنها تملأ عالمي، حبيبتي لوسيا..

نطق باسمها برقّة ما بعدها رقّة، وكان صوته مختنقا جدا بفعل قوة عواطفه، بحيث أدرتُ عيني إلى الأرض تعبيرا عن إجلالي واحترامي.

آه، يا حسن، مضى يقول، ليتني أستطيع أن أخبرك كيف هو شكلها! كل يوم قضيته مع ذكراها يشبه الوقوع في الحب من

جديـد. إنه أشـبه بإلهام يومـي. إنه يجعل كل شـيء آخر طارئا. كيف يمكنني أن أطلب المزيد من حياتي؟

سكت لحظة ومن ثم قال لي وهو يبتسم: لهذا السبب توصلت إلى الإيمان بأن الحلم أفضل من الامتلاك.

لماذا تقول هذا؟ سألته.

لأن الامتلاك يحطم الحلم. الحلم نفسـه هو الحقيقة، وقد منحتني هي أحلام شاعر.

سكت عن الكلام هنيهة، وقد أخذت شرارات العاطفة المتأججة تتطاير من عينيه. وبعدها قال لي، بصوت خفيض: حوّل قصتي هذه إلى أسطورة، حسن، إن كان باستطاعتك.

اغتنمـت الفرصـة لكـي أحثه علـى أن يخبرني، مـرة واحدة وإلى الأبد، بالحقيقة المتعلقة بما حدث حقيقة في السـوق تلك الليلة.

لقـد أخبرتـك بالحقيقة من قبل، أجـاب مصطفى متعجبا. أنت أخي وأنت تمارس فنا تكهنيا. لماذا أكذب عليك؟

تجاهلتُ رده، وأصررتُ على الحقيقة الخالصة.

اختلـقْ واحـدة، إذن، إن شـئت ألا تصدقنـي، قال لـي برباطة جأش. بحوزتك كل المعلومات الضرورية.

هل هذا رد أم أنه تملص من الإجابة؟ رددتُ على جوابه بسؤال مثله، وقد بدوتُ سريع الغضب أكثر مما أردت.

لا هذا ولا ذاك، أجابني.

إذن ما تقترحه نيابة عني هو سلسلة من الأكاذيب بتنوعاتها المعتمدة؟

الحقيقـة تكـذب، يـا حسـن. إنهـا متنكـرة دومـا بالكلمات.

بوصفك راوي قصص، عليك أن تعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر.

قصصي لا تكذب، قلتُ بعناد. هذا ليس ديدننا، كما أنه ليس شيئا مشروعا. مرر أبونا هذا المبدأ إليّ، كما توارثه هو عن أجداده.

رفع مصطفى يديه عاليا.

لقد فهمت ما عنيته أنا بصورة حرفية، قال باحتجاج. ليس ثمة طائل وراء سعيي لفهمك في ما يتصل بهذه القضية. كل ما نفعله هو أننا نلف وندور.

بدا وكأنه أصيب بجرح بليغ، وشعرتُ بأنني محبط جدا لأنه استمر في رفضه قول الحقيقة وهو يريدني أن أنظر إلى طلبه بعين الاعتبار. وفي النهاية، ونحن نجلس أحدنا قبالة الآخر، بقينا مستغرقين في أفكارنا وخواطرنا.

في الختام، طلب مني - وأنا أعتقد أنه فعل ذلك من أجل أن يكسر الصمت غير المريح أكثر من أي سبب آخر - أن أصف له الساحة كما وجدتها وأنا في طريقي لزيارته.

وأنا متأسف على تمردي السابق، قلت له، وسخرت جميع قدراتي في الوصف. كان لدي شعور بترتيب الأشياء، برسم الصور من أعماق ذاتي. تملكني شعور بالارتياح لأني كنتُ قادرا على تقديم هذه الخدمة إلى أخي المنحوس. شعرتُ براحة البال فيما كنتُ أروي، وبالرضا.

ولأنني أعرف صلته الوثيقة بالصويرة، بدأتُ أقارن بين الأضواء الوامضة في الساحة ليلا والبحر. هذه المقارنة ذكّرتني حينما كنتُ أجلس معه على السور البحري خلال زيارتي للصويرة، وعصفة الريح المفاجئة التي هبَّتْ من وراء نتوء الجبل

الداخل في البحر. كنا نحتاج إلى كلتا يدينا لكي نتمسك بالمظلة الوحيدة التي أحضرناها معنا وعلى الرغم من ذلك تبللنا بالرذاذ الآتي من البحر.

قلت لمصطفى إنني تذكّرتُ تلك الريح البحرية بفعل ذلك النسيم الخفيف الذي كان يهب على ساحة الجامع بينما كنتُ أشق طريقي متجها صوب السجن. في سطوع شمس ما بعد الظهر استمتعتُ بالمشي السريع. وفيما أنا أسترجع أحداث الماضي، رحتُ أصف السماء الشتوية، لعبة الغيوم ونور الشمس، تقلبات مزاج ساحة الجامع الزئبقي، حشودها وألوانها القزحية. الضوء الساطع الذي جعل الساحة تبدو شبيهة بسهل ثلجي كما هو موجود في أسفل السفوح الجبلية مما جعلني أشعر بحنين مَرضي إلى المرتفعات. في كل حدب وصوب هناك بريق كما لو أن رذاذا من الماء مرّ توا. أما أعماق السوق، كما هو حالها دوما، فكانت مظلمة كالليل.

مضيتُ أتكلم على هذا المنوال طوال فترة من الزمن، وأضفتُ جميع أنواع التفاصيل إلى وصفي لكي يعرف أخي على وجه الدقة ما شاهدته، مثل السحابة الساكنة فوق مئذنة (الكتبية) التي بدتْ وكأنها تحتوي على كل ألوان الكون، أو سلسلة البسط المحيكة المتدلية في الهواء على حبل غسيل في الزقاق الواقع خلف مركز الشرطة، أو شمس الشتاء اللطيفة التي وقفتْ مباشرة فوق الساحة كما لو أنها تقف على أسس.

هذا رائع، يا حسن، قال مصطفى بوميض حالم في عينيه حينما أنهيتُ كلامي. شكرا لك على تطييبك خاطري.

تفرس في وجهي في النهاية، وكأنه يراني لأول مرة، ورأيتُ الامتنان في نظرته. كنتُ أعرف أنه غفر لي بلادة حسي السابقة،

وشعرت بتعاطف عميق بحيث ترقرقت الدموع في عينيّ. إن فكرة أنه باستطاعتي نقله من زنزانته إلى عالم آخر بكلمات بسيطة وقليلة، أثارتْ مشاعري بشكل عميق جدا بحيث احتبس نَفَسي في حنجرتي. وشعرتُ بأنني غير قادر على التكلّم حينما سألني: هل تتذكر كيف كان الجو حارا دوما حينما نزلنا مع أبينا خلال فصل الصيف؟ في بعض الأحيان كانت الحرارة شديدة بحيث كنتُ أرى الشيء شيئين. كانت هناك حرارة شديدة. ضوء غامر جدا.

بدا أنه نسي كل شيء بينما كان يشاهد الأشعة الآفلة للشمس عبر الشباك العالي في الجدار. التحقتُ به ورحتُ أتأمله وعشتُ إحساسا لم أعشه منذ سنوات عدة، ألا وهو: رؤية الحياة عبر عينين جديدتين. في منتصف تلك الليلة، كانت الغرفة الحقيرة قد تحولتْ إلى فضاء للسكينة والهدوء. كل شيء بدا بلا حدود. في عمق تلك اللحظة، حب أخي هو كل ما بقي في هذا العالم، وهو الشيء الوحيد الذي كان له أهمية. جلستُ هناك في صمت، عدلتُ عن مقاطعة الأنشودة الرعوية، ورحتُ أراقب السماء وهي تتحول من الضوء إلى الظلام وأتعجب من سرعة هذا التبدل. الأفق وحده، بالغيوم التي تكسوه، بقي وضاء ونيّرا. وحتى بعد ذلك عندما أمسى داكنا، وانتشرت هالة نيلية عبر السماء.

قبل مغادرتي، سألتُ مصطفى ما إذا كان يحتاج إلى شيء من العالم الخارجي.

لا أحتاج إلى شيء، أجاب بلطف. شكرا لك، يا حسن. لقد أعطيتني كفايتي. لقد ساعدتني على تذكّر حبيبتي ونقش ذكرياتها بصورة أعمق في كياني. إنها أروع، وأكبر هدية يمكن أن يطلبها المرء.

الحقيقة والجمال

في الأعوام التي تلتْ حبسه، أدركتُ أنه مع أنني غير قادر على تحرير أخي من السجن، كان باستطاعة فعلته تلك أن تجعلني أتعلّم ما يتصل بالحياة. كان جوهر الدرس الذي تعلمته يكمن في وجهة نظر بسيطة بصورة خادعة: إن الجمال رفيق الحقيقة، وبالطراز نفسه تماما، يوفر الجمال أنقى شكل من أشكال المؤازرة. الجمال يجب أن نتأمله بوصفه شيئا غامضا، لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة ضربات الحدس البارقة بدلا من أي شكل من أشكال الفهم العقلاني، لأن الجمال في مرتبته الأولى يحمل كل استثنائية المعجزات. لهذا السبب فإن تجربة الوقوع في الحب شبيهة جدا بالتحوّل التصوفي. إنه حدث وحيد ومفاجئ؛ الوقوع إلى الأعلى، كما نعته أخي، وما ينتج عن ذلك هو الشيء الوحيد الذي له أهمية في نهاية الأمر: اللقاء بين المرء وروحه. في الحب الحقيقي، الروح تغلّف الجسد. الحب يخلق عالما لا يمكن أن يوجد في أي مكان عدا باطن المرء. من هذه الناحية، الانسحاب الحاسم لأخي من العالم كان له معنى مثالي. في عزلة حبه، كان قد حقق كل ما تمناه. كلما تجاوز خياله الحقيقة، أصبح ينتمي أكثر للعالم الآخر، وازدادت قوة إحساسه بالاستقلال الذاتي، ومن هنا، إحساسه بالوقار. لكي نعرف أن ما لا يمكن سبر غوره يوجد فقط وهو يُظهر نفسه في الجمال؛ هذه الحكمة تشكّل جوهر الإيمان الأصيل. أما البقية فهي لا شيء، باستثناء التنافر المتعذر حله بين الفرد والعالم.

صحراء الحب

تحدّث الآن صوت من حافة حلقة المستمعين، صوت خفيض، كما لو أنه انبثق من أعماق صمت مليء بالتأمل.

ألم تنبثق فرص لإنقاذ أخيك؟

لم أتعجبْ من أن يُوجه إليّ سؤال كهذا. حاولتُ أن أعرف مَن السائل، لكن الظلام كان شديدا في ذلك الجزء من الحلقة ولم يكنْ باستطاعتي أن أجبر نفسي على الابتعاد عن دفء النار والمشي إليه.

كانت هناك بالطبع فرص لإنقاذه، قلت، لكنها جميعا لم تكنْ قريبة من تحقيق حريته عدا فرصة واحدة.

انتظرتُ ردا، أو ربما سؤالا آخر، وعندما لم يكنْ هناك سؤال وشيك، قررتُ الاستمرار في كلامي وسرد القصة. ضيّقتُ عينيّ بحثا عن الكلمات المناسبة التي تنقل ما وددتُ قوله، لكن غريزتي حذرتني من أن ذلك يجب أن يبقى مخفيا إلى درجة كبيرة.

حدث الأمر بهذا الشكل، قلت.

في جنوب الجبال، وراء الحدود مع الجزائر، هناك واد يعرفه السكان المحليون بكونه المكان الذي تذهب إليه الجِمال لتموت هناك. وراء هذه العلامة المحزنة، التي تنتشر فيها الهياكل العظمية، كانت صحارى الحجر الأسود تتيح المجال لرقعة رملية عميقة مفتوحة وهي أول إعلان عن حدود الصحراء الكبرى بالمعنى الضيق للكلمة، وهنا كانت ثمة طائفة من الأجانب - معظمهم من الغرب - يودعون زوجاتهم وينطلقون نحو الصحراء. لم يبقَ في عالمهم شيء ما. إنهم مغتبطون لأنهم يتركون كل شيء وراء ظهورهم. يمشون متوغلين في

الصحراء ويواصلون المشي إلى أن ينهاروا، عادة بسبب العطش والنوبة القلبية. أثر الركام المبعثر يترك أثرا في الطريق الذي سلكوه. يبدو كما لو أنهم لم يستطيعوا الانتظار ريثما يخلعون جلودهم. أول الأشياء التي كانوا يتخلصون منها هي محفظاتهم الجلدية وبطاقات البنوك اللامعة، ومن ثم العملات الورقية والعملات المعدنية، وتعقبها الأوراق الثبوتية وبطاقات العناوين. إنهم يحتفظون بالصور الفوتوغرافية لأحبائهم حتى المراحل النهائية، ومن ثم، في أغلب الحالات، حتى هذه يتم التخلّص منها. الصحراء لها طريقة في المطالبة بكل شيء، ويكون الموت سريعا بصورة رحيمة في نهاية المطاف. الرمل يغمرهم تماما، يجردهم من ثيابهم، يصبغ عظامهم. إذا تم العثور عليهم قبل أن تتفسخ أجسادهم، فسيجد المرء حتما أن الابتسامات مرسومة على وجوههم. لقد دخلوا الجنة، وستظهر هي ما بقي من آثارهم بعد الموت. يسمّي الصحراويون المحليون هذه البقعة صحراء الحب؛ إنهم يقولون إن الشفقة هي التي تشير إلى بقعة العناق الأبدي هذه.

هنا، في هذه المنطقة الخالية من الطرق، المهجورة تماما، عثر تاجر إبل جوال على وثيقة سفر هندية بالية وباهتة اللون قبل بضع سنوات. أحضر الوثيقة إلى (سوق الأربعاء) في (سمارة)، على أمل أن يبيعها مقابل دراهم معدودات، سمعتُ بذلك من نبيل، وهو أحد أصدقائي، واستطعنا الحصول على الوثيقة وأخذناها إلى شرطة مراكش في محاولة منا لإثبات براءة أخي. لكن جهودنا باءتْ بالفشل. وبدلا من أن نفسّر الدليل باعتباره برهانا على أن مصطفى ليس له أي صلة بحادثة الاختفاء،

ظلت الشرطة مقتنعة بأن ذلك يشير بالضبط إلى جريرته، وسيبقى أخي في زنزانته حتى يومنا هذا.

رجل الدين

كل هذا شيء ممتع جدا ورومانسي بدرجة كبيرة، تكلّم صوت ناعم ورقيق فجأة، لكنه قلما يكون استنتاجا مفيدا لحياة المرء.

بعد أن سكت مدة قصيرة، أضاف الصوت نفسه قائلا بجرس أعمق وأكثر كآبة: حياة إنسان مسلم.

تطلعتُ بفضول إلى ذلك الاتجاه وميّزتُ رجل الدين الملتحي الذي استجوبني في مطلع المساء. نظر في عينيّ مباشرة وابتسم بينما كان يواصل كلامه: لقد فتّشتُ عنك، قال لي، لأنني سمعتُ عن شهرتك باعتبارك راويا ذكيا ومبتكرا. كنتُ أتطلع إلى ليلة تتسم بالتسلية واللهو بعيدا عن هموم الدنيا. وكما تعرف، وصلتُ مبكرا لكي لا تفوتني كلمة واحدة. كنتُ أرغب بأن يكون عقلي متفتحا، إنما كان يتعيّن عليّ أن أعرف من اللحظة التي بدأتَ بها أنك لن تقدّم ما وعدتنا به.

سكت قليلا عن قصد وألقى على وجهي نظرة عامة.

إن فن سرد القصة، تابع كلامه قائلا، هو فن لطيف، على الأقل طالما أنه يُمارس بين أفراد شعبنا، وأن كل فرد يقرر أن يكرّس ليلة بأسرها لامرأة؛ وهي امرأة أجنبية فضلا عن ذلك، يكون قد تاه بعيدا جدا عما هو مثالي. لقد استمعتُ إليك بعدم تصديق متزايد سرعان ما تحوّل إلى غضب. إن قصتك لم تكنْ فقط غير مفيدة، بل كانت مجهودا جديرا بالازدراء بكل معنى الكلمة.

مــا من شــيء فيها يمكــن أن يُحاكى، لا وجود لقيــم أو طموحات كونية، لا شيء - لا شيء من هذا القبيل على الإطلاق - يستحق المكافــأة. إذا كان فيهــا أي حقيقــة من الحقائق، فهــذه الحقيقة تكمــن في مســتوياتها المتعلقة بالانحطاط، وهــو في واقع الأمر انحطاط من نوع ما.

كنتُ أنصت إليه بانتباه، لكنني قاطعته الآن.

أليــس الحــب قيمــة كونيــة؟ ســألته. أليس الحــب الحقيقي طموحا ينطبق على الجميع من دون استثناء؟

هــذا «الحب» الذي أنت مفتون به يُمكن أن يوجه فقط صوب ما هو ســماوي، أجاب رجل الدين. لم يظهر هذا الحب في قصة الرجل الذي كرّس نفسه لكي يغذي عذاباته هو.

ألا يوجد شيء سماوي في الجمال؟

لا يوجــد إذا كنــت تهــذب الخصائــص البشــرية كمــا عينتَها أنت في فرد محدد وعزوت الحالة الســماوية إليها. أنا أيضا كنتُ حاضرا حينما زار الغريبان ســاحة الجامع، ولم يكنْ فيهما شيء يستحق هذا القدر من الاهتمام الذي كرّستَ له قصتك.

ربما يكون هذا الرأي صحيحا، قلتُ بســرعة، إنما من المؤكد، بوصفــك رجــلا، لا بد أنك مررت بتجربة ما في مرحلة ما خلال حياتك بحيث أبديت إعجابك بامرأة جميلة؟

هذه ليستْ هي النقطة الجوهرية!

دعــك مــن الحديــث فــي الأشــياء العموميــة إذن، اقترحــتُ عليــه، وخذْ بعين الاعتبــار، بدلا من ذلك، الأشــياء الخصوصية فــي قصتي. لمــاذا لا تقول لنا، على ســبيل المثال، كيف كان شــكل الغريبين؟

ابتسم رجل الدين الملتحي من وضوح مناورتي، وكان رده مصقولا ومهذبا بصورة ملائمة. كانا فاسدين، قال لي، شأنهما شأن جميع الغربيين.

هي لم تكنْ تملك أي فضيلة أيا كانت، في رأيك؟

أطلق ضحكة لاهية.

لا يمكنني أن أؤكد أنني أُعجبتُ بها. بالأحرى، أثارت المرأة شفقتي. لعلها كانت تمتلك جاذبية حيوانية من المؤكد، وهذا هو كل ما هنالك على مستوى الحيوانات. أما أنا، على العكس منك، أضاف بحدة، فاللحم العاري لا يثير خيالي، كما أن فستانها في ذلك اليوم لا يكاد يكون محتشما.

لم أسمعْ أحدا ينعته بكونه غير محتشم، أشرتُ قائلا.

لا يهم، قال برقّة ولين، كما لو أنه يلمح إلى العكس. كما أظهرت حكاياتك، هي لا تكاد تستحق الثناء على كونها نقية ورقيقة في أفكارها وأفعالها.

استمر في السخرية من جميع مواطن الضعف التي كان يلاحظها في النساء الغربيات. تحدّث بثقة عالية بالنفس، كان وجهه قد تقلّص من جراء الكره والازدراء، وكان صوته يغدو أعلى نغمة شيئا فشيئا.

لقد أقمتُ في لندن، تلك المدينة الحديثة، قال. إنني أعرف هذه الكائنات البشرية. إنهن ليس أفضل من البغايا. إنهن يفتقرن إلى أي إحساس بالحياء والشرف اللذين يناسبان منزلتهن في الحياة.

ساءلتُ نفسي ما إذا كان هو يتكلم على سبيل السخرية، وبخاصة أنه يظهر الطبيعة المتطرفة لعواطفه، لكنني بعدها

سمعتُ التوتر في صوته أدركتُ أنه في منتهى الجد. كانت سخافة هذه الخطبة المسهبة العنيفة قد تضاعفتْ بفعل هجاء رجل دين محافظ يتكلم بتفصيل دقيق في موضوع النساء الساقطات.

أما أنت، تابع حديثه، وهو يوجه انتباهه إليّ، فأنت من يذيع خليطا من الأحلام والأخيلة الملتهبة. لماذا كرّستَ ليلة كاملة لكي تغذي وهما؟ قد تكون هذه المرأة حلوة وجميلة في عينيك، لكنها فاسدة بكل المقاييس. كانت عاهرة عديمة الأخلاق تخلتْ عن زوجها الذي تزوجت منه شرعيا، وكان على حق في ما يتصل بحقوقه في ملاحقتها. لتتلف روحها في نار جهنم! لكي تحولها إلى أسطورة، فإنك تكرر مغالطة أخيك؛ أخوك الضال بصورة غير معقولة، الذي اختلق قصة محطمة للذات، كان قد تعلم أن يحب عذابه، وهو يجد الرضا في احتقاره لذاته. الأمر الواضح جدا هو أنكما معا كنتما تجدان متعة في التفكير بدغدغة الأحاسيس. إن السحر الذي يقيدك هو حاد ومزعج. لقد باشرتما معا بملء إرادتكما في المغامرة نفسها الباعثة على السأم.

كرر جملته الأخيرة، وكلماته تبدو متشنجة، والنبرة تبدو أعلى. بدا غضبه مبالغا فيه، وصارت أنفاسه أسرع فأسرع، والتفسير الوحيد الذي كان بمقدوري فهمه جيدا من أجل معرفة حدود عداوته هو أن قصة أخي لامستْ حتما وترا حساسا فيه.

شأنه شأن أي شخص آخر، قلتُ ببرود، أخي يريد أن يعيش، أن يستمتع بالحياة. وفي ظل ظروف مستحيلة أفلح في أن يدمج حبه بمثالية بطولية وهو يستحق الإعجاب على ذلك، وليس الإدانة.

يـا للهراء! أجاب رجل الدين. هل توجد امرأة مثل تلك التي وصفتها؟ يا إلهي! كيف استطاعتْ هي أن توقعك في شباكها! لو كانـت هي موجودة في الواقع كما وصفتها، ما كان باسـتطاعتها أن تجعل منكما أسـيرَيها بشـكل تام. في غياب الروحانية ملأتما حياتيكما الفارغتَين بأحقر الرغبات الجسدية.

ليستْ رغبات جسدية، أجبته بهدوء، بل رغبات تجسد المثالية. إذا كان أخي قد تعلّم شـيئا ما من تجربته، فهو أن يحب الجمال إلى حد العبادة. ما الضير في ذلك؟ إن فن تذكّر الفضيلة هو فن يساعد على الشفاء.

حـب إلـى حـد العبـادة؟ قـال بصـوت ناعـم، خطيـر. إننـي أنصحـك بألا تكفر على مقربة من الجامع، أي جامع. تمهل في فرز أفكارك.

وهـو يديـر ظهره لي ويخاطـب جمهوري بقوة يتعـذر كبحها، قال: لقد وقعتم جميعا تحت تأثير نوع من السحر، ذُهان جماعي. إنـك تفتـرض أنـك تهـب صوتـا للذكريات لكـن كل مـا تفعله هو «تزويـق» الأكاذيب. إنكما تفتخران بالإصغـاء أحدكما إلى الآخر، وتبديان إعجابكما، كما تفعلان الآن، بسـمو عاطفتكما المتأججة. إن قصصك تعبّر عن الامتنان والإعجاب في حين يتعيّن عليك أن تشعر بالحرج. لقد تم استغلالك، ومع هذا فقد بنيتَ أسطورة من ذكرياتك الضبابية. وحتى حوافزك ليسـتْ خالصة. لقد حفزتك الكبريـاء والرغبـة في التملك. يـا أولاد المسـلمين، أنتم ملحدون تعبدون الأوثان. الغرب وسمكم بتأثيره من دون أن تعرفوا بذلك!

ران سـكون ثقيـل عقـب خطبتـه اللاذعة. تطلعـت إليه، وأنا مرتبـك بسـبب خبثه. كنتُ أتصـور أنني قادر فقـط على المقارنة

بـين حالـة الاهتياج التـي أتى بها رجـل الدين هـذا إلى حلقتي وتفاؤل مصطفى الهادئ في مواجهة محنته.

وأنـا أدرك أن مقارنتـي لـن تفعل شـيئا سـوى إغاظة رجل الديـن الـذي كان يسـتجوبني، سـألته بهدوء ما مصدر سـوء طبعه.

كشف عن أسنانه، والغضب يضغط على حنجرته.

لقد أهنتني الآن؟ إنه لشيء عجيب أنني لم أضربك كما كنتُ أتمنى أن أضرب تلك المرأة الفاسقة!

إنك تؤيد العنف؟

بكل تأكيد. العنف قد يفيد في إعادة الناس إلى وعيهم.

مـع احترامـي، لا أسـتطيع أن أؤيـدك. إن ديننـا لا يدعـم عواطفك.

هل أنت رجل الدين أم أنا؟

ربما تكون رجل الدين إلا أن الحقد هو الذي يسيّرك.

لا تلمنـي.. فـي البلـدان الإسـلامية الحـرب تسـتمر بعنف، شعبنا يُقتل بالسيف أو يلجأ إلى الفرار.

مـا علاقـة هذا بقصـة أخي؟ قلت محتجـا. الحب يملأ كيان مصطفـى، وإن حبا كحبه لا يعرف حـدود العِرق أو العقيدة. إنه ببساطة هكذا وعلينا أن نتقبله على هذا النحو.

لعله أدرك أنه يقف على أرض هشة، تراجع مستجوبي بسرعة.

لـن أناقش دلالات الألفاظ معك! خاطبتني بسـرعة وحدّة. هذا ليس سؤالا نظريا بل صرخة من أجل الحشمة العامة.

الحـب ليس قضيـة نظرية. ربما لهذا السـبب أنا وأنت نفهم العالم بعيون مختلفة جدا.

عليّ أن أقول نحن فعلا كذلك! لقد أفسدتك الأحلام. الرغبة أعمتْ عينيك.

وفي هذه الآونة، قررتُ أنني نلتُ كفايتي. ذهبتُ إليه ماشيا ووضعتُ يدي على كتفه. بنبرة سلمية، قلتُ له: غادر الساحة. الآن.

تفرس في وجهي. لم أفرغْ من حديثي بعد، رد عليّ.

لا يهم، قلتُ بثبات، لأنني أنهيتُ حديثي، وهذا هو السبب. باعتبارك رجل دين أنت تملك القدرة على أن تجعل الحياة أفضل، أن تجعل الناس أكثر سعادة، إنما بدلا من ذلك، إنني أميّز فيك خبثا، ضغينة تنبع من الإحباط الذي شعرتَ به حتما حينما واجهتَ عجزك في ما يتصل بحالة عالمنا. لا بأس. إن المرارة التي تحس بها لا صلة لها بالقضية التي جاءت ببقية الناس إلى هنا. إنكَ إنسان متطفل، ومن هنا، لا مكان لك في تجمعنا هذا.

خطا خطوة إلى الوراء ورفع قبضة بطريقة أنهتْ كل الادعاء بالعقلانية. كان جوابه، حين تحدث مجددا، جليديا.

إنك تعتبر إهانة قواعدنا الأخلاقية شيئا تافها؟ حسنا جدا. سأقول هذا فقط. إنني لستُ وحدي. هناك آخرون يفكرون مثلما أفكر. يمكنك أن تتصرف كما يحلو لك، لكننا سنتعامل معك بالطريقة التي نراها مناسبة.

تكلّم ببرود شديد بحيث لا يمكن للمرء أن يرتاب في جدية نيته.

أحنيتُ رأسي بكياسة مطلقة.

كازا فويجرز[47]

كانـت النـار في وسـط حلقتنا قـد خمدتْ، وخـلال الصمت الطويـل الـذي أعقب مغادرة رجل الدين، أضفتُ إليها شـيئا من المـادة الملتهبـة. وقـد منحنـي ذلك بعـض الوقت لكي أسـتجمع أفكاري.

ازداد اشـتعال جذور النار وأعشـاب اللهب التي كانت تتبرعم كجـذوع الشـجر. صعد عمـود أزرق مـن الدخان صوب السـماء. كان القمـر قـد انزلق عبر دائرة خـط زواله، تـاركا وراءه العلامة الطباشيرية لمساره.

الليل سـاطع بصورة مذهلة، أليس كذلك؟ قال أحد الرجال بصورة مترددة.

ولما كنـتُ لا أزال مشـغول البال بمشـادتي الكلامية مع رجل الديـن، لـم أردْ ولم أفتشْ عن المتكلم - لـم أتعرّفْ على الصوت - لكنني ببساطة أومأتُ برأسي موافقا.

تحـدث مـن جديد، وهذه المرة التفـتُ لأرى مَن يكون هو. كان رجـلا ضئيل البدن ذا شـعر رمادي كثيف. طلب السـماح له لكي يتحدث.

لديّ شـيء ما أود أن أضيفه إلى قصتك لعله يلفت الانتباه، قال الرجل.

شـربتُ شـيئا من الماء المنكّه بورق النعناع وأومأتُ بموافقتي، وفـي هذه الأثناء نهض الرجل، تنحنح بصورة غير لائقة ومسّـد شعر رأسه، وكان خجله واضحا في كل إيماءة من إيماءاته.

---

(47) كازا فويجرز: محطة السـكك الحديدية الرئيسة في الدار البيضاء (كازا بلانكا) - هامش المؤلف.

لم أتكلمْ جهارا من قبل، قال الرجل، لذلك أتمنى أن تغفر لي أفكاري غير المترابطة. اسمي حميد. إنني حمال مجاز في محطة سكك (كازا فويجرز) بالدار البيضاء، لكنني أصلا من قرية (عين ليوه)، الواقعة جنوب (عزرو)، في جبال الأطلس الوسطى. رحلتُ إلى كازابلانكا حين كنتُ في الثامنة عشرة، لأبحث عن عمل، وكنتُ حمالا في (الفويجرز) منذ ذلك الحين.

تنحنحتُ ونظرتُ إليه بنفاد صبر.

بعد توقف قصير الأمد، رفع رأسه ومضى يقول باندفاع واستعجال: وهكذا كنتُ أستقل حافلة بعيدا عن كازابلانكا وهناك قابلت بالمصادفة هؤلاء الأجانب الثلاثة...

ولما لم يشعر بالرضاء، سكت هنيهة عن الكلام ونظر إليّ بشيء من الوهن.

هل يمكنني أن أعيد كلامي؟ سأل.

استمرّ في حديثك، أجبته.

جرجر قدميه ماشيا خطوتين كما لو أنه يستسلم بصورة صعبة لهذا المجهود. ومن ثم استأنف كلامه، وكان صوته يكتسب الثقة بالنفس بينما كانت ابتساماتي وإيماءاتي برأسي تشجعه.

أود أن أخبرك بحادثة مميزة جرتْ لي في حياتي، قال، أفترض أنها ذات صلة معينة بقصتك. إنها تتعلق برحلتي من الدار البيضاء إلى قريتي الواقعة في الجبال في نفس الوقت تقريبا الذي جرى فيه الاختفاء الذي كنت تتحدث عنه. كانت أمي عليلة، ولكوني الابن الأكبر، كنت أتحمل مسؤولياتي. كنا نحن الأربعة في الحافلة المتجهة نحو (عين ليوه)، أنا والأجانب الثلاثة الذين كانوا يغطون وجوههم خلال ركوبنا الحافلة،

والذي استغرق مدة ست ساعات، مع تغيير للحافلة في مكناس. واحد فقط من الرجلين تحدث إليّ، بلهجة عامية سلسة. كان صوته جهوريا، يشبه صوتك كثيرا، غير أن المرأة والرجل الآخر كانا صامتين بكل معنى الكلمة. إنما حتى الرجل الذي تكلم كان قليل الكلام، وعدا إجابته على استفساري عن مقصدهم النهائي في موضع ما بالجبال، قال، من دون أن يدلي بأي تفاصيل إنهم يحبذون عدم التواصل مع الغرباء. وحين ترجلوا في (عين ليوه)، عندها فقط سمعتُ المرأة تقول شيئا ما لأول مرة، ومن طريقة نطقها بالعربية، أدركتُ أنها، على الأقل، كانت أجنبية. لم يكنْ باستطاعتي رؤية إلا عينيها ولكن مع هذا، جمال عينيها جعل القشعريرة تسري في بدني. كانتا عينين واسعتين، بلون أخضر ذهبي، يحفهما الكحل، وقد ألهبتا خيالي وجعلتاني أرغب بمعرفة المزيد. ألفيتُ نفسي أعرض خدمات أخي كدليل لهم إن كانوا يستطيعون الانتظار ريثما آتي به من منزله، لكنهم رفضوا عرضي ومضوا في حال سبيلهم. كان ذلك شيئا غريبا جدا: قلما صادفتُ مجموعة من الناس متحفظين مثلهم. ومهما يكن من أمر، فربما كنتُ سأنسى ما يتعلق بهم لولا أنه بعد مضي أيام قلائل، وأثناء حوار لي مع صديقي طلال، عرفتُ أن الأجانب الثلاثة كانوا قد استأجروه ليعمل دليلا لهم خلال جزء من الطريق. بدا أن الرجل كان ينحدر من مكان بعيد، من إيران أو الهند، أما هي فنصف فرنسية، نصف أمريكية. بدا حريصا جدا عليها، وكل بضع دقائق كانا يأتيان معا كما لو أنهما مربوطان بخيط غير مرئي. كان ذلك شيئا لافتا جدا، قال طلال، وهذا الأمر جعله يراقبهما أكثر.

أما أنا، قال حميد بعد أن سكت هنيهة، فأنا أقر بملء إرادتي أنني أُعجبتُ بالشاب بنفس القدر الذي أُعجبتُ فيه برفيقته الرشيقة. كانت هناك قوة رجولية وأنانية في حرصه عليها بحيث وجدتُ ذلك شيئا مثيرا للمشاعر.

سكت فجأة، وبدا غارقا في مشاعره. وهو يحدّق إلى قدميه، قال حميد: في اعتقادي إنني أشاطرك هذا الأمر. لعل الناس الذين صادفتهم لا علاقة لهم بالأشخاص الذين غابوا عن الأنظار في تلك الليلة، إنما لا يقدر المرء أن يجزم. شكرا لك على الإصغاء.

التفت لينظر إليّ ووجد أنني ما زلتُ أحدّق إليه وأنا مستغرق في التفكير. أشعل حميد سيجارة ولاحظتُ أن يديه كانتا ترتعشان. وعلى مدى لحظة أنار ضوء عود الثقاب ملامحه. كان يبدو مضطربا، لكنني لم أبعدْ نظراتي عنه. بعد توقف طويل نسبيا، لم يكنْ باستطاعتي التفكير بشيء أفضل من أن أطرح عليه سؤال مفاده ما الذي أتى به إلى مراكش.

ابنتي تقيم هنا، قال، وهو يبتهج فورا. إنها تدرس لكي تصبح واعظة. نحن أول بلد إسلامي في العالم يسمح بهذه المبادرة، وإن شاء الله، فستكون في أول دفعة من الخريجات. جميع أفراد أسرتنا متفاخرون بها. أما مسألة وجودي هنا الليلة، فهذا شيء حدث بمحض المصادفة. كنتُ مارا من هنا، ولم أكنْ أعتقد أنني سأصغي إلى قصتك، لكن هذه هي الحياة، صحيح؟ كم هو غريب أن يكون لدي شيء ما أساهم به شخصيا! إنه عنصر المصادفة. هكذا تحدث الأمور غالبا.

تطلّع إليّ، ربما من أجل التبرير، لكنني بقيتُ متحفظا، وعلى وجهي تلوح ابتسامة خفيفة ساخرة. بعد تردد قصير

الأمـد، خفض عينيه، كان تعبير وجهـه ينم عن صدق لا تُنتهك حرمتـه. تطلعـتُ إليه لحظـة أخرى إلى أن، وأنا أشـعر بالحاجة إلى تجديد قصتي، أبعدتُ نظراتي عنه وخاطبتُ جمهوري.

أود أن أحكي لكم عن أحد الأحلام.

وادي الزهور

حـين كان لا يـزال حيـا، بـدأتُ حديثـي، كان مردخـاي، أكبر أصدقاء أبي سـنا، عـازف بيانو أعمى في (حـي اليهود) بالمدينة، مولعا بسرد حلم رآه في منامه ليلة اختفاء الغريبين. في الحلم كان مردخـاي قد زار واديا بعيدا في أعماق جبال الأطلس. كانت القمم المكللة بالثلوج ترتفع في جميع الجهات المحيطة بالوادي. كانت السـفوح مكسـوة بغابـات الأرز. وبين الغابـات والمروج كانت ثمة سـجاجيد مترنحـة من الزهور تومض فـي الضوء المتوهج. كان الهواء يعبق برائحة العرعر وخشـب الأرز وراتينـج الصنوبر. كان ظل شـجرة بلـوط يطوق بئرا محطمة. وقفـازات خضر من الأشنة تثقل جذور أطول الأشجار.

يوجد منزل واحد فقط في الوادي، منهار جزئيا، قصبة ذات شـرفات تُطلـق منها النار، ذات أسـوار من الآجـر الأحمر الداكن وأربعة أبراج حجرية في الزوايا. في غرفة ملاصقة لأحد الأبراج، صرّتْ باب خزانة وانفتحتْ من تلقاء نفسها في صباح يوم ما. في مؤخـرة الخزانة، التي كانـت عميقة، لمح مردخاي جدائل وامضة من الفراشـات. كان قد صُـدم وظل هناك برهة جامدا بلا حراك من جراء ما رآه. ومن ثم تنحى جانبا فامتلأت الغرفة كلها حتى الحافة بالفراشـات: خضراء اللون، بيضـاء كالرخام، كليوباترات

كبريتية، فراشات كبيرة تشبه عظم ظهر السلحفاة. فتح مردخاي جميع الأبواب والنوافذ فخرجت الفراشات في تيارات كبيرة صاعدة. صبغتِ الوادي بألوانها، بأسمائها، بحكاياتها، ذكرياتها. طوال النهار كله كانت ترفرف في أعلى التل وأسفله، وهي كالورق تغلّف الصخور والأزاهير، الينابيع والأهوار. وبعد مغيب الشمس، لجأت الفراشات إلى أعلى الأغصان؛ فجرا، بحركة واحدة، صعدتْ نحو الشمس وتلك هي آخر مرة رآها فيها مردخاي. في غابات الأرز والمروج خلّفتْ ظلالا سوداء كثيفة، بساتين من الصمت، أعمدة بيضاء من الهواء تمتد بلا حدود صوب الرمال الذهبية في الجانب الآخر من الجبال. في أيام الصحو خاصة، كانت انعكاساتها تنتشر عبر قوس الأفق برمته. شاهد مردخاي هذا كله بعينيه العمياوين بينما كان واقفا هناك محاطا بالظلال غير المرئية، بالخطوط السود، بالغيوم البيضاء كالحليب، بالأسوار الحمر المصنوعة من الآجر. وعند عتبة المنزل لمح مردخاي رجلا وامرأة متشابكين في عناق صامت. ظل واقفا هناك، مستغرقا في أفكاره. لم يكنْ يشعر بأنه يتطفل عليهما، كان لديه في الحال انطباع بأنه جزء منهما. وبعد ذلك، سمع وقع أقدامهما يعلو بعيدا على الحصى.

حلم مردخاي في الليلة التي سبقتْ وفاته بأنه رجع إلى الوادي. حين أفاق من نومه، تعرّفنا عليه بصعوبة بالغة. كان أشبه بنسخة أصغر سنا، بدا فاتنا، وسيما ونشيطا، لطيفا. بدا وكأن حكمة غريبة نوعا ما قد استولت عليه، كما استولت عليه الروح الإنسانية، والحنو. أومأ نحو الخزانة القديمة التي كانت تنتصب لصق سريره. وفي داخل الخزانة، كان مردخاي قد حشر

مئات الروايات ذات الأغلفة الورقية، غير أن هذا لم يكنْ هو الأمر الذي جذب انتباهنا. بين كتابين سميكين في الرف العلوي توجد بطانية صوف بلون أحمر قان مزخرفة بشكل هندسي تجريدي يمثل الفراشات. في الثنيات المعقودة من البطانية وجدنا حبات رمان متلألئة وتويجات نبات الجعدة والياسمين. كما عثر أحدنا على جزء من جناح فراشة لا يزال يرتعش.

وادي الطيور

بعد أعوام من وفاة مردخاي، ورث أخي مصطفى حلمه، أو، على الأقل، ورث جزءا منه. حلم مصطفى بأنه زار القصبة المنهارة جزئيا في وسط ذلك الوادي البعيد في الجبال. ما إن وصل إلى هناك حتى وجد أن أحد أجنحة المنزل، مع البرج التابع له، كان قد عاد إلى سابق عهده منذ زيارة مردخاي. قال مصطفى إنه ظل واقفا خارج المنزل برهة وتردد قبل الدخول إليه، لكنه بعدها قرر الدخول لأن الأبواب كانت مفتوحة على وسعها. يبدو أنه لم يكنْ هناك أحد، بيد أن جميع الدلائل كانت تشير إلى أن المنزل قد تمّت العناية به بمحبة. كانت السقوف قد دُعمتْ بألواح خشب عريضة من الأرز، كانت الجدران من (التاديلكت)، والأرضيات مرصوصة بغسيل الكلس والصلصال. وفي وسط غرفة كبيرة يوجد بساط بربري رمادي ممدد على الأرض يتخذ شكل سحابة. وفي غرفة أخرى منضدة جميلة من الخشب الأسود المطعم مع كدس من اليوميات المكسوة بالجلد تحتوي على ملاحظات نظيفة مكتوبة بخط اليد. فتح مصطفى إحدى اليوميات عشوائيا وقرأ بالفرنسية: «ما يهم هو الحقيقة». توجد

كتب قليلة على الأرض بجانب طاولة الكتابة، لكنها كانت بلغات استعصى عليه فهمها. كان على السرير في الحجرة المتاخمة تخطيط بقلم الفحم النباتي لوجه مغطى بوشاح ذي عينين واسعتين مطوقتين بالكحل بحيث أقسم مصطفى إن ذلك الوجه ظل يلاحقه أينما ذهب. في الغرفة ذات السقف العالي المجاورة للعلية الكائنة في السطح نقّب في الخزانة لكنه لم يعثرْ على أي أثر للفراشات، عثر فقط على كدس من البطانيات الصوف الحمراء. أخذ واحدة معه كدليل على زيارته تلك؛ كانت مطرزة بشكل هندسي يمثل الفراشات. في باب العلية المطلي بلون أبيض غُرز صف من المسامير كانت تتدلى منها الشالات، الأوشحة، الأقنعة، والعباءات، المزودة بأغطية للرأس أو دونها. كان سقف أكبر الغرف في القصبة مغطى بتعريشة من الظلال المطلية. كانت تحتوي على نول غزْل محجوب بغطاء من الشاش الأبيض. كان الغطاء قد قوّى شعور مصطفى بالعزلة والانزياح.

البيوت الخالية لها صفات غريبة، حياتها تختلف كثيرا عما تكون عليه حينما يكون أصحابها موجودين فيها. أن تكون فيها أشبه بالسكن في فضاء مألوف ليلا عندما يكون المرء قد اعتاد رؤيتها فقط في وضح النهار. وما إن استكشف مصطفى جميع الغرف في القصبة، تجول حافي القدمين في الحديقة التي تغمرها أشعة الشمس. توجد علامات للمسة امرأة في الأماكن كلها: في صفوف الأعشاب المزروعة بعناية، في أحواض الزهور نجمية الشكل، في النافورات ذات الحصى الوردي، والوسائد الحرير المطرزة على المصاطب الخشبية المطلية. وكانت صحون تغذية الطيور قد صُنعتْ من زجاجات قديمة تتدلى من أغصان

أشجار البرتقال والليمون. وهناك بركة مكسوة بآجر الزليج تنتشر فيها تويجات ورد أحمر وأبيض أدخلَت السكينة إلى عينَي مصطفى وحفّزتْ في ذهنه صورة الجنة. وبينما كان يتمهل في خطواته بالقرب من البركة، لمح بصورة غير متوقعة عينين تحدقان فيه من أعماقها. كانتا عينين صافيتين تماما، نظراتهما هادئة ومن دون أي علامة تدل على الخوف أو عدم الرضاء. وفي الحيز الكائن بين العينين، ثمة سطور من الرباعيات المقفاة مطوية تلتف عبر الماء غير أن نسيما خفيفا أذابها قبل أن يتمكن مصطفى من فك رموزها وفهم معناها.

منذ ذلك الحلم، يقول أخي، لم يكنْ أمامه من خيار سوى رؤية العالم بتَيْنِك العينين حينما يخلد إلى النوم مطمئنا مرتاح البال.

التبايت[48]

كانت النار في وسط حلقتنا، حلقة سرد القصص، قد خمدتْ من جديد، وهذه المرة، لم أسعَ إلى إذكائها. بدلا من ذلك، ألقيتُ نظراتي على أبعد من مستمعي وصولا إلى الليل. كان السديم قد ارتفع والسماء المزينة بالكواكب قد تألقتْ بضوء القمر الأزرق. كانت المنازل المحيطة بساحة الجامع تقبع في ظل عميق، كانت حدودها الخارجية مميزة كأنها مرسومة بقلم رصاص. كان السطح المبلط من الساحة يعكس ضوء النجوم، كل حجر من الأحجار يتلألأ بصقيع أشيب. بدتِ النجوم في الأمكنة كلها: في السماء، على الأرض، تتدلى من أغصان

(48) التبيت: الجزء الختامي من (الرواي) - هامش المؤلف.

الشـجر، فـي داخل حرمـات الجوامـع، وحتى مدفونـة في عيون مسـتمعيّ الصابريـن الأوفيـاء. حدّقـتُ إلـى تلك النجـوم وقد توقف قلبي. ولأن بريقها هز مشـاعري، وقفتُ على قدميّ، لملمتُ ثيابي حول نفسـي، وخاطبتُ مسـتمعيّ بنبرات صوت منخفضة ومتحمسـة: ما النجمة؟ سـألتهم. ما الإلهام؟ مـا العاطفة؟ ما الاشـتياق؟ إننـي أطـل عليكـم من فـوق النجـوم وأحس بـأرواح أجـدادي بينكـم. عيونهم تتألق كبـذور سـوداء، وجوههم كمرايا معتمة شيئا ما تعكس أعمارهم. إنهم خالدون، غامضون؛ أشباح ظلالهـم تنصهـر مع ظلالكم. كل واحد منهـم يحمل غرابا على كتفه، كل واحد منهم يحمل عصا سوداء، وصفوف العصي تمتد صوب الأفق كسيقان حنطة مكتظة. في هذا المحيط الذي يمثل الكون بالنسبة لهم، إنكم تعرفونني باعتباري حسن، راوي ساحة الجامع، حافظ حوادثها بحسب التسلسل الزمني. إنني أعرفكم بوصفكـم إخوتي وأخواتـي. نحن نؤمن بدين واحـد، ولنا ثقافة واحدة؛ نحن نتقاسـم الإرث نفسـه، وهو إرث جميـل. وعلى غرار الدخول إلى عالم جديد، إنكم تنضمون إليّ كل ليلة، وتمكّنونني من المطالبة بإرثنا الذي هو ملك لنا حقا ويجب أن يتم الكشف عنه باعتباره إرثا مشتركا. وضمن حلقتنا، تتباطأ ساعات الليل، قياسـاتها ترن بسـرعة مختلفة. لكن السـاعة الآن متأخرة، وإن زمن ليلة راوي القصص قد وصل إلى نهايته.

غدا هو يوم آخر. سيأتي يوم غد بدورة أخرى من القصص. غدا سـأقول، كما قلتُ اليوم: مرحبا بكم في عالمي، أتمنى أن أغشـاكم بالدخـان. غدا، مرة أخرى، بعد مدة تبلغ بضع سـاعات، سـنكون رفاقـا في هـذه الرحلـة التي اسـمها الحيـاة. إن أفضل قصصي

طيعـة وقد نجتْ من امتحان الزمـن، والقصة تكون طيعة فقط كالروابـط التـي تجمـع أجزاءها معـا. لدي في مسـتودعي أربع قصص أو خمس ورثْتُها أسـرتي منذ مئات السـنين. لقد نضجَتْ تلك القصص على مر القرون وتعهدتْ بإرضاء مستمعيها، لعلها تختلـف عن القصة التي تقاسـمتها معكم الليلـة، وكانت تتعلق بجماعـة أكثر حداثـة. تلك القصة يتعيّن علـيّ الاعتراف بأنني أشـعر بأنـي مدفوع لسـردها مـرة كل سـنة لكي أروح عـن الزوايا المظلمة من عقلي، مع أن الترويح كاف نوعا ما. إنما غدا سيكون الأمر مختلفا. غدا سـأكافح لكي أروي لكم قصة بعيدة جدا عن الحقيقـة، قصة بعيدة المنال بكل معنـى الكلمة، بحيث إنه حتى أولئك الأشـخاص بينكم ممن هم سريعو التصديق سيجدون أن مـن الصعب تصديقهـا. لكن مَن يعرف؟ مَن يسـتطيع أن يجزم بأمر ما فيما يتصل بهذه الأشياء؟ إن الخداع الإنساني بلا حدود وإن الرغبة في التصديق لا يمكن فهمها.

مع رسـالة الوداع هذه، أحتضن قلة من مسـتمعيّ وأرفع يدي إلـى قلبـي مـن أجـل البقية. مثلمـا مارسـوا الحيـل والألاعيب في أنحاء السـاحة، أحصيـتُ عائداتي خلال هـذا اليوم، جمعتُ متعلقاتـي، وأخـذتُ ذراع نبيـل، لأنـه كان ينتظرنـي بصبر حتى النهاية. سألني ما إذا باستطاعتنا أن نمد سيقاننا حول الساحة لحظة قبل أن أرافقه في طريق عودته إلى غرفته في (المواسين)، وقد أعطيته موافقتي مسبقا.

كانـت سـاحة الجامـع مسـترخية فـي الصمـت؛ الأسـواق والقيصريـات تنفسـت الصعـداء فـي هـدوء وراحـة. تنزهنا في محيط السـاحة، التي كانت مهجورة في تلك السـاعة من الليل

باستثناء طاهر، فنان أرجوحة البهلوان، واثنين من الماشين على الحبل المشدود كانا يمارسان رياضتهما الروتينية من أجل اليوم التالي. ذكرتهما لنبيل فابتسم وقال: كم عدد الناس الذين يدركون نوع الاستعدادات التي يقوم بها هؤلاء الرجال من أجل التدرب على الألعاب التي سوف يشاهدونها يوميا في الساحة؟

بعد أن فقدتُ بصري، مضى يقول، سأتخيلك قبل أن تبدأ جلساتك، جلسات روي القصص. لعلك تجلس في ركن ما وتشرع في روي القصة التي تبغي سردها، وتذكر بعض التفاصيل المنسية في آخر لحظة. تخلع نعليك، تتحسس الغبار بين أصابع قدميك، تراقب الشمس التي حوّلتْ بشرتك إلى اللون الذهبي. وفي هذه الأثناء، تكون مستغرقا في التفكير: تخلق، تربط، تستنتج. ومن ثم.. سكت نبيل عن الكلام هنيهة، تباطأ حتى توقف نهائيا. عندئذ ماذا سيحصل، يا حسن؟ ربما سينفتح فجأة فضاء بجانبك وستعود في الزمن إلى مئة، مئتي، أو حتى خمسمئة عام مضت. وقبالتك تماما ستجد أحدهم يحاول أن يبيع لك بعيرا أو قصة أو السيف المضروب من البرونز الذي كان جده يستعمله حينما كان جنرالا في الجيش وقد مضى زمن طويل على موته، السيف يجب بيعه الآن، يا للأسف، لكي يتم تسديد مهر ابنته. وأنت تساومه على الثمن، صحيح؟ دمك البربري سيغلي من أجل التحدي وستنسى حلقة مستمعيك الذين ينتظرونك بصبر وأناة لكي تعلن حضورك، وأكون أنا جالسا بكل تواضع بينهم.

سكت مؤقتا من جديد، ألقى عليّ نظرة خجولة، وقهقهنا معا. قبضتُ على كتفه بحنان.

أنتَ نفسك عليك أن تكون راويا، قلت له. ربما يتعيّن عليّ أن أجد بديلا لي في بعض الأحيان. سيكون من المؤسف أن ندع خيالا رائعا كهذا يذهب أدراج الرياح.

أوه، لكنه ليس ما يدور بخيالي قط، أجابني، إنه سحر الساحة. وبما أن ساحة جامع الفناء هي تاريخ - تاريخك، تاريخي، تاريخ شعبنا - فهي بالقدر نفسه العين التي ترى التاريخ يحدث. إنها تسجل انطباعاتها على أوراق الشجر المبعثرة هنا وهناك في رحابتها العريضة، أوراق الشجر التي نلمحها تطير مع الرياح هنا وهناك بعد هبوب نسيم عَرَضي. بعض الأوراق تجد لها مكانا أخيرا تستقر فيه على أفاريز وعليات الجوامع والقصور؛ بعضها الآخر تُكنس بعيدا، تُجرف بعيدا، وتُنسى. لكن عددا قليلا منها تجذب الاهتمام اليقظ لصاحبي، راوي ساحة الجامع، حسن، ويلتقطها هو ويأخذها معه إلى منزله ويجمعها ويحوّلها إلى حكايات بحسب تسلسلها الزمني ومن ثم يبدأ بسردها إلى جمهوره في الساحة. وهكذا يكتمل نصاب الحلقة.

عند الكلمة الأخيرة قمتُ بإشارة سريعة بيدي.

هذا ينطبق على جميع القصص الأخرى، لكن في ما يتصل بالقصة التي رويتُها الليلة، الحلقة لم تكتملْ أبدا.

أدار نبيل وجهه إلى ناحيتي وانتابني إحساس فضولي بأنه يستطيع النظر من خلالي.

متى ستكف عن سرد قصة مصطفى؟

حينما يرتاح ضميري.

هل هي قضية فن أم قضية ضمير؟ سألني بلطف، مع قدر ضئيل من السخرية.

نحن نتحدث عن أخينا، أجبته، وشعر جسدي ينتصب بخشونة. إنني لا أنفي أن قصته ستبقى بليغة بصورة لا تطاق وأنها ستدعم فني، بيد أن غرضي هو قول الحقيقة.

ببسمة متجهمة، أبعد نبيل نظراته عني، وجعل يتمتم في نَفَس واحد: بالطبع. بالطبع. إنني أعرف كل ما يتعلق بذلك.

لكنني لا أعرف، يا نبيل، أضفتُ قائلا. إنني متعب إلى حد الإعياء. تمر عليّ أوقات أسأل فيها نفسي لماذا أحتاج أنا إلى الرجوع باستمرار إلى هذه القصة التي ليس لها نهاية مفهومة.

تركني أمضي أمامه قليلا. والآن تناول ذراعي، وبينما هو يعرج قليلا، أشار برقة قائلا: ربما الأمر كما قلت في وقت سابق، مع تكرار السرد سوف تضفي المعنى على ما يصدم أي فرد باستثناء أخيك، لكون هذا السرد خاليا من أي معنى على الإطلاق. إن سردك عمل ينم عن الحب - حب أخوي - يُستأنف دوما من جديد.

فكرتُ في كلماته بإمعان وحتى وأنا أفعل ذلك، شعرتُ بأن كتفيّ ترتخيان، كأن المدى الحقيقي لتعبي قد أظهر نفسه توا؛ أظهر نفسه من خلال عبء الأفكار التي لا يمكن البوح بها بصوت عال غير أنني كنتُ أشعر بها دوما وهي تجرجر نفسها ورائي.

إنني أتساءل ما إذا كان هذا هو كل ما في الأمر، قلت له، وتنفستُ الصعداء. لعلك كنتَ أقرب إلى الحقيقة حينما اقترحتَ شيئا آخر. من المؤكد أن حب أخي هو الذي يدفعني، غير أنني أيضا متأثر بشيء آخر. في لحظة واحدة من حياتي أصوغ عملي. الحب الأخوي، من الناحية الثانية، لا يستحق عملي أي اسم في معظم الأحيان.

لكـن حتـى هـذا النـوع من الحـب مـن الجائز أن يكـون حاد الإدراك، هـل تؤيدنـي فـي هذا الـرأي؟ الأفـكار كالبـذور، مليئة بوعود التفريخ لكنها هي نفسـها لا تملك طاقتها الخاصة. إنها تحتاج إلى أشخاص مثلك لكي تزرعها في عقول الناس وتنمّيها إلـى قصـص، لكـي تطلقها في الريـح. إنه عمل مـن أجل العقل والقلب. لا يستطيع الكثيرون أن يمزجوا بين هاتين الصفتين.

سـحبتُ عباءتـي ولففتهـا حول بدنـي، وأطرقتُ برأسـي من جـراء البرد القارس. شـعرتُ بالحاجة إلى العزلة. بعد أن سـكت هنيهة، قلت: إنك تكيل لي المديح.

إننـي أقول الحقيقة. قل لي: ما الذي يثير مشاعرك أكثر؟

الاشـتياق للتحـوّل، للتغييـر، وربما حتى للسـمو. إن جوهر عملي، سـرد القصص، لا يقل شـأنا عن الاشـتياق الذي يجبرك على تحمل ما هو مبتذل ويومي. إنني، يا نبيل، مسـكون بالسـر الـذي يكمـن في قلـب الحيـاة. ذلك السـر يلهمني الإبـداع وأنا أحرص حرصا كبيرا على المحافظة عليه.

أدار نبيل وجهه صوب المكان الذي كان يرمي فيه الماشيان على الحبل المشدود نفسيهما في الهواء بصرخات حادة. بدتْ نظراته المتمعنة كأنها تسـتجوب الهواء. ومن ثم اسـتقرتْ عيناه فاقدتا البصر عليّ وأشرق وجهه.

حينمـا كنـتُ أصغـي إليـك وأنت تتكلـم، قال، كنـتُ أفكر في القصـة التـي رويتهـا الليلة. بعـض أجزائها جعلتنـي أحزن في حين هناك أجزاء جعلتني أبتسم. لكن الشيء المهم جدا هو أنك جعلـتَ مسـتمعيك يتخيلون أنهم كانوا أبريـاء، وكانت هي قصة باعثـة علـى الفرح. بوسـعك أن تفعل ذلـك لأن فنك يحل محل

الأخـلاق. إنه عمل من أعمـال العزم والإرادة، وقد أنجزته بنجاح وبصـورة ممتـازة. هذا هو الشـيء الـذي يجعل منـك راويا. إنك تخلـق أسـاطيرك الخاصـة بك. يا حسـن، يمكنـك أن تجعل كل شيء حقيقيا. يمكنك أن تجعل أي شيء يبدو حقيقيا.

تلعثم قبل أن يضيف بصوت خفيض: وقد فعلتَ ذلك.

كانـت نبرة صوتـه غير متحيزة، كأنه يدلـي بملاحظة عامة، دونما ذرة من الحذر أو الشجب أو الأسف.

التفتُّ إليه وتفرستُ فيه لحظة قبل أن أسأله: هل تلومني؟

هز رأسه برزانة.

أنا صديقك، قال بوقار. سرك محفوظ لدي، وفي مأمن.

مد يده وقبض على يدي بقوة بإشارة منه إلى الإخلاص.

الحلم

غادرنا سـاحة جامع الفناء لكي نجد ملاذا لنا في الأسـواق، وبينما كنا نقوم بذلك، من دون أن ينتبها إلينا، رجل وامرأة ظهرا في حافة السـاحة. كانا يسـيران بتؤدة مارين بالعربات البيضاء ذات الأغطيـة القابلة للطـيّ، المتوقفة في صفـوف خلال الليل. كان الرجل نحيفا، ملتحيا، أما المرأة فذات شعر داكن طويل نزل حتـى خصرها. وهمـا يبزغان من بين الظلال، تـرددا عند حافة مدخل الساحة، كأنهما غير متيقنين من مقصدهما. لكن الرجل فجـأة مـدّ ذراعيه نحو رفيقتـه وهرعتْ هي إليه باسـمة. جذبها إليـه والتصـق الاثنان ببعضهما لحظة. ذراعاهـا تطوقان عنقه، ركبتاهـا محنيتان قليلا. طبع الرجل قبلة على جبينها. أطلقتْ هـي ضحكـة واهنة، غافلـة عن كل شـيء عدا قربهمـا وعناقهما

الحميم. ولجا الساحة ذراعا بذراع، وقادته هي إلى وسط الساحة حيث كانت جمرات نار الراوي لا تـزال تتوهج بصورة فاترة على الرصيف. حدقوا في الجمرات، عيونهما تعكس ضوء الشـرارات الخامـدة. وبحركة خجولة، تنم عن العشـق بعض الشـيء، مدَّتْ يدهـا وراحت تداعـب خده بأرق الملاطفات، ومـد الرجل يده إلى يدها هذه وراح يربّت ببطء على أصابعها الطويلة، على راحتها، رسغها. لم يلاحظْ أيّ منهما الهيئة الظليلة التي كانت تراقبهما بتمعن من ظلام إحدى المشـربيات. وكان السـكون يخيم على كل الأنحاء المحيطة بهما.

المترجم في سطور

علي عبدالأمير صالح

● قاص وروائي وناقد ومترجم من الإنجليزية.
● من مواليد الكوت – العراق العام 1955.
● خريج كلية طب الأسنان في جامعة بغداد العام 1978.
● نال عدة جوائز في المجال الأدبي، منها جائزة وزارة الثقافة العراقية العام 2000 عن ترجمته لرواية «طبل من صفيح».
● له عدة ترجمات منها:
1 – «حفلة القنبلة» (رواية) للكاتب غراهام غرين (بغداد 1989).
2 – «طبل من صفيح» (رواية) للكاتب غونتر غراس (بغداد 2000).
3 – «قل لي كم مضى على رحيل القطار» (رواية) للكاتب جيمس بولدوين (القاهرة 2003).
4 – «بريدا» (رواية) للكاتب باولو كويلو (دمشق 2009).
5 – «المليونير المتشرد» (رواية) للكاتب فيكاس سواراب (بيروت 2010).
6 – «نساء في الأدب» (حوارات مع 20 كاتبة عالمية) (بيروت 2011).
7 – «أشياء كنت ساكتة عنها» (ذكريات) للكاتبة آذر نفيسي (بيروت 2014).
8 – «قوانين الحب الأربعون» (رواية) للكاتبة إليف شفق (دمشق 2014).
9 – «جمهورية الخيال، أميركا في ثلاثة كتب»، للكاتبة آذر نفيسي (بيروت، 2016).
وغيرها من الترجمات الكثيرة، بالإضافة إلى مجموعتين قصصيتين وروايتين من تأليفه.
● شارك في العديد من مهرجانات المربد والمتنبي والمدى (في كردستان) وملتقيات القصة والرواية في العراق، كما شارك في مؤتمر أبو ظبي الدولي الثاني للترجمة في العام 2013.
● نشر في عدد من الصحف والمجلات العراقية والعربية منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي وحتى الآن.

المراجع في سطور

د.أحمد عبدالرحمن البكري

● من مواليد القاهرة العام 1940.

● حاصـــل علـــى الدكتـــوراه من جامعة لنـــدن في اللغويـــات التطبيقيـــة (قواعد اللغة الإنجليزية) العام 1974.

● عمل أســـتاذاً بجامعة الكويت - كلية الآداب قســـم اللغة الإنجليزية من العام 1980 - 1990.

كما عمل أستاذاً بجامعة السلطان قابوس - كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية من العام 1990 - 2001.

● له عدة أبحاث في قواعد اللغة الإنجليزية منشورة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر من جامعة الكويت.

له عدة مؤلفات في قواعد اللغة الإنجليزية للطلبة العرب، وعدة مراجعات للترجمة في سلسلة «من المسرح العالمي».

● قام بمراجعة العديد من أعداد سلســـلة «إبداعات عالمية» أهمها: رواية الطريق العدد (380)، ورواية السباحة إلى المنزل العدد (403).

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	البيروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسْلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيفو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

ما صدر من هذه السلسلة

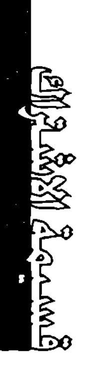
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروجيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس

ما صدر من هذه السلسلة

398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرُقّة (رواية)	تأليف: دافيد فوتكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إنّيٰ أتَعَافى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِينُوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْريش هايْنهُ
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كَريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
413	اليوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يـو هـوا
414	الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جِلْبير سِينُويِه



البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	20	-
الأفراد داخل الكويت	10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	10	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	24	-
الأفراد في دول الخليج العربي	12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	12	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	-	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	-	25
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	-	100
الأفراد خارج الوطن العربي	-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	-	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقداً/ شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147.

دولة الكويت


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



جويديب روي - باتاجاريا

كاتب هندي، ولد في جامشدبور، درس الفلسفة وعلم النفس، ويقيم في نيويورك.

روايته الأولى «نادي غابرييل» التي تجري أحداثها الأسرة العنيفة في بودابست، نشرت في ثماني لغات بستة عشر بلدا. أما روايته الثانية «راوي مراكش» فهي الأولى من سلسلة روايات (الثانية تجري وقائعها في بغداد، والثالثة في أصفهان) ينوي فيها المؤلف تسليط الأضواء على ثقافات الشرق الأوسط.

أما روايته الثالثة «الساعة اليدوية» فقد نشرت في العام 2012.

رَاوِي مَرَّاكِش

استوحى الكاتب الهندي جويديب روي – باتاجاريا وقائع روايته هذه من خلال زيارة قام بها للمغرب، لكنه غاص عميقا في طبيعة القيم والسلوكيات والأفراح وأنواع الملابس والمأكولات وطرق التحاور بين الناس، ودعم ذلك كله بتأملات عميقة في ماهية الحب، والجمال، والحقيقة، والحرية، ومعلومات وافية عن تاريخ المغرب وجغرافيته، ولهجات أبنائه من عرب وبربر وطوارق، من مسلمين ويهود، ينحدرون من المدن والريف والجبال والصحارى والموانئ.

كما منحنا الفرصة للاطلاع على نوعية الذائقة الجمالية واللغوية لهذا الشعب، وتحسّسنا لطبيعة مشاعره وهواجسه وأحلامه، وصيغ تعبيره عن ردود أفعاله وتصويره لرؤيته لذاته ولأرضه وللآخر، وقدّم لنا صورة واسعة عن الأفكار وطبيعة العلاقات الإنسانية، ووصف لنا تفاصيل الهموم اليومية والمناخ العام السائد في مراكش والمغرب عموما.

ونحن لا نجانب الواقع إذا ما قلنا إن هذا الأثر الأدبي يعيد إلى أذهاننا كتاب «ألف ليلة وليلة»، حيث كل قصة تولد قصة أخرى في نسيج روائي متشابك وأحداث متلاحقة لا يملها القارئ، لا بل ينتظرها بشوق وشغف؛ هذه القصص يسردها رواة كثيرون من شرائح اجتماعية وأصول عرقية مختلفة تعيش في مناطق شتى من المغرب، لكنها تعيش في مراكش طلبا للرزق ولقمة العيش، وهذا الأمر عينه فعله الكاتب التركي أورهان باموق، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2006، في روايته «اسمي أحمر» من حيث تعدد الرواة واختلاف وجهات النظر.

ISBN: 978-99906-0-525-9

إبداعات عالمية